

مجموع الغزالي

# فتاوى السيرة

تتماز هذه الطبعة بمراجعة أحاديث السيرة  
ونقد أسانيدها وامتونها وتخص قيمتها العلمية

بطلب من  
دار الكتب الحديثة لباجا توفيق عفيفي عامر  
١٣ شارع الجمهورية بعبدين تيفون ٩١٦١٠٧

---

الطبعة السادسة

ديسمبر ١٩٦٥

---

خرّج أحاديث الكتاب  
محدّث الدمار الشامية العلامة  
محمد ناصر الدين الألباني

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هناك عطاء كثيرين ، يقرأ الناس قصص حياتهم ليتعلموا من عناصر النبوغ فيها ، وليتأبعوا بإعجاب مسالكها في الحياة وواقفها بإزاء ما يعرض لها من مشكلات وصعاب ، وقد تكون هذه القراءة المجردة هي الرباط الفذ بين أولئك العطاء ومن يتعرف عليهم ، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة .

وأبادر إلى القول بأنني لم أكتب عن صاحب الرسالة العظيمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي نفسي هذا المعنى المحدود .

فأنا رجل مسلم عن علم ، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين ؟ ولماذا صدقت بنبوة محمد ؟ ولماذا اتبعت الكتاب الذي جاء به ؟ بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسي من هذا كله .

وقد سبق لي أن نشرت في السيرة فصولاً متنوعة وهل اهتمت عنها في شيء مما كتبتهُ ؟ إن الرسائل التي عاجلت فيها بحوث العقيدة والخلق والعاملة والحكم اعتمدت على سيرة النبي الكريم في كيانها وسياقتها ولذلك يصح أن أقول :

إن هذا الكتاب ليس صلة محدثة برسول الإسلام ، ولا جملة من الدلائل على صدقه ، ولا لحاح تكشف المؤلف عن عبقريته وسناء دعوته . .

فإن ذلك قد استفاض به الكلام في مواضع أخرى ! ولكنني توفرت على إخراج هذا الكتاب وأمل في غاية معينة أرجو أن أكون بآلئقاً .

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة عشوراً خفيفة ، لا تحرك القلوب ولا تستثير المهمم ، وهم يعظمون النبي وصحابته عن تقليد ، وروث ومعرفة قليلة ، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤنته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو الغافه تساوى الجهل بها . إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة . ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أ كفان الموتى ، إن حياة محمد ليست - بالنسبة للمسلم - مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد ، كلا كلا . إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأى حيف في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه .

وقد بذلت وسعى في إعطاء الفارئ صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث ، ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتجيل . وقد استفدت من السير التي كتبتها القدامى والمحدثون استفادة حسنة .

إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك . وذاك أحسن ما في طريقتهم . . .

والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار ، وتحديد الأسانيد ، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون . وفي هذه المحفوظات الكثيرة فائس ذات خطر لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها . . .

والى هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كليهما من خير ، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزاؤه روح واحد . ثم وزعت النصوص والروايات الأخرى بحيث تنسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتقان صورته وإكمال حقيقته .



وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً يُبنى الإيمان ويُركى الخلق  
ويُلبب الكفاح، ويعزى باعتناق الحق والوفاء له. ويضم ثروة طائفة من الأمثلة  
الرائعة لهذا كله.

إننى أكتب فى السيرة كما يكتب جندى عن قائده، أو تابع عن سيده،  
أو تلميذ عن أستاذه، ولست - كما قلت - مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن  
يكتب عنه.

ثم إننى أكتب وأمام عينى مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكرى.  
فلا عجب إذ قصصت وقائع السيرة بأسلوب يومىء من قرب أو بعد إلى حاضرنا  
للؤسف، كما أوردت قصة جعلتها تحمل فى طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة  
الفكر وجلال العمل، كى أعالج هذا التأخر المثير.

. . .

ومحمد ليس قصة يتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن. ولا التنويه به يكون  
فى الصلوات المخترعة التى قد تضم إلى ألفاظ الأذان ولا إكثان حبه يكون بتأليف  
مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون، ويتأوهون أو لا يتأوهون  
فرباط المسلم برسوله التكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملققة بالكذب على  
الدين، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير - فى الإبانة عن تعلقهم بنبيهم -  
إلا يوم أن تركوا الباب اللئى وأعيام حمله، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال. ولما  
كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام، فقد افتنوا فى اختلاق صور  
أخرى! ولا عليهم! فى لن تكلفهم جهداً ينكصون عنه، إن الجهد الذى يتطلب  
الالتزام هو فى الاستمسك بالباب المهجور، والعودة إلى جوهر الدين ذاته فبدلاً  
من الاستماع إلى قصة الولد يتلوها صوت رخيم، ينهض المرء إلى تقويم نفسه

وإصلاح شأنه حتى يكون قريباً من سنن محمد صلى الله عليه وسلم في معاشه ومعاده،  
وحر به وسلمه، وعلمه وعمله، وعاداته وعباداته...

إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره، ولا يتبعه بصيرته في عمله  
وتفكيره لا يغنى عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم واللييلة.

وأريد هنا أن أنبه إلى ضرورة الفصل بين الجد والمزل في حياتنا. ولا بأس  
أن نجعل للهو واللعب وتما لا يحدوه، وللجد والإنتاج وقتاً لا يقصر عنه.

فإذا أراد أحد أن يغنى أو يستمتع إلى غناء فليقلع أما تحويل الإسلام نفسه  
إلى غناء فيصبح القرآن ألحاناً عذبة، وتصيح السيرة قصائد وتواشيح، فهذا  
ما لا مساغ له وما لا يقبله إلا الصغار العاقلون. وقد تم هذا التحويل على حساب  
الإسلام فانسحب الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب. وحق  
فيمن فعلوا ذلك قول الله عز وجل: «وذكر الذين اتخذوا دينهم هماً ولهواً  
وغرماً الحياة الدنيا...».

وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة فحسب، يستمتع إليها عشاق الطرب هو الذي  
جعل لليهود والنصارى يذبحونه في الآفاق، وهم واثقون أن ان يُحْيى موتاً  
وتحول السيرة إلى قصص وقصائد غزل (١) وصلوات مبهمة جعل الاستماع إليها  
كذلك ضرباً من الخلل النفسي أو الشذوذ الناتج - في نظري - من اضطراب  
الغرائز وفساد المجتمع.

وخير من هذا كله أن يستمتع طلاب الغناء إلى اللهو الجرد والألحان الطروب  
فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيب طلبوه من مصادره المصفاة: قرآناً يأمر وينهى ليفعل  
أمره ويترك نهيه وسنة تفصل وتوضح لئيسار في هديها وينتفع من حكمتها، وسيرة  
تنفح روادها بالأدب الزكي، والقواعد الحصيفة، والسياسة الرشيدة.

وذلك هو الإسلام...

بدأت أكتب هذه الصحف وأنا في المدينة المنورة ، في الجوار الطيب  
الذي سعدت به حيناً ، وأعانني على إتمام دراسات جيدة في السنة المطهرة  
والسيرة العطرة .

ولله المنة على ما أولى من نعمة . ولعله -- جل شأنه -- يجعلني ممن يحبونه  
ويحبون رسوله ، ولما كنت لا أحسن القول والعمل إلا في نطاق الصراحة ،  
فلا بد أن أشير إلى أن البون بعيد بين المسلمين ورسولهم . مهما أكنوا له من  
حب وأدمنوا من صلوات . لقد رأيتهم يزورون الروضة مشوقين متلهفين ،  
ويعودون إلى موطنهم ليجدوا من يفيطهم على حظهم . ويود لو ظفر بما نالوا .  
أما أن محبة رسول الله واجبة فهذا مالا يمارى فيه مؤمن . وما يفيض حبه  
إلا من قلب منافق ججود .

ولسكن أن تكون هذه العاطفة مظهر الولاء له . فمـذا ما يحتاج إلى  
تهذيب وبيان .

إن يثرب من ناحية العمران العام أقل منها يوم كانت موطناً للأوس  
والخزرج في الجاهلية الأولى وما بزراع اليوم من أرضها عشر ما كان يزرعه العرب  
قديماً وجمهور السكان من رواسب المواسم المزدهجة بالحجيج والزوار . وهم يؤثرون  
الجوار العاطل على العودة للعمل في بلادهم ! ويسمون ذلك هجرة . فهل ذلك  
إسلام أو حب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . أذكر أنه قابلني نفر من أهل  
المغرب يزعمون أنهم قدموا إلى المدينة فراراً بدينهم من القتن ، فأفهمتهم أنهم  
فارئون من الزحف ، لأن إخوانهم يقاتلون الفرنسيين الغزاة . وهم مجرمون بتركهم  
المجاهدين يحملون وحدهم عبء هذا الكفاح (١) .

(١) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وفرنسا تحتل أقطار المغرب الثلاثة وغيرها  
من ديار الإسلام .

إن هذا الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم غير مفهوم ، وهذه الهجرة لمدينته غير متقبلة . وصلة نبي الله بعباد الله أسدٌ وأحكم من أن تأخذ هذه السبيل الشاردة الملتوية .

إن أعداء الإسلام تمسكوا — في غفلة أهله — أن يصدعوا بناءه ويجملوه أنقاضاً . فكيف يترك تراث محمد نهباً للعوادي ؟ وكيف يمهّد للجاهلية الأولى أن تعود ؟ وكيف يقع هذا التبدل الخطير في سكون ؟ بل في مظهر من الحب لرسول الله ؟

فليققه المسلمون سيرة رسولهم العظيم .

وهيات أن يتم ذلك إلا بالثقة في الرسالة نفسها والإدراك الحق لحياة صاحبها ، والالتزام الدقيق لما جاء به .

إلا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وأغلاه عندما يكون قدوة وذماماً !

\* \* \*

إنني أعتذر عن تقصيري في إيفاء هذا الموضوع حقه . فشان رسول الله كبير والإبانة عن سيرته تحتاج إلى نفس أرق وذكاء أنقد .

وحسبي أن ذلك جهدي .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ؟

## حولُ حادِيثِ هَذَا الْكِتَابِ

سُرِّني أنْ تخرجَ هذه الطبعَة الجديده بعد أن راجعها الأستاذ المحدث الملامه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وقد أثبتُ فيها كل التعليقات التي ارتأها على ماقلتُ في هذه للسيرة من آثار نبوية ..

وأرجو أن أكون معيناً على إبراز الحقيقة العالمية وضبط الوقائع التاريخية بإثبات هذا النقد ، وشكره لمن تطوع به ..

إن آفة المؤرخين للسيرة الشريفة وغيرها من أحداث الناس وأطوار الزمان قلة التثبت وضعف التحجيص .

وقد وقع كثير من الأقدمين والمحدثين في هذا الخطأ ، على تفاوت بينهم في دقة المأخذ وحدة الانتباه .

وعندما شرعت أكتب سيرة لسيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهدت أن ألزم للمهج السوى ، وأن أعتد على المصادر المحترمة ..

وأظننى بلغت في هذا المجال مبلغاً حسناً ، واستجمعت من الأخبار ما تطمئن بإليه نفس العالم البصير .

اسكن القارىء سيري في تعقيبات الشيخ ناصر الدين ما يبعث ريبته في هذا الظن .

وهنا أرانى مكلفاً بشرح المهج الذى سرت عليه .

قد يختلف علماء السنة في تصحيح حديث أو تضعيفه ، ويرى الشيخ ناصر -

بعد تمحيصه للأسانيد - أن الحديث ضعيف ، وللرجل من رسوخ قدمه في السنة

ما يعطيه هذا الحق ، أو قد يكون الحديث ضعيفاً عند جمهرة المحدثين ، لكنني أنا قد أنظر لمن الحديث فأجد معناه متفقاً كل الاتفاق مع آية من كتاب الله ، أو أثر من سنة صحيحة « فلا أرى حرجاً من روايته ، ولا أخشى ضيراً من كتابته .

إذ هو لم يأت بجديد في ميدان الأحكام والفضائل ، ولم يزد أن يكون شرحاً لما تقرر من قبل في الأصول المتيقنة ،

خذ مثلاً أول حديث حكم الأستاذ بتضعيفه : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني بحب الله » .

وقد يرى الأستاذ المحدث أن نحسين الترمذي وتصحيح الحاكم لا تعويل عليهما في قبول هذا الحديث ، وله ذلك .

بيد أني لم أجد في المطالبة بحب الله ورسوله ما يحملني على التوقف فيه ولذلك أثبتته وأنا مطمئن .

وفي الوقت الذي فسحت فيه مكاناً لهذا الأثر - على ما به - صددت عن إثبات رواية البخاري ومسلم مثلاً للطريقة التي تمت بها غزوة بني المصطلق .

فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول صلى الله عليه وسلم باغت القوم وهم غارئون (١) ما عرضت عليهم دعوة الإسلام ، ولا بد من جانبهم نكوص ، ولا عرف من أحوالهم ما يفتق !

وقتل يبدؤء المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطق الإسلام ، مستبعد في سيرة رسوله .

ومن ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو .

وسكنت نفسي إلى السياق الذي رواه ابن جرير ٠٠٠ فهو - على ضعفه -

---

(١) أخذهم على غرة

الذى كشفه الأستاذ الشيخ ناصر - يتفق مع قواعد الإسلام المتينة ، أنه لا عدوان إلا على الظالمين .

أما الغارون الوادعون فإن اجتياحهم لا مساع له . . . .  
وحديث الصحيحين في هذا لا موضع له إلا أن يكون وصفاً لرحلة ثانية من القتال ، بأن يكون أخذ القوم من غرة جاء بعد ما وقعت الخصومة بينهم وبين المسلمين ، وأمسى كل للفريقين بيئت الآخر ، ويستعد للنيل منه .  
فانهز المسلمون فرصة من عدوهم - والحرب خدعة - وأمكنهم الغلب عليهم وهم غارون .

وفي هذه الحالة لا بد من التمهيد لرواية البخارى ومسلم ، بكلام يشبه ما نقله ابن جرير ووهنه فيه الشيخ ناصر .

ولست بدعاً في تلك الخطة التي اخترتها . . . . فإن أغلب العلماء جرى على مثاليها في مواجهة المرويات الضعيفة والصحيحة على سواء .  
وقرروا أن الحديث الضعيف يعمل به مادام ملتقياً مع الأصول العامة ، والقواعد الجامعة .

وهذه الأصول والقواعد مستفادة - بداهة - من الكتاب والسنة .  
وعلى ضوء هذا النظر المنصف حكيت استشارة رسول الله عليه الصلاة والسلام للحجاب في موقعة بدر - وإن وهن الحديثون سندها - لأنها تدور في نطاق الفضائل التي أمر بها الله ورسوله ، وليس في سوقها ما يمحذّر قط .  
ذلك بالنسبة إلى الأحاديث الضعاف .

أما الصحاح فإن في تفاوت دلالتها مجالاً رحباً للترجيح والرد . كما يعلم أستاذ الحديث .

وما من إمام فقيه إلا ردّ بعض ما صحح ، إشاراً لما ظهر أنه أصح .

ومعاذ الله أن نشغب على السنة ، فهمي الأصل الثاني للإسلام يقيناً .

بيد أنى إذا اتبعت السنن فعرفت أنها - في جملتها - تتفق مع القرآن الكريم في أنه لا حرب إلا بعد دعوة وإعذار وتبريف مشرق لا تبقى معه شائبة غموض ، فكيف أقبل ما يوم غير هذا ؟

الله جل شأنه يأمر نبيه في قرآنه الكريم ( قُلْ إِنَّمَا يُرْسِلُ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَبَلِّغْ أَلَّامَاتِكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أُمَّ بَعِيدٍ مَّا تَوَعَّدُونَ ) .

بعد هذا الإعلام الذي يستوى في الإحاطة به الداعون والمدعون ، وبعد أن سار النبي عليه الصلاة والسلام في مغازيه ، وسار الخلفاء في معاركهم على هذا النحو من توضيح للدعوة ، وإتاحة الفرصة للناس كي يقبلوا أو يرفضوا .

بعد هذا لأرى أن يلزمني أحد بقبول ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عون ، قال : كتبت إلى نافع رحمه الله أسأله أن الدعاء قبل القتال . فكتب إلى إنما كان ذلك في أول الإسلام (١) وقد أثار عليه الصلاة والسلام على نبي المصطلق وهم غارثون ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذ جويرية ..

قال : حدثني به عبد الله بن عمر ، وكان في ذلك الجيش . . . . !!

وكما تجاوزت هذا الحديث ، تجاوزت عن مثله أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه وأعلمهم بالفتن ، وأصحابها ، إلى قيام الساعة ..

فقد صح من كتاب الله وسنة رسوله أنه لا يعلم الغيوب على هذا النحو المفصل

بالتشامل العجيب .



آثرت هذا المنهج في كتابة السيرة ، فقبلت الأثر الذي يستقيم مقته مع ماصح  
من قواعد وأحكام ، وإن وهى سنده . . .

وأعرضت عن أحاديث أخرى توصف بالصحة ، لأنها - في فهمي لدين الله ،  
وسياسة الدعوة - لم تنسجم مع السياق الامام . . .

ولا أرى مكاناً لبسط وجهة نظري في أمور كثيرة خالفت فيها  
الأستاذ المحدث .

ولكني أرى المكان متسعاً لتسجيل تعقيباته كلها على ما أوردت من  
نصوص ، فأبني عظيم الخفاوة بهذا الاستبحار العلمي ، وهو يمثل وجهة نظر محترمة  
في تمحيص القضايا الدينية .

وأعتقد أن من حق القارئ على أن يعرف رأى أحد المحققين المتشددين في  
الرويات التي أحسبها هنا ، سواء خالفته أم وافقته .

وشكراً لله له جهده في المحافظة على تراث النبوة ، وهذا جميعاً سواء السبيل



(۱)

رسالة وإيصال

## الوثنية تسود الحضارة القديمة

إن تاريخ الحياة مؤسف .

منذ هبط آدم وبنوه في الأرض ، ثم بعد أن شبَّ بهم الزمن واطرد العمران  
وتشعبت الحضارات وأدبرت أجيال وأقبلت على أنقاضها أخرى ، منذ ذلك الحين  
السحيق والناس أخلاط متنافرون ، لانستقيم مهم السبل يوماً إلا شردت أياماً ،  
ولا يشيرون بوارق الحق حيناً إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحياناً .

ولو تقصينا تاريخ البشر - على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه - لوجدنا  
العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه -  
في سورة الأُم - رشده ، فهو يهذى ولا يدري . .

وقد كان في تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مزدجر يزع عن الشر ويردُّ إلى  
الخير ، بيد أن الهوى الغالب لا تجدى معه معرفة .

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد صلى الله عليه وسلم ؟

لقد صرت عليها قرون طوال أفادت فيها علماء كثيراً ، ووعت تجارب خطيرة ،  
ونمت آداب وفنون ، وشاعت فلسفات وأفكار .

ومع ذلك فقد غلب الطيش ، واستحكمت ، وسقطت أمم شتى دون المسكنة  
المنشودة لها .

فإذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان ، وفي الهند والصين ، وفي  
فارس وروما ؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية  
العاطفة والعقل .

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية .  
فأمسى الإنسان الذي استخلفه الله ليكون ملكاً في السموات والأرض ،  
أمسى عبداً مسخراً لأدنى شيء في السموات والأرض .

وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، وتعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟

إن الوثنية هوان يأتى من داخل النفس لآمن خارج الحياة ، وكما يفرض المحزون كآبته على ماحوله ، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جامئة كذلك يفرض المرء للمسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التي التي يحيا فيها ، فيؤثله من جواده وحيوانها ما يشاء .

ويوم ينفسح القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد ، وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة ، فإن هذه الامكاسات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها .

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه ، فلو ذبحت العجول المقدسة ، ونكست الأصنام المرموقة ، وبقيت النفس على ظلامها القديم ، ما أجدى ذلك شيئاً في حرب الوثنية ! مبيحت العباد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا ، يوفضون إليها من جديد ! وما أكثر الوثنيين في الدنيا وإن لم يلتفتوا حول نصب وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق ، ورببه الأعلى ، والجرى وراء وهم جديد . . . ! !



والخرافة لا تأخذ مجراها في الحياة وهي تعلن عن باطلها أو تكشف عن هراسها . كلا ، إنها تدارى مجونها بثوب الجد ، وتستعير من الحق لبوسه المقبول وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه ، ثم تنزين بعد ذلك للمخدوعين .

وكذلك فعلت الوثنية ! لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة ، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع ، بل كما تغير الديدان وأمراب الجراد على الحدائق الغناء ، فتحميلها قاعاً بلقماً . . .

وهي إذا أفسدت . أتركت لم تصلح ما أخذت ، وأئن كان ما أخذته خيراً قبل أن تتصل به ، لقد أصبح شراً بعد ما تحول في جوفها إلى سموم .  
وهذا هو السر في أن الوثنية التي لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تقرب إليه وتبغى مرضاته . . . ١١

جزء من الحق ، في أجزاء من الباطل ، في سياق يصرف الناس آخر الأمر من الله ، ويبعدهم عن ساحته . . . ١١

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ، ما أصاب شريعة عيسى ابن مريم عليه السلام من تبدل مروع ، ردها ليلاً وسلامها وبلا ، وجعل الوحدة شركة ، وانعكس بالإنسان ، فعلق همته بالقرابين ، وفكره بالألغاز المعماة .

إن خرافة الثالوث والقداء تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى في إقحامها إقحاماً على النصرانية الجديدة : وبذلك انتصرت الوثنية مرتين ، الأولى في تدعيم نفسها ، والأخرى في تضليل خبيرها .

فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام ؛ كانت منارات الهدى قد انطلقت في مشارق الأرض ومغاربها ؛ وكان الشيطان يذرع الأقطار الفبيح فيرى ماهرس من أشواك قد نما وامتد . .

فالمجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين ، وبلاد العرب وسائر المجاهيل . .

والنصرانية التي تناوىء هذه الجبهة قبست أبرز ما أثرها من خرافات الهنود والمصريين القدامى ، فهي تجعل لله صاحبة وولداً ؛ وتقرى أتباعها في « رومة » ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراك أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان شرك مثوب بتوحيد محارب شركاً محضاً . . . ١١١

ولكن ما قيمة هذه النقائص التي جمعت النصرانية بين شتاتها ؟

« قالوا : اتخذَ اللهُ ولداً \* سبحانه هو النقي \* له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطانٍ بهذا \* أتقولون على الله ما لا تعلمون \* قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون \* متاع في الدنيا ثم إلينا صر جعهم \* ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون . »

وبظهر أن آصرة الشرك بين الجوسية والديانات السماوية المشوهة هي التي جعلت هذه الأحزاب إلباً على المسلمين يوم بدأوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام ، ومن أهل الكتاب في آن . ووصاها أن يتذرع بالصبر أمام هذا التحامل .

« لتبَلَّوْنَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ \* وَأَنْتُمْ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ \* مَنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا \* وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . »

\* \* \*

والظلام الذي ران على الأفئدة والعقول في غيبة أنوار التوحيد طوى في صواده أيضاً تقاليد الجماعة . وأنظمة الحكم فكانت الأرض مذابة يسودها الفتك والاعتيال ، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة .

وأى خير يُرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل ، ونسيت الله ، ولانت في أيدي الدجالين ؟ .

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء في الحديث « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقهم ، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » (١) .

وهذه البقايا هي التي ظلت مستعصية على الشرك برغم طوفان الكفر الذي طم البقاع والتلاع .

(١) من حديث طويل رواه مسند سلم جميعه .

لقد شملت الدنيا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيرة وبؤس . ناءت  
بهما الكواهل .

أنت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم  
فعاهل الروم يطغى في رعيته وعامل افرس من كبر أصم عمى  
حتى تأذن الله ايحسمن هذه الآثار ، وليسوقن هدايته السكبرى إلى الأمام  
فأرسل إلى الأمة محمداً عليه الصلاة والسلام .

### طبيعة الرسالة الخاتمة

وتماز بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها عامة ودائمة :

والله عز وجل كان يستطيع أن يبعث في كل قرية نذيراً ، ولكل عصر  
مرشداً .

وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر ، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين ،  
فلم استعويض عن ذلك كله برجل فذ ؟ .

الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإعجاز الهدي يحصل المعنى الكثير في اللفظ  
اليسير ، وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عوضاً كاملاً عن إرسال جيش من  
النبيين يتوزع على الأعصار والأمصار ، بل إنها سدت مسد إرسال ملك كريم إلى  
كل إنسان تدب على الأرض قدماء ، ما بقيت على الأرض حياة ، وما تطلعت عين  
إلى الهدى والنجاة . . . ! !

ولكن كيف ذلك ! .

في المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين : أغمض عينيك واتبعني ، أو  
لا تسألني عن شيء يستثيرك ؟ وربما تكون السلامة في طاعته . فأنت تمشي وراءه  
حتى تبلغ مأمنك . إبه في هذه الحال رائدك المعين ، الذي يفكرك ، وينظر لك  
ويأخذ بيدك . فلو هلك هلكت معه .



أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير ، وحذرك مواطن الخطر ، وشرح لك في إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون للتعب . وسار معك قليلا ليديرك على العمل بما علمت . فأنت في هذه الحال رائد نفسك ، تستطيع الاستغناء بتفكيرك وبصرك عن غيرك .

إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج وأما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأي من الناس .

والله عز وجل عندما بعث محمداً عليه الصلاة والسلام لهداية العالم ، ضمن رسالته الأصول التي تفتق للأبواب منافذ المعرفة بما كان ويكون .  
والقرآن الذي أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حي ، ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشده .

لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام إماماً لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه ، فلما انتهى ذهبوا معه في خبر كان ، بل كان قوة من قوى الخير ، لها في عالم اللعاني ما لاكتشاف البخار والكهرباء في عالم المادة . وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور في الوجود الإنساني ، كان البشر قبلها في وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه ، ثم شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده . وجاء الخطاب الإلهي إليه - عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم - يشرح له كيف يعيش في الأرض ، وكيف يعود إلى السماء . فإذا بقي محمد صلى الله عليه وسلم أو ذهب فلن ينقص ذلك من جوهر رسالته . إن رسالته تفتيح الأعين والآذان ، وتجليه البصائر والأذهان ، وذلك مودع في تراثه الضخم من كتاب وسنة .

إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناساً قلوا أو كثروا إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذي يصبح به وجودهم ، والنور الذي يبصرون به غايتهم .

فن عرف في حياته الحق ، وكان له نور يمشى به في الناس فقد عرف محمداً صلى الله عليه وسلم واستظل بلوائه وإن لم ير شبهه ويعيش معه .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا » .

\* \* \*

فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ، ويتشبث بذيابه وهو حي ، أو يتعلق برفاتة وهو ميت ، فاعلم أنه طفل غرير . ليس أهلاً لأن يخاطب بمعاليم الرسالة بله أن يستقيم على نهجها .

في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة رأيت حشداً من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة ويود أن يقضى العمر بجانبها .

ولو خرج النبي حياً على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم .

إن رثاثة هيئتهم وقلة فقههم ، وفراغ أيديهم ، وضباع أوقاتهم ، وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبي الإسلام أوهى من خيط العنكبوت .

قلت لهم : ما تفيدون من جوار النبي ؟ وما يفيد هو نفسه منكم ؟

إن الذين يفقهون رسالته ويميئونها وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد صلى الله عليه وسلم منكم . إن القرابة الروحية والعقلية هي الرباط الوحيد بين محمد عليه الصلاة والسلام ومن يمتون إليه .

فأني للأرواح المريضة والعقول السكيلة أن تتصل بمن جاء ليودع في الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا ؟

أهذا الحوار آية حب ووسيلة مغفرة ؟ .

إنك إن تحب لله إلا إذا عرفت أولاً الله الذي تحب من أجله !! فالترتيب الطبيعي أن تعرف قبل كل شيء : من ربك ؟ وما دينك ؟ فإذا عرفت ذلك - يعقل نظيف - وزنت - بقلب شاكر - جميل من بلغك عن الله وتحمل العنت من -

أجلك : وذلك معنى الأثر « أحبوا الله لما يذكركم به من نعمة وأحبوني بحب الله . . » (١) ومعنى الآية « قل : إن كنتم تحببون الله فاتبعون يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

ثم إن نبي الإسلام لم ينصب نفسه « بابا » يهب المغفرة للبشر ويمنح البركات ، إنه لم يفعل ذلك يوماً ما ، لأنه لم يشتغل بالدجل قط ١١٠ .

إنه يقول لك تعال معي ، أو اذهب مع غيرك من الناس لنقف جميعاً في ساحة رب العالمين نتاجيه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . فإذا رضى عنك هذا النبي - دعا الله لك . . وإذا رضيت أنت عنه ، ووقر في نفسك جلال عمله وكبير فضله فادع الله كذلك له ، فإنك تشارك بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً »

وليس عمل محمد عليه الصلاة والسلام أن يجرك بحبل إلى الجنة ، وإنما عمله أن يقذف في ضميرك البصر الذي ترى به الحق . ووساياته إلى ذلك ككذب لاياتيه

---

(١) هذا حديث ضعيف الاسناد أخرجه الترمذى ( ٤ / ٢٤٣ - ٣٤٤ بهشرح التحفة ) والحاكم ( ٣ / ١٥٠ ) وأبو نعيم في « حلية الاولياء » ( ٣ / ٢١١ ) والخطيب في تاريخه ( ٤ / ١٦٠ ) من طريق هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلي عن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس عن ابيه عن ابن عباس مرفوعاً به وقال الترمذى : « حديث حسن غريب ، وإنما نعرفه من هذا الوجه » وقال الحاكم . « صحيح الاسناد » ووافقه الذهبي . وهذا من تساهلهم جميعاً لاسيما الذهبي فقد أورد النوفلي هذا الحديث في « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » وقال فيه . « فيه جهالة . ما حدث عنه سوى هشام بن يوسف » ثم ساق له الحديث فأتى له الصحة ؟! وقد تفرد به هذا الجهول ، ولم يوثقه أحد ، ولذا قال فيه الخافظ ابن حجر في « التقريب » ، إنه « مقبول » يعني عند المتابعة فأتى المتابع له ؟ ! ولذلك فقد أصاب ابن الجوزى حين قال ، « هو غير صحيح » كما نقله لناوى في « قبض القدير » وتعبه بما لا طائل منجته ، يقول : ومع نقد الأستاذ لهذا الحديث فنحن نقبله لان معناه يوافق الآية ولأنه في الفضائل .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه مُيسرٌ لآذِكر، محفوظ من الزيف . وذلك  
مر الخلود في رسالته .

\* \* \*

فانظر كيف عالج الرسول عليه الصلاة والسلام البيئة التي ظهر فيها على ضوء  
هذه الطبيعة المقرضة في رسالته ، ولنظر قبل ذلك إلى أحوال هذه البيئة  
نفسها .

## العرب حين البعثة

كان أهل مسكة ضعاف التفكير أقياء الشهوات :  
إذ لاصلة بين نضج الفكر ونضج العزيمة ولا بين تخلف الجماعات من الناحية  
العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع .  
إن عَرام الشهوات الذي نسمع عنه في « باريس » و « هوليوود » لا يزيد  
كثيراً عما وعته القرون الخالية من مفسد الإنسان على ظهر الأرض .  
وتقدم الحضارة لأثره من هذه الناحية إلا في وسائل زيادة الأجراء فحسب .  
أما الشهوات نفسها فهي من قبل الطوفان ومن بعده الأثرة والجشع والرياء  
والنهارش والحقد ، وغير ذلك من ذمم الخصال ، ملأت الدنيا من قديم ، وإن  
تغيرت الأجزاء التي ظهر بها على مر العصور .  
وإن الإنسان يرى في القرية التافهة ، وهي القبيلة الساذجة ، من التنافس على  
السال والظهور ما يراه في أرقى البيئات وكثير من الناس تفوتهم أوصية رائعة من  
العلم والنضل ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتيال والتطلع والدس :  
وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريبة من أفه . ومع ذلك  
فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه !!  
من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتى لهذا العباء وهذا العناد .

ف عندما دعى قوم نوح إلى الإيمان بالله وحده كانت إجاباتهم لنوح لا تتم  
بموضوع الدعوة تدر اهتمامها بشخص الداعي ، وما سيحزره من فضل بهذه الرسالة !

« فقال لملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن  
يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة . . . » .

ما أكثر منافذ الهدى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد مخلفات الهوى في  
الأخلاق والأفكار ، والسير والسياسات .

وقد كانت «مكة» في عهد البمثة تروج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم ،  
وكان الرجال الذين يقيمون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء ، وشلسل الأفكار ،  
أو نمائها في ظل الهوى الجامع وتخدمته وحده . . .

كفر بالله واليوم الآخر ، إقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه ، رغبة  
عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة ، عصيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك ،  
تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادى والأدبى داخل هذا النطاق المحدود .

من الخطأ أن تحسب «مكة» يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء  
موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق . كلا ، إنها  
شعبت حتى بطرت . وتنازعت الكبرياء حتى تطاحت عليها ، وكثر فيها من  
تغلغل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراجها منه . فهم بين عم عن الصواب  
أو جاحد له ، وفي هذا المجتمع الذى لم ينل حظاً يذكر من الحضارة العقلية باغ غرور  
الفرد مداه ، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطمواه .

قال عمرو بن هشام - معللاً كفره برسالة محمد عليه الصلاة والسلام -  
بزاحنا بنو عبدمناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منابنى يوحى  
إليه والله لا تؤمن به ، ولا تتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !!

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك! لأنى أكبر منك سنأ وأكثر منك مالاً! وهذه السفاهات العاتية، لم تنفرد مكة بها. فما كان كفر عبد الله بن أبى فى المدينة إلا لمثل هذه الأسباب .

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد الهجرة - يعود سعد بن عبادة فى مرض أصابه قبل وقعة بدر، فركب حاراً وأردف وراءه أسامة بن زيد، وساراً حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى . وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود . وفى المسلمين عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس بحاجة الدابة خمر ابن أبى أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا . فسلم رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم وقف ونزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله: أيها المرء إنه لا أحسن ما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به فى مجالسنا! وارجع إلى رحلك، فمن جاءك فأقصص عليه . .

فقال ابن رواحة: بلى يا رسول الله فاعشنا به فى مجالسنا، فإننا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتناورون . فلم يزل الرسول عليه الصلاة والسلام يحفضهم حتى سكتوا، ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألم تسمع ما قال أبو حباب - يعنى ابن أبى - ؟ قال سعد: وما قال؟ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: قال كذا وكذا . . . يقال سعد: اعف عنه يا رسول الله، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى أنزل عليك، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة - يعنى المدينة - على أن يتوجوه، ويعصبوه بالعصاة . فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك، شرق بذلك، فذلك الذى فعل به مارأيت (١) . .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/١٨٥-١٨٦) بشرح فتح البارى، ومسلم (٥/١٨٢-١٨٣) وأحمد ٥/٢٠٣ من حديث أسامة بن زيد .

إن ابن أبي غص بالإسلام لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل ، ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه ، إن هنا ألوفا غيرهم لا يدركون قبلاً ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام وحاربوه .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة ، والعدوات المقصودة أو المضللة ، ووسط نماذج لا حضر لها من الضلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته ، فأخرج أمة من الظلام إلى النور ؛ بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضيء ويهدي ، والدروس التي أحدثت هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواء موقوتاً أو مخصوصاً ، بل هي علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذ الثابت وستظل ما بقي الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان وتجدد الحياة .

## رسول معلم

كانت الاثاعات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبيا قرب ظهوره ، ولهذه الاثاعات ما يهررها ، فإن عهد الناس بالرسول أن يتابعوا فلا تطول فترة الانقطاع بين أحدهم والآخر ، وكثيراً ما تعاصر المرسلون فجمعتهم أقطار واحدة أو متجاورة ولكن الأمر تغير بعد عيسى ، فكادت المائة السادسة تم بعد بعثته ، ولما يأت نبى جديد .

فلما اكتظت الأرض بالمفاسد والضلالات زاد التطلمع إلى مقدم هذا المصلح المرتقب ، وكان هناك رجال ممن يفكرون الجمالة السائدة يستشرفون للمنصب الجليل ، ويتمنون لو اختيروا له ! منهم « أمية بن الصلت » الذي حفل شعره بالتحدث عن الله وما يجب له من محامد ، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : « كاد أمية أن يسلم » (١) . وعن عمرو بن الشريد عن أبيه : ردف رسول الله

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤٩/٧) وابن ماجه (٤١٠/٢) من حديث عن ابن هريرة ، وأخرجه أيضاً من حديث الثرند وهو تمام الحديث الآتى بهذه .

صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن الصلت ؟ قلت : نعم ، فقال : هيه فأشده بيته ، فقال : هيه ، حتى أشده مائة بيت (١) .

خير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطامعين من شعراء وناثرين ، وأنتى بالأمانة الكبرى على رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها « وما كنت ترجو أن يلتقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين » .

إن الاصطفاء الرسائل العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها .

وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل ، وكم من راسخين يطوبهم الصمت ، حتى إذا كفروا أنوا بالعجب العجيب .

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها ، والذي يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمة نفساً عظيمة ، وقد كان العرب في جاهليتهم يرمقون محمداً صلى الله عليه وسلم بالاجلال ، ويحترمون في سيرته شارات الرجولة الكاملة ، إلا أنهم لم يتخيّلوا قط أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله ، وأن الحكمة ستعجز من ذلك الغم الطهور ، فخطوى السهوب والجدوب ، وثب الوهاد والنجاد .

إنهم لا يرون منه إلا ما يراه الطفل من سطح البحر ، تشغله الصفحة المهادنة عن الغور البعيد .

كان إصطفاء الله لمحمد مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفت عنه ، ثم ثبت الكاهل الجلد لما أتى عليه ، ومضى على النهج مسدداً مؤيداً .

ومكث الوحى ينزل ثلاثاً وعشرين سنة ، كانت الآيات تنزل خلالها حسب الحوادث والأحوال ، وهذه الفترة الطويلة الحافلة هي فترة تعلم وتعليم .

الله عز وجل يعلم رسوله ، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية ، فيديرها في نفسه حتى يحيلها جزءاً من كميانه ، ثم يعلمها الناس ويأخذهم بها أخذاً .

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه .



ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم ، فإن الزمن حزم  
من علاج النفوس وسياسة الأمم وتقرير الأحكام .

واتساق القرآن في أغراضه ومعانيه - على طول المدة التي استغرقها تجميعه -  
يعتبر من وجوه إعجازه فإن خواتيمه - بعد ربع قرن - جاءت مطابقة  
مساوقة لغواتمه ، يصدق بعضها بعضاً ويكملها ، كأننا أرسلت في نفس واحد .

وقد تساءل العرب : لم نزل القرآن كذلك ؟ ( قالوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ  
الْقُرْآنُ مُجْمَلَةٌ وَأَحَدَةٌ ه كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ه  
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ) .

إن القرآن يشرح حقيقة الدين عند الله ، وتاريخ هذه الحقيقة ، وهو - في  
دعوته العامة - يبسط الشبهات العارضة ويفندها ، ويسوق أدلته وهو على بينة  
من آراء خصومه ، ويتبع أفصى ما يثار ضده ثم يكر عليه بالحجة فيسحقه ، وقد  
بدأ القرآن بين قوم تشعب الكفر في نفوسهم ، ومرنت على الجدل ألسنتهم ، وكان  
انقدر تخير هذه للبيئ ، لتكون مجعاً يمثل آخر ما يميك في القلوب من ريبة ، وآخر  
ما يبذله الباطل من التعدي ، فإذا أذاع الإسلام في تبديد هذه الريب ، وتذليل  
هذه العوائق ، فهو على مادونها أنذر . . . ! !

والاسئلة التي توجه للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو التي ينتظر أن توجه إليه  
في مختلف العقائد والأحكام وجدت إجابتها الشافية في القرآن ، باعتبار أن السؤال  
لا يمثل حاجة صاحبه وحدها ، بل حاجات الناس على مر الأيام .

وفي هذا الجو المليء بالتساؤل استفهاماً أو استنكاراً كان الإلهام يلاحق  
الرسول صلى الله عليه وسلم : قل كذا ، قل كذا .

وما أكثر الآيات التي صدرت بهذا الأمر إجابة لسؤال ورد أو مفترض .

وأنت تحس - إذ تقرأ هذه الأجوبة المستفيضة - أيضاً من اليقين ينساب إلى  
قلبك ، كأنها حسمت وساوس عرضت لك أوفى الإمكان أن تعرض .  
والرسالة الخالدة هي التي تصلها بضمائر الناس هذه الأواصر المتينة .  
إن القرآن رسول حي ، تسأله فيجاوبك ، وتستمع إليه فيقنمك .

انظر : كيف يؤسس عقيدة البعث والجزاء ، وينوه بشمول الإرادة والقدرة  
في ثنايا إجابة على سؤال موجه وكيف صغيت المعاني في أخذ ورد ، واعتراض  
ودفع . كأنها حوار سيال ، يتعدى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهر :

( أَو لَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ  
لَنَا مَثَلًا وَوَسَّىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي  
أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرَةَ الْأَخْضَرَ  
فَارَأَىٰ فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ  
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَرَادَ شَيْثَانُ أَنْ يَقُولَ  
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .

ان هذا مثل للاستدلال القائم على النظر الصائب ، لا يمتحن به زمان دون  
زمان ولا مكان دون مكان فهو خطاب للمقل العام في البشر أجمعين ، وهو بيان  
لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول : قل كذا ، ردأء على  
معارض له من أسئلة في أثناء تطوافه هنا وهناك يدعو الى الله ، ثم ثبت السؤال  
والجواب ليكون منها علم - ينفع الناس آخر الدهر .

° ° °

وقد استوقف الأمر بـ « قل » نظر العلماء انه تعليم من الله لرسوله ، وتعليم  
من الرسول للناس ، وقد سبقت بعد هذا الأمر الأقوال التي تضمنت ماشاء الله  
بمن النصائح والعظات والأحكام .

فبعدما أحب المشركون - على عاداتهم - أن ينقلوا ميدان الجدل من حقيقة  
المدِين، إلى شخص الرسول وأتباعه نزلت الآيات ( قل أرأيتم إن أهلكني الله  
وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟ قل هو الرحمن  
آمِنًا بِهِ، وعليه توكلنا، فستعلمون من هو في ضلال مبين ) .

فانظر كيف يستخلص اللباب وسط فبار الجدل ! ما يجديكم تنقص الرسول  
ومن معه ؟ فكروا في أنفسكم كيف أهلكتها الخرافات وشردت بها عن الجادة ؟  
إنه ليس للرسول الله ومن معه تفكير في أنفسهم وحظوظها ، إهم دعاة الرحمن ،  
آمنوا به ، وتوكلوا عليه فإن شئتم فالطريق إلى الرحمن ميسرة !! .

وليس من الضروري أي يقع سؤال ما لتأني الإجابة عليه من لدن الله « قل » !!  
فربما يحىء السياق على هذا النحو ابتداءً عند عرض أصول الدعوة وآدابها ،  
وتسكون الغاية منه التعريف الإسلام ونبية تعريفًا مشبعًا مقنعًا يستأصل الريب  
قبل أن تولد :

( قل : إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيسًا ملة إبراهيم حنيفًا  
وما كان من المشركين . قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب  
العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبني  
ربًا وهو رب كل شيء ؟ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة  
وزرًا أخرى . . . ) .

فالخطاب للرسول هنا يتضمن أمرًا إلى كل حي وجد في عهده ، أو يوجد من  
بعده أن يتدبر - بعقله - ما يلقى إليه ، وأن يحكم - بضميره - على مدى  
صحته وإخلاصه .

فإذا تعلق بقلبه إيمان فهو إيمان برب كل شيء وعمل الرسول ينتهي عند  
هذا الحد ، عند وصل المعقول والقلوب ببارئها وإيضاح الصراط المستقيم لها ،  
وعلى كل إنسان تحمل تبعته في فعل الخير أو الشر بعد ذلك .

فليس الرسول صلى الله عليه وسلم وسيطاً يحمل لك خيراً قدمته ، ولا قرباناً يحمل عنك عقاباً استحققتة ، لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . وهنا يبدو بعد الشقة بين المسيحية والإسلام .

الإسلام يغالى بقدر الإنسان ، ويعطيه جزاءه الحق على الرفعة والضعفة . أما النصرانية فالمرء عندها أنزل قدرأ من أن يتصل برب العالمين من تلقاء نفسه لا بد من آخر يحمل قربته ويقبل توبته ، ومن ذلك الآخر ؟ شخص دعى ١١ فإذا اقترف ذنباً فليس هو الذى يلقى قصاصه ، إن القربان ذمخ قديما من أجل خطيئته تلك ، وعليه أفى يصدق بذلك لينجو إن أراد النجاة . . . !

هذا الخبط يحتاج إلى جرارات ثقيلة ! ليسير فى الحياة مراغما المنطق والعدالة أما الإسلام فإن الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام قولاً تنفتح له الأعين والأفهام :

﴿ قل : من ربُّ السمواتِ والأرضِ : قل : الله . قل : أتأخذتم من دونه أولياءَ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصيرُ ؟ أم هل تستوى الظلماتُ والنورُ ؟ أم جعلوا لله شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابه الخلقُ عليهم ؟ قل : الله خالقُ كلِّ شئٍ وهو الواحد القهارُ ﴾ .

إن هذه الاستفهامات المترادفة سباط تلذع الباطل ، وتجعل النائم يصحو من سباته ، وتحفز الإنسان إلى اعتناق الحقيقة ، والتسامى بها . وذلك ما يعلنه ويعمل له رسول الإسلام .

o o o

وقد اتقى الإسلام مقاومة عنيفة أشد العنف من الوثنية السائدة ، فهى لم تنافظ أبقاصها فى معركة أو معركة أومعرتين : بل قاتلت بيأس شديد على كل شبر من الأرض وكان الظن أن قواها خارت وانماعت عندما أدى لرسول أمانته وذهب إلى الرفيق الأعلى بيد أن الجزيرة انتفضت بأسرها فى عهد أبى بكر ، وانحصر المسلمون وسط

طوفان من الردة العمياء شرعوا يكافحونه مرة أخرى فما استطاعوا كسر شوكته إلا بعد ماتكبدوا من الخسائر أكثر مما فقدوا على عهد النبي عليه الصلاة والسلام في مقاتلة أولئك المشركين .

إن الرجال الذين ثبتوا على الحق بعد رحيل نبيهم عنهم هم المسلمون حقا فإن الإسلام رباط بمبادئ لا بأشخاص ، وقد علم الله نبيه وعلم المسلمين في شخصه أن يلتزموا الحق الذي عرفوا ، وأن يتشبثوا به مهما غولبوا وحوربوا .

والدنيا طافحة بأسباب الزيف ، وهي تحاول ألا الأتقى للإيمان مكاناً لها ، فإذا ظفر بكسب بعد طول عناء حاولت أن تلأينه حتى ينزل عن شيء ويكتفي بشيء ولو أفلحت في إصتدراجه إلى هذه المنزلة لأمكنها الإجهاز عليه ، ولذلك جاءت أوامر الله في كتابه حاسمة تقضى بأن الإيمان كل لا يتجزأ ، وأن مناخزة الكافرين على هذه الحقيقة لا يجوز أن تهدأ ، فلا بد من الاستمسك بهذه التعاليم المترابطة والحب والبغض عليها ، والمسألة أو المحاربة دونها فإن نصيب العاطفة في خدمة العقيدة ، لا يقل عن نصيب العقل .

والآيات الواردة في ذلك هي أوامر للمسلمين تنزلت في شكل خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم : ( يا أيها النبي اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً \* وأتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً \* ونوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ) .

فليس الرسول صلى الله عليه وسلم مظنة أن تطيع الكافرين والمنافقين حتى ينه إلى التحرز منهم ولكننا - نحن - المعنيون بهذا الارشاد .

ومن ذلك : ( ادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر ) .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم من بدء دعوته حرباً على الشرك وعلى الآلهة الأخرى . ومنه تعلم الناس هذه الخصومة ويستحيل أن يتوقع منه غيرها .

ومن ذلك : « لا تمدن عينيكَ إلى مامتعنآ به أزواجآ منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً .  
وقل : الحق من ربكم » .

« فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من المعترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » .

قال المفسرون : خوطبت الأمة في شخص رسولها كما تصدر الأوامر إلى القائد مع أن الجند هم المنفذون .

وقيل : بل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريق الالهاجة واستشارة الهمة يقال للقوى البادية العزم : لاهن . وللعاقل الصحيح الذهن : لا تنفل . وليس يخاف عليهما وهن ولا غفلة ، واسكن الأمر تحريض على استدامة القوة والذكاء .  
والشجاع يزداد على الموت إقبالا إذا قيل له : لا تبجن ...

وسواء كان هذا أم ذاك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام مناط الأسوة الحسنة ، ومن سلوكه يأخذ الناس مثلهم الأعلى . وقد أمر وأمرنا معه بالتوجس من الضالين ، والتناهي عن خلقهم وعملهم ، وازدراء متاعهم وغرورهم .

وذلك لأن هناك أحيانا شتى يضعف فيها الحق ويميز التمسك به ويقوى فيها الباطل وتكثر المغريات على مصادقته ، أو مهادته .

ومن حق العقائد على أصحابها أن يتشددوا في تدعيم جانبها ، وأن يتنكروا

لما يسها من بعيد .

والأوامر التي تنظم هذه المشاعر لن تنقصها الصرامة ، وماذا بعد أن يقول الله لنبيه « إئن أشركت ليحبطن عملك ولستكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » :

إن هذا الخطاب يقرع آذاننا وله مغزاه، كما قيل : « إياك أعنى واسمعى »  
بجارية ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تأليب المسامحين على الفساد وترهيبهم من  
الركون إليه ، بله الوقوع فيه .

وأقوال المفسرين التي سردناها تنطبق أيضاً على الآية « فإن كنت في شك  
بما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . . » .

الخطاب للقارىء ، أو السامع ، أو للرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على  
جهة التوبيخ والتعرض كما علمت : إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام لن يقع منه  
شك في أمر نبوته ، والكلام هنا فرض للمستحيل كما قيل في سورة أخرى « قل  
إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ العبادين » . ولكن مامعنى سؤال أهل الكتاب ؟  
قالوا : المراد النفقات المنصفون منهم ، فهم لن يكتموا شهادة الحق إذا  
طلبت إليهم .

وعندى أن العدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها وما  
أظن الآية تعنى ذلك .

ولكن المرء يزداد بصراً بنفاسة ما عنده من خير إذا رأى ما عنده غيره من  
خطأ ، ولو ارتبت لحظة في أن القرآن من عند الله ، ثم تصفحت كتب المهديين  
القديم والجديد ، لعدت - على عجل - إلى كتابك تتشبه به ، وتحمداً لله ألف  
مرة أن هديت إليه !!

وأحسب أن هذا ما تشير إليه الآية ، فان تبين ما في الإسلام من حق يزداد  
قوة عند اكتشاف ما طرأ على الأديان الأولى من تشويه ، وهذا يتفق مع قوله  
تعالى : « ولئن أتبت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى »  
سور لا نصير . ويزكى فهمنا هذا في الآية الكريمة ما أخرجه البخارى عن ابن عباس  
سقال : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابتكم الذى أنزل على  
فبيكم أحدث المكتوب بالله ، تقرءونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل  
الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من

عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا ،  
والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم » ١١

إن الإسلام من الناحية العقلية معرفة للحقيقة ، ومن الناحية العاطفية حب لها  
وإعزاز ، وكرهية للباطل وعداء صريح .

إن هناك أناساً في مشاعرهم برودة يلقون بها الرأي وضده ! وقد يتصورون هذا  
في بعض للسائل التافهة . أما أن يتعلق الأمر بالإيمان ، والإلحاد ، والتجسس  
والعفاف ، فلا ...

إن الله علم رسوله الكتاب ، والإيمان ، فكان من عرفان الرسول صلى الله  
عليه وسلم بهذا الفضل الإلهي أن غالى بإيمانه واعتز بقرآنه ، فعاش بهما وعاش لهما ،  
وخاصم وسالم فيهما ، وطالما تمنى عدائه أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ولكن هيهات !  
« ودوا لو تدهن فيدهنون » والأمة الجديرة بالانتماء إليه هي الأمة التي تناضل على  
الحق فلا تسمح بانتقاص له ولا حيف عليه ، ومن خصائصها إنها أمة فتكورة ومنهاج  
يقوم كيانها المادى والأدبى على ما تبذل في ذلك من جهد وتثمر من نتاج .

### منزلة السنة من الكتاب الكريم

من حق المسلم أن يرتب المصادر التي يأخذ عنها دينه ، وأن يدرك الوضع  
الصحيح للحفظ من قول النبي عليه الصلاة والسلام وفعله إلى جوار السجل  
الثابت للوحي الإلهي الذي خصت به الرسالة الخاتمة .

إن القرآن روح الإسلام ومادته ، وفي آياته المحكمة شرع دستوره وبسطت  
دعوته ، وقد تكفل الله بحفظه فصينت به حقيقة الدين ، وكتب لها الخلود أبد  
الآبدين ؛ والرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالته ، كان « قرآناً »



حيًا يسعى بين الناس، كان مثالا لما صوره القرآن من إيمان وإخبات، وسعى  
وجهاد، وحق وقوة، وفقه وبيان، فلا جرم أن قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه،  
يكونوا حي حياته كلها تعد ركنا في الدين، وشريعة للمؤمنين .

إن الله اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه، فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال؟  
ومن أولى منه بتحديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة؟  
إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن صياغته، وللقانون نص وروح، وعند  
علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد، نجد فتاوى وتدوين نصوص ومحفظ  
تجارب وعبر، وثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى إلى  
روحه .. وهكذا .

والقرآن هو قانون الإسلام، والسنة هي تطبيقه، والمسلم مكلف باحترام هذا  
التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به  
ووهى عنه لأنه - في ذلك - لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي  
طاعة الله، وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس .

قال الله عز وجل: « من يُطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما  
أرسلناك عليهم حفيظاً » وقال: « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل  
إليهم ولعلهم يتفكرون » وقال: « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنها فانتهوا »  
على أن الإلهام الأعلى لا يعطل مواهب الإنسان الراق، فمن الخطأ أن نتصور  
الرسالين أناساً مسخرين تنطقهم للملائكة أو تسكتهم إنهم لو لم يكونوا أنبياء  
الكتاب أرباباً يُرمقون باحترام، ويقدمون عن جدارة .

إن الوحي لا يصيب الناس اتفاقاً . بل يرشح له أكل الناس رشداً وأسبقهم  
فضلاً، وأنبلهم خلقاً، وأنضجهم رأياً . وسيرة هؤلاء في الحياة ليست مما يندو كلهم  
بشئ مما يهمل في فكيف إذا تأيدت هذه المعرفة بالهزيمة . وهذا الدكاء بالتسديد؟

إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله ، ومن ثم كانت سنة محمد عليه الصلاة والسلام مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شرفه الله به وجهه نور المسلمين على هذا الفهم .  
إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام سنة تقبل . ولا كل ما صحت نسبه صح فيه ، أو وضع موضعه !!

والمسلمون لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أؤذوا من الأحاديث التي أسىء فهمها واضطربت أوضاعها . حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جماعة فطرة ريبة وأنهام ، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها . .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً ، فإن الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ، وتقدت بحذر ، ومحصت بدقة كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ، فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال ؟ والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية . لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين ، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها ؟؟

عندما درسنا تراث محمد عليه الصلاة والسلام في « الأخلاق » وذاكرناه أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل خيل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب المعجز ، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الضخمة ، إلا أن الاشتغال بالسنة - مع هذا - يجب أن يحظر على من لم يستجمع الشروط التي تجعل مثل هذا الاشتغال مفيداً للإسلام والمسلمين .

١ - فلا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم وافر فإن القرآن هو الدستور الأصيل للإسلام وهو الذي يحدد للمسلم بدقة تامة واجباته ، وحقوقه ويرتب التكاليف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تظني عبادة على أخرى ، ولا تظني كلها على عمله للحياة ومكانه فيها .

والمرء الذى يعجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن لن يعوزه عن فقدانها  
شئ آخر والصورة التى تستقر فى نفسه للإسلام - من غير القرآن - تضطرب  
فيها النسب والألوان، وربما لحقها اختلاف كبير .

ولذلك حرص أئمة الصحابة على أن يُحْلُوا الطريق للقرآن الكريم ليحتل  
مكاته الأولى فى القلوب، وحرصوا على ألا يزاحه فى موضع الصدارة شئ .  
روى ابن عبد البر فى كتابه ( جامع بيان العلم وفضله ) بأسانيد التى ذكرها ،  
قال :

عن جابر بن <sup>(١)</sup> عبد الله بن يسار قال: سمعت علياً يقول: أعزم على كل من  
كان عنده تسب إلا رجع فحواه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم  
وتركوا كتاب ربهم وعن الزهرى عن عروة <sup>(٢)</sup> أن عمر بن الخطاب رضى الله  
عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فى ذلك ،  
فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً . ثم أصبح يوماً ،  
وقد عزم الله له ، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن ، وإني ذكرت قوما  
كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني - والله -  
لا أشوب، وفى رواية: لا أنسى كتاب الله بشئ أبداً .

وعن ابن سيرين قال: إنما ضل بنو إسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم .  
ودخل علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود ومعهما صحيفة فيها حديث حسن

---

(٢) كذا هو فى « جامع بيان العلم » ١ / ٢٦ وهو خطأ من الناسخ أو الطابع ، ومثله  
فيه كثير! والصواب: « عن جابر عن عبد الله بن يسار » وجابر هذا . وهو الجعفى وهو  
ضعيف جداً ، وقد كذبه الجوزجاني وغيره .

(٢) عرواه هو ابن الزهير لم يسمع من عمر بل لم يدركه، فهذا الأثر منقطع ضعيف كذلك  
رواه الخطيب فى ( تقييد العلم ) ( ص ٤٩ - ٥١ ) من طرق من عروة . اللهم إلا رواية  
راشد عن الزهر فانه وصله بذكر عبد الله بن عمر بن عروة وعمر وهى شاذة كما أشار  
إلى ذلك الخطيب نفسه .

قال عبدالله بن مسعود : يا جارية هاتي بطشت واسكبي فيه ماء ، فجعل يمحوها بيده ويقول : نحن نقص عليك أحسن القصص . فقلا له : انظر فيها حديثاً عجيباً ، فجعل يمحوها ويقول : إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره . كانت الصحيفة تضم طرفاً من علوم أهل الكتاب .

وعن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق ، فشى معنا عمر إلى ( صرار ) ثم قال : أنذرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشيت معنا تريد أن تشيعنا ونسكر منا . فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوم بالأحاديث فتشغلهم . جودوا القرآن وأفولوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم . فلما قدم « قرظة » قالوا : حدثنا . قال . نهانا عمر بن الخطاب وعمر وعلي وغيرهما من الأئمة لا يتحدثون السنة . ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال . وذلك هو الترتيب الطبيعي فلا بد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض في شروح وتفاصيل لبعض أجزائه ، إذ أن هذه التفاصيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد ، وربما شغنت الأذهان فلم تتركها فراغاً للأصول اللازمة في القواعد الهامة .

وخصوصاً لأن الطريقة التي تروى بها الأحاديث تجمع في صعيد واحد ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام متناثرأفي أمكنة شتى وأزمنة شتى ولباسات شتى . عن عمرو بن الزبير عن عائشة قالت : ألا يمجيك أبو هريرة ؟ جاء يجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يسمعي . وكنت أسبح فقام قبل أن أفنى سبحتي - أهى صلاتي - ولو أدركته لرددت عليه . إن رسول الله عايه الصلاة والسلام لم يكن بسرد الحديث كسردكم (١) . . . . .

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما ( وأبو داود ) ١ ( ١١٥ - طبع التازي ) وابن عبد البر ١٢ ( ١٢١ ) .

٢ - ويحيى بعد رسوخ القدم في فهم القرآن - فهم ما يرد من السنن على وجه الحق « فخير لمن فهم السنن أن يحبس لسانه في فهمه فلا يقول : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام . ثم يسوق حديثاً لا يعرف ما المقصود منه ؟ وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها .

وقد بليت السنة من قديم بمن يحفظ منها الكثير ولا يعي إلا اليسير . وتمجيب السيدة عائشة من أبي هريرة حين جلس يروي ليس لأنها تهمة بالكذب ، بل لأن أسلوب تحفته يهدر الملاحظات التي قيلت فيها هذه الأحاديث بعد ما طويت طياً في سرده الموصول . وقد روى مسلم في صحيحه أن عمر ضرب أباه هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ولعل عمر فعل بذلك لأنه وجد أباه هريرة ، يذكر الحديث لمن لا يعي منه إلا أن الإسلام كلمة تقال باللسان ولا عمل وراءها (١) ومنع الحديث - ولو صح - إذ أرحى بهذه الجملة أفضل من إباحة روايته . .

وروى ابن عبد البر عن أبي هريرة نفسه قال : لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر من الخطاب لضربني عمر بالدرة ! !

وفقه عمر في هذا المنع أنه يريد - كما علمت - بناء المجتمع على تعاليم القرآن وشغل الأفكار بتدريها والاصتباط منها ، فإذا رويت السنن بعدئذ تلقفتها أذهان فيرة ، فلم تعد لها معناها الصحيح . .

يستطيع أبو هريرة - لجودة حفظه - أن يسرد مائة حديث في الصلاة مثلاً وعمر ربما لا يرى حرجاً من سرد هذه السنن في مدرسة خاصة ، ولكنه يكره أن

---

(١) قلت : هذا الاحتمال بعيد بل باطل فإن في الحديث نفسه عن مسلم (١/٥١/٤٥) أن عمر (رض) كان أول من لقبه أبو هريرة وأول من حدثه هذا الحديث فلعل الأستاذ المؤلف يعيد النظر فيه .

يشغل جمهور المسلمين بأمر يكفيهم منه القليل ، ثم ينصرفون بعده إلى عمل أجدى .  
على الإسلام وأهله ...

وذلك سر مطاردته للرواة المكثرين !

لقد روى ابن حزم قرابة ألف صنحة من الأحاديث في الوضوء ولمن شاء أن يتوفر على هذا اللون من العلم ، لكن شغل عامة المسلمين به حق ! فإذا بقي بعدئذ للقرآن نفسه ؟ بل إن شغل المسلمين بالقرآن على هذا النحو ليس من الدين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأوا القرآن ، ولا تغفلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به (١) ! ! !

وإن يكن لهؤلاء الحفظ فضل فلأنهم حملوا العلم إلى من يحسن الإفادة منه . على نحو ما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « رب حامل فقه ليس بفقيه ، رب حامل فقه إلى من أفقه منه » (٢) عن أبي يوسف قال : سألت الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير . فأجبت ، فقال لي : من ابن قلت هذا يا يعقوب ؟ فقلت بالحديث الذي حدثتني أنت ! ثم حدثته ! فقال لي يا يعقوب ، إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ، ما عرفت تأويله إلا الآن ... ! !

وقد يبصر أبو يوسف الفقيه ما يغيب عن الأعمش الحافظ ، ولكن المحذور ليس في الحفظ بلا فهم ، بل أن يفهم الأمر على غير وجهه ..

والترتيب الفنى للسنن - كما دونت وتلقيناها - يجعل ما ورد في الإيمان بابا وما ورد في القضاء بابا ... وهكذا ...

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٢٨/٣ . ٤٤٤) والطحاوى في شرح معاني الآثار (١٠/٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً . وسنده صحيح . وقواعد الحافظ في الفتح (٨٢/٩) .

(٢) حديث صحيح رواه ابن عبد البر (٣٩/١) وكذا أصحاح السنن والدارى وأحمد في حديث يزيد بن ثابت وسنده صحيح ، وصححه ابن حبان وابن حجر وغيرهم .

ولما كان الإسلام جملة هذه الحقائق . فإن السنة أصبحت كتاجر كبير للملابس . وزعت فيه أنواعها على مختلف الجوانب ، هنا أغطية الرأس ، وهنا سراويل ، وهنا قمصان . وهنا حلال سابعة . الخ .

والطبيعي أن من يريد كسوة كاملة يمر بهذه الجوانب كلها ليأخذ ما يفي به من رأسه إلى قدمه ، ولكن يحدث كثيراً أن ترى من يشتري قلنسوتين ويخرج حافياً ، أو من يشتري مندبلاً ويخرج عارياً . 11

إن هذا مثل طوائف اشتغلت بالسنة ، ثم - بعد طول تطواف - خرجت على الناس ، وفي يديها من السنن سواك ، وعمامة مقطوعة الذنب اعتبروها شعار الإسلام ، وسر ذلك أنهم دخلوا المعرض الحافل ثم خرجوا منه بعد أن ظنوا الدين كله في حديث أو سنة محدودة ، فأساءوا بذلك إلى القرآن والسنة جميعاً .

٣ - إن قصر الباع في السنة - على كثرة الاشتغال بها - أضر بتوجيه المسلمين ، وأشاع بينهم طائفة من الأحكام المبتسرة والتقاليد الضيقة ، تدبو عنها روح القرآن والسنة وإن اعتمدت على حديث لم يفهم ، أو أثر لم يفقه ...

وذلك أن الإسلام - في الشؤون الهامة - جاء بطائفة من الأحكام ، ذكرت في الكتاب العزيز أو وردت على لسان النبي . وهي جميعاً متكاملة يفصل بعضها بعضاً ويوثقه ، فإذا ظهر في دليل منها ما يعارض سائر الأدلة ، بحث في تأويله حتى يتم الجمع بينها كلها ، أو قبل الأرجح سنداً ورد الآخر .

ولذلك يرى المحققون أن سنن الأحاد ترفض إذا خالفت ظواهر الآي ، وعموم النص ، أو خالفت قياساً يعتمد على أحكام القرآن نفسه ، وهم يفرقون بين الأحاديث التي يروها رجال فقهاء . والتي يروها رجال حفاظ فحسب .

ولنضرب لك ، مثلاً يكشف عما يصيب الأمم من عقم رضياح نتيجة فهمها الخاطيء - لأثر وارد .

كثير من المسلمين يهكون على المرأة ألا ترى أحداً ولا يراها أحد وفي المدينة  
تسيح النسوة في الطرق يرتدين خياما مغلقة طامسة . بها خرقان من أعلى لإمكان  
الرؤية . وقد تخفى هذه الخروق وراء قطع من الزجاج أو الباغة ...

وهذا التقليد السائد يعتمد على حديث سمعت إمام الحرم النبوي يردده من  
فوق المنبر في خطبة الجمعة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره النسوة أن يرين  
عبد الله إن أم مكتوم ، فلما احتججن بأنه أعمى لا يراها ! قال لها : « أفعمياوان  
أنا (١) » ؟

وقد استنكرت على الخطيب إرادته لهذا الحديث . فإن علماء السنة تكلموا  
بني معناه ، ومن الجهل بالسنة تقريره عند بيان وظيفة المرأة ، وأسلوب حياتها ،  
وقواعد اتصالها بالمجتمع العام ، ولم لا تذكر السنن التي رواها البخاري في ذلك  
وهي أدق وأصح ؟؟

أثبت البخاري تحت عنوان « باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال . . عن  
أنس رضى الله عنه قال : لما كان يوم « أحد » انهزم الناس عن النبي قال : ولقد  
رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدما سوقهما .

(١) أخرجه أبو داود ( ٢ - ١٨٣ ) والترمذي ( ٤ - ١٥ ) وابن سعد في الطبقات  
الكبرى ( ٧ - ١٢٦ ، ١٢٨ ) والبيهقي ( ٧ - ٩١ ) من طريق الزهري قال : حدثني  
نهبان مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت . كنت عند رسول الله (ص) وعنده ميمونه : فأقبل  
ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أمر بالحجاب فقال (ص) : احتجبا منه ( فلنا : بإرسول الله  
أليس أعمى لا يبصرنا ولا يدرفتنا ؟ فقال : أفعمياوان أنا ) أستا تبصرانه ؟  
وقال الترمذي : ( هذا حديث حسن صحيح ) وقوى الحافظ إسناده في (الفتح) ، وفيه  
خطر ( فان نهبان هذا لم يوثقه غير ابن حبان ) وهو معروف بتساهله في التوثيق كما بينه  
الحافظ نفسه في مقدمة (سان الزبان) ولهذا نراه في (التقريب) لم يوثق نهبان هذا بل قال  
بغية: (مقبول) أي عند للتابعة ( وليس له متابع على هذا الحديث ) فكلامه يقتضى أن هذا  
الحديث غير مقبول . وقد قال ابن عبد البر : لأنه ليس ممن يحتج بحديثه . وإن حديثه هذا  
مستكر . كما نقله ابن التركلي في ( الجوهر النقي ) .



تنقلان القرب على متونهما - ظهورهما - ثم تفرغانه - الماء - في أفواه القوم ،  
ثم ترجعان فتملأها ، ثم تجميان فتفرغانها في أفواه القوم .

وذكر تحت « باب غزو المرأة في البحر » . . سمعت أنسا رضى الله عنها  
يقول : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على « ابنة ملحان » فاتسكا عندها ثم  
ضحك . فقالت : لم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : ناس من أمتي يركبون البحر  
الأخضر في سبيل الله . مثلهم مثل الملوك على الأسرة . فقالت : يا رسول الله ، ادع الله  
أن يجعلني منهم . قال : اللهم اجعلها منهم ثم عاد فضحك . فقالت له : مم ذلك ؟  
فقال لها مثل ذلك ! فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ! قال : أنت من الأولين ،  
ولست من الآخرين : قال أنس . فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع  
بنت قرظة فلما قفلت ركبت دابتها ، فوقعت بها فسقطت عنها فماتت . .

وذكر تحت عنوان « باب حمل النساء للقرب إلى الناس في الغزو » . . أن  
عمر بن الخطاب قسم سروطاً بين نساء المدينة . فبقى مرط جيد فقال له بعض من  
عنده . يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام التي عندك .  
يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر : أم سليط أحق ( وأم سليط من نساء  
الأنصار ممن بايع رسول الله عليه الصلاة والسلام ) قال عمر . فإنها كانت تزفون  
لنا القرب يوم « أحد » أى تخيطها .

وذكر تحت عنوان « باب مداواة النساء الجرحى في الغزو » عن الزبير بنت  
معوذ قالت : كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام نسقي ، ونداوى الجرحى ، ونرد  
القتلى إلى المدينة . . الخ .

وافتراض أن البخارى لم يرو هذه الأحاديث الصحيح إمكان حديث العمياوين  
يسلط على المجتمع ، ويحجر به على النساء في دورهن فلا يخرجن من هذا السجن  
أبداً ؟ إن حكما مثل هذا لا يعرف من القرآن . بل إن القرآن يحمل هذا الحكم

بعقوبة لانسوة اللاتي يرتكبن الفواحش (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا).

لكن المسلمين لما استوعروا سبل التربية المهذبة للذكور والإناث - بسبب المنحرفهم عن القرآن - لجأوا إلى السجن والاضطر فكان ما كان .

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث . . .

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة . . .

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين . . .

ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخبطهم . . .

وكان تطور الفكر الإسلامي ، على هذا النحو وبالا على الإسلام وأهله .

روى ابن عبد البر عن الضم — جاك بن مزاحم « يأتي على الناس زمان يعلق فيه

المصحف حتى يعشش عليه العنكبوت ، لا ينتفع بما فيه ، وتكون أعمال الناس

بالحاديث والأحاديث » وسبيل الرشد في هذه العماية أن نعود إلى القرآن ، فنجمله

دعامة حياتنا العقلية والروحية ، فإذا وصلنا إلى درجة التشيع منه ، نظرنا في السنة

فانتفعنا بحكمة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرته وعبادته وخلقه وحكمه ،

ولا يجوز أن يتكلم في السنة رجل قليل الخبرة بالقرآن ، أو قليل الخبرة بالمرديات

أو ضعيف البصر بمواقفها ومناسباتها .

## النبي وخوارق العادات

جرت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام - الخاصة والعامة - على قوانين

السكون المعتادة ، فلم يخرج - في جملة ما - عن هذه السنن الدائمة .

هو - من حيث إنه بشر - يجوع ويشبع ، ويصح ويمرض ، ويتعب ويستريح

ويحزن ويسر ، ولكن الناس أنفسهم ، في هذه النواحي ، صنوف لا تجمعها قاعدة

حجارة منهم المهالك على ضروراته، فلو نقص حظه منها قليلا طاش لبه وخارت قواه  
ومنهم الجلد الصبار يجزئه النزر اليسير، ويمضى لعاقبه رافع الرأس موطن العزم .  
إن الآلات التي تدار بالزبوت تتفاوت : منها الرديء الذي يستهلك أُنقال  
الوقود ولا يجدي فتيلا ومنها الجيد الذي يروع إنتاجه على قلة إمداده .

والبشر كذلك مع أبدانهم وضرورتها ومرفقاتها .  
والمطالع لسيرة محمد بن عبدالله يرى من طبيعة حياته الخاصة صلابة المعدن الذي  
صيغ منه بدنه صياغة أعجزت العاقبة، وأمكنت صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة  
ومشاق الجهاد، ولأواء العيش، وهو منتصب مقدام .

نعم . هناك من العباقر عَمِيَّ وُصِمَ ومُعمودون ومصدورون غير أن العبقريَّة (١)  
شأن دون النبوة ومن تمام نعمة الله على امرئ ما أن يرزق العافية من هذه الأدواء  
كلها لتم بهذه العافية السابغة العناصر التي تصحح نظرتَه إلى الحياة ومسلكه فيها .  
وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام - من هذه الناحية - بشراً كاملاً . وكانت  
حياته متسقة مع سنن الله السكونية في البطولات الممتازة .

\* \* \*

أما حياته العامة - رسولا يبلغ عن الله ويربي المؤمنين، ويقاوم الكافرين،  
ويدأب على نشر دعوته حتى تؤتى ثمارها في الآفاق - فلا شك أن القرآن العزيز  
هو مهادها وبنائها .

ومع أن القرآن كتاب معجز إلا أنه يقوم على إيقاظ المواهب العليا في الإنسان  
فهو أشبه بالأحداث الجليلة التي تعرض لك فتحملك على التفكير بأصالة وبصر  
ومن ثم فهو كتاب إنساني يعين الوعي العام على النضج والسداد .

« إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » « كتاب فصلت آياته قرآنا  
عربيا لعلهم يعلمون . بشيراً ونذيراً » .

(١) راجع كتابنا « عقيدة المسلم » .

والفارق بين توجيه العرب بالقرآن وتوجيه اليهود بنتى الجبل ، كالفارق بين صوت الارشاد يهدي العاقل إلى الطريق ، وسوط العذاب يوسع الدابة البليدة .  
لتمضى إلى الأمام ، فلا تسير خطوة إلا رمت بعجزها إلى الوراء خطوات .  
وكان عبد الله بن رواحة ينشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق مكنون من الفجر ساطع  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع  
بيت يحافى جنبه عن فراشه إذا استنقلت بالمشركين المضاجع

° ° °

ومن الحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة القريفة لرسول الله عليه الصلاة والسلام . وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للعادة مقرون بالتحدى ، ولم يعرف هذا التحدى إلا بالقرآن .

وقد ملنا إلى قرب من هذا الرأي (١) ، لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام .

على أنه لا صلة للمعجزة ولا للعمل بهذه البحوث ، فالرجل الفاسد لا يغفر له فساده إيمانه بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أظلمته غمامة ، أو كبه جماد والرجل الصالح لا يغمز مكابته إنكاره لهذه الخوارق ..

فإن هذه البحوث ترجع إلى التقدير العلمى لأدلة الاثبات ، والتقويم المحض لما في الوقائع نفسها من معان ، وليس للخطأ والصواب فيها مساس بإيمان .

° ° °

وقد سرت في المسلمين لوثة شنعاء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم ، حتى كادت جهرتهم تقرن بين علو المنزلة في الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات وحتى جاء من المؤلفين في علم التوحيد من يقول .

(١) راجع كتابنا (عقيدة المسلم) . يبحث النبوات .



وقد لقنهم الله عز وجل هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر في أى صدام ، وان كانوا أحصاف رأياً من أن يتوقعوا هذا .

قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ . فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ هَ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ه وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ه وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ه وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ) .

فانظر : كيف يكلفون - وهم في الصلاة وبين يدي الله - بأشد الحذر والانتباه ؟ إن الله لم يدع أملاً يخامر أنفسهم بأن الملائكة سوف تنزل لعونهم ! إن لم يخدموا أنفسهم فلن يخدمهم أحد ! ذلك هو خطاب الله لمحمد وصحبه ... وعندما ذهل المسلمون عن هذا الدرس في غزوة « أحد » لطموا لطمة موجهة جندلت من أبطالهم سبعين ، وأمضهم خزى الهزيمة ، فوقف زعيم الكفر يومئذ - أبوسفيان - يقول - اعل هيل ...

وأبلى النبي عليه الصلاة والسلام بلاءً شديداً لينقذ الموقف ، وقاتل وقتل ، وأصيب في نفسه .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه هكذا - ويشير إلى ربايعته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله (١) » .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٢٩٨/٧) ومسلم (١٨٩/٥) في « صحيحهما » .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت ربايعيته يوم أحد وشجَّ رأسه . فجعل يسלט الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم شجَّوا نبيهم وكسروا ربايعيته وهو يدعوهم إلى الله ؟ . فأنزل الله عز وجل قوله : « ليس لك من الأمر شيء . أو يتوب عليهم . أو يُمدَّ بهم فإنهم ظالمون <sup>(١)</sup> » .

أرأيت التفريط في أسباب النصر جالب شيئاً غير الهزيمة ؟ أو لو كان الذين انهزموا هم ممثلي التوحيد الحق ؟ ! أو لو كان الذين انتصروا هم سدنة الوثنية المحضة ! !

o o

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد غزوة ورى بغيرها ويقول : الحرب خدعة <sup>(٢)</sup> ، ومع قيامه بالأسباب على ما أوجب الله ، واحترامه للقوانين الطبيعية التي تنظم حياة البشر . مع ذلك فقد استطاعت بعض قبائل العرب أن تخدعه ، وأن تستدرج طائفة من القراء من أفضل أصحابه ليقتلوه عن آخرهم في بئر معونة ، فما دلت على مصارعهم إلا الطيور تحلق في الجو صرفرة على أشلاء الشهداء . . .

إن هؤلاء الرجال الذين ذهبوا ضحية الغدر من أحب خلق الله إلى الله ، ومع ذلك فما أذن لأحد منهم أن يطير بغير جناح ، أو يتحول عن هذا القدر المتاح كما يفكر متأخرة المسلمين اليرم .

ولئن كان الحذر والحيلة من سنن النبوة ، إن الإعداد واستنفاد الجهد فيه من آكد هذه السنن ، وماذا تحسب محمداً عليه الصلاة والسلام انتصر على الناس ؟ لقد أنضح رجاله بالإيمان كما ينضح الصيف بلهبه البطيء أطايب ثماره ، فلما

(١) حديث صحيح أخرجه الشيبان فيما تقدم أيضاً

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٤١١/١) بسند صحيح من حديث كعب بن مالك وهو في الصحيحين بنحوه

أرسلهم إلى أنحاء الدنيا طوفوا بها ، ولم زئير كزئير العاصفة المكتسحة  
للمتوجة ...

بل إن الإسلام - من يوم بدئه - كان معركة يقودها الوحي ، ولذلك شبه  
بواجره الهامية بعاصفة ذات صواعق ورعود :

(أو كصيبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في  
آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين) (١)

أترى للترخي والتواكل ثغرة في هذه الصفوف المتزاحفة ؟ . ياويل مسلمي  
اليوم من انتظارهم لخوارق العادات في دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأفتهم .

نحن لاننكر أن هناك عجائب خارقة تقع للناس . بيد أنها تقع للمؤمن  
والكافر والبر والفاجر . فلو أن رجلاً سار على الماء دون أن يبتل قدماء ، ما دل  
ذلك على صلاحه ، لأن مناط الصلح بما شرع الله من عمل وإيمان لحسب ، وإثبات  
هذه الخوارق لأصحابها مسألة تاريخية محتمة لمن شاء تقصي العجائب ، ولا ارتباط  
لها بأصل الإيمان والنكليف ، وذلك - بداهة - غير المعجزات المشاهدة للمسلمين  
بصحة التبليغ عن الله ، على أن النبوات بما ظارنها من خوارق قد انتهت مع الماضي  
البعيد ، فليس للتحكك بها من جدوى - وقد علمت أن معجزة محمد بن عبد الله  
صلى الله عليه وسلم لم تكن على غرار ما سبقها ، بل كانت معجزة إنسانية عقلية  
دائمة . ثم نظم الله له حياته ودعوته وفق قوانين الأسباب والمسببات كما رأيت .

\* \* \*

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يعرف الغيب . كان كأى بشر آخر لا يدري

ماذا يكسب غداً ؟



ولا ينبغي أن ينتظر منه شيء من ذلك بعد أن انتهى إليه أمر الله : « قل :  
إلا أم لك لنفسي قعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله \* ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت  
من الخير وما مسنى السوء \* إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (١) .

وربما اقترب منه من يضر الشر ويظهر الود - وهو لا يعلم به - حتى تضجحه  
«التجارب » ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » (٢) .

وسيفاجأ يوم القيامة برجال تركهم وهو يعدهم مؤمنين ثابتين ، ثم تكشف  
الفتن عن سواد باطنهم وسوء عقابهم . فيقول ما قال عيسى من قبل : « وكنت  
عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » (٣) .

وقد بطلعه الله على بعض الغيوب لحكم خاصة . كما جاء في التنزيل الإنباء  
بهبزيمه الفرس أمام الروم بعد النصر الذي سبق لهم أن أحرزوه وسارت بحديثه  
الركبان ، وشمت له الوثنيون ، وحزن له المسلمون لمظاهرة منهم لأهل الكتاب .

وقد وردت أحاديث صحاح تحسب على ظاهرها كأن الرسول صلى الله  
عليه وسلم يعرف ما يكون مثل ماورد عن عدى بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول  
الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتته آخر فشكا إليه قطع

السييل : فقال : « يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ » قلت : لم أرها ، وقد أنبت عنها .  
فقال : « إن طالت بك حياة لترين الظمينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة

لا تخاف أحداً إلا الله : قلت في نفسي : فأين ديار طيء الذين سعروا في البلاد ؟؟  
« ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى » قلت : كسرى بن هرمز ؟؟ قال :

كسرى بن هرمز ! ! ! .

قال : فرأيت الظمينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله .  
« وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز » (١) .

(١) الاعراف : ١٨٨ . (٢) التوبة : ١٠١ (٣) المائدة : ١١٧ . معنى هذا في

« صحيح البخاري » في « التفسر » من حديث ابن عباس (رض)

(٤) أخرجه البخاري ( ٦ / ٤٧٧ - ٤٧٩ ) وغيره عن عدى .

والحق أن هذه الأحاديث وأشباهاها لم تكن إخباراً بغيب<sup>(١)</sup>، إنما كانت تصديقاً لوعده الله بأن المستقبل للإسلام، وبأن هذا الدين سيسود المشرق والمغرب، فكانت تفسيراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله في كتابه «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» (٢٨:٤٨) «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات آيسته خلفتهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا» (٥٥:٢٤).  
وقريب من ذلك الأحاديث المنبئة عن الفتن .

إن الرجل الخبير بالأسواق لا يلبث - بعد استعراض يسير لأحوالها - حتى يصدر حكماً صائباً عليها، والخبير بطوايا النفوس يستطيع من نظرة خاطفة أن يستشف ما وراءها ويستكشف خباياها، ومن ذلك قول الشاعر :

الألعى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وكان محمد عليه الصلاة والسلام خبيراً بالنفوس ومعانها، والدنيا وأطوارها، والزمان وتقلبه، والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها وهم يشقون طريقهم في الحياة، وعتول الأنبياء من ورأها فطر مجلوة، وإلهام ملاح فكيف بشيخ الأنبياء الذي تمهده القدر من نشأته ليحمل رسالة معجزتها في أسلوبها وأسلوبها يقوم على ترقية الفطر وتفتيق الأبواب ! !

إن هذا يجعله أشد الناس تقديراً لموقعه . وانتظاراً لما يفده ، هل يستطيع السائر في مناطق الشمال أن يقدر خلوة الجو من الضباب الداكن ، أو هل يستطيع السائر في مناطق خط الاستواء ألا يتوقع عواصف القيقظ فكيف يليق بصاحب دين

---

(١) بل هي من الإخبار بالنبي بإعلام الله تعالى إياه ، والتأويل المذكور لا مبرره مادام أن المؤلف حفظه الله يسلم بأصل الاعلام كما ذكر آنفاً . وفي هذا الحديث ما يشير إلى ذلك ، إذ أنه قال ان طالت بك حياة . . فهل هذا التمديد الدقيق الزم من يمكن أن يعرفه «الخبير» إلا بإعلام اللطيف الخبير سبحانه وتعالى .

خطير أن يتنامى الفتن العارضة لتعاليم دينه ورجالها ، ما قرب منها وما بعد ، ما ظهر منها وما بطن ..

لذلك كثر كلام الرسول عن الفتن ، وليس القصد الإخبار عنها ، بل التحذير منها : تحدث الفتن التي تلحق الأشخاص من اختلاف أفعالهم وتنافر أمزجتهم .. وتحدث عن الفتن التي تصيب القلوب من إقبال الدنيا والتحاسد عابها ... وتحدث عن الفتن التي تصيب الأمة بعد أن يثوب الكفر من هول الهزائم التي منى بها . ويتناسك مرة أخرى بعدما انحلت عراه .. فكان أن خوف أصحابه من ذلك كله في أحاديث يطول سردها .

\* وأخطر هذه الفتن ما يصيب تعاليم الإسلام نفسها من ذبول واضمحلال .  
\* فالصلاة تفقد روحها ، وهو الخشوع ، ثم يتآكل جسمها فتتحول تقرأ صخيفاً والجهاد ، يفقد روحه وهو الإخلاص ، ثم يتحول انتهاياً للفنائم واستعباداً للأحرار .  
ثم تفتقر حدته ، ثم يبطل ...

\* والصيام ينتهى من صبر على الحرمان وأدب الفرائز المتطلعة إلى استعداد للولائم ومضاعفة للنفقة ...

\* والحكم يتطور من خدمة الجمهور برضاه إلى ناله عليه عن بغى واستكراه ، ثم يسقط ويضع الحاكم والمحكوم معاً ..

\* وحتى محبة المسلمين لرسولهم تتحول بعد موته إلى سوق حول قبره تضج بالصياح المنكر والمهممة الحائرة .

o o o

عندما زرت المدينة توجهت إلى قبر الرسول الجليل ، وكانت المشاعر التي تنبعث من قلبي تطن في أذني . فلما تبينت لي معالم الضريح يمت شطره وأنا أتضاءل في نفسي ، وكأني كرة تندرج تحت أقدام عملاق ...

وسلمت بالعبرة التي شرع ، لم أزد عليها إلا بيتاً من الشعر لم أدر ما وراءه

لما عراني من اضطراب غفمت به شفتاي ولم تسمعه أذناي :

ياخير من دنت في التراب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

ثم انصرفت ...

بيد أن لاحظت أمواجاً تقذف تصرخ بكلام طويل . هذا يقرأ في كتاب  
وهذا يسمع من حافظ ، وهذا يشوش على ذلك ، والكل يشوش على المصلين ،  
وتتواكب هذه الوفود في هرج ومرج لا ينقطعان .

ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعني تلك الحال عندما قال : اللهم لا تجعل  
قبري بعدى وثناً يعبد ؟ ... (١)

وما أن تعرفت أحوال الكافرين في المسجد والبادية . حتى كدت أدع  
الصلاة فيه ، فإني أكره أشد الكراهية البدع والفوضى والجهل .

وقد ذكرت قصة عروة بن الزبير لما بنى قصرأ بوادي العقيق وابتعد عن  
المدينة ، فقل له الناس : قد جفوت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !!  
فقل : إني رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والقاحشة في فجاجكم  
عالية ، وكان فيما هنالك عما أنتم فيه عافية . وقيل : إنه لما عوتب في ذلك قال :  
وما بقي ! إنما بقي شامت بنكبة ، أو حاسد على نعمة !!

نسأل الله العفو والعافية .

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (١/ ٤٣٦) وابن سعد في الطبقات (ج ٢ ق ٣٦)  
(٣٦) من حديث أبي هريرة ، وسنده صحيح .

( ٢ )

من الميلاد إلى البعث

ولد محمد صلى الله عليه وسلم من أسرة زاكية للمعدن نبيلة النسب ، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوضاع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » (١) .

وعراقة الأصل لا تمتح الرجل الفاضل فضلاً ، كما صلب إذا ترك للأصداً يمسى لا غناء فيه ، أما إذا تعهدته اليد الصناعات فإنها تبذع منه الكثير .

ولذلك لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم ؟ قال : « . . . . . فبن معادن العرب تسألونى ؟ » قالوا . نعم ، قال « فخيرهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (٢) .

وكان منبت محمد صلى الله عليه وسلم فى أسرة لها شأنها ، بعض ما أعد الله لرسالته من نجاح . فالجتماع العربى الأول كان يقوم على العصبية القبلية الحادة ، العصبية التى نفى القبيلة كلها دفاعاً عن كرامتها الخاصة ، وكرامة من يمت إليها . وقد ظل الإسلام حينئذ من الدهر يعيش فى حى هذه التقاليد المرعية حتى استغنى بنفسه كما تستغنى الشجرة عما يحملها بعد ما تفلظ وتمتوى . . .

وكان « لوط » يتمنى شيئاً من هذه التقاليد ، عندما أحس الخطر على الأضياف النازلين به ، ولم يجد عشيرة تدفع أو أهلاً تهيجهم الحمية ، فقال لقومه : « اتقوا

---

(١) حديث صحيح . أخرجه مسلم ( ٧ / ٥٨ ) من حديث وائلة بن الاسمع وصححه الترمذى ( ٤ / ٢٩٢ ) .

(٢) صحيح . أخرجه البخارى ( ٦ / ٤١٢ - ٤١٣ ) ومسلم ( ٧ / ١٨١ ) من حديث أبى هريرة .

الله ولا تُخزون في ضيفي أليس منكم رجلٌ رشيدٌ؟<sup>(١)</sup> ثم قال: «لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركنٍ شديدٍ!!»

\* \* \*

لكن محمداً عليه الصلاة والسلام، على كرم محمده، لم يرزق حظاً وافراً من الثراء، فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سبباً في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات. إن أبناء البيوتات الكبيرة تعريهم الثروة بالسطوة، فإذا فقدوا هذا السلاح، وكانت لهم تقاليد كريمة، بذلوا جهوداً مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشممهم. ولذلك يقول قائلهم:

وإنا - على عض الزمان الذي بنا - نعالج من كره المخازي الدواهيما  
وربما لا يرى بعض الناس حرجاً من أن يعلن فاقته ويكشف صفحته.

غير أن هناك بعض آخر يطوون همومهم في همتهم ثم يبرزون للدنيا مشمرين،  
ومن هؤلاء عبد المطلب...

كان عبد المطلب سيد مكة، بيد أن هذه السيادة التي انتهت إليه انتهت به ولم تستقر في عقبه، إذ اشتد ساعد منافسيهم في زعامة أم القرى، وبدا كأن الأمر سيؤول إليهم. بل إن هي إلا أعوام حتى تصدرت أسرة عبد شمس، ثم تمر أعوام أخرى فإذا أبو سفيان يتزعم مكة، وبذلك تنقل السيادة عن بني هاشم. و«عبد الله» أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جلييلة، وقد زوجه بأمنة بنت وهب، ثم تركه يسعى في الحياة وحده، فخرج وهو عروس بعد أشهر من بناه بأمنة، خرج يضرب في مناكب الأرض ابتغاء الرزق، وذهب في رحلة الصيف إلى الشام، فذهب ولم يعد... عادت القافلة تحمل أبناء مرضه، ثم جاء بعد قليل نعيه.

وكانت آمنة تنتظر رجلها الشاب الجلد لتهرباً بحياها معه ، ولتشره بأن في أحشائها جنيناً يوشك أن تقر به عينها . غير أن القدر - الحكمة عليا - حسم هذه الأمانى الحلوة ، فأمست الزوج المحسودة أيتماً .

تعد الليالى لتودع الحياة الموحشة «يتيمها» الفريد . . . .

قال الزهرى : أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يبتار لهم تمرأ فمات بها ، وقيل : بل كان بالشام ، فأقبل في غير قریش ، فنزل بالمدينة وهو مريض ، فمات فيها ودفن في دار النابتة الجمعدى وله خمس وعشرون سنة ، وتوفى قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

\* \* \*

ولد محمد صلى الله عليه وسلم بمكة ولادة معتادة ، لم يقع فيها ما يستدعى العجب أو يستلفت النظر ، ولم يكن المؤرخين تحديد اليوم والشهر والعام الذى ولد فيه على وجه الدقة ، وأغلب الروايات تتجه إلى أن ذلك كان عام هجوم الأحباش على مكة سنة ٥٧٠ م في الثانى عشر من ربيع الأول ٥٣ ق . ه .

وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شىء ذوبال ، فالأحفال التى تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشربعة .

وقد روى البعض أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخذت النار التى يعيدها الجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة «ساوة» بعد أن غاضت . قال البوصيرى :

أبان مولده عن طيب عنصره	يا طيب مبتدأ منه ونختم
يوم قرس فيه الفرس أنهم	قد أنذروا بحلول البؤس والقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع	كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف	عليه ، والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها	ورد واردها بالقيظ حين ظمى



وهذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة فإن ميلاد محمد كان حقاً إلهياً  
بزوال الظلم واندثار عهده واندكك معالمه . وكذلك كان ميلاد موسى ، الأترى  
أن الله لما وصف جبروت فرعون ، واستكانة الناس إلى بغيه ، ثم أعلن عن إرادته  
في تحرير العبيد واستنقاذ المستضعفين . قص علينا قصة البطل الذي يقوم بهذه  
الأعمال فقال : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . . » .

وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم لتحرر العقلي  
والمادى وكان جند القرآن أعدل رجال وعام التاريخ ، وأحصى فعالهم في تدوين  
المستبدين وكسر شوكتهم ، طغية إثر طاغية .

فلما أحب الناس - بعد انطلاقهم من قيود العسف - تصوير هذه الحقيقة  
تخيّلوا هذه الإرهاسات ، وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد غنى عن هذا كله .  
فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يهدنا في هذه الروايات وأشباهاها .

• • •

استقبل « عبد المطلب » ميلاد حفيده باستبشار وجدل ، لعله رأى في مقدمه  
عوضاً عن ابنه الذى هصرت المنون شبابه . فحول مشاعره عن الراحل الذهاب  
إلى الوافد الجديد يكلؤه وينال به .

ومن المواقف الجميلة أن يُلبسهم « عبد المطلب » تسمية (١) حفيده « محمداً » .  
إنها تسمية أعانه عليها ملك كريم ! ولم يكن للعرب ألفون هذه الأعلام ، لذلك  
سألوه : لم رغب عن أسماء آبائه ؟ فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء ، وأن  
يحمده الخلق في الأرض ، فكأن هذه الإرادة كانت استشفافاً للغيب ، فإن أحداً  
من خلق الله لا يستحق إزجاء عواطف الشكر والثناء على ما أدى وأمدى كلمة  
يستحق ذلك النبي العوى المحمّد .

(١) سماه كذلك بعد ماخضته في يومه السابع .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله . « ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مذمماً وأنا محمد ! » (١) .

لكن الحقيقة القاسية - برغم حفاوة الجد الحنون - باقية . فإن « محمداً » يقيم . برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا . ليكن !! ولنفرض عبد الله بقى حياً !! فإذا عسى كان يفعل لابنه ؟ أكان يهب له النبوة ؟ . ما كان له ذلك . إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تنحكم في مستقبل الطفل وتحفر له في الحياة مجراه . ولو كانت النبوة بالاكتساب ما قربتها حياة الوالد شبراً . فكيف وهي اصطفاء ؟ .

كان يعقوب حياً يرزق . له شيخوخته وتجربته وحكمته ، بل له نبوته . وقد نظر يوماً ما فلم يجد يوسف قريباً منه . إنه فقد في أخطر فترات العمر ، فترة الصبا اللدن واليقظة الغضة . ومع فساد اليبثات التي احتوت يوسف فقد كان باطنه ينضح بالتقى والعفاف ، كما يتقد المصباح في أمعاء الليل المدهم ، فلما التقى الابن بوالده بعد لأى ، رأى يعقوب ابنه نبياً صديقاً . . .

لقد ولّى عبد الله وترك ابنه يتيماً ، بيد أن هذا اليتيم كان يعدُّ من اللحظة الأولى لأمر جلال ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار . وما الأب والجد ، ما الأفرون والأبعدون ، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله من اصطنعه الله .

○ ○ ○

أقبلت « آمنة » على ابنها تحنو عليه في انتظار المراضع المقبلات من البادية ، يتلمسن تربية أولاد الأشراف . والأعرابيات اللاتي يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار . ولم يكن لمحمد أب ترُقّب عطاياه ، أو غنى تفرى جدواه . فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره .

(١) الحديث صحيح أخرجه البخارى (٦ - ٤٣٥ - ٤٣٦) .

وكانت « حليمة ابنة أبي ذؤيب » من قبيلة بني سعد إحدى القاديات إلى مكة ابتغاء العودة برضيع تستعين على العيش بمحضاته . ولم يرض طموحها أول الأمر طفل يقيم أنها لم تجد طلبتها واستحييت أن تعود صفر اليدين فرجعت إلى « آمنة » تأخذ منها « محمداً » .

وكانت البركة في مقدمه معها ، كانت سنواتها عجافاً من قبله . فامتن الله عليها بخير مضاعف : درت الضرور بعد جفاف ولان العيش وأخصب ، وشعرت حليمة وزوجها وولدها بأن أوتيتهم من مكة كانت باليمن والغنم لا بالفقر واليتم ، مما زاد تعاقبهم بالطفل وإعزازهم له .

وتنشئة الأولاد في البادية ، يمر حوافي كنف الطبيعة ، ويستمتعون بجوها الطاق وشاعها المرسل ، أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإنماء الأعضاء والمشارع ، وإطلاق الأفكار والعواطف .

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أخلقت على من فيها ، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش .

ولاشك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود إليه - إلى البعد عن الطبيعة ، والإغراق في التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق .

### شق الصدر

مكث « محمد » في مضارب « بنى سعد » خمس سنوات ، صح فيها بدنه واطرد نمؤه ، وهذه السنوات الخمس هي عمر الطفل . فلا ينتظر أن يقع فيها شيء يذكر . غير أن السنن الصحاح سجلت في هذه الفترة ما عرف بهد مجادث « شق الصدر » .

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقه، فقال: هذا خط الشيطان منك؛ ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني مرضعته - أن محمداً قد قتل. فاستقبلوه، وهو منتقع اللون» (١).

وهذه القصة التي روّتها حليلة وزوجها، ومحمد مسترضع فيهم، نجدها قد تكررت مرة أخرى ومحمد عليه الصلاة والسلام رسول جاوز الخمسين من عمره، فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال: بينا أنا في الحطيم - وربما قال في الحجر - مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آت، فشق ما بين هذه إلى هذه - يعني ثفرة مخره إلى شمرته - قال: فاستخرج قلبي: ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشى ثم أعيد... (٢).

ولو كان الشر إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما يزود الطائفة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق... لقلنا: إن ظواهر هذه الآثار مقصودة. ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك، بل من البديهي أنه بالناحية الروحية في الإنسان الصق. وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم (١٠١/١-١٠٢) وأحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٢٨) زاد في آخره: وقال أنس وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره وللحديث شواهد كثيرة، منها عن عتبة بن عبد السلمي عند الدارمي (٨١١) والحاكم (٢/٦١٦) صححه وواقفه الذهبي، ومنها عن أبي بن كعب عند عبد الله بن أحمد في زوائد المستند (١٣٩/٥) ومنها عند أبي ذر عند ابن جرير في تاريخه (٥١٢-٥٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٣٢/٦) ومسلم (١٠٣/١-١٠٤) والنسائي (٧٦/١) من حديث مالك بن صعصعة.

في نطاقها ، أو بتعبير آخر عندما ينتهى البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يسيّر بها الروح هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم ، يصبح البحث لا جدوى منه ، لأنه فوق الطاقة .

وشيء واحد هو الذى نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس . فإذا كانت للشر « موجات » تملأ الآفاق ، وكادت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين — بتولى الله لها — لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها . وبذلك يكون جهد المرسلين في « متابعة الترقى » لافي « مقاومة التلذذ » وفي تطهير العامة من المنكر لافي التطهر منه ، فقد عاقبهم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله قال . وإيأى ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » (١) .

وفي حديث عن عائشة ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . أغرت ؟ قالت : وما لئلى ان يغار على مثلك ! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد جاءك شيطانك ! قالت : أو معى شيطان ؟ قال : ليس أحد إلا ومعه شيطان . قالت : ومعه ؟ قال : نعم ولكن أعاننى الله عليه فأسلم ، (٢) أى انقاد وأذعن فلا يستطيع أن يهجس بشر .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الخصائص التي أضفاها الله على محمد صلى الله عليه وسلم فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزلق الطبع الإنسانى ومقائن الحياة الأرضية ، وقد أورد الخازن في تفسيره القصة الأولى — أيام الرضاعة — هند

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩/٨) عن ابن مسعود .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم عنها ، في الموضع السابق .

تفسيره لقول الله عز وجل : « ألم نشرح لك صدرك » ووضعنا عنك وزرك \*  
الذى أنقض ظهرك . . . » ؟

وشرح الصدر الذى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب .  
ويحسن أن تعرف شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع فى السنة .

عن عائشة أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن : يا رسول الله ،  
أينا أسرع بك لحوقاً ؟ قال : أطواكن يدا . فأخذن قصبه يذرعهما ( ١ ) فكانت  
سودة أطولهن يدا . فعلما بعد أنما كان طول يدها بالصدقة . وكانت تحب الصدقة  
وكانت أسرعنا لحوقاً به ( ١ ) . . . »

\* \* \*

آب « محمد » صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد أعوام طيبة قضاها فى البادية ،  
... آب ليجد أمماً كريمة حبست نفسها عليه ، وشيخاً مهيباً يلتمس فى مرآه العزاء  
عن ابنه الذى خلى مكانه فى شرح الشباب . وكان الأيام أبت له قراراً بين هذه  
الصدور الرقيقة ، فأخذت تحرمه منها ، واحداً بعد الآخر .

رأت « أممة » - وفاء لذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره بـ « يثرب » فخرجت  
من « مكة » قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلومتر فى الذهاب غير مثيلتها فى الإياب .  
ومعها فى هذه السفرة الشاقة ابنتها « محمد » صلى الله عليه وسلم وخادمتها « أم أيمن » .  
وعهد الله لم يمت فى أرض غريبة ، فقد مات بين أخواله بنى النجار . قال ابن الأثير :

---

( ١ ) حديث صحيح ، أخرجه البخارى ( ٢٧٢/٣ ) من طريق مسروق عن عائشة بهذا  
السياق إلا أنه قال : « وكانت أسرعنا لحوقاً به ، وكانت تحب الصدقة » وأخرجه مسلم  
( ١٤٤/٧ ) من طريق عائشة بنت طلحة ، والحاكم من طريق عمرة ، كلتاها عن عائشة  
بنحوه ، وفى روايتهما : « فكانت أطولنا يداً زينب . لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق »  
وهذا يخالف رواية البخارى فإن ظاهرها أن سودة هى التى لحقت به أولاً وهو خطأ بين  
كحقيقته الحافظ فى الفتح . وقد رجح فيه رواية مسلم وهو الحق : فمن شاء الزيادة فى التحقيق  
فليرجع إليه . وزينب هذه هى بنت « جيش لا بنت خزيمه كما توهم بعضهم .

« إن هاشمًا شخص في تجارة إلى الشام . فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن لبيد الخزرجي ،  
فقرأى ابنته « سلمى » فأعجبته ، فتزوجها ، وشرط أبوها ألا تلد ولدًا إلا في أهلها ،  
ثم مضى هاشم لوجهه . وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت .  
فلما أنقلت ردها إلى أهلها ومضى إلى الشام فمات بـ « غزة » وولدت له « سلمى »  
عبد المطلب فسكن في المدينة سبع سنين ٤٠٠٠ .

وقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام لدى أخواله قريبًا من قبر أبيه نحو شهر . ثم  
تقل عائدًا إلى مكة . وإذا المرض يلاحق أمه ويلح عليها في أوائل الطريق فمات  
بـ « الأبواء » وتركته وحيدًا مع الخادم المشد رهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين ،  
ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين .

إن المصاب الجديد نسكًا الجروح القديمة مما جعل مشاعر الخنو في فؤاد  
« عبد المطلب » تربو نحو الصبي الناشئ ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل  
يؤثر أن يصحبه في مجالسه العامة . كان إذا جلس على فراشه بجوار الكعبة ، أدناه  
منه في حين يجلس الشيوخ حوله .

وقد تأخرت سن عبد المطلب حتى قيل : إنه توفي وله مائة وعشرون سنة إلا أنه  
سطارق الحياة وعمر « محمد » يناهز الثمانية . فرأى — قبل وفاته — أن يعهد بكفالة  
حفيده إلى عمه أبي طالب .

ونض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكل وجهه ، ضمه إلى ولده وقدمه عليهم ،  
واختصه بفضل احترام وتقدير . وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه  
حمايته ، وبصا دق وبخا صم من أجله .

ودرج محمد عليه الصلاة والسلام في بيت أبي طالب والسن تمضي به قدمًا إلى  
الوعي العميق بما حوله . فأصر على أن يشارك عمه هموم العيش ، إذ كان أبو طالب  
— على كثرة أولاده — قليل المال ، فلما قرر أن يمضي على سنن آبائه في متابعة  
الرحيل إلى الشام ابتغاء الأجر والريح قرر أن يكون معه . وكان عمره نحو  
الثلاث عشرة سنة .

## بحيرا الراهب

ولاجد في السنن الصحاح انباء تصف هذه الرحلة . إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة ، وأعظمها أثراً . ومثل محمد عليه الصلاة والسلام في صفاء ذهنه ونقاء قلبه ، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى ، في حله أو ترحاله ، على أن من المقطوع به أنه لم يخرج لدراسة دين أو فلسفة ، ولم يلق من يتحدث معه في ذلك وقدرت كتب الأخبار بمض خوارق ، ذكرت أسما وقعت له ، من ذلك التقاؤه بالراهب ، « بحيرا » الذي تفرس فيه ورأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه ، فلما سأل أبا طاب : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال : ما ينبغي أن يكون أبوه حياً ؟ قال : فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود .

وقد تكون هذه القصة صحيحة . فإن البشارة بنبي بعد عيسى عليه السلام موجودة في الكتاب المقدس عند النصارى . وهم - منذ تكذيبهم برسالة محمد عليه الصلاة والسلام - يرتبون هذا النبي المنتظر . ولن يجيء أبداً ... لأنه جاء فعلاً . وسواء صحت قصة « بحيرا » هذه أم بطلت (١) فمن المقطوع به أنها لم تختلف بعدها أثراً ، فلا محمد - عليه الصلاة والسلام - أشرف للنبوة أو استعد لها - لكلام الراهب - ولا أصحاب القافلة نذاكروا هذا الحديث أو أشاعوه . لقد طويت كأن لم تحدث مما يرجح استبعادها .

وقيل أيضاً ، إن كوكبة من فرسان الروم أقبلت على « بحيرا » كأنها تبحث عن شيء . فلما سألتها : ما جاء بك ؟ قالوا : جئنا لأن نبيا يخرج هذا الشهر . فلم يبق .

---

( ) بل هي صحيحة ، فقد أخرجها الترمذي (٢٩٦/٤١) من حديث أبي موسى الأشعري . وقال : « هذا حديث حسن » . قلت : وإسناده صحيح ، كما قال الجزري . قال : « وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ » . قلت : وقد رواه البرازي فقال : « وأرسله مع عمه رجلاً » .



طريق إلا بعث إليها ناس - لاقبض عليه (١) فجادلم «بحيرا» حتى أقنهم  
بعبث ما يطلبون .

والحققون<sup>(١)</sup> على أن هذه الرواية موضوعة مضاهاة لما يذكره الإنجيليون  
من أن ناساً طلبوا المسيح عقب ولادته لقتله ، وهي عند المسيحيين مضاهاة لما عند  
الوثنيين من أن «بودا» لما وضعته أمه العذراء (١) طلبه الأعداء ليقتلوه . .  
إن علماء السنة يهتمون بالأخبار الواردة - من ناحيتي المتن والسند - فإذا  
لم تجد علماً ثابتاً ، أرتاباً راجحاً لم يكثرثوا بها . وقد انضمت أساطير كثيرة إلى  
حسير المرسلين . عندما تعرض على القواعد المقررة في فن التحديث يظهر عوارها  
ويستغ اطراحها .

(١) من م هؤلاء المحققون ، ومن أين جاء الوضع المذكور . وهذه الرواية هي في  
حديث أبي موسى المتقدم وقد علمت صحته . وماذا نضر للاضاهاة بعد الثبوت ؟ أفلا ترى أن  
ما يذكره الإنجيليون يضاهي ما هو ثابت في القرآن الكريم من طلب فرعون لموسى في قتله  
الأنبياء ؟ أفترد وهذا المشابهة المذكورة ! اللهم : لا . مع تقديرنا لكلام الاستاذ العلامة  
الشيخ : « ناصر الدين » فإننا نذكر طرفاً من كلام العلماء والمحققين حول هذه القصة :  
« قال الجزري - كما نقل الشيخ ناصر - : اسناده صحيح . ورجاله رجال الصحيح .  
أو أحدهما . وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ . عدماً أمتنا وهما ( ! ) وهو كذلك ( ! )  
فإن سن النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ ذاك اثنتا عشرة سنة . وأبو بكر أصغر منه  
ببستين . وبلال لعله لم يكن ولد في ذلك الوقت ا ه . وقال الذهبي في ميزان الاعتدال :  
« قيل : ما يدل على بطلان هذا الحديث قوله : « وبث معه أبو بكر بلالا ( ! ) .  
و بلال لم يخلق بعد وأبو بكر كان صيباً . ا ه . قال صاحب « تحفة الأحوذى » :  
« ووضف الذهبي هذا الحديث لقوله : « وبث معه أبو بكر بلالا » فإن أبا بكر إذ ذاك  
سماشترى بلالا . وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة : رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه  
النقطة فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد روايته .  
كذا في « المواهب اللدنية » . قال « ابن القيم » في زاد المعاد : ووقع في كتاب  
الترمذي وغيره : أنه بث معه أبو بكر بلالا وهو من الغلط الواضح ( ! ) فإن ذلك لعله  
لم يكن موجوداً . وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر . راجع تحفة الأحوذى  
طبع الهند ( ١ / ٢٩٣ كتاب المذنب ) .

ذلك . وقد قال الحافظ ابن كثير في السيرة ( ١ / ٢٧٤ ط "حلبى" ) : روى  
هذا الحديث الترمذي . والحاكم . والبيهقي . وابن عساکر . قلت : - أى ابن  
كثير - فيه من الغرائب أنه من مراسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في  
سنة خيبر ( سنة سبع من الهجرة ) وعلى كل تقدير فهو : « مرسل » .  
فالحديث « معلل » . طبقاً لما قررره العلماء في علم المصطلح .

## حياة الكدح

عاد محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الرحلة ليستأنف مع عمه حياة الكدح . فليس من شأن الرجال أن يقعدوا . ومن قبله كان المرسلون يأكلون من عمل أيديهم ، ويحترفون مهناً شتى ليعيشوا على كسبها . وقد صرح أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - اشتغل صدر حياته برعى النعم وقال : « كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » . . . كما ثبت أن عدداً من الأنبياء اشتغل برعايتها <sup>(١)</sup> ، أتري ذلك تعويداً لهم على سياسة العامة ، والرفق بالضعفاء والسهر على حمايتهم ؟ ؟

وقد تسأل : أنتقدح العارف المتصلة بالكون وماوراءه ، والناس وما فيضون فيه - أنتقدح حقائقها في نفوس المرسلين فجأة ، دون إعداد سابق أو تهيئة حكيمة ؟ والجواب كلا . فالأنبياء - وإن لم يتعلموا بالطرق والقوانين التي يتعلم بها أمثالنا - لم من سلامة فكرهم واستقاءة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما نعهد من أساليب .

ما العلم الذي ترقى به النفس ؟ أهو حفظ الدروس واستيعاب القواعد والقوانين ؟ إن هناك ببيغوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعي . ولقد نرى أطفالاً صغاراً يلقون - باتقان وتمثيل - خطباً دقيقة لأشهر الساسة والقادة .

فلا الأطفال - بل استحضروا من كلام الأئمة - أصبحوا رجالاً ولا البيغوات تحوات بشراً .

وقد تجد من يحفظ ، ويفقه ، ويجادل ويقاب ، ولكن العلم في نفسه كهرواق

الذهب في الصخور المهملة ، لا يبعث على خير ولا يزرع عن شر .

وقد شبه القرآن أحبار اليهود الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها بالحسين « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الجمار يحمل أسفاراً » <sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩/٤) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « ما بعث الله نبياً إلا رعى النعم . فقال أصحابه : وأنت . فقال : نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » .  
(٢) الجمعة : ٥٥ .

وهذه الطبايع التي تحمل العلم لا تصلح به إنما تسمىء إليه ، ولذلك بحسن الضن به عليها . وفي الأثر « واضع العلم عند غير أهله كقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » (١) .

ثم هناك الخرافيون الذين يعالطون في الحقائق أنفسهم كأن عقولهم ميزان ثقلت إحدى كفتيه - تغير سبب - فهو لا يضبط وزناً أبدأ ، ينبسطون للمستحيلات ويقبلونها . ويتجهمون للوقائع ويرفضونها .

وقد بلونا أناساً ظلوا يتعاملون قرابة عشرين سنة تعرض عليهم القضية فيخبطون فيها خبط عشواء ، فإذا عرضت القضية نفسها على أمي سليم الفطرة نقي العقل صدع فيها بالحق لأول وهلة . ومعنى ذلك أن هناك من تبذل في إقامة عوجه العقلي عشرين سنة ، حافلة بالبحث والدرس ، فتعجز عن الوصول به إلى مرتبة رجل أوتي رشده بأصل الخلقة .

ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد وأنه - قبل رعى الغنم وبعده ، وقبل اعتراف التجارة وبعدها - كان يمشي يقظ القلب في أعماء الصحراء ، صاحبياً بين السكارى والغافلين .

وجو الجزيرة العربية يزيد خمول الخامل وحدة اليقظان ، كالشعاع الذي ينسى الأشواك والورود معاً ، وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يستعين بصمته الطويل ... صمته الموصول بالليل والنهار ، صمته الملقب على الرمال الممتدة والعرمان القليل . كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل ، وإدمان الفكر ، واستكناه الحق .

---

(١) حديث ضعيف جداً ، علقه ابن عبد البر في « جامع العلم » ( ١ / ١١١ ) ووصله ابن ماجه في سننه ( ١ / ٩٨ ) . وفي سننه حفص بن سليمان وهو الأسدي القاري . قال ابن خراش : « كذاب يضع الحديث » وضعفه غيره ، وقال أبو حاتم : « متروك » . وكذا قال الحافظ في التعريب .

ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من للنظر الدائم أرجح يقينا من حفظ لافهم فيه ،  
أوفهم لا أدب معه . ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من  
أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها .

ولاشك أن القدر حاطه بما يحفظ عليه هذا الاتجاه الفذ . فعندما تتحرك  
نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا - وذلك من قبيل الصغار التافهة -  
تتدخل العناية للحيلولة بينه وبين هذه الأمور .

روى ابن الأثير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هممت بشيء مما كان  
أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به  
حتى أكرمنى برسالته . قلت ليلة للعلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت  
لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقل : أفعل . فخرجت  
حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت : ما هذا فنالوا : عرس  
فلان بفلانة . فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى ، فممت فما أيقظنى إلا حر  
الشمس . فعدت إلى صاحبى ، فسألنى ، فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل  
ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة . . . ثم ما هممت بعده بسوء . . . » (١)

. . .

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الحاكم (٢/٤٠٥) من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن عبد  
الله بن مخزوم عن الحسن بن محمد بن علي عن جده علي بن أبي طالب (ض) قال سمعت رسول  
الله (ص) يقول فذكره وقال : ( هذا حديث صحيح على شرط مسلم ) ووافقه الذهبي قلت :  
وهو وم منها مما لأمرين : الأول : أن ابن إسحاق إنما يروى له مسلم مرة وتنا بغيره  
كما ذكر ذلك الذهبي نفسه فى الميزان ، والحاكم لم يروه عنه مقلوناً بغيره كما ترى ، فليس  
هو على شرط مسلم . الثانى : أن محمد بن عبد الله بن قيس ليس مشهور العدالة فلم يؤتفه غير  
ابن حبان ، وتوثيقه عند ما ينفرد به لا يؤتى به لأن من قاعدته أن —

إن مراتب التعليم المختلفة هي مراحل جهاد متصل لتهديب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويب نظرتيه إلى الكون والحياة والأحياء . فكل تعليم يقصر بأصحابه عن هذا الشأولا يؤبه له ، مهما وسم بالشهادات والاجازات ! وأحق منه بالحفاوة ، وأسبق منه إلى الغاية المنشودة ، أن ينال المرء حظاً وافراً من حسن النقطه وأصالة الفكرة ، وسداد الوصيلة والهدف . وقد أشار القرآن الكريم إلى نصيب « إبراهيم » من هذه الخصال عندما قال : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ » (١)

ومحمد عليه الصلاة والسلام في هذا النهج كجده إبراهيم إنه لم يتلق علماً على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده ، ولكن به بعقله الخصب وفطرتيه الصافية . طلع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ، نهاف منها ماساءه من خرافة وزأى عنها ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم . فما وجدته حسناً شارك فيه بقدر ، وإلا عاد إلى عزائه العتيقة ، يتابع النظر الدائم في ملكوت

== يوثق المجهولين كما أفاده المحققون كالحافظ ابن حجر في اللسان ولهذا لما أورد الحافظ ابن قيس هذا في « التقريب » لم يوثقه بل قال فيه مقبول يعني أنه ابن الحديث حيث لا يتابع كما نص على هذا في مقدمة الكتاب . ثم هو ليس من رجال مسلم خلافاً لمن وهم ، وقد ضعف هذا الحديث الحافظ ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية (٢/٢٨٧) بمد أن ساقه بالسند المذكور من رواية البيهقي حيث قال : ( وهذا حديث غريب جداً ) وقد يكون عن علي نفسه ( يعني موقوفاً عليه ) ويكون قول : ( حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته ) متحماً والله أعلم وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره من حبان في الثقات ، وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح قال شيخنا في تهذيبه ، ولم انف على ذلك . والله أعلم . ثم وجدت الحديث في تاريخ مكة ( مر : ٧ للفاكمي ، وتاريخ ابن جرير (٢/٣٤) من الطريق للذكر . ورواه الطبراني في المعجم الصغ . ( س ١٩٠ من حديث عمار بن ياسر ، وفي سنده جماعة لم اعرفهم ، وذكر نحو هذا الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ( مر ٢٢٦/٨ ) .

السماوات والأرض وذلك أجدى عليه من علوم هى بالجمل المركب أشبه ، ومن مجتمع فقد الهداة من قرون فهو يضم ضلالاً جديداً إلى الضلال القديم كلما صرت عليه ليلة وطلع صباح ..

وقد رأى أن يشهد الأعمال العامة التى اهتم بها قومه ، لأنه لم يجد أى حرج إذ يشارك فيها ، ومن ذلك خوضه مع عمومته وقبيلته « حرب الفجار » ثم شهوده من بعد « حلف الفضول » .

## حرب الفجار

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم ، ومكانة أرض الحرم . وهذه الشعائر بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم . وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم ، وضماناً لانتظام مصالحهم وهدوء عداوتهم . كان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات . وقد جاء الإسلام بعده ، فأقر هذه المكانة الموروثة عن ديانة إبراهيم : « إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنه لكم . . (١) »

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة ، وليس هنا تفصيل خبرها وقد ظلت أربعة أعوام كان عمر « محمد » فى أثنائها بين الخمسة عشر والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه . وقيل : بل أعان المقاتلين . . .

## حلف الفضول

أما « حلف الفضول » فهو دلالة على أن الحياة معها اسودت صحائفها ، وكبحت شروها ، فلن تخلو من نقوس تهزها معانى النبل . وتستجيشها إلى النجدة والبر .

ففي الجاهلية الغفالة نهض بعض رجال من أولى الخير . وتواقفوا بينهم  
على إقرار العدالة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في  
أرض الحرم ! . . .

قال ابن الأثير : « . . . ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف ،  
فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه . وكانوا بنى هاشم ، وبنى المطلب ،  
وبنى أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتحالفوا وتعاقدوا  
ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ،  
وكانوا على من ظامه ، حتى ترد مظلمته . فسُمّت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول»  
فشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال — حين أرسله الله تعالى — : « لقد  
شهدت مع عمويتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم .  
ولو دعيت به في الإسلام لأجبت (١) » .

إن يريق الفرح — بهذا الحلف — يظهر في ثنايا الكلمات التي عبر بها  
رسول الله عنه . فإن الحمية ضدّ أي ظالم مهما عزّ . ومع أي مظلوم مهما هان .  
هي روح الاسلام . الأمر بالمعروف ، النهاى عن المنكر ، والواقف عند حدود  
الله . ووظيفة الاسلام أن يحارب البغى في سياسات الأمم . وفي صلوات الأفراد  
على سواء . . .

وقيل في سبب الحلف : إن رجلاً من « زيد » أتى بتجارة ، فاشتراها العاصي  
ابن وائل السهمي . ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه ! فاستعدى عليه قبائل قريش  
والأحلاف فلم يكثر ثواله . فوقف للغريب المظلوم عند الكعبه وأنشد :

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام (١/٩٢ من الطبعة الجالية) قال ابن  
زيد بن المهاجر قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول : قال  
رسول الله (ص) : فذكره ، قلت : وهذا سند صحيح لولا أنه مرسل . ولا كنت له  
شواهد تنويه فرواة الحميدي بإسناد آخر مرسل أيضاً كما في « البداية » (٢/٩٢)  
واخرجه الإمام احمد (رقم ١٦٥٥ ، ١٦٧٦ ) من حديث عبد الرحمن بن عوف  
مرفوعاً دون قوله « ولو دعيت به في الإسلام لأجيب » وسنده صحيح .

يا آل فهر لمظالموم . بضاعته  
ببطن مكة نأى الدار والنزرا  
ومحرم أشعث لم يقض عمرته  
يا للرجال وبين الحجر والحجر  
إن الحرام آمن تمت كرامته  
ولا حرام بثوب الفاجر القدير

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك : فاجتمع الذين ذكروهم ابن  
الأثير آنفاً . وذهبوا إلى العاصي بن وائل . واستخلصوا منه - حق الزبيدي . بعد ما  
أبرموا حلف الفضول .

ويظهر أن العاصي هذا رجل مماطل سمج . فهو صاحب القصة كذلك مع  
خبيب بن الأرت وكان خبيب قيناً ، فصنع سيفاً للعاصي وأناه به لينقده ثمنه .  
فقال له العاصي : لا أعطيك حتى تسكفر بمحمد : فقال له خبيب : لا أكفر حتى  
يميتك الله ثم تبعث . قال العاصي : وإني لميت ثم مبعوث ؟؟ قال : بلى . قال :  
دعني حتى أموت وأبعث . فسأرتي مالا وولداً ، فأقضيك - حق السيف -  
فنزلات الآيات :

« أدر أبت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولداً ؟ أطلع الغيب  
أم اتخذ عند الرحمن عهداً ؟؟ كلا . سنكتب ما يقول ونمدد له من العذاب  
مدداً ونرثه ما يقول وأنتينا فرداً » (١) .

وأمثل العاصي هذا في ميدان التجارة والسياسة كثير . ومحمد صلى الله عليه  
وسلم أولى الناس بخصوصيتهم . وأرلى الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم من أعان  
عليهم ووثق على حربهم .

## قوة ونشاط

عندما انتهت حرب الفجار وأبرم حلف الفضول كان محمد عليه الصلاة والسلام  
يستقبل للرحلة الثالثة من عمره . وهذه القارة وما قبلها هي عهد الشباب الحار ،  
والعراز الفائرة ، والطامح البعيد . ومحمد عليه الصلاة والسلام رجل قوى البدن



على الهمة، رفيع المسكاة . وقد لوحظت طاقته الواسعة حتى بعد هذه السن بنحو  
أربعين سنة . قال أبو هريرة : « ما رأيت أحسن من رسول الله ! كأن الشمس  
تجري في وجهه ! وما رأيت أحداً أمرع في مشيته من رسول الله ! الكأنا  
الأرض تطوى له ! كنا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث » (١) ..

ومثل هذا الرجل ثقيل عليه الحياة لو لم يقبل هو عليها . وعلى من تقبل  
الحياة بعده ؟ على الواهين والمنكشين والمتشائمين ؟

اسكن محمداً عليه الصلاة والسلام - على ما يملك من وسائل المتاع -  
ما أثرت عنه قط شهوة عارضة أو نزوة خادشة أو حكيت عنه مغامرة لنيل جاه  
أو اصطياذ ثروة . بل على العكس بدأت سيرته توهض في أنحاء مكة بما امتاز به  
على أقرانه - إن صحت الاضافة - من خلال عذبة ، وشمال كريمة ، وفكر  
راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين ...

وليس شرف النفس أن تنتفي شهوة الإنسان إلى الحياة . أو توجد الشهوة  
وتنتفي وسائل بلوغها . بل الشرف أن تكون قوة العفاف أربي من نوازع الهوى  
فإذا ظلت النفس في حالة سكون فلتنعادل القوى السالبة والموجبة فيها ، وقد تجد  
رجلاً تافهاً هزيلاً لا يخفى له طمع ولا تنحبس له شهوة لو قست غرائزه المنفلتة  
بغرائز غيره المضبوطة ما بلغت عشر قوتها ، لكن هذه وجدت زماماً من الرشد  
فكظم عايبها . وتلك لم تجد مقلاً يردع ولا خلقاً يبصم فنارت وتمردت ...  
وقد كانت رجولة محمد عليه الصلاة والسلام في القمة ، بيد أن قواه الروحية  
وصفاءه النفسي جعلها هذه الرجولة تزداد بمحامد الأدب والاستقامة والفنوع .  
ثم إنه كان معاني من العقد الكريمة التي تزين للشباب تعشق العظمة عن طريق

(١) هذا حديث ضعيف الاسناد أخرجه الترمذي في سننه (٢٠٦/٤) وفي المسائل (١١٧/١) وضعفه بقوله : « هذا حديث غريب » والسبب أنه من رواية ابن لهيعة وهو  
ضئيف لسوء حفظه واحتراق كتبه .

التظاهر والرياء ، أو تطلب الرياسة عن طريق المدهنة واشتراء العواطف ، فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومه ، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي أسود الجزيرة وما وراءها . وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة .. تبيناً للسرِّ في استثنائه للجبال والنساء ، واستراحته إلى رعى الغنم في هذه الأنحاء القصية ، مكثفياً بالقليل الذي يعود عليه من كسبها .

أهذا زهد في المال ، أو إعراض عن الحياة الدنيا ؟ كلا : إنما هو انشغال بالحقائق العليا التي تصلح بها ويسخر فيها المال . والرجال الكبار لا تشبههم كنوز الذهب والفضة إذا ظمئوا إلى الحق . ولا يريهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة . إذا رأوا للساخر الشائنة تسير بالحياة كلها إلى منحدر تسقط فيه أقدار الناس ، وتعمى فيه الدنيا جماء من كل خير وبر .

كذلك استقبل محمد عليه الصلاة والسلام المرحلة الثالثة من عمره . وهي المرحلة التي تعرف فيها إلى زوجته الأولى « خديجة بنت خويلد » .

### خديجة

و « خديجة » مثل طيب للمرأة التي تسكل حياة الرجل العظيم . إن أصحاب الرسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية . ويلقون غيباً بالغاً من الواقع الذي يريدون تغييره ، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الذي يريدون فرضه . وهم أحوج ما يكونون إلى من يقمدهم حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه ، بله الإدراك وللعمونة ! وكانت خديجة سبابة إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد صلى الله عليه وسلم أثر كريم .

قال ابن الأثير : « كانت - خديجة - امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم منه . فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعا غلامها ميسرة » .

وقد قبل محمد عليه الصلاة والسلام هذا العرض ورحل إلى الشام عاملاً في مال السيدة التي اختارته ، ويظهر أن التوفيق حاقه في هذه الرحلة ، أكثر من سابقها مع عمه أبي طالب ، فكان ربحها أجزل ، وسرّت خديجة بهذا الخير الذي احرزته ولكن إعجابها بالرجل الذي اختبرته كان أعمق .

... إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة . وقد عرفت بالحزم والعقل : ومثلها مطمح لسادة قريش لولا أن السيدة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس . وأن أبصارهم تنو إليها بغية الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع ! لكنها عندما عرفت محمداً عليه الصلاة والسلام وجدت ضرباً آخر من الرجال . وجدت رجلاً لا تستهويه ولا تدنيه حاجة . ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيال . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد رأت رجلاً تقفه كرامته الفارعة موقف النبيل والتجاوز ، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها ! لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضياً مرضياً .

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة . فحدثت بما في نفسها إلى صديقتها « نفيسة بنت منبه » . وهذه ذهبت إلى محمد عليه الصلاة والسلام تفأخمه أن يتزوج من خديجة ، فلم يبطل من إعلان قبوله . ثم كلم أعمامه في ذلك فذهب أبو طالب وحزرة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو بن أسد - إذ أن أباهامات في حرب الفجار - وخطبوا إليه ابنة أخيه ، وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة . ووقف أبو طالب يخطب في حفل الزواج قائلاً : « إن محمداً لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قلاً فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة . ولها فيه مثل ذلك . فكان جواب وليّ خديجة — عمها عمرو — هو الفحل الذي لا يقدر أنه ، وأنكحها منه ...

وقيل : إن للعبارة الأخيرة جرت على لسان « أبي سفيان » عندما تزوج محمد رسول

الله ابنته حبيبة . وكانت الحرب بينهما على أشدها . فاعتذر أبو سفيان عن ذلك بأن محمداً الرجل من الكفاءة بحيث يعتبر الإصهار إليه منقبة ! والخصومة القائمة بينهما لا تنزل بقدر محمد عليه الصلاة والسلام أبدأ ، ونسكاحه لبنت أبي سفيان لا يشين أبا سفيان أبدأ ، وإن كان يومئذ الدَّعدوله .

\* \* \*

كان محمد عليه الصلاة والسلام في الخامسة والعشرين عندما تزوج خديجة . وكانت هي قد ناهزت الأربعين . وظل هذا الزواج قائماً حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عاماً . كانت طوالها محل الكرامة والإعزاز ، وقد أنجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاده جميعاً منها ما عدا إبراهيم .

ولدت له أولاً « القاسم » وبه كان يكنى بعد النبوة ثم « زينب » و « رقية » و « أم كلثوم » و « فاطمة » و « عبد الله » ، وكان « عبد الله » يلقب بالطيب والطاهر . ومات « القاسم » بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من ركوب الدابة والسير على النجيمة . ومات عبد الله وهو مطلق . ومات سائر بناته في حياته . إلا « فاطمة » فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به .

كان قران محمد عليه الصلاة والسلام بخديجة خيراً له ولها . ولاشك أن هذا البيت الجديد قد اصطبغ بروح رب البيت ، روح التطهر من أدران الجاهلية ، والترفع عن تقديس الأوثان .

وقد استأنف محمد عليه الصلاة والسلام ما أنفه بعد زواجه من حياة التأمل والعزلة . وهجر ما كان عليه العرب في أحفالهم الصاخبة من إدمان ولغو وقمار وقمار ، وإن لم يقطعه ذلك عن إدارة تجارته ، وتدبير معاشه ، والضرب في الأرض والمشى في الأسواق . إن حياة الرجل العاقل وسط جماعة طائشة تقتضى ضرورياً من الحذر والرّويّة ، وخصوصاً إذا كان الرجل على خلق عظيم يتقاضاه لبن الجانب وبسط الوجه .

ولم يكن ثمة ما يخلق في هذه الزيجة الموقفة إلا ألم خديجة لملاك الذكور من  
بينها مع ما للذكران من منزلة خاصة في أمة كانت تئد البنات وتسوّد وجوه  
آبائهن عندما يبشرون بهن !!

والغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يهيمون محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا،  
ويملنون ارتقاجهم لاقطاع أثره وانتهاء ذكره . فمن ابن عباس رضى الله عنه ، أن  
قربشاً توأمت بينها في النأدى فى العى والكفر . وقالت : الذى نحن عليه أحق مما  
عليه هذا الصنبور المنبتر - والصنبور النخلة التى اندق أصلها - يعنون أن محمداً  
عليه الصلاة والسلام إذا مات لم يرثه عقب ، ولم يحمل رسالته أحد « أم يقولون :  
شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا . فإني معكم من المتربصين » !!

ومحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته فوق هذه الأمانى الصغيرة . إلا أن الأسمى  
كان يفزو قلب الوالد الجليل وهو يودع أبناءه الثرى ، فيجدد التكلم مارسب  
فى أحماقه من آلام اليتيم . إن خصنه تشبث بالحياة فاستطاع البقاء والنماء برغم تقدانه  
أبويه . وها هو ذا يرى أغصانه المنبسقة عنه تذوى مع رغبته العميقة ورغبة شريكته  
حياته فى أن يراها . زهرة مشمرة ، وكأن الله أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً  
من كيانه ! فإن الرجال الذين بسوسون الشعوب لا يمنحون إلى الجبروت إلا إذا  
كانت نفوسهم قد طبعت على الفسوة والأثرة وعاشت فى أفراس لا ينخرها كدر  
أما الرجل الذى خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة الحزونين ومداواة  
الجرحوحين .

## الكعبة

ومن بقايا كلمة إبراهيم التى أجمع العرب فى جاهليتهم على احترامها « الكعبة »  
وهى أشبه بفرقة كبيرة مشيدة من أحجار قوية ، يعتمد سقفها من الداخل  
٦ - فقه السيرة

علي أعمدة من الخشب الثمين . وأول من قام في بنائها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه  
إسماعيل ، والغرض من بنائها أن تكون معبداً لله ، ومسجداً يذكر فيه اسمه وحده  
فإن إبراهيم لقي العناء الأليم في حرب الأصنام وهدم للعابد التي تنصب فيها ، ثم  
ألمه الله أن يبني هذا البيت ليكون أساساً للتوحيد وركناً ، ومثابة للناس وأمناً  
ومن البديهي أنه لا يسع القصاد جميعاً ، فالحق ما حوله به وصار حراماً مقدساً .

ومعنى ذلك أن الكعبة نفسها حجارة لا تضر ولا تنفع ، وأن الحرمه التي  
اكتسبتها هي من الذكورات والمعاني التي حفت بها . ولذلك أكد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أن تأمين الأعراض والأموال والدماء أقدس عند الله من هذه  
الكعبة ، وأعظم حرمة وأكبر حقاً .

ومن الوثنية التي يعادها الإسلام - إلى آخر الدهر - الظن بأن الكعبة  
أوشيتاً منها له أثر من تقع أو ضرر .

وأنت خير بأن الروساء والقادة والجنود عندما يحيون أعلام بلادهم ويتفانون  
دونها . فليس هذا عبادة لقطع معينة من القماش . إنما هو تقديس لمعان معينة ارتبطت  
بها . ومن الأمور التي يسهل فهمها أن تكون لأول مسجد في الأرض مكانة  
تاريخية خاصة . وأن يكون قبلة لما يستجد بعده من مساجد .

أما الوجهة في كل صلاة والمقصود في كل خشوع فهو الله وحده .

عن أبي ذر: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض .  
قاله : المسجد الحرام قلت : ثم أي ؟ قال للمسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال :  
أربعون عاماً . ثم الأرض لك مسجد فحينما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه» (١) .

(١) حديث صحيح . أخرجه البخاري (٦/٣١٥ - ٣١٧ ، ٢٥٩) ومسلم (٢/٦٣) والنسائي وابن ماجه والبيهقي والطحاوي وأحمد من حديث أبي ذر .

وقد تعرضت الكعبة - باعتبارها أثراً قديماً - للعواذى التي أوهت بنيانها  
وصدعت جدرانها وقبل البعثة بسنوات قلائل جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى  
البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فلم تر قريش بدأً من أن تجدد  
بناء الكعبة حرصاً على مكانتها .

وقد اشترك سادة قريش ورجالها الكبار في أعمال التجديد ونقل الأحجار  
بعد ما هدموا الأقباض الواهية وشرعوا بعيدونها كما كانت .

وبناء رفع إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره  
للصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ، ومن بينهم  
محمد صلى الله عليه وسلم وأعمامه ..

عن عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب  
رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي .  
اجعل ازارك على رقبتك يقيك الحجارة . ففعل - كان ذلك قبل أن يبعث - فخر  
إلى الأرض ، فطمحت عيناه إلى السماء . فقال : إزارى إزارى ، فشد عليه فما رؤى  
بعد عرياناً ... (١) .

وتنافست القبائل في هذا المضار ، كل يبغى الصدارة فيه والذهاب بفخره ،  
حتى كاد هذا السباق يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم . واستفحل الشر  
بين المشغولين بالبناء عندما بدأوا يستعدون لوضع الحجر الأسود في مكانه من  
أركان الكعبة لولا أن أبا أمية بن المغيرة الخزومي اقترح على المتطاهنين أن يحكموا  
بهما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا . وشاء الله أن يكون ذلك محمداً .. فلما  
رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً .

وطلب محمد صلى الله عليه وسلم ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين ، فأمسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة فحمله محمد صلوات الله وسلامه عليه ثم وضعه في مكانه المعتاد (١) .

وهذا حل للحصيف رضى به القوم . ومن قبل كانت رؤيتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم مثار تيمنهم واضمئنانهم . وهذا يدل على سناء المنزلة التي بلغها فيهم .

ومع جهد قريش في بناء الكعبة فقد عجزت عن إبلاغها قواعد إبراهيم . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر له الأمر في الجزيرة لم يجد ضرورة لتجديد زيادة بها . وآثر تركها على ما انتهت إليه . عن عائشة قالت :

قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قلت يا رسول الله ، ألا تردها إلى قواعد إبراهيم ؟ فقال :

لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت ! قل ابن عمر ، أن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركبتين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم (٢) .

قال العلماء : والمراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم الآنف ، قرب العهد بالجاهلية . وضعف استمكان الإيمان ، مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هبتها . . . ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله . ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجلة مشكلات عويصة .

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣ / ٤٢٥) . من حديث السائب بن عبد الله بسند حسن . ويحسن بالمؤلف أن ينقل نصه فهو أولى من نصوص كتب السيرة التي لا سند ولا خطام ؟ ثم وجدت للحديث شاهداً من حديث علي ، رواه الطيالسي في مسنده (٢ / ٨٦) . ترتيب الشيخ عبد الرحمن البنا .

(٢) حديث صحيح أخرجه الشيخان في « الحج » من « صحيحهما » .



## باحثون عن الحق

قلنا إن الوثنية تزين باطلها بطلاه من الحق ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من سرارة . فهي تزعم الإيمان بإله خلق السموات والأرض . وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى هي مزدلف إليه ووسيلة ولما كان خلق السموات والأرض بعيداً عن مرآى الأعين ، فقد أنس العباد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم والتي يترددون عليها صباحاً ومساءً ، حتى صارت صلتهم بها أحكم من الصلة بالإله الأصيل وأصبح ذكر هذا الإله - للمتوسل إليه بغيره - لا يرد إلا في معرض الجدل والاعتذار : « ولئن سألتهم : من خلقهم ؟ ليقولن الله فأنى يؤفكون ؟ » وقيل : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم . وقل : سلام قدوف يملون » . غير أن التعصب لهذا السخف جاوز الحدود . فأما العامة فهم بهم ، أحلاس مانوارشوا ، فقدوا نعمة العقل الحر ، بل العقل المدرك وعاشوا يهرفون بما لا يعرفون .

وأما الذين أتوا حثاً من التفكير ، فإن تفكيرهم برتطم بحدود شهواتهم ، وربما كتبوا ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا وفليل من الناس من يتجرأ على التعاليد المستحكمة ، ويمجر بالحق . وأقل من ذلك من يعيش له ويضحى في سبيله .

وقد وجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة استهزاء ومن عرف أن قومه يلتفتون على أباطيل مفتراة ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفهم .

أخرج البخاري<sup>(١)</sup> أن ابن عمر حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أتى

(١) وأخرجه الإمام أحمد (رقم ٥٣٦٩) من حديث ابن عمر ، وقد رواه أيضاً من حديث سعيد بن زيد بن عمرو (١٦٤٨) ، وفيه زيادة منكروه : وهي تتنأى مع التوجيه الحسن الذي وجه به الحديث حضرة المؤلف وهي قوله بعد (إني لا آكل مما تذبجون على أنصابكم) : قال : فما رؤى النبي (ص) بعد ذلك أكل شيئاً مما ذبح على الأصنام « وعلة هذه الزيادة أنها رواية من المسعودي وكان قد اختلط ؛ وراوى هذا الحديث عنه =

زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل «بلدح» - وذلك قبل أن ينزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم - فقدم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرةً فيها لحم فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : لاني لا آكل مما تذبجون<sup>(١)</sup> على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر عليه اسم الله عليه . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض الكلال . تذبجونها على غير اسم الله - إنكاراً لذلك .

وفي رواية أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويقبه فلقى عالماً من اليهود . فسأله عن دينهم . وقال : لعل أن أدين دينكم ! فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ! قال زيدا ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه ! فهل تداني على غيره ؟ فقال ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم . لم يكن يهودياً ولا نصرانياً . ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى . فذكر له مثل ذلك ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ! قال : ما أفر إلا من لعنة الله . ولا أحمل من لعنة الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه ! . . . فهل تداني على غيره ؟ . فقال : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ فقال : دين إبراهيم عليه السلام ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد

== يزيد بن هارون سهم منه بعد اختلاطه ، ولذلك لم يحسن صنعا حضرة الأسياد الشيخ أحمد محمد شاكر حيث صرح في تعليقه على السند أن إسناده صحيح . ثم صرح بعد سطور أنه إنما صححه مع اختلاطه لأنه ثبت معناه من حديث ابن عمر بسند صحيح . يعني هذا الذي في الكتاب ، وليس فيه هذه الزيادة المكروهة ، فكان عليه أن يثبت عليها لكي لا يتوهم أحد أن معناها ناهت أيضاً في حديث ابن عمر .

(١) قوم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله : ومن المقطوع به أن يتخذ محمد صلى الله عليه وسلم لا يطعم ذبائح الاصنام ، ولكن أراد الاستيناق لنفسه والإعلان عن مذهبه . وقد حفظ محمد له ذلك وسريه .

إلا الله . فلما رأى زيد قوله في إبراهيم عليه السلام خرج . فلما برز رفع يديه .  
وقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه السلام . .

وهذا الحديث يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا وغطت بضبابها الكثيف  
على الأديان الظاهرة . اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض منبذون من  
أقطارها ، فعلى الداخل في دينهم أن يحمل وزراً من المقت المكتوب عليهم .  
والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب في طبيعة المسيح ، ووضعه ، ووضع أمه ، من  
الإله الكبير ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقاً يلعن  
بعضها بعضاً .

وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد « يعاقبه » يخالفون المذهب الرسمي  
لكنيسة الرومان . فلا غرابة إذا أشعروا زيدا بما يقع عليه من عذاب لو دخل في  
دينهم ، أو لعل هذه اللعنة المرهوبة هي تبعات الخطيئة التي اقترفها آدم واستحقها من  
من بعده بنوه كما يدعى ذلك النصارى وهم يبررون صلب المسيح ومن حق زيد  
أن يدع هؤلاء وأولئك ، ويرجع إلى دين إبراهيم عليه السلام يبحث عن أصوله وفروعه .  
وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل  
قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم  
عليه السلام غيرى ، وكان يحيى الموءودة ، يقول للرجل - إذا أراد أن يقتل ابنته :  
أنا أكفيك مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعنها إليك ،  
وإن شئت كفيك مؤنتها» (١) .

إن زيدا واحداً من المفكرين القلائل الذين سخطوا ما عليه الجاهلية ، من نكره ،  
وإنه يشكر على تحرره الحق ، ولا يغمط هو ولا غيره أقدارهم بين قومهم ، لكن

---

(١) حديث صحيح ، والبخارى إنما أخرجه ( ٧ / ١١٤ - ١١٥ ) معلماً فكان  
يحسن تزييد المزو إليه بهذا ، وقد وصله جماعه ذكرهم الحافظ في الفتن ، وفاته أن الحاكم  
وصله أيضاً في المستدرک ( ٣ / ٤٤٠ ) : وقال : « صحيح على شرط الشيخين » .

القدر كان يتخير رجلاً يبصر الحق ، ويملك من الطاقة ما يدفعه به إلى آفاق العالمين  
في وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للبقاء على الضلال والإمساك بلبيله البارد

الثقيل . . .

كان القدر بعد هذه الرسالة الضخمة رجلها الصخيم والمظالم كفوها العظام !

## في غار حراء

أخذت سن محمد صلى الله عليه وسلم تصعد نحو الأربعين . وكانت تأملاته  
لماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، فأمست نظرتهم إليهم نظرة عالم الفلك  
- في عصرنا - إلى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور ، أو نظرة عالم الذرة  
إلى جماعة يترشقون بالحجارة إذا تحاربوا ، ويتقلون بالطايا إذا سافروا . . .

ذلك من الناحية الفكرية . أما من الناحية النفسية فإن الإلحاد الذي شاع في  
الجاهلية . وجعل أهلها يقسمون بالله جهده أيمانهم لا يبعث الله من يموت . هذا  
الإلحاد المفرق الطامس غزا نفوس الأخيار بالقلق البالغ . إلى أين تصير هذه القلة  
الحائرة ؟ لئن كان الوجود - أولاً وآخرأ - هذه الأعمار المستنفدة على ظهر  
الأرض .. إن الفناء خير وأجدى !

أما من بصيص نور خلال هذا الظلام الخيم ؟

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان في غار  
حراء وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة ، في رأس جبل من هذه  
الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها انوع الناس وحديثهم الباطل ، ويبدأ السكون  
الشامل المستغرق . . . في هذه القمة السامة المنزوية كان محمد صلى الله عليه وسلم يأخذ  
زاد الليالي الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهاً بفؤاده المشوق إلى رب العالمين !  
. . . في هذا الغار المهيب المحجّب ، كانت نفس كبيرة تُطلُّ من عليائها على

ما توج به الدنيا من فتن ومقارم واعتداء وانكسار ثم تلوى حصرة وحيرة لأنها لا تدرى من ذلك مخرجاً، ولا تعرف له علاجاً!!

في هذا الغار النائي كانت عين نفاذه محصية تستعرض تراث الهداة الأولين من رسل الله، فتجده كالمنجم المعتم لا يستحاض منه للعدن النفيس إلا بعد جهد جهيد، وقد يختلط التراب بالتبر فما يستطيع بشر فصله عنه ...

في غار حراء كان محمد عليه الصلاة والسلام يتعبد، ويصقل قلبه، وينقى دوحه ويقرب من الحق جهده ويتعد عن الباطل وسعه. حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية، انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

في هذا الغار اتصل محمد صلى الله عليه وسلم بالملأ الأعلى.

ومن قبله شهد بطن الصحراء أخاً لمحمد عليه الصلاة والسلام يخرج من مصر فاراً متوحشاً، ويمتاز القفار متمسكاً بالأمن والسكينة والهدى، لنفسه وقومه، فبرقت له من شاطئ الوادي الأيمن نار مؤنسة، فلما تيممها إذا النداء الأقدس يغمر مسامعه ويتخلل مشاعره:

« يا موسى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري ».

إن شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقد مرة أخرى في جوانب الغار الذي حوى رجلاً يتحنن ويتطهر - نائياً بجسمه وروحه - عن أرجاس الجاهلية ومساوئها، لكن الشعلة لم تكن ناراً تستدرج الناظر بل كانت نوراً ينبسط بين يدي وحى مبارك يسطع على القلب المعاني، بالإلهام والهداية، والتثبيت والتمنيّة، فإذا محمد صلى الله عليه وسلم بصنى في دهشة وانبهار إلى صوت الملك يقول له:

« اقرأ... ». فيجيب مستفسراً: « ما أنا بقارىء، ويتكرر الطلب والرد لتناسب

بعده آيات الأولى من القرآن العزيز : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

## ورقة بن نوفل

إن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر مثلنا ، لكن الوجود لا يعرف تفاوتاً بين أفراد جنس واحد كما يعرف ذلك في جنس الإنسان . إن بعضهم أرقى من الأفلاك الزاهرة ! وبعضهم الآخر لا يساوى بكرة ... وإن كان الكل بشراً !!  
وذلك التفاوت واقع بين من لم يؤيدوا بوحي . فكيف إذا اصطفى إنسان ما . وزيدت أطوار كماله المعتاد طوراً آخر . تومض فيه أشعة التسديد والتوفيق والإرشاد والإمداد ؟؟

« يُنزلُ الملائكةَ بالروحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنْذِرُوا ، أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » ...

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه ينشئه الله خلقاً آخر ، يغير الأطوار الستة الأولى التى مسَّ بها ، سلالة الطين ، فالنطفة ، فالعلقة ، فالمضغة ، فالعظام ، فالجسم المكسوَّ باللحم ... !!

والأنبياء بعد اتصال الوحي بهم وسريان روحه الجديدة فى أرواحهم يتحولون بشراً آخرين ، لا يداينهم غيرهم أيداً فى مجادة وإشراق .

وهذا التغير الملحوظ سر تذكير الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالقدرة التى خلقت الإنسان من علق ، إن القدرة التى خلقت هذا الإنسان العجيب من علقه طفيلية ، هى التى ستنساق بنعمة الله إلى جعل محمد بشراً رسولا ، يقرأ بعدما كان

---

(١) حديث صحيح سبأنى تخريجهم قريناً .

أَمِيًّا » وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لِنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ويتحنث فيه - وهو التعبُد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى نجاه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : « اقرأ » ، قال : « ما أنا بقارىء » ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، قلت : « ما أنا بقارىء » ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، قلت : « ما أنا بقارىء » ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ... » الخ .

فرجع بها رسول الله ترجف بوادره ا حتى دخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : « زملوني ، زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : « أرى خديجة ، مالي ؟ وأخبرها الخبر ا ثم قال : لقد خشيت على نفسي ... »

قالت له خديجة : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل - وهو ابن عم خديجة - وكان امرأً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : « أرى ما ترى ؟ »

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مارأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك حيا أنصرك نصرأ مؤزرأ ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي (١) .

اسكأن الأربعين عاما السابقة يوم واحد ، وبدأ الوحي صبيحة يوم جديد !!  
إن العقل الجواب للباحث المستفسر أخذ إشيم أنوار الحق .

والصدر المخرج للثقل بالتشاؤم والارتباك أخذ يحسُّ برد اليقين وفسحة الأمل  
والقلقة الطارئة بعيدة المدى ... إنها النبوة .

ألا ما أجل هذا الفضل المقبل ، وما أعظم ما يواجه محمداً فيه من شئون  
وشجون ... !!

لذلك سرعان ما ترجعت إليه نفسه ، وكان موقف زوجته خديجة منه من أنترف  
المواقف التى تحمد لامرأة فى الأولين والآخرين ، طمأنته حين قلق ، وأراحتة حين  
جهد ، وذكرته بما فيه فضائل مؤكدة له : أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً ، وأن  
الله إذا طبع رجلا على المكارم الجزلة والمناقب السمجة فلسكيا يجعله أهل إعزازه  
وإحسانه ، وبهذا رأى الراجح والقلب الصالح استحققت خديجة أن يحبها رب  
العالمين ، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين (٢) ...

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٨/١ - ٢٣) ومسلم (٩٧/١ - ٩٨) من حديثها  
(٢) ينشر المؤلف إلى الحديث الصحيح عن أنى هريرة قال : أنى حبريل اللى صلى الله  
عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذة خديجة قد أتت ممها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ،  
فاذا هى أنتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها بيت فى الجنة من قصب لاصعب  
فيها ولا نصب . أخرجه البخارى (٧ - ١٠٩) ومسلم (١٣٣/٧) .



(٣)

جہاد الدعوة

تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف محمد عليه الصلاة والسلام معرفة اليقين أنه أضحى نبياً لله الكبير المتعال ، وأن ماجاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء .. إلا أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان ومملك ، تركت في نفسه أثرًا من الجهد ، كأنما كان يعالج عملاً مرهقاً صعباً .

ولاعجب فقد ظل يعاني من التنزيل شدة ، أمداً طويلاً وشاء الله أن يفتر الوحي بعد ابتدائه على الدجو الذي أسلفنا حتى يكون تشرف الرسول صلى الله عليه وسلم وارتقابه لمحيثه سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، ومع ذلك ، فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته .

جاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية ، قال جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي : فقال لي في حديثه : فيينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، ففزعت منه حتى هويت إلى الأرض ، فحُتت إلى أهلي ، فقلت . زملوني زملوني ، فذروني ...

فأنزل الله عز وجل « يا أيها المدثر \* قم فأنذر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر \* والرجز فاهجر \* ... » (١) .

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إيذاناً بالرسول صلى الله عليه وسلم بأن الماضي قد انتهى بنامه وهدوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة والتشهير ، والإنذار والإعذار ، فليحمل الرسالة وليوجه الناس . وليأنس بالوحي . وليلقو على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

والوحي إلهام ينضح على القلب بمراد الله في صورة واضحة لا يحتمل الريبة

وله مراتب شتى بعضها أيسر من بعض . فعن عمر : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي ، يسمع عند وجهه كدوى النحل <sup>(١)</sup> » .

وكان أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس — وكان أشده عليه — فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد <sup>(٢)</sup> ، وحتى أن راحلته لتتبرك به على الأرض إذا كان راكبها <sup>(٣)</sup> ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت فنقلت عليه حتى كادت ترضسها <sup>(٤)</sup> . وقد يأتي أيسر من ذلك وأخف .

وربما قيل : لما كانت أوائل الوحي بهذه اللثابة من الشدة ؟ ولماذا لم يبدأ نزول القرآن إلهاماً في المنام . أو إلهاماً في يقظة على نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا

---

(١) حديث ضعيف ، أخرجه الترمذى (١٥٢-١٥١/٢) وذكر أن في سنده اختلافاً . ومداره على يونس بن سليم ، رواه عنه عبد الرزاق ، ويونس هذا مجهول ومن طريقه أخرجه أحمد (رقم ٢٢٣) والحاكم (١/٥٣٥ و ٢/٢٩٢) والنسائي كما نقلوا عنه ، وقال : هذا حديث منكر لا نعلم أحداً رواه غير يونس . ويونس لا نعرفه « وقال إمامكم : « صحيح الإسناد » وهذا من تسامله ، وأما الذهبي فتناقض فإنه في اللوضع الأول وافق إمامكم على تصحيحه ، واغتر بذلك الشيخ أحمد شاكر ، وأما في اللوضع الآخر فقد تعقبه بقوله : « قلت : سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا ، فقال أظنه لا شيء » وفي اللبران أقر النسائي على قوله : « هذا حديث منكر » وتوثيق ابن حبان لابن سليم هذا ، مما لا يعتد به ، لاسباب وتلميذه عبد الرزاق أدري به من ابن حبان .

(٢) روى معنى هذا البخارى (١٤/١-١٧) من حديث عائشة .

(٣) أخرج معناه — أحمد والحاكم (٥٠٥/٢) من حديث عائشة ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قال ، وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد عند أحمد (٤٥٥/٦) وآخر عند (رقم ٦٦٤٣) من حديث ابن عمرو .

(٤) أخرجه البخارى (١٨٢/٥) من حديث زيد بن ثابت .

الله وأجلوا في الطلب . . . (١) أو ليس هذا أبعده عن دواعي الفزع والإعياء؟؟؟.

والجواب أن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر ، ونزل الملك به في

هذا المظهر (٢) قطعاً لكل شبهة في أنه ألفاظاً ومعاني — من عند الله « وأن محمداً

حملة تحميلاً بعد أن اصطنع له واختص به ، فهو ليس افتعال عابدمقطع تخيل فخال ،

ولاصناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة وتنميق المقال ، إنما هو كلام الأحده الحق

الكبير المتعال ، « إن هو إلا وحى<sup>٣</sup> يوحي ، علمه<sup>٤</sup> شديد القوى ، ذو مرة<sup>٥</sup> ،

فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى .

فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب القواد ما رأى ، أفتأرونه على ما يرى . : ٤٠ »

## الإمام يدعو الناس

شرع محمد صلى الله عليه وسلم يكلم الناس في الإسلام ويعرض عليهم الأخذ  
بهذا الدين الذي أرسله الله به .

وسور القرآن الذي نزل بمكة تبين العقائد والأعمال التي كلف الله بها عباده .  
وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونماها ، وأول ذلك :

(١) حديث صحيح جاء من طرق . الأول عن ابن مسعود أخرجه الحاكم (٤/٢) .  
والثاني : عن ابن أبي أمامة . أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في «حلية الأولياء»  
٧ (١٠٠/١٢٧) .

الثالث : عن حذيفة أخرجه البزار كما في الترغيب (٧/٣) والهيتمي في جمع الزوائد .  
(٤-٧١) فهذه طرق يتوى بعضها بعضاً . ولهذا — والله أعلم — جزم ابن القيم في « زاد  
المعاد » بنسبة الحديث إليه صلى الله عليه وسلم .

(٢) إن اتصال الأبدان بعالم الغيب برهق الطبيعة البشرية : واعتبر — لذلك بما يعانيه  
الوسطاء مثلاً في حالات التنويم لفتايطبي مع بعد الفارق .

١ - الوحدانية المطلقة : فالإنسان ليس عبداً لسكان في الأرض أو عنصر في السماء ، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله ، يعنو لجلاله ويدل في ساحته ويخضع لحكمه ، وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر . كبر أو حقر . وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زاني ، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدد إن كانوا بشراً أو حجارة أو ماسوى ذلك ، ويجب أن تبني جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرّد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة . ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة التي تبني بها البيوت أو ترصف بها الطرق ، وأن البشر الذين ألّخوا في ديابات أخرى صدحت أوضاعهم . فعرفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم ، يتقدمون عنده بالطاعة ، ويتأخرون بالمعصية . ولاشأن لهم في خلق أو رزق .

٢ - الدار الآخرة : فهناك يوم لا شك في قدومه ، ياتي الناس فيه ربهم فيحاسبهم حساباً دقيقاً على حياتهم الأولى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » : فإما نعيم ضاحك يبرح فيه الأخيار ويستريحون وإما جحيم مشثومة ، يشقى فيها الأشرار ويكتئبون . . . والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذرّه من أصول السلوك الصحيح في الإسلام . فكما أن راكب القطار موقن بأنه سينزل في محط قادم فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية به ستقف - حتماً - لترده إلى مولاه ، حيث يلقى جزاء العمر ، ويحني ماغرست يده . .

٣ - نزكية النفس : وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل . وترك أمور أخرى حذراً من مغبتها :

قل : « تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم . ألا تشرّكوا به شيئاً . وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش »  
٧ - فق السيرة

ماظهر منها وما بطنَ ولا تقنلوا النفسَ التي حرّم الله إلا بالحق . ذلكم وصّاكم به لعلكم تفلحون ، ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالتقسط لانكاف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قرْبى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون .

قال أكرم بن صيفى : « أن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً . »

٤ - حفظ كيان الجماعة المسلمة : « باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون . وذلك يقتضى نصر المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف . وفي سورة « المدثر » - وهى أول سورة أمر رسول فيها بالبلاغ - تقرأ قول الله تبارك وتعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة \* إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون \* عن المجرمين \* ما سلككم فى سقر ؟ \* قالوا لم نك من المصلين \* ولم نك نطعم المسكين \* وكنا نحوضُ مع الخائضين . وكنا نكذبُ بيوم الدين . حتى أنا واليقينُ . ... فانتقمهم شفاعَةُ الشافعين . »

وكان أبو بكر لا يرى مستضعفاً يعذب من المسلمين ، إلا بذل جهده وماله فى سبيل فكِّ إيساره وإنقاذه مما به . وذلك حق الفرد على الجماعة .

## الرعيلى الأول

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر فى مكة وتعمل عمالها فى أصحاب الأئمة الكبيرة فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التى استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . »

كان أصحاب العقائد يتجمعون - في تودة - حول عقائدهم ، ويلتفون - في حب وإعجاب - حول إمامهم ، ويشرحون في حذر - أصول فكرتهم .  
والإيمان قوة ساحرة ، إذا استمكنت من شباب القلب وتغلقت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكناً .

ولقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتفون عند فكرة من الفكر . ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة . ومع أنها فكر مادية بحتة . إلا أنهم يجعلون من حياتهم وقود حركتها ، ويتحملون أقيح الأذى في سبيل نصرتها .  
وفي السجن - الآن - رجالاً تخرجوا من جامعات الغرب ، يقضون شطراً من أعمارهم مع القتللة وتجار الخدرات ! . . . !

ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفنها إلى الأمام . فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيماناً بالله رب السماوات والأرض ، وإيماناً بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله ، الحداائق الغناء . والقصور الزهر ، من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم ؟ . . . إن الرعيل الأول يتكون ويزيد على الأيام .

ومن الطبيعي أن يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم - أولاً - الإسلام على ألق الناس به من آل بيته وأصدقائه . وهؤلاء لم تخالجهم ريبة قط في عظمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه .

أمنت به زوجته « خديجة » ومولاه « زيد بن ثابت » ، وابن عمه « علي بن أبي طالب » - وكان صبياً يمينا في كفة لة الرسول صلى الله عليه وسلم - وصديقه الحميم أبو بكر ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام فأدخل فيه أهل ثقته ومودته : عثمان بن عفان . وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص . وآمن القس ورقة بن نوفل

وقد روى<sup>(١)</sup> أن الرسول صلى الله عليه وسلم رآه في المنام — بعد مماته —  
في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله . وأسلم الزبير بن العوام ، وأبوذر الغفاري ،  
وعمر ابن عنبسة ، وسعيد بن العاص ، وفشا الإسلام في مكة بين من نور الله قلوبهم .  
مع أن الإعلام به كان يقع في استخفاء ، ودون مظاهرة من التحمس المكشوف  
أو التحدّي السافر ...

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما . ولعلها حسبت محمداً عليه  
الصلاة والسلام أحد أوثق الديانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها كما صنع  
أمية بن الصلت ، وقس بن ساعدة . وعمر بن نفيل وأشباههم . إلا أنها توجست  
خيفة من ذبوع خبره ، وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته .  
واستمر هذا التطور السري للدعوة ثلاث سنين ، ثم نزل الوحي بكلف  
الرسول صلى الله عليه وحلم به لئلا يظلمه . ومجاهدة باطلهم ، لمهاجمة أصنامهم جهاراً .

## إظهار الدعوة

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، لما نزلت الآية « وأنذر عشيرتک الأقرین »  
صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : « يا بني فهر ، يا بني عدى -  
لبطون قريش - حتى اجتمعوا ، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا

(١) هذا حديث حسن فتصديره بصيغة ( روى ) غير حسن ، لأنه يشير إلى تضعيفه  
وليس بضعيف فقد جاء من طريقين حسنهما الحفظ بن كثير في البداية : ( ١/٣ ) أخرج  
أحدهما أحمد من حديث عائشة ، والآخر أبو يعلى من حديث جابر ، فلا أقل من كون  
الحديث حسناً بمجموع الطريقين ، ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا ورقة  
فاني رأيت له جنة أو جنتين » أخرجه البزار والحاكم ( ٤٠٩/٢ ) وابن عساكر من  
حديث عائشة أيضاً ، وقال الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي « وهو كذا  
قلا ، وقال ابن كثير : « وإسناده جيد » .



فلينظر : ماهو ؟ فناء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرايتم لو  
أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أ كنتم مصدقني ؟ قالوا : ما جرئ بنا  
عليك كذبا . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد !! فقال أبو لهب :  
تبأ لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ! فنزل قوله تعالى : « تبأ يدا أبي لهب  
سوء . . . » (١) .

وعن أبي هريرة قام رسول الله صل الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه  
« وأنذر عشيرتک الأقرين » فقال : « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغني  
عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن  
عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من  
الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من  
الله شيئا » (٢) .

هذه الصيحة العالمة هي غاية البلاغ . فقد فاصل الرسول عليه الصلاة والسلام  
قومه على دعوته ، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة  
الصلة بينه وبينهم وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا  
الإنذار الآني من عند الله .

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام كبير المنزلة في بلده مرموقا بالنفقة والمحبة ،  
وها هو ذا يواجه مكة بما تذكره . ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء . وأول  
قوم يغامر بخسران مودتهم ، هم عشيرته الأقرابون . لكن هذه الآلام تهون في سبيل  
الحق الذي شرح الله به صدره . فلاعليه أن يبیت بعد هذا الإنذار . ومكة تموج

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري : ( ٤٠٠/٨ - ٤٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ) .  
ومسلم : ( ١٣٤/١ ) .  
(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري : ( ٤٠٨/٨ ) ومسلم : ( ١٣٤/١ ) من طريقين  
عن أبي هريرة .

بالغربة والامتنكار . وتستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، ويخشى أن تأتي على تقاليدنا وموروثاتها .

وبدأت قريش تسير في طريقها ، طريق اللدد . ومجانبة الصواب . ومعنى محمد صلى الله عليه وسلم كذلك في طريقه ، يدعو إلى الله . ويتلطف في عرض الإسلام ويكشف القاب عن مخازي الوثنية ، ويسمع ويحجب ، ويهاجم ويدافع ... غير أن حرصه على هداية آله الأقرين جعله يجدد مسعاه محاولا عرض الإسلام عليهم مرة أخرى ، فإن منزلتهم الكبيرة في العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج .

وهم - قبل ذلك - أهله الذين بوّء لهم الخير ، ويكره لهم الوقوع في مساخط الله وروى ابن الأثير : قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم<sup>(١)</sup> : « لما أنزل الله على رسوله » وأنذر عشيرتك الأقرين « اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرعا فجلس في بيته كالريض ، فأنته عما نه يمدنه فقال . ما اشتكيت شيئا . ولكن الله أصرتني أن أندر عشيرتي . فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أبا لهب فيهم ، فإنه غير محببك . فدعاهم فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا ، فبادره أبو لهب وقال : « هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ! واعلم أنه ليس لقومك بأعرب قاطبة طاقة ! وأنا أحق من أخذك ! فحسبك بنو أبيك . وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أسرع عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدمم العرب فأرأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جثتهم به » .

فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس . ثم دعاهم ثانية . وقال : « الحمد لله أحمده وأستعينه . وأومن به وأتوكل عليه . واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله . والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله

---

(١) لم أجد في الرواة هذا الراوى وإنما فيهم : « جعفر بن عبد الله بن الحكم » وهو أنصاري دوسي تابعي صفيروى عن أنس والتابعين ، فإذا كان هو هذا ، فالإسناد مرسل ضعيف ، وام أقمت على أسناده إليه وإن كان غيره فلم أعرفه .

إليكم خاصة وإلى الناس عامة . والله لتموتن كما تنامون . واتبعنن كما تستيقظون  
ولتحاسبن بما تعملون وإنها للجنة أبدأ . أو النار أبدأ .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك . وأقبلنا لنصيحتك . وأشد تصديقنا  
لحديثك !! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون . وإنما أنا أحدهم . غير أني أمرهم إلى  
ما أحب فامض لما أمرت به .

فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين  
عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة !! خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم .  
فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .

## أبو طالب

إن أبا طالب برغم بقائه على الشرك واستمسكه بدين الآباء - ظل حتى  
العاطفة ظاهر الحلب على ابن أخيه . وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه  
الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته ، بيد إن إعزازة لحمد وتأذيه من مواجبهته بما  
يكره حملاه على ضمان الحرية له . بل على التمهيد بمجايته وهر يباع عن ربه !!

وأبو طالب من رجال مكة المعدودين . كان معظماً في أهله . معظماً بين  
الناس فما يجسر احد على إخفار ذمته واستباحة بيضته . وكان بقاؤه مع أهل مكة  
- محترماً للأوثان - من اسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه ...

أما أبو لهب فصوره لأرباب الأسر المتهاككين على مصالحتهم وسمعتهم من  
غير نظر إلى حق أو باطل . فأى عمل يعرض مصالحة للبوارج ، أو يخدش ماله من  
من منزلة يهيج ثأرتة ، ويدفعه لاقتراف الحماقات ... ؟

وفي طبيعته انى لهب قسوة تعريه باقتراف الدنيا . كان ابناؤه متزوجين بينات  
محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم بفراقهن . فطلق عتية وعتيبة ، رقية ، وأم كلثوم ..  
ولعل أبا لهب كان متأثراً في هذه البغضاء المتنزبة بزوجه أم جميل بنت حرب

أخت أبي سفيان . وهي امرأة سليطة . توزعها على كراهية محمد ودينه عِلل شتى  
ولذلك بسطت فيه لسانها . وأطالت عليه الافتراء والذس !

وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفع عم محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأغلاظ معه  
على هذا النحو الوضع . فكيف يكون مسلك الأبعاد الذين يمتنون العثار للسليم  
والسبحة للبريء ؟

\* \* \*

ولكن ما بولهب ؟ وما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بإزاء رجل  
يحمل رسالة من الله الذي له ملك السموات والأرض يريد أن يعيد بها الرشيد  
لعالم فقد رشده ، وأن يحو بها الأوهام ، في حياة سرعتها الأوهام في الرغام .  
ما تجدى وقفه جهول ؟ أو غضبة مغرور ؟ في منع هذه الرسالة الكبيرة من المضي  
إلى هدنها البعيد .

إن الطحالب العائمة لا تقف السفن الماخرة . ولئن نقم الجاهليون على المسلمين  
مروفتهم من بين قومهم بهذه الدعوة - حتى ليسمونهم الصباة - فإن المسلمين لأشد  
نقمة عليهم « أن سفهوا أنفسهم ، وحقروا عقولهم . وتشبهوا بخرافات ما أنزل الله  
بها من سلطان .

إن الدعوة التي بدأ بها محمد صلى الله عليه وسلم من بطن مكة لم تكن لبناء  
وطن صغير بل كانت إنشاءً جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتدفع به  
في رحاب الأرض إلى أن تنتهي من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء .

فإذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها ؟  
ومن أولئك الخصوم ؟

« .. متعصبون تمجرت عقولهم . يزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم » وإذا  
تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجود الذين كفروا المنكر . يكادون يسطمون  
بالذين يتلون عليهم آياتنا ... » !!

٥ .. أم مترفون سرهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة، ويكرهون الحق لأنه عاطل عن الحلى والمتاع » وإذ تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً » ١١

٥ .. أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبية ، أو أزياء غانية فهم يقولون: دع هذا وهات هذا » وإذ تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا: أنت بقرآن غير هذا أو بدله .. » ١١

٥ .. أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عند ما تقرأ الآيات ، حتى لا تسمع فقههم فتترك أترأ في عقل تقي وقلب طيب » وقال الذين كفروا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ١١

لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد صلى الله عليه وسلم حتى يبحثوا أمره ويحصوا رسالته ، ويزنوا - على مهل - ما لدنهم وما جاء به ، لما علمهم على هذا عاقل . ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشفت جريمته وثبتت إدانته .

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الإعراض القرون بالتكذيب والتحدى . ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألغى نفسه مكذباً مهجوراً .

إلا أن الله واساه ، فأبان له بواطن أرائك المكذبين للتأبين » قد نعلمُ إنه ليجزئك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يحدون .»

إن المعتوه إذا اعترض طريقك ووقع في عرضك بلسان حاد ، سمعت من يقول لك : هذا لا يقصد العدوان عليك ولكنه يستجيب لتواضع الجنون في دمه . وكذلك أولئك المشركون ، إن فظاظهم وإنكارهم شمس مع دواعي الجحود في طباعهم

قبل أن تكون انتقاصاً للرجل الذي يمدتهم أو طعنًا في خلقه .. وإنهم لا يكذبونك  
ولكن الظالمين بآيات الله يمجدون » .

ومن ثم فعلى محمد صلى الله عليه وسلم أن يمضى في سبيل البلاغ ، وأن يجتاز  
ما يلقى أمامه من صعاب وعقاب . وعلى المؤمنين برسائله أن يثبتوا ، وليس ثباتهم  
لمصلحتهم الخاصة فقط ولا حق الإيمان عليهم وكفى . بل هو لمصلحة الأجيال المقبلة .  
إن البيان الشامخ للذرى لا يرتكز على سطح الأرض إنما يرتكز على دعائم  
غائرة في الثرى . وهى التى تحمل ثقله وترفع عمده وقد كان أصحاب محمد صلى الله  
عليه وسلم الأول - بصلابة يقينهم وروعة استمساكهم - دعائم رسالته وأصول  
امتدادها من بعد ، فى المشارق والمغرب .

## الاضطهاد

قرر المشركون ألا يألوا جهداً فى محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه  
والتعرض لهم بألوان الكمال والإيلام . ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله ،  
وعان قومه بضلال ورثوه عن آبائهم . انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت  
عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثأرين فزلزت الأرض من تحت أقدامهم ،  
واستباحت فى الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعات مقامهم تحملاً  
للضيم وتوقفاً للويل ...

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير قصد بها تخذيل  
المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرمى النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته بتهم هازلة  
وشتائم سفهية . وتآلفت جماعة للاستمراء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل  
الصحافة المعارضة عند ما تنشر عن الخصوص نكتة لاذعة وصوراً مضحكة للحط من  
مكانتهم لدى الجماهير .

وهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقَى الرحى .  
فرسولهم ينادى بالجنون « وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون » .  
ويوصم بالسحر والكذب « وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم . وقال الكافرون :  
هذا ساحرٌ كذابٌ » .

ويُشيعُ ويُستقبلُ بنظراتٍ ملتئمة ذقّة وعواطفٍ منفعة هائجة « وإن يكاد  
الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكرَ . ويقولون : إنه لمجنونٌ » .  
وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ، فهم - في غدوم ورواحهم  
محلُّ التندر واللمز « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون  
وإذا مرُّوا بهم يتغامزون \* وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين \* وإذا  
راؤهم قالوا : إن هؤلاء لضالُّون \* وما أرسلوا عليهم حافظين » .  
واقلمت هذه الحرب إلى تفكيك وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من  
المؤمنين فمن ليست له عصبية تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شيء . بل  
يحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياء .

### عمار بن ياسر

من هؤلاء عمار بن ياسر ، وهو من السابقين الأولين في الإسلام ، وكان ولى  
لبنى مخزوم . أسلم وأبوه وأمه ، فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حimit  
الرمضاء فيعذبونهم بجرها ، وصربهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم يعذبون . فقال  
صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة <sup>(١)</sup> فمات ياسر في العذاب . وأغلظت امرأته

(١) حديث حسن صحيح . رواه ابن إسحق في السيرة ( ٢٠٣/١ ) بلاغا . ووصله الحاكم  
( ٣٨٨/٣ - ٣٨٩ ) والطبراني في الأوسط كما في « المجمع » ( ٢٩٣/٩ ) عن جابر بن  
عبد الله . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » وواقه الذهبي . وأخرجه أبو أحمد

« سُمِيَّةَ » الفول لأبي جهل فظأنها في قبيلها بجريرة في يديه ، فماتت . وهي أول شهيد في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحرق تارة ، وبوضع الصخر على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى ، وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً صلى الله عليه وسلم أو تقول في اللات والعزيز خيراً ففعل ، فتركوه فأبى النبي صلى الله عليه وسلم يبكي فقال : ما وراءك ؟ قال : شرُّ يا رسول الله ، كان الأمر كذا وكذا . قال : فكيف تحب قلبك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان . فقال : يا عمار إن عادوا فعد . فأزل الله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (١) وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

— العالم كما في ( الإصابة ) من طريق عقيل عن الزهري عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه . وهذا سند صحيح من مراسيل الصحابة وهي مقبولة عند العلماء وأخرجها أحمد ( رقم ٤٣٩ ) وأبو نعيم في الحلية ( ١ - ١٤ ) عن عثمان بن عفان ورجاله نقات إلا أنه منقطع كما قال الحافظ . فهذه طرق تشهد لصحة الحديث .

(١) في نبوت هذا السياق نظر . وعلته الارسال أخرج ابن جرير في تفسيره ( ١١٣ - ١٢ ) وأبو نعيم ( ٩ - ١٤٠ ) وأبو بكر الجصاص في ( أحكام القرآن ) ( ٢ - ٢٣٦ ) من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر . قال : أخذ للشركون عماراً فلم يتركوه حتى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخبر . الحديث . وأخرجه العالم ( ٢ - ٣٥٧ ) عن أبي عبيدة هذا عن أبيه . ثم قال : ( صحيح على شرط الشيخين ) ووافقه الذهبي . كذا قال . وقد كنت قديماً اغتررت بتولها ، والآن تبرأ خطوها إذ أن الجماعة رووه عن أبي عبيدة . وهب أن قوله : ( عن أبيه ) ( صحيح ) فأبوه تابعي وليس بصحابي فالحديث مرسل لأن لم يكن معضلاً . ثم إن أبا عبيدة وأباه لم يخرج لهما الشيخان شيئاً . بل إن الأول قال فيه ابن أبي حاتم ( ٤ / ٢ - ٤٠٥ ) عن أبيه : ( منكر الحديث ) ووافقه ابن معين وغيره . فأبى للحديث الصحة ؟ به على شرطهما !

نعم إنما يصح منه نزول الآية في عمار لمجيء ذلك من طرق ساقها ابن جرير . والله أعلم .



## بلال

ومن هؤلاء « بلال بن رباح » كان سيده أمية بن خلف - إذا حميت الشمس وقت الظهيرة - يقلبه على الرمال الملتهبة ظهراً والبطن ، ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول له . لا تزال هكذا حتى تموت أو تسافر محمد وتعيد اللات والعري . فما يزيد بلال عن ترديد: أحد أحد . . .

## خياب

ولما اشتد ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب أحدهم - خياب بن الأرت - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجد به ، قال خياب . شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا . ألا تستنصر لنا . ألا تدعو لنا ؟؟ فقال . « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمنن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

. . .

ماذا عسى يفعل محمد صلى الله عليه وسلم لأولئك البائسين ؟ إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد منهم ، لأنه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه ، وقد كان في صلاته يرمى عليه - وهو ساجد - بكرش الجزور أرحم الشاة المذبوحة ، وكالت الأنجاس تلقى أمام بيته ، فلا يملك إلا الصبر .

إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على مغم عاجل أو آجل ، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين ، فأبصرت الحق الذي حجبته عندهراً ، ووسح

الران عن القلوب ، نعرفت اليقين الذي فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه ، إنه وصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق ، وكانوا - قبلاً - حيارى محسورين ، إنه وازن للناس بين الخلود والقناء ، فأثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة ، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم . فازدروا الأوثان المنحوتة ، وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض .

حسب محمد صلى الله عليه وسلم أن قدم هذا الخير الجزيل ، وحسب أصحابه أن ساءت العناية لهم ، فإذا أودوا فليحتسبوا ، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليستيزموا ما عرفوا ، والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلى غبارها يوماً ما ، ثم تتكشف عن شهداء وعن هلكى ، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين باذن الله ، « وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكاتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبت عناصر اللئمة في قلوب رجاله ، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام ، وانتشار مبادئه ، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغرب وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم ، كان الأسود بن المطلب وجلساؤه .

... إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام - يتغامزون بهم ويقولون :

قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيفعلون - غدا - على ملك كسرى وقيصر ،  
ثم يصفرون ويصفقون .



وتواصى المشركون بعد مصادرة الدعوة بهذا الأسلوب أن يمنعوا الوافدين إلى مكة من الاستماع إليها ، قال الوليد بن المغيرة لرجال قريش : إن الناس يأتونكم

أيام الحج فيسألونكم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فتختلف فيه أقوالكم ، يقول هذا : ساحر ، ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته ، وقد اقتسم هؤلاء المتسامرون مداخل مكة أيام الموسم ، يحدرون الناس من الداعية الخارج على قومه ، وينعتونه بما تواصوا به من سحر مفرق !

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الحجيج في مجامعهم ، ويحدثهم عن الإسلام ، ويطلب منهم النصرة .

عن جابر بن عبد الله كان رسول الله يعرض نفسه بالموقف فيقول : « الأرجل يحملني إلى قومه ! فإن قريشاً تمنوني أن أبلغ كلام ربي » (١) .

## مفاوضات

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيابهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعى الله ، وظنوا أن وسائل السخرية والنهك التي جنحوا إليها ستهدى قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم ، غير أن ظنونهم سقطت جميعاً ، فإن أحداً من المسلمين لم يرتد عن الحق الذي شرفه الله به ، بل كان المسلمون يتزايدون ؟ ولم تقبل طرق الاستهزاء بالصد عن سبيل الله أو تشويه معالمها ، إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرّات ونحاز تستحق الفضيحة والاستئصال ، ماتصنع سخرية الجهول بالهالم

حديث صحيح أخرجه أبو داود ( ٢ / ٢٧٨ ) والترمذى ( ٤ / ٥٧ ) وابن ماجه ( ١ / ٧٨ ) بإسناد صحيح عنه وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأخرجه الحاكم ( ٢ / ٦١٢ - ٦١٣ ) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي .

« إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ  
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۖ »

رأت قريش أن تجرب أسلوماً آخر ، تجمع فيه بين الترغيب والترهيب ،  
فلترسل إلى محمد صلى الله عليه وسلم تعرض عليه من الدنيا ما يشاء ، وترسل إلى  
عمه الذي يحميه ، تحذره مغبة هذا التأييد ، حتى يكلم هو الآخر محمداً أن يسكت ،  
فلا يجر المتاعب على كآله وولايه .

• \* \*

أرسلت قريش « عتبة بن ربيعة » - وهو رجل رزبن هاديء - فذهب  
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت  
من المكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع  
مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت إنما تريد هذا الأمر مالا  
جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

« وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا تقطع أمرأ دونك .

« وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربياً تراه  
لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

فما فرغ من قوله تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عليه صدر سورة  
السجدة « حم تنزيل من الرحمن الرحيم » كتاب نصت آياته قرآناً عربياً لقوم  
يعلمون \* بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون \* وقالوا بلونباني  
أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر . \* ومن بيننا وبينك حجاب . فاعمل  
إننا عاملون \* قل : إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ أنما يحكم الله واحد  
فاستقيموا إليه واستغفروا ، وويل للمشركين \* الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة

هم كافرُونَ .. » (۱)

حتى وصل إلى قوله تعالى «... فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ»

تخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات من الوحي المبارك . اعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول . إن محمداً عليه الصلاة والسلام يحمل كتباً من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خيال . وهو - قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه فمحمداً عليه الصلاة والسلام ألمج الناس بالاستغفار وأزمهم للاستقامة وما يطلب ملكاً ولا مالا وجاهاً ، لقد أمكنه الله من هذا كله فغف عنه ورفع أن يمد يده إليه . وبسط العطاء مما سبق إليه من خيرات ، فأنفق وادياً من المال في ساعة من نهار ، وترك الحياة خير معقب لذريته درهما .

إن عتبة - باسم قريش - يريد أن يترك محمداً عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس . ! ماذا تصير إليه الحياة لو أن صخرة من الأرض انخلعت عنها وصعدت إلى دارات الفلك تطلب من الشمس أو أى كوكب آخر أن يقف مسيره وإشعائه ، ويحرم الوجود من ضيائه وحرارته !!

ألا ما أغرب هذا الطلب ؟ وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يبعدها ولذلك ، بعد ما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائماً من فكره ، استمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجماً من عاطفته : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ

---

(۱) هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في المنازى ( ۱ / ۱۵۵ من سيرة ابن هشام ) بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسل ، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى البغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضى الله عنه ، كما في تفسير ابن كثير ( ۹ / ۹۱ - ۹۰ ) وسنده حسن ، إن شاء الله .

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه ، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه !

أما وفد قريش إلى أبي طالب ، فقد أخذ يقول: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهمتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فإما أن تكفه عنا وإما أن تحل بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم رداً رقيقاً . فانصرفوا عنه ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو عليه ثم استشرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا ، وأكثر قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمروا فيه . فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا : يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ، وإنا قد استنميناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا - والله - لانصبر على هذا من شتم آلهمتنا وآبائنا ونسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك ، إلى أن يهلك أحد القريقين ، ثم انصرفوا عنه .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلانه ، وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلمه ما قالت قريش وقال له : ابق على نفسك وعلى ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فثن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه رأي ، وأنه خذله وضعف عن نصرته فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : يا عماء والله لو وضعو الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته (١)

(١) حديث ضعيف أخرجه ابن اسحاق (١ / ١٧٠) ومن طريقه ابن جرير (٢ / ٦٧) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس به . وهذا الإسناد معضل ، يعقوب هذا لم يدرك أحداً من الصحابة فهو من أتباع التابعين وقد أخرج هذه القصة مختصراً =

ثم بكى رسول الله وقام فلما ناداه عمه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب  
يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لأأسلمك لشيء أبدا ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

\* \* \*

وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب في تعويق الدعوة . وأدرت قريش أن  
ما تصيبو إليه بعيد المنال . فعادت سيرتها الأولى ، تصب جام غضبها على المؤمنين ،  
وتبذل آخر مافي وسعها للتفكيك بهم ومحاولة فتنهم عن دينهم .

وحزن الرسول الكريم للمآسى التي تقع لأصحابه وهو عاجز عن كفها ،  
فأوعز إلى من قل نصيره ، ونبا به للقيام في مكة أن يهجروها إلى الحبشة . وكان ذلك  
لخمس سنين من مبعثه . أو بعد سنتين من جهره بالبلاغ .

### الهجرة إلى الحبشة

كان الرحيل إلى الحبشة تسلا في الخفاء ، حتى لا تسبى نظر قريش للأمر فتجلبطه  
ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع ، بل كان الفوج الأول مكوناً من بضعة أسر ، فيهم  
رقية ابنة النبي عليه الصلاة والسلام وزوجها عثمان بن عفان ، وقرآخ من المهاجرين  
لم يزيدوا جميعاً عن ستة عشر . وقد يسوا شطر البحر حيث قبضت لهم الأقدار  
هفتين تجاريتين أبحرنا بهم إلى الحبشة ، فلما خرجت قريش في آثارهم إلى الشاطئ  
كانوا قد انطلقوا آمنين . ولم يمكث أولئك المهاجرون طويلاً حتى ترامت إليهم

---

الطبراني في الأوسط والكبير من حديث عقيل بن أبي طالب ، وفيه مكان قوله : « ولو  
وضوا الشمس .. » « مانسه » والله ماأنا بأقدر أن أدع ماهمت به من أن يشعل أحدكم  
من هذه الشمس شملة من نار » وفيه عقب هذا فقال أبو طالب : « والله ما كذب ابن  
أخي قط أرجوا راشدين » قال الهيثمي في « المجمع » ( ٦ / ١٥ ) : « رواه أبو يعلى  
بإختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح » .

الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام وتركوا أهله أحرارا ، وأن الإيذاء القديم  
اقطع فلا بأس عليهم إن عادوا .

وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين ، فقررروا العودة إلى وطنهم .  
حتى إذا اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقة الحزينة ، وعرفوا أن المشركين أشد مه  
يكونون خصاما لله ورسوله والمؤمنين ، وأن عدوانهم لم ينقطع يوما ...

ويزعم بعض المغفلين أنه وقعت هدنة حقا بين الإسلام والوثنية أساسها أن  
محمد صلى الله عليه وسلم تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها (١)  
وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة ...

وماذا قال محمد عليه الصلاة والسلام في مدح الأصنام؟ يجب هؤلاء المغفلون  
بأنه قال : تلك الفرائق العلاء . وإن شفاعتهن لترتجى (؟) .

وأي وضع هذه الكلمات؟ وضعها في سورة « النجم » مقحمة وسط الآيات  
التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام . فأصبحت هكذا « أفرايم اللات والعزى • ومناة  
الثالثة الأخرى • تلك الفرائق العلاء . وأن شفاعتهن لترتجى • ألكم الذكر  
وله الأئني • تلك إذا قسمة ضيزى • إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآهؤكم ما أنزل  
الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ... »

ويكون معنى الكلام على هذا : خبروني على أصنامكم : أهي كذا وكذا؟ إن  
شفاعتها مرجوة ، إنها أسماء لاحقائق لها . خرافات ابتدعت واتبعت • مالكم  
جعلتموها إناثا ونسبتموها لله وأنتم نكروهن نسبة الإناث لكم ؟ تلك قسمة جائرة ؟  
• فهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلا عن أن ينزل به وحى حكيم ؟ .

ولسكن هذا السخف وجد من يكتبه وينقله !

إن محمدا صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه  
ينص الكتاب الذي جاء به • قال الله جل شأنه « ولو تقول علينا بعض الأقاويل  
لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين » .



يبد أن كتب التاريخ والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشحنونها  
بالمفتريات . اتسعت صفحاتها لذكر هذا اللغو القبيح . ومع أن زيفه وفساده لم  
يخفيا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يدون مثله . . . .

إليك تفتح « الخازن » في تفسير القرآن ( سورة هود ) فتقرأ ما يلي : لما  
كثرت الأرواث في سفينة نوح أوحى الله إليه أن اغمز ذنب الفيل . فغمزه فوق  
منه خنزير وخنزيرة ، ومسح على الخنزير فوق منه الفأرة . فأقبلوا على الروث  
سفا كلوه . فلما أفسد النار في السفينة وجعل يعرضها ويقطع جبالها ، أوحى الله إليه  
أن اضرب بين عيني لأسد ، فضرب فخرج من منخره قط وقطة . فأقبلا على  
الفأرة ما كلاه .

أرأيت هذا الكلام الفارغ ؟ أرأيت من قبله حديث الغرائيق ؟ إن كثيراً  
من هذه الخرافات الصغيرة توجد في كتب شتى عندنا . ولا ندرى متى تنظف  
هذه الكتب القديمة منها . فهي لا ريب مدخولة عليها أيام غفلة المسلمين وغلبة  
الدسائس اليهودية على أفكارهم ومخطوطاتهم .

والذي ورد في الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ سورة « البجم »  
في محفل يضم مسلمين ومشركين ، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب .  
فلما أخذ صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يهدر بها . ويرعد بندرها حتى وصل  
إلى قول الله « . . . . والمؤتفة أهوى \* فغشاها ما غشى \* فبأى آلام ربك  
تتمارى \* هذا نذير من النذير الأولى \* أذفت الآزفة \* ليس لها من دون  
الله كاشفة \* أفن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبسكون ؟ \* وأنتم  
سامدون ! » .

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ،  
فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين ، مع غيرهم من المسلمين .

فلما نكسوا على رؤسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ، ندموا على  
ما كان منهم ، وأحبوا أن يعتذروا عنه ، بأنهم ما سجدوا مع محمد صلى الله عليه وسلم

إلا لأن محمداً صلى الله عليه وسلم عطف على أصنامهم بكلمة تقدير<sup>(١)</sup> (كذا) وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكت للضحك من المسلمين - ولا يستحى أحدهم - وهو ابن خال النبي عليه الصلاة والسلام - أن يقول له ماخراً : كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟

وليس أسمح من اعتذار المشركين عن سجودهم إلا تصديق هذا الاعتذار وقد حاول المشركين أن ينشروا فريتهم هذه ليمكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام ويشوشوا على الوحي ، وليوهوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم في بعض أحيائه مال إليهم . وهيهات . فإن الحرب التي شنها محمد صلى الله عليه وسلم على الوثنية لم تزدها إلإى إلا ضراماً ، ولم تزده من عبيدها إلا خصاماً .

\* \* \*

عاد من هاجر إلى الحبشة ليباغت بأن الاضطهاد الواقع على الإسلام أحدو وأشد فدخل بعضهم مكة مستجيراً بمن يعرف من كبارها . وتوارى الآخرون .

لكن قريشاً أبت إلا أن تنكل بالقاديين وأن تقرى سائر القبائل بمضاغفة الأذى للمسلمين . فلم ير الرسول صلى الله عليه وسلم بدا من أن يشير على أصحابه بالمهجرة مرة أخرى إلى الحبشة . وكانت هذه المهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها . بيد أن المسلمين كانوا أسرع . فخرج منهم

---

(١) أين الدليل القلبي على هذا الاعتذار ؟ وأن المشركين م الذين اختلفوا فريتهم هذه وحاولوا نشرها ؟ مثل هذه الأمور لا بد لها من دليل منقول ، وما المانع أن تكون هذه القرية حدثت من بعد ؟ وهذا هو الأقرب ، فانها أعنى هذه القرية لم تزو بسند معتبر عن صحابي ، بل كل طرقها مرسة لا يدري من الذي حدث بها ممن يمكن أن يدرك عصر النبوة والرسالة وقد فصلت القول في بطلان هذه النصة من الوجوه الحديثية في كتابي « تصيب المجانيق لنسف قصة الفرائق » ولما يطبع .

في هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة . ويسر الله لهم السفر  
فانحازوا إلى نجاشي الحبشة . ووجدنا عنده ما يبعون من أمان وطيب جوار  
وكرم وفادة .

والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلا راشداً نظيف العقل ، حسن المعرفة لله ،  
سلم الاعتقاد في عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام . وكانت مرونة فكره سر  
العاملة الجميلة التي وفرها لأولئك اللاجئين إلى مملكته ، فارين بدينهم من الفتن .

\* \* \*

عزّ هلى المشركين أن يحد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم ، وأغرقتهم  
كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشي وفدًا منهم محملاً بالهدايا والتحف ، كي  
يحرم المسلمين وده ، ويطوى عنهم بشره .

وكان الوفد من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا -  
واستعان الوفد على النجاشي برجال حاشيته بعد أن ساقوا إليهم الهدايا، وزودهم  
بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون ! قالوا : إن ناسا من صفهائنا فارقوا دين  
قومهم ولم يدخلوا في دين الملك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . . .  
واقفوا معهم أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم .

فلما فوَّخ النجاشي في الأمر وأشير عليه بإبعاد القوم ، رأى أن لا بد من  
تمحيص القضية وسماع أطرافها جميعاً .  
ثم أرسل إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فدعاهم . فحضروا ، وقد أجمعوا  
على صدقه ، فيما ساءه وسره .

وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب . فقال لهم النجاشي :  
ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين  
أحد من الناس ؟

فقال جعفر : أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي

الفواحش ، وتقطع الأرحام ، ونسى الجوار ، وبأكل القوى منا الضيف .  
حتى بعث الله إينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفانه ، فدعانا لتوحيد  
الله وأن لا نشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق  
الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم  
والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة  
والصيام . . . . . وعدد عليه أمور الإسلام . قال جعفر : فأما به ، وصدقناه ، وحرمتنا  
ما حرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا . فتعدى علينا قومنا ، فمذبونا ، وفتنونا عن ديننا  
ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا  
إلى بلادك ، واخترتناك على من سواك ، ورجونا أن لا نُظلمَ عندك . . . . .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ قال : نعم . فقرأ عليه  
سطراً من « كهيعص » . فبكى النجاشي وأساقفته ، وقال النجاشي : « إن هذا  
والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما  
أبدأ » يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه — فخرجا وقال « عمرو » لعبد الله بن  
أبي ربيعة : والله لآتينه غداً بما يببب خضراء هم .

فلما كان الند قال للنجاشي إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً .  
فأرسل النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح . فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به  
نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته أنقأها إلى مريم العذراء البتول .  
فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال : ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود<sup>(١)</sup>

---

(١) اختلف النصارى قديماً في طبيعة المسيح على مذاهب شتى . وكان هناك مذهب  
يقوم على اعتباره بشراً مرسلًا ، وليس إلهًا ولا ندًا لله . ولا يزال في الغرب المسيحي  
أناس يعتقدون هذا المذهب الموحد . ونعتقد أن نجاشي الحبشة على هذا الرأي . وإن كان  
بطارقة الكنيسة يستكرونها أشد الاستنكار .

فخسرت بطارقه ا فقل : وإن نخرتم ا وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون ،  
ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأنني آذيت رجلا منكم ا وورد هدية قريش وقال :  
ما أخذ الله الرشوة مني حتى أخذها منكم ، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه (١) وأقام  
المسلمون عنده بمخردار ...

أخفقت حيله عمرو، ووعاده فدل إلى مكة يجر أذيال الخيية . وعرفت قريش أنها لن  
تشبع ضغينتها على الإسلام وأهله إلا في حدود سلطانها ، فعزمت أن تشفي غيظها من  
يقع تحت أيديها .

## بإسلام حمزة وعمر

إن الأفق المتلبد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء . لقد غبرت على المسلمين في مكة  
أيام غلاظ ، اضطرت بيوتاً عديدة أن تقربد بينها . وبقي من بقي منهم يكابد العنت من  
شطط المشركين وكيدهم ، إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جعلت قريشاً تتروى  
في أسرها قبل أن تقدم على إساءتها المييتة .

أسلم «حمزة» بن عبدالمطلب ، عم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوه من الرضاع وهو  
رجل أيد جلد قوى الشكيمة . وسبب إسلامه الغضب لما بلغه من تهجم أبي جهل على  
رسول الله صلى الله عليه وسلم تهجماً بذنباً . قالت له أمة لعبد الله بن جدعان : يا أبا عمارة  
لو رأيت ما ترى ابن أخيك «محمد» من أبي لحكم بن هشام فإنه سبه وآذاه ثم انصرف  
عنه ، ولم يكلمه محمد - وكانت المرأة قد شهدت هذا الحادث في مسكن قريب -  
فأسرع «حمزة» محققاً لا يلوى على شيء وصمد إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه ،

(١) اخرج هذه القصة ابن اسحاق في المنازى (١/٢١١ - ٢١٣ من ابن هشام )  
وأحمد ( رقم ١٧٤٠ ) من طريق ابن اسحاق بسند صحيح ، من حديث أم سلمة زوج النبي  
صلى الله عليه وسلم .

ثم ضرب رأسه بالقوس ، فشجّه شجّة منكراً وقال : أنشتمه وأنا على دينه ؟  
وكما يقول البعض : طلبنا العلم لندينّا فأبى الله ، إلا أن يكون الدين ! كان إسلام  
حزّة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاه ، ثم شرح الله صدره فاستمسك  
بالعروة الوثقى . واعتزّ به المسلمون أيّما اعتزاز ...

أما عمر بن الخطاب فكان من أول الفتنانين المستهزئين بالإسلام ،  
وكان معروفاً بحدة الطبع ، وقوة الشكيمة ، وطالما لقي المسلمون منه  
ألوان الأذى .

روت زوجة عاصم بن ربيعة قالت : إنّنا انرحل إلى أرض الحبشة وقد  
ذهب عاصم لبعض حاجته ؛ إذ أقبل عمر - وهو على شركه - حتى وقف  
على وكنا نلقى منه البلاء ، فقال : أتنتلقون يا أم عبدالله ؟ قالت : نعم والله  
لنخرجن في أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجاً .  
قالت : فقال عمر : صحبكم الله ، ورأيت له رقّة وحزناً . . . . . قالت : فلما  
عاد عاصم أخبرته وقلت له : لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا ... قال : أطعت  
في إسلامه ؟ قلت نعم . فقال : « لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! ! » - لما  
كان يراه الرجل من شدته وغلظته على المسلمين - .

ولكن قلب المرأة كان أصدق من رأى الرجل فإن غلظة عمر كانت  
قشرة خفيفة ، تكن وراءها ينابيع من الرقة والعطف والسماحة .

والظاهر أن عمر كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة : احترامه للتقاليد  
التي سنّها الآباء والأجداد . واسترساله مع شهوات السكر والبهو التي ألفها ...  
ثم أعجابه بصلافة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي  
تساوره - كماى عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من  
غيره ، ولهذا ما إن يثور حتى يخور . ذهب ليقتل محمداً صلى الله عليه وسلم ثم ننتسه

عن عزمه كلمة . ولما علم بإسلام أخته وزوجها افتتح عليهما البيت صاحبا متوعدا .  
وضرب أخته فشجها ، وأعادته منظر الدم المراق إلى صوابه . فرجحت نواحي البر  
والخير في نفسه ، وتناسول ورقة كتبت فيها بعض الآيات ، وتلاها . ثم قال :  
ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. ؟

واستكان عمر للحق فمشى إلى رسول الله ، يعلن إسلامه . .

فلما خلصت نفسه من شوائبها ، وتمحصت للإسلام ، كان مدداً عظيماً لجند  
الله فازداد المسلمون به منه ، ووقعت في نفوس الكافرين منه حسرة .  
ورأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو ، وأن وسائلها الأولى في محاربتة  
لم تمنع انتشاره أو تنفر أنصاره ، فأعدت النظر في موقفها كله لترسم خطة جديدة .  
أقسى وأحكم ، وأدق وأشمل ...

### المقاطعة العامة

وتخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر للمسلمين ومن يرضى بدينهم ،  
أو يعطف عليهم ، أو يحمي أحداً منهم حزباً واحداً دون سائر الناس . ثم اتفقوا  
ألا يبيعوه أو يبتاعوا منهم شيئاً وألا يزوجهم أو يتزوجوا منهم وكتبوا ذلك  
في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة ، توكيداً لنصوصها .

ولا شك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة نجحوا في فرض رأيهم وإشباع  
ضغنتهم . فاضطر الرسول ومن معه إلى الاحتباس في شعب بنى هاشم وانحاز إليهم  
بنو اللطب كافرهم ومؤمنهم على سواء ما عدا أبالهب فقد أزر قريشاً في  
خصومتها لقومه .

وضيق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم العون ، وقل الغذاء حتى بلغ  
بهم الجهد أقصاه ، وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب ، وعضتهم الأزمات العصبية

حتى رثى لحالمهم الخوصوم . ومع الكفهرار الجوفى وجوههم فقد تحملوا فى ذات الله الويلات .

ولم تقتر حد؛ الوثنيين فى الحجة على الإسلام ورجاله ، وفى ناليب العرب عليهم من كل فج .

قال السهلبى : كانت الصحابة إذا قدمت عبر إلى مكة ، يأتى أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام قوتاً لعياله فيقوم أبو لهب فيقول . يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يدركوا معكم شيئاً . وقد علمت مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن لأخسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع . وليس فى يده شئ يطعمهم به . ويندو التجار على أبى لهب فيرمحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وهرباً .

/ وروى يونس عن سعد بن أبى وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت نغمة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضضتها بالماء ، فتويت بها ثلاثاً .

فانظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين . وكيف أضناهم الحرمان والجأهم أن يطعموا مالا مساغ له ؟؟ . وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قريش . فكان أحدهم يوقر البعير زاداً ثم يضربه فى إجماع الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين فيخفف شيئاً مما بهم من إعياء وفاقة . .

كم بقيت هذه الضائقة ؟ ثلاث سنين كالحلة كان رباط الإيمان وحده هو الذى يمسك القلوب ويصبر على اللأواء .

ومن الطبيعى أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المسآرق . لطالما وعدوا بالنصر والمزكين ، فما وجدوا إلا الروع والشغب وهام أولاء محرجون فى أرض



تذكرت لهم ، واقشعرت تحت أقدامهم . ولا ريب أن قلوبهم امتلأت غيظاً على أولئك المشركين الذين سخروا من جميع القيم الفاضلة ، وكفروا بانتصارها في الدنيا كفرهم بحجىء اليوم الآخر . ولو لم يطلب أولئك المعذبون النصر لينقذهم من بأساتهم لطلبوه ، كي يحزوا به المسكذيين ويؤدبوا اللتوقحين ، بيد أن الوحي كان ينزل فيطالب المسلمين بايقين والثبات دون ارتقاب لهذه النتائج المتوقعة ، يجب أن يمدوا على حقائق الإيمان التي عرفوها ، وأن يستمدوا من سموها وصدقها ما يراغمون به الأيام والأحداث .

« وَإِنَّمَا رَبَّيْنَا بِعِصِّ النَّاسِ اللَّذِينَ نَعُدُّهُمْ أَوْ تَقَوَّفَيْنَا فَإِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ إِلَيْنَا اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » . وَلِسَكَلٌ أُمَّةٌ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

وكان المشركون أيضاً يتمجلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين يتمجلون لأنهم يضحكون منها فما يثقون ببعث أو جزاء ، ولا يظنون أبداً أن يوماً قريباً أو بعيداً سينشق فجره ، فإذا مسكة خالية من الأصنام ، وإذا أذان التوحيد يرنُّ في أرجائها ، وإذا المحصورون في الشعبهم أصحاب الأمر والنهي ، والسادة الحاكون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو !!! وكان يقينهم من أن اليوم والغد لهم بزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به .

« ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لسكَلٌ أُمَّةٌ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بيئناً أو نهراً . ماذا يستعجل منه الجرمون ؟ أه أتم إذا ما وقع آمنتم به ؟ الآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ » . وكان الدخول في الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن الأهمية . ربما اعتنى فريق من الناس مبدأ ما — عن صدق وإقناع — وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من ورائه .

أما أولئك السابقون الأولون فقد علموا أن فقدان المنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلقون من تضحية في سبيل عقيدتهم .

ولا أحسب شيئاً يربي النفوس على التجرد كهذا التفانى في الحق ، للحق ذاته ، ثم إن القرآن كان صارماً في قمع المتاجرة بالعقائد . والاثراء على حسابها ، والعلو في الأرض باسمها : « مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة ونقاء وإخلاصاً لا يعرف لها في التاريخ نظير ، فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم ، واستسلمت الأفئدة المكتنزة بالخير لجيوشهم ، كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده فلم يكثرثوا لذهب أو فضة .. إنما عناهم - أولاً وآخرأ - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

• • •

وفي أيام الشعب كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج ، ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وفد ، فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقاً وروعها امتداداً ، وقد كسب الإسلام أنصاراً كثيراً في هذه المرحلة ، وكسب - إلى جانب ذلك - أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه اللقطة ونقض الصحيفة التي تضمنها .

وأول من أبلى ذلك بلاء حسناً « هشام بن عمرو » فقد ساءته حال المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء ، فمشى إلى زهير بن أبي أمية ، وكان شديد التهمة على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب .

فقال : يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأحوالك حيث قد علمت ؟

أما إنى أحلف بالله : لو كانوا أحوال أبي الحكم - بمعنى أبا جهل - ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أحابك أبداً ! فقال : فإذا أصنع وإنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها ! فقال : قد وجدت رجلاً ، قال : ومن هو ؟ قال : أنا . قال زهير : أبيننا ثالثاً فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه ؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إلى مثلها منكم أسرع ! قال : ما أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال : أبيننا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية : قال : أبيننا رابعاً . فذهب إلى أبو البختری بن هشام ، وقال له فحوا عما قال للمطعم . قال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : أنا وزهير والمطعم . قال : أبيننا خامساً . فذهب إلى زمعة بن الأسود ، فكلّمه وذكر له قرابته ، قال : وهل على هذا الأمر معين ؟ قال : « نعم » وسى له القوم .

فأتعدوا « خطم الحجون » الذي بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك وتهدوا على القيام في نقض الصحيفة فقال : زهير : أنا أبدوكم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير فطاف بالبیت . ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، أنا أكل الطعام وتلبس الثياب وبنو هاشم هلكت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! قال أبو جهل : كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا بها حين كتبت ! . قال أبو البختری : صدق والله زمعة لا نرضى ما كتب فيها . قال المطعم بن عدى : صدقنا وكذب من قال غير ذلك ! ! وقال هشام بن عمرو

نحواً من هذا . فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بايل ! فقام المطم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلى كلمة « باسمك اللهم » .

وكان للعرب تفتتح بها كتبتها ..

## عام الحزن

انطلق المسلمون من الشعب يستأنفون نشاطهم القديم بعد ما قطع الإسلام في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة ، وما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لاقوها حتى أصيب الرسول صلى الله عليه وسلم بوفاة زوجته خديجة ثم بوفاة عمه أبي طالب .

أى أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معاً .

إن « خديجة » من نعم الله الجليلة على « محمد » عليه الصلاة والسلام ، فقد آزرته في أخرج الأوقات ، وأعانته على إبلاغ رسالته ، وشاركته مفارم الجهاد المر ، وواسته بنفسها ومالها ، وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من « خن الرسالة وكفروا برجالهن ، وكن مع المشركين من قومهن وآلمن حرباً على الله ورسوله » « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة فوج وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً . وقبل : ادخلا النار مع الداخلين » .

أما خديجة فهي صديقة النساء ، حنت على رجلها ساعة قلق ، وكانت نسمة سلام وبر ، رطبت جبينه المنتصب من آثار الوحى ، وبقيت ربع قرن معه ، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله ، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة ، وماتت والرسول صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره ، وهى تجاوز الخامسة والستين وقد أخلص لذكراها طول حياته .

أما أبو طالب ، فإن المرء يحار في أمره ! وبقدر ما ينتحى إعجاباً لنبهه في كفاية محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم لبطولته في الدفاع عنه ، حين نبيه ، وحين صدع بأمر ربه ، وأنذر عشيرته الأقربين .

إنه - بقدر ذلك - يستغرب المصير الذي ختم حياته ، وجعله يصرح -- قبل موته - أنه على ملة الأشياخ من أجداده .

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لموت أبي طالب حزناً شديداً . ألم يكن الحصن الذي تحمي به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء؟ وما قدولى الرجل الذي سخر جاهه وسلطانه في الذود عن ابن أخيه وكف العوادى أن تناله .

إن قريشاً أصبحت لا تهاب في محمد عليه الصلاة والسلام أحداً بعده .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات « أبو طالب » (١) وذلك أنهم تجردوا عليه ، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه .

وعن ابن مسعود قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحررت جزور بالأمس . فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيضعه بين كتفي محمد عليه الصلاة والسلام إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه .

فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض . وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحتة من ظهره والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة .

فجاءت - وهي جويرية - فطرحتة عنه ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات ، ولماذا سأل سأل ثلاثاً . ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاثاً .

(١) حديث ضعيف أخرجه ابن إسحاق (١/٢٥٨) بسند صحيح عن عروة بن الزبير مرسل . (٩ - فقه السيرة)

فلما سمعوا صوته ، ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته .

ثم قال « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط » وذكر السابع ولم أحفظه .

فو الذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم « بدر » ثم سحبوا إلى القليب ، قلب بدر (١) .

لقد مضت مكة في طريق الكفر حتى أوغلت فيه وبلغت نهايته ، فهى الآن تستمرىء تلويث الساجدين بالأفذار . وتمايل - ضحكاً - من منظر الأنجاس ، وهى تسيل على كتفى المصلى . لم يبق في هذه القلوب مكان لذرة من الخير .  
وأنبت - فى المجتمع العربى - تعيش فى كنف أبيها ، وتفخر بقوته ، وتأنس بحمايته .

فما يحز فى قلب الرجل أن يرى نفسه فى وضع تدفع عنه ابنته . وتشعر بالعجز وقلة الذاصر ، وقد كظم محمد صلى الله عليه وسلم على أمه ، وتحمل فى ذات الله ما تقي . إلا أنه أخذ يفكر فى التوجه برسالته إلى قرية أخرى ، عليها تكون أحسن قبولا وأقرب استجابة ؛ فاستصحب معه زيد بن حارثة « وولى وجهه شطر « ثقيف » يلتمس نصرتها ..

## فى الطائف

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حيث تقطن ثقيف وهى تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلاً ، سارها محمد صلى الله عليه وسلم على قدميه . جيئة وذهوياً

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى ( ٢٧٨/١ - ٢٨٠ ، ٤٧١ ) ( ومسلم / ٥ / ١٨٠ ) والنسائى ( ٥٨/١ ) وأحمد ( رقم ٢٧٢٢ ، ٣٧٢٣ ، ٣٧٧٥ ، ٣٩٦٢ )  
والقائل : « وذكر السابع ولم أحفظه هو أبو اسحاق وهو السبيعى كما صرح بذلك مسلم فى روايته ، وقد سمى السابع « عمارة بن الوليد » رواية للبخارى وأحمد ، وراجع فتح البارى .

فلما انتهى إليه ، قصد إلى نفر من رجالها الذين ينتهى إليهم أمرها ، ثم كلمهم في الإسلام ودعاهم إلى الله فردوه - جميعاً - رداً منكراً ، وأغلظوا له الجواب . ومكث عشرة أيام ، يتردد على منازلهم دون جدوى .

فلما يئس الرسول عليه الصلاة والسلام من خيرهم قال لهم : إذا أيتم ، فاكتموا على ذلك - كراهية أن يبلغ أهل مكة ، فتزداد عداوتهم وشماتهم - لكن القوم كانوا أخس مما ينتظر . قالوا له : أخرج من بلدنا ، وحرشوا عليه الصبيان والرعاع فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة . و « زيد بن حارثة » يحاول - عبثاً - الدفاع عنه حتى شج في ذلك رأسه .

وأصيب الرسول عليه الصلاة والسلام في أقدامه . فسالت منها الدماء واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان اعبية ، وشيبة ، ابني ربيعة ، حيث جلس في ظل كرمة يلتمس الراحة والأمن .

وكان أصحاب البستان فيه ، فصرقوا الأرباش عنه ، واستوحش الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التي عاها مع أهل مكة ، إنه يجرر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى المتلاحقة فهتف يقول :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ... أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ...

إلى من تسكني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن

بك غضب على فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي .. !!

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ... »

وتحركت عاطفة القرابة في قلوب بني ربيعة فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يدعى « عداساً » وقال له : خذ قطعاً من هذا العنب ، واذهب به إلى الرجل .

فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مديده إليه قائلاً : « باسم  
الله ثم أكل » .

فقال « عداس » إن هذا السلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبي :  
من أى البلاد أنت ! قال : أنا نصرانى من « نينوى » فقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك أخى ، كان نبياً وأنا نبي . فأكب  
« عداس » على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجليه يقبلهما .

فقال ابن اربعة ، أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاء  
« عداس » قال له : ويحك ما هذا : قال ما فى الأرض خير من هذا الرجل (١) .  
فحاول الرجلان توهين أمر محمد ، وتسميك الرجل بدينه القديم . كأنما عزوا  
عليهما أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم من الطائف بأى كسب .

\* \* \*

وقتل الرسول عليه الصلاة والسلام عائداً إلى مكة ، إلى البلد الذى لفظ  
خيرة أهله ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة . وأكره الباقى على معاناة العذاب الواصب ،  
أو الفرار إلى شرف الجبال .

وقال زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟  
فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا زيد . إن الله جاعل لما ترى فرجاً . . .

(١) أخرج هذه القصة ابن إسحق ( ١ / ٢٦٠ - ٢٦٢ ) بسند صحيح عن محمد  
ابن كعب القرظي مرسلًا ، لكن قوله : « لأن أبيتم فآتكموا على ذلك » وقوله : اللهم إليك  
أشكوا . . . إلخ الدعاء . ذكرهما بدون سند ، وكذلك رواه ابن جرير ( ١ / ٨٠ - ٨١ )  
من طريق ابن إسحاق وروى هذه القصة الطبراني فى الكبير من حديث عبد الله ابن جعفر  
مختصراً وفيه الدعاء المذكور بنحوه ، قال الهيثمى ( ٦ / ٢٥ ) : « وفيه ابن إسحق وهو  
مدلس ثقة . وبقية رجاله ثقات » فالحديث ضعيف .



ولا بد أن أخبار ثقيف قد سبقته إلى قريش . ومن ثم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته . فبعث إلى « اللطم بن عدي » يعرض عليه أن يجيره حتى يبايعه رسالة ربه ! فقبل « اللطم » واستنض أبناءه فحملوا أسلحتهم ووقفوا عند أركان البيت الحرام . وتسم « اللطم » ناقته ثم نادى . يا معشر قريش ، قد أجرت محمداً عليه الصلاة والسلام ، فلا يهجه أحد منكم ! فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته . و « مطعم » وأهله يجرسونه بأسلحتهم (١) ...

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أيجير أم متابع - مسلم ؟ قال : بل مجير ؟ قال : قد أجرنا من أجرت . . . !

وحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم له طعم هذا الصنيع . فقال يوم أمرى بدر : لو كان المطعم حياً لتركته له هؤلاء الأتني ...

كان اللطم - كأبي طالب - على دين أجداده وكان كذلك مثله في المروءة والنجدة . وقد أراد أبو جهل أن يتهم بني يحتاج إلى جوار ! وكأنه يتساءل : لم لم تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه ؟

ولذلك قال - لما رآه - : هذا نبيكم يا بني عبد مناف ؟

فرد عليه عتبة بن ربيعة : وما ينكر أن يكون من أنبيائك وملاك ؟

فلما أخبر رسول الله بسؤال أبي جهل ورد عتبة قال :

أما أنت يا عتبة فما حميت لله ، وإنما حميت لنفسك - وذلك أنه قالها عصبية

لا إيماناً -

(١) لم أجد له سنداً وقد ذكره بنحوه ابن جرير (٢/٨٧ - ٨٣) بدون سند بقوله « وذكر بعضهم . . . » ولعل هذا البعض هو الأموي في منازيه فقد عزاه إليه الحفاظ كثير (٣/١٣٧) بدون سند أيضاً.

وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً  
وتبكي كثيراً .

وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا  
فيما تنكرون<sup>(١)</sup> ...

وفي هذا التعليل ما يدل على ثقة الرسول عليه الصلاة والسلام من المستقبل  
مهما اكتنفته - في الحاضر - من الآلام .

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، ليستأنف خطته الأولى ، في عرض  
الإسلام وإبلاغ رسالة الله .

وبينا هو ماض في جهاده ، إذ وقعت له قصة الإسراء والمعراج ...

## الإسراء والمعراج

يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد  
الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ، ما عقب هذه الرحلة من ارتفاع في طباق  
السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه  
أحد . ثم الأوبة - بعد ذلك - إلى المسجد الحرام بمكة . وقد أشار القرآن الكريم  
إلى كلتا الرحلتين في سورتين مختلفتين . ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله :

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ  
الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله :

(١) ابن جرير ( ٢/٨٢ - ٨٣ ) بدون سند كما تقدم في تخریج الحديث السابق .

ولقد رآه - يعنى جبريل - نزلةً أخرى \* عندِ سَدْرَةِ الْمُنْتَهَى \*  
عندَها جَنَّةُ الْمَأْوَى \* إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى \* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى \*  
لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى \* .

فتعليل الإسراء - كما نصت الآية - أن الله يريد أن يرى عبده  
بعض آياته .

ثم أوضحت آيات المراجع . أن الرسول عليه الصلاة والسلام شهد - بالفعل -  
بعض هذه الآيات الكبرى .

وقد اختلف العلماء - من قديم : أكان هذا الشرى الخارق بالروح وحده ،  
أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجهور على القول الأخير .

وللدكتور هيكل رأى غريب ، فقد اعتبره استجماعاً ذهنياً ونفسياً لوحدة  
الوجود من الأزل إلى الأبد ، في فترة من فترات التآلق النفساني الفذ ، الذي  
اختص به بشر نبي جليل مثل محمد صلى الله عليه وسلم . وفي إبان هذا التآلق الذي  
استعلى به على كل شيء - استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب  
والعقاب .. الخ .

فالإسراء حق . . وهو - عنده - روحى لا مادى ، ولكنه في اليقظة لا في  
المنام ، فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض ، بل هو حقيقة واقعة على النحو الذي  
صوره ، ثم قال فيه بعدئذ : « وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف  
الطبائع الإنسانية » .

والحق ، أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية ، أخذت تضمحل  
وتزول ، وأن ما يراه الناس ميسوراً في عالم الروح ليس بمستوعب في عالم المادة .  
وأحسب أنه بعد ما مزق العلم من أستار عن أسرار الوجود ، فإن أمر المادة  
أنحى كأمير الروح ، لا يعرف مداه إلا كقوى السموات والأرض .  
وإن الإنسان ليقف مشدوهاً ، عندما يعلم أن الذرة تمثل في داخلها نظام

المجموعة الشمسية لدوارة في الفلك ، وأنها - وهي هباءة تافهة - تكمن فيها حرارة هائلة ، عند ما أطلقت ، أحرقت الأخضر واليابس .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم أمسرى به ، وعرج . كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة الصوت كما اخترع الناس أخيراً ؟

لقد امتطى البراق - وهو كأن يضع خطوه عند أقصى طرفه ، كأنه يمشى بسرعة الضوء . وكلمة « براق » يشير اشتقاقها إلى البرق ، أى أن قوة الكهرباء ضخرت في هذه الرحلة .

لكن الجسم - في حالته المعتادة - يتعذر عليه النقل في الأفاق بسرعة البرق الخاطف ، لا بد من إعداد خاص ، يحصن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد .

وأحسب أن ما روى عن شق الصدر ، وغسل القلب وحشوه ، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم . . . وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز ، ذات الدلالة التي تدق على السذج :

إن الإسراء والمعراج ، وقما للرسول عليه الصلاة والسلام بشخصه ، في طور بلغ الروح فيه قمة الإشراف وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصى من أغاب القوانين التي تحكمه .

واستكناه حقيقة هذه الرحلة ، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق ، مرتبط بإدراك العقل الإنساني لحقيقة المادة والروح ، وما أودع الله فيهما من قوى وخصائص .

ولذلك سنتجاوز هذا البحث إلى ما هو أيسر وأجدى ، أى إلى تسجيل المعالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة عامة وتشاريع محددة .

وقصة الإسراء والمعراج ، تهمننا من هذه الناحية .

ألم تر أن « علم النفس » لم يستبحر وينطلق إلا يوم تحرر من البحث في الروح والخطب في مدلولها ؟

لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة ؟ .

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهورا طويلا وهي ووقف على بنى إسرائيل . وظل بيت المقدس مهبط الوحي ، ومشرق أنواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار .

فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء ، حلت بهم آفة الله ، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد . ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم انتقالا بالقيادة الروحية في العالم ، من أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد ، ومن ذرية إسرائيل ، إلى ذرية إسماعيل .

وقد كان غضب اليهود مشتتلا لهذا التحول ، مما دعاهم إلى المسارعة بانكاره « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فبأوا بغضب على غضب » .

لكن إرادة الله مضت وحملت الأمة الجديدة رسالتها . وورث النبي العربي تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وقام يكاتب لنشرها وجمع الناس عليها فكان من وصل الحاضر بالماضي ، وإدماج الكل في حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول في أسرته . فيكون هذا الانتقال احتراماً للإيمان الذي درج - قديماً - في رحابه . . ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة . إن النبوات يصدق بعضها بعضاً ، ويمهد السابق منها لللاحق . وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بنى إسرائيل بذلك .

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرُنَّه قال : أأقرتم وأخذتم على ذلِكُمْ إصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »

وفي السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى فكانت هذه الإمامة إقراراً مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، أخذت تمامها على يد محمد بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين. والكشف عن منزلة محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، ليس مدحاً يساق في حفل تكريم. بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية، منذ تواتر السماء لإرشاد الأرض، ولكنه جاء في إبانته المناسب.

فإن جهاد الدعوة الذي حمّله محمد صلى الله عليه وسلم على كواعده، عرّضه لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء. ومزق شمل أتباعه، فما ذاقوا — مذآمنوا به — راحة الركون إلى الأهل والمال. وكان آخر العهد بمشاق الدعوة، طرد «ثقيف» له، ثم دخوله البلد الحرام في جوار مشرك. إن هوانه على الناس — منذ دعاهم إلى الله — جعله يجأر إلى رب الناس، شاكياً راجياً.

فمن تظمين الله له، ومن نعمائه عليه أن يهوى له هذه الرحلة السماوية لتمس قواده المعنى ببرد الراحة. وإيشعر أنه بعين الله، مذ قام يوحده ويعبده، ويعلم البشر توحيدته وعبادته ...

كان يقول: «إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي»<sup>(١)</sup> فالليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل، وأن مكانته بين المصطفين الأخيار، موطدة مقدمة. إن الإسماء والمعراج يقعن قريباً من منتصف ذئرة الرسالة التي مكنت ثلاثة وعشرين عاماً، وبذلك كانا علاجاً مسح متاعب الماضي، ووضع بذور النجاح للمستقبل.

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملاكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين، وتصغير جموعهم، ومعرفة عقابهم.

(١) تقدم في خبر الطائف أنه حديث ضعيف.

وقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنتسح في الأرض . وتتوطن الأودية الخصبية في النيل والفرات ، وتنزع هذه البقاع من مجوسية الفرس . وتثليت الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً في أعقاب جيل . وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة . وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبله .

لقد روى الترمذى مثلاً أن رسول الله قال : « إذا أعطى أحدكم الريحان فلا يردّه فإنه خرج من الجنة » (١) . فهل ذلك يدل على أن الريحان من الجنة ، ونحن نقطف أزهاره من الحقول والحدائق ؟

### حكمة الإسراء

ذلك والله عز وجل يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً إليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتأبئة ، ويهاجمون سلطانهم القائم .

فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته ، فأمره أن ياتى عصاه قال : « ألقها يا موسى ، فألقاها ، فإذا هي حية تسمى \* قال : خذها ولا تخف

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذى ( ٤-١٨ ) من طريق حنان عن أبي عثمان النهدي مرسلًا وهذا مع إرساله فيه جهالة حنان هذا ولم يوثقه غير ابن حبان . لو صح الحديث لكان اللائق حمله على ظاهره وهو أن الريحان أصله من الجنة ولا يلزم منه أن ما نطقه منه من الحقول هو من الجنة أيضاً كما ظن المؤلف . ألا ترى أنه إذا قال إنسان لماء في كأس : هذا من السماء لكان صادقاً وكان قصده معروفًا ؟ فليتنامل . ونحو هذا يقال فيما صح عنه صلى الله عليه وسلم أن أربعة أشهر من الجنة أى أصلها من الجنة ، لا أنها تنبع الآن منها .

ص: عيدها سيرتها الأولى ، واضم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء  
بآية أخرى ، لنريك من آياتنا الكبرى .

فلما ملأ قلبه إعجاباً بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد : « اذهب إلى  
فرعون إنه طغى . » .

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات  
الكبرى وربما تقول : إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثني عشر  
عاماً على عكس ما وقع لموسى . وهذا حق . وسره ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق  
في سير المرسلين الأزلين قصد بها قهر الأمم على الإقتناع بصدق النبوة فهي تدعيم  
لجانهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء . وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم فوق  
هذا المستوى .

فقد تكفل القرآن للكريم بافتتاح أولى النهى من أول يوم ، وجاءت الخوارق  
في طريق الرسول ضرباً من التكريم لشخصه ، والإيناس له ، غير معكرة ،  
ولا معطلة للمعج العقلي للعادي الذي اشترعه القرآن (١) .  
وقد اقترح المشركون على النبي أن يرقى في السماء ، فجاء الجواب من عند  
الله « قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » .  
فلما رقى في السماء بعد ، لم يذكر قط أن ذلك رد على التحدى أو إجابة على  
الاقتراح السابق . بل كان الأمر - كما قلنا - محض تكميم ومزيد إعلام من  
الله لعبده .

## إكمال البناء

وفي قصة الإسراء والمعراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة . وهذا  
المعنى من أصول الإسلام .

(١) أنظر كتابنا : عقيدة المسلم .



« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ  
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » .

والتحيات المتبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثق هذه الأصرة .

نفي كل سماء أحل الله فيها أحد رسله ، كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة :  
مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ! .

والخلاف بين الأنبياء وهم صنعتهم الأمم الجائرة عن السبيل السوي ،

أو بالأخرى صنعه الكهان والمتاجرون بالأديان .

أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتكلمة البناء الذي تعهده من سبقوه ، ومنع  
الزلازل من تصعيده قال رسول الله « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى  
بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون  
به ويعجبون له ! ويقولون هل وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم  
النبيين » (١) .

والأديان المعتمدة على الوحي السماوي معروفة . وليس منها — بداهة —

ما اصطنعه الناس لأنفسهم من أوثان وطقوس كإبرهية ، والبوذية ، وغيرها .

وليس منها كذلك ما ابتدع — أخيراً — من نحل اغتضنها الاستعمار

الغربي ، وكثير الأنصار حولها ، ليشدد الخناق على مقاتل الشرق ، ويعوق المسلمين

الأحرار عن حطم قيوده ، وإنقاذ عبيده ، وذلك كالجهاشية والقاديانية .

ومن الممكن — لو خلاصت النيات ونشد الحق — أن توضع أسس عادلة لوحدة

دينية ، تقوم على احترام المبادئ المشتركة ، وإبعاد الهوى عن استقلال الفروق ،

الأخرى ، إلى أن تزول على الزمن ، أو تنكسر حدتها .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٤٣٦/٦) ومسلم (٦٤/٧) من حديث

أبي هريرة .

والإسلام الذي يعدّ تعاليمه امتداداً للنبوت الأولى ، ولبنية مضافة إلى بنائها  
العتيد أول من يرحب بهذا الاتجاه ويزكيه .

## سلامة الفطرة

وفي ليلة الإسراء والمعراج نأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهي أنه  
دين الفطرة .

في الحديث « . . ثم أنيت بإناء من خمر وإناء من لبن . فأخذت اللبن  
فقال : هي الفطرة التي أنت عليك وأمتك . » (١)

إن سلامة الفطرة لب الإسلام . ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد  
السريرة ، عليل القلب . إن الفطرة الرديئة كالعين الجمئة لا تسيل إلا قدرا وسوادا  
وربما أخفى هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ، ومظاهر مزوقة .

بيد أن ما ينطلي على الناس ، لا يخدع به رب الناس ... !!

ويوم تكون العبادات - نفسها - ستاراً لفطرة فاسدة ، فإن هذه العبادات  
الخبيثة ، تعتبر أنزل رتبة من المعاصي الفاجرة ..

والناس كلما تقدمت بهم الحضارات ، أمنعوا في التكلف والمصانعة ،  
وقيدوا أنفسهم بعبادات وتقاليد قاسية .

وأكثر هذه التكلفات حجب تطمس وهج الفطرة (٢) وتعكر نقاوتها

وطاقتها .

---

(١) حديث صحيح ، وهو قطعة من حديث صعبة بن مالك الطويل في الأسراء ، وقد  
مضى تخريج (ص ٦٤) ، ورواه ابن حبان في صحيحه أيضاً (١٩٢ - ١٩٨) ، وأخرجه  
ثلاثتهم من حديث أبي هريرة أيضاً .

(٢) أنظر « خلق المسلم » . « والاسلام والمناهج الاشتراكية » للمؤلف .

وليس أبيض إلى الله من أن تفتري هذه القيود باسم الدين ، وأن تترك  
النفوس في سجونها ، مغلوطة كئيبة .

## فرض الصلاة

وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت في السماء لتكون معراجاً  
يرقى بالناس كما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا .

والصلوات التي شرع الله غير الصلوات التي يؤديها - الآن - كثير  
من الناس .

وعلاوة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنيا ، وأن تنجّله من البقاء  
عليها إن ألم بشيء منها .

فإذا كانت الصلاة - مع تكرارها - لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة  
فهى صلاة كاذبة .

الصلاة طهور<sup>(١)</sup> ، كما جاء في السنة ، إلا أنها طهور للإنسان الحى ،

لا للجنة العفنة .

إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحى من غبار عارض ، والأعراض التي  
تلحق المرء في الحياة فتصدىء قلبه كثيرة ، ومطهراتها أكثر ! .

وفي الحديث « فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها  
الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(٢)</sup> » .

(١) لأعرفه بهذا اللفظ . وكان للأولف ذكره بالمعنى وما جاء فيه قوله صلى الله عليه  
وسلم : « أريت لو أن نهاراً يباب أحدكم يفتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه  
شيء ؟ قالوا : لا . لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن  
الخطايا » أخرجه البخارى (٩ / ٢) ومسلم (١٣١ / ٢ - ١٣٢) من حديث أبى  
هريرة . ومسلم والبخارى في « أعمال العباد » ( ص ٩٤ ) من حديث جابر .  
(٢) حديث صحيح من رواية حذيفة بن اليمان أخرجه البخارى (٦ / ٢) ومسلم  
( ١٧٣ / ٨ ) .

أصحاب القلوب المينة فالصلاة لأبجدتهم فتبيلاً .. ولن يزالوا كذلك حتى تمجبه  
قلوبهم أو يواربها الثرى ...

\* \* \*

وقد رويت سنن ، أن رسول الله رأى في هذه الرحلة صوراً شتى ، لأجزية  
الصالحين والطالحين . وتناقلت كتب السيرة رواية هذه الصور الجليلة على أنها  
وقعت ليلة الإسراء والمعراج .

والحق أن ذلك كان رؤيا منام في ليلة أخرى من الليالي المعتادة ، كما ثبت  
ذلك في الصحاح <sup>(١)</sup>

## قريش والإسراء

فلما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله الناس بما تم له وما شهد  
من آيات ربه الكبرى .

---

(١) يشير إلى حديث سمرة بن جندب عند البخاري في أماكن من صحيحه منها «المنائر»  
و «الرؤيا» وأحد أيضا في المسند (٥ / ١٤٠٨) ولكن هذا لا يفي أن يكون صلى الله  
عليه وسلم رأى ليلة الإسراء بعض الأجزية ، بل هذا هو الواقع كما في حديث أنس رضي الله  
تعالى عنه مرفوعاً لما عرج بن ربي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون  
وجههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس  
ويقومون في أعراضهم » أخرجه أحمد (٣ / ٢٢٤) وأبو داود (٢ / ٢٩٨) وسنده صحيح .  
وقد روى مرسل . ولكن المسند أصح كما قال العراقي في تخريج الإحياء (٣ / ١٢٣) .  
ولأنس حديث آخر في رؤيته صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون  
أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٥٢) وغيره . وفي الباب أحاديث أخرى عن جماعة من  
الصحابة ذكر بعضها ابن كثير في تفسير سورة الإسراء فليراجعها من شاء

والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض . أتراهم يصدقون به في السماء ؟  
لقد طاروا يجمع بعضهم بعضاً ، ليسمع هذه الأعجوبة فيزداد إنكاراً لرسالة  
محمد صلى الله عليه وسلم وريية من أمره . وتحدهاء بعضهم ، أن يصف بيت المقدس ،  
إن كان رآه هذه الليلة حقاً ؟

عن جابر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما كذبتني  
قريش ، قمت في الحجر ، فلقى الله لى بيت المقدس . فطفقت أخبرهم عن آياته ،  
وأنا أنظر إليه » !! (١)

ويقول الدكتور هيكل : « أحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح  
في هذا المارأ فيه عجباً ، بمد الذى عرف العلم فى وقتنا الحاضر من إمكان التنويم  
المغناطيسى للتحدث عن أشياء واقعة فى جهات نائية ...

فما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية فى الكون كله ؟ ويستطيع — بما  
وهب الله له من قوة — أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده ! »

ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمعرفة الطريقة التى تم بها الإسراء والمعراج . كلا  
الأميرين حق ، ترك ثماره فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم . فاستراح إلى حمد  
الخالق ، وقل أكثرائه لدم الحمل من الجاحدين والجاهلين . ثم نشط إلى متابعة  
الدعوة ، موقناً أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب ...

ويزعم بعض الكتاب أن فريقاً من المسلمين ارتد عقب الإسراء والمعراج  
إنكاراً لها . بل يزيد الدكتور « هيكل » أن المسلمين تضعضعوا على أثر انتشار

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٥٧/٧ — ١٥٩) ومسلم (١/١٠٨) وابن حبان (رقم ٥٤) وغيرهم ، وله شاهد مفصل من حديث ابن عباس أخرجه أحمد (رقم ٢٨٢٠) بسند صحيح .

القصة على الأفواه ، واستبعاد المشركين لوقوعها . وهذا كله خطأ ، فلا الآثار التاريخية تدل (١) عليه ، ولا الاستنتاج الحصيف ينتهى به ، ولا ندرى كيف يقال هذا ؟

\* \* \*

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهجه القديم . ينذر الوحى كل من يلحق ، ويخوض - بدعوته - المجامع ، ويفشى المواسم ، ويتبع الحجيج فى منازلهم ، ويغير قدميه إلى أسواق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى المجاز » داعياً الناس إلى نبذ الأوثان ، والامتناع إلى هدى القرآن ، وكان يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويمنعوه . . . .

وكان عمه « أبو لهب » يمشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب !  
فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أعلم بك ! ثم يردونه أقبح الرد .

ومن القبائل التى أتاها الرسول عليه الصلاة والسلام ودعاها إلى الله ، فأبى الإستجابة له « فزارة » و « غسان » و « مرة » و « حنيفة » و « سليم » و « عبس » و « بنو النضر » و « كندة » و « كلب » و « عذرة » و « الحضارمة » و « بنو عامر بن صعصعة » و « محار بن حنيفة » ... إلخ .

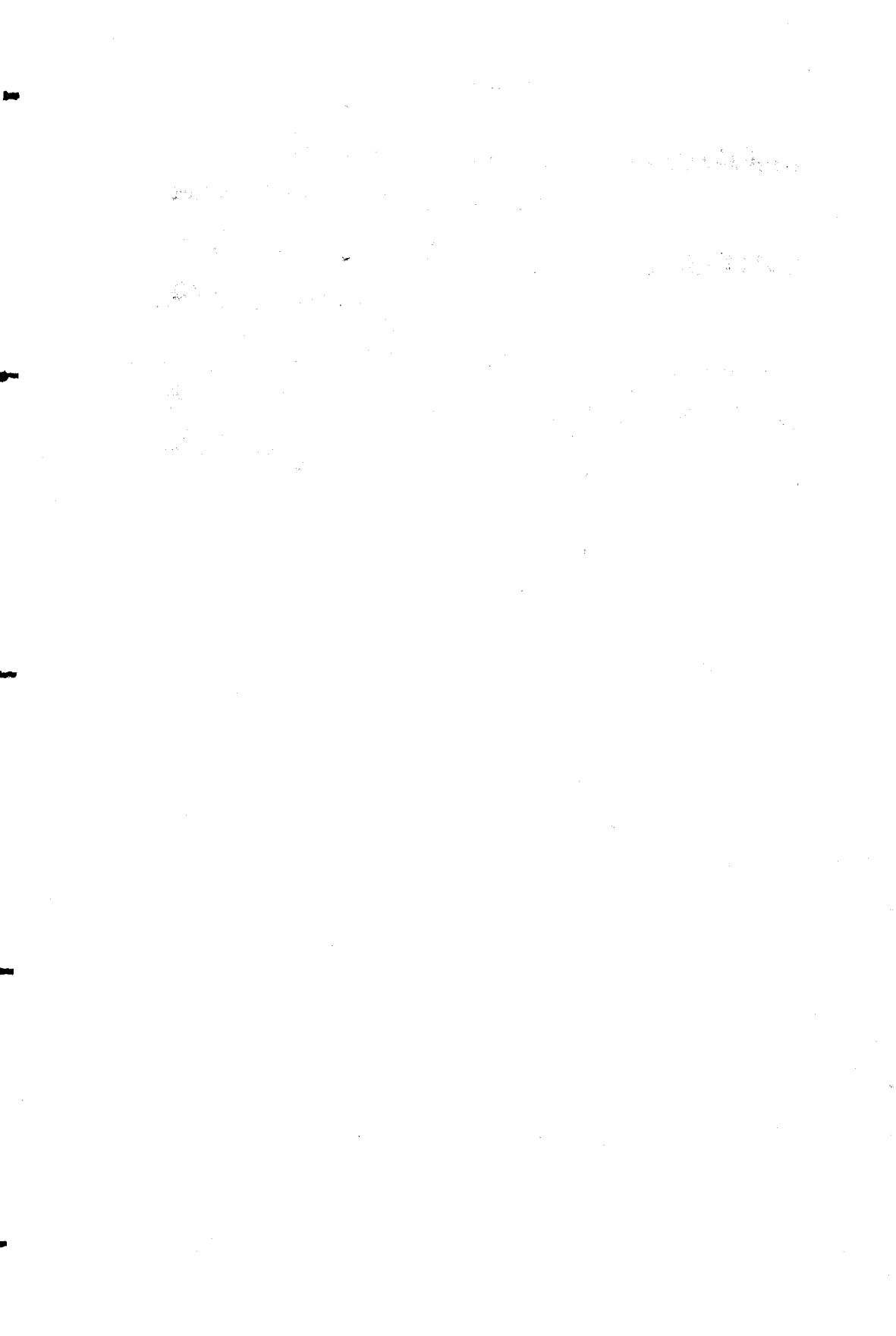
---

(١) برد هذا ما فى السنند ( رقم ٤٥٤٦ ) من حديث ابن عباس قال : أسرى بالتي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره إلى بيت المقدس ، وبغيرم ، فقال ناس : نحن نصدق محمداً بما يقول ؟ فارتدوا كفاراً ، فضرب الله أعناقهم مع أبى جهل . الحديث : وإسناده حسن وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ( ١٥/٣ ) : « ورواه النسائى .. وإسناده صحيح » قلت : وهذا من الأدلة الكثره التى تبيّن أن الإسراء كان بالروح والجسد . الأمر الذى لا يملك عليه حضرة اللؤلؤ كبر اهتمام !

ما وجد في هؤلاء قلباً مفتوحاً ، ولا صدرأ مشروحاً ، بل كان الراحلون والمقيمون يتواصون بالبعد عنه ، ويشيرون إليه بالأصابع .

وكان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام قريش لا يفتنك !!!

مع ذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام - في هذا الجو القابض - لم يخامر اليأس قلبه ، واستمر - منابرأ - في جهاد الدعوة ، حتى تأذن الحق - أخيراً - بالفرج





(٤)

الرجة العامة : مقدماتها ونتائجها

حرم مشركوا مكة الخير كله . منذ جعلوا الرسالة ، وتعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ، ويبغونها عوجا .

ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام فإن الحق لا بد أن يعلو ، وأن يثوب إليه المظلون والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهله أوفياء له ، حراساً عليه ، صابرين محتسبين .

وقد قبض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرته ، فأنس بعد وحشة واستوطن بعد غربة . وشق طريقة في الحياة ، بعد أن زالت الجلامد الصلدة للملقات في مجراه .

وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من « يثرب » إلى مكة في موسم الحج . . .



كان أهل يثرب<sup>(١)</sup> يمتازون عن سائر العرب بموارم لليهود ، وإفهم عقيدة التوحيد . وربما حاورم اليهود في شئون الأديان ، ونموا عليهم عبادة الأوثان .

---

(١) أرى للصنف يستعمل كلمة « يثرب » مكان « المدينة » أو « طيبة » ومع أن هذا الاستعمال جاهلي ففيه مخالفة لتسمية الله تعالى إياها بـ « طيبة » كما في حديث جابر بن سمرة قال : كانوا يسمون المدينة يثرب فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة . أخرجه مسلم (١٢١/٤) والطيالسي (٢٠٤/٢) واللفظ له . ولفظ مسلم : « إن الله سمي المدينة طيبة ورواه أحمد (٨٩/٥) ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ) باللفظين وفي الباب من أبي حميد عند البخاري (٧١/٤) وعن زيد بن ثابت عند مسلم : وفاطمة بنت قيس عند أحمد (٤١٢/٦) وسنده صحيح .

وهذه الأحاديث أقل ما تفهده أن هذا الاستعمال مسكروه ، وأن تسميتها بـ « طابة » أو « طيبة » مستحب ، بل روى أحمد (٢٨٥/٤) عن البراء بن عازب مرفوعاً : « من سمي للمدينة « يثرب » فليستغفر الله عز وجل . هي طابة هي طابة » وعزاء الهيثمي في « المجمع »

فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود : يوشك أن يبعث الله نبياً  
فتنبهه ، وقتلكم معه قتل عاد .. و .. إرم ... !!

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب منهم ،  
ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما  
معهم - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . »

أما العرب الأميون الذين هددوا بمبعثه ، فقد نتجوا مسامعهم له !

فعندما وافى الموسم وقدمت قبائل « يثرب » ورأوا الرسول صلى الله عليه وسلم  
يدعو الناس إلى الله . قال بعضهم : تعلمون والله يا قوم ، إن هذا الذي توعدكم به  
يهود فلا يسبقنكم إليه ..

وأخذ ذكر الإسلام يشيع في المدينة رويداً رويداً ، فان لم يستقبل بترحيب  
لم يستقبل بالسباب والحراب .

إن عناصر النفور والمقاومة ، التي عهدتها في « مكة » تحولت - هنا - إلى  
عناصر احترام وإقبال ، ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالاسلام  
حتى أصبحوا كهفة الحصين ، وموئله القريب ..

## فروق بين البلدين

عاشت مكة في مجبوحه من الحياة أمداً طويلاً ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً

---

== ( ٣ / ٣٠٠ ) لابن يعلى أيضاً وقال : « ورجاله ثقات » قلت - لكن فيه عند أحمد ،  
يزيد بن أبي زيادة وهو القرشي الهاشمي الكوفي ، قال الحافظ في « التتريب » : « ضعيف  
كبر فتنبير وصار يتلفن » ولئن لم يصح هذا الحديث في الأحاديث السابقة غنية ، وهذا  
الأدب قد أخل به أكثر الناس فلذلك أحببت أن ألفت النظر إليه .

من كل مكان ، وترجع هذه التسعة إلى عاملين : ١ : - مهارة أهلها التجارية : -  
٢ : - ومكانة الحرم الدينية ، كلا الأمرين أدرّ عليها أخلاف الخير ، فأثرت  
حتى بطرت وشبعت حتى أنحمت . ثم عراها مايعر و كل جماعة تواتيها الحظوظ  
ويصبغها الترف ، من تكبر ، وقسوة ، وجحود ، فلما ظهر فيها الإسلام ،  
ودعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، ردت يده في فمه ، وأحدقت به وبمن  
معه ، وملكها العناد من أول يوم ، وأعلنت أن مركزها - عاصمة للوثنية ،  
ومجماً للأصنام . ومثابة للحجيج - سيزول - إن هي استمعت إلى هذا الدين ،  
وأمكنته من البقاء .

وحاول الرسول عليه الصلاة والسلام - جاهداً - أن يقنع أهله مكة بأن قبولهم  
للحق لن يجرهم ذرة من الخير الذي متعوا به ، فأبى الظالمون إلا كفوراً .

« وقالوا : إن نتبع الهدى معك نُتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم  
حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء ؟ رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »  
ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام ، اعتبروها دفاعاً عن  
كيانهم المادى ووضعهم الاقتصادى ، إلى جانب ما هنا لك من عوامل أخرى .  
وهذه الحروب معروفة النتائج « وكم أهل كذا من قرية بطرت معيشتها . فتلك  
مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً . وكنا نحن الوارثين » .

أما الأمر في « يثرب » فكان على النقيض ، إن الشحنة المناصلة بين أهلها  
استنزفت دماءهم ، وقطعت شملهم ، وشغلت بعضهم البعض ، حتى أوصلتهم  
الحروب الدائمة إلى درك أسف له العقلاء ، وتمنوا الإنقاذ منه . كان « الأوس »  
و « الخزرج » - وهم في الأصل قرابة واحدة - يعانون في « يثرب » آصار  
هذا الخصام العنيف . ويورثونه أبناءهم . حتى يشبوا - وهم في مهادم -  
أعداء ! والذى وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود .

## صنع اليهود

واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها ، هبطوا صحراء الجزيرة ، فارين  
بدينهم من الاضطهاد الصليبي الذي عمل - من قديم - على تنصيرهم أو إفنائهم ،  
ذلك لأن رأى اليهود في عيسى وأمه ، شنيع .

والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى ، والموعزون بصلبه !! .

ولا شك أن اليهود شعب نشيط . وأنهم - حيث حلوا - يبدلون جهوداً  
مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالى ، ولا يزالون بأساليب الختل والمكر  
لبلوغ أهدافهم ، وقد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد . وخشوا أن يفنوا  
إذا اشتبكوا معهم في صراع سافر . فاحتلوا حتى زرعو الضغائن بين الأقباء .  
وما زالوا بها حتى آتت ثمرها المر . فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً . في سلسلة  
متصلة من الممارك التي لا مبرر لها . على حين قوى اليهود وتكاثروا . ونمت  
ثرواتهم ، واستحكمت حصونهم ، وخيف سطوهم .

وقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة «بعث» كان  
النصر فيها للخزرج ثم عاد للأوس ! وبلغ من حدة الخصام بين الفريقين أن  
كليهما فكر في استئصال الآخر وإبادة خضرائه ، لولا أن تدخل أولو النهى  
بالنصح أن يبقوا على أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب  
- يعنى اليهود - !

هذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة - عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام  
يؤمنون من ورائه الخير . من يدري ؟ لعله يحدد حياتهم فيعيد السلام إلى صفوفهم  
ويهب لهم حياة روحية ترجح بكفتهم على اليهود ...

قال ابن إسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، وإعجاز مواعده له

خرج رسول الله في الموسم ، الذي لقيه فيه النفر من الأنصار . فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم : فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم . قال : أملا تجلسون أكلهم ؟ قالوا : بلى ! فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . . .

قال : فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . وعسى أن يجمعهم الله بك ! فسنقدم عليهم فدعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أهرز منك ! ثم أنصرفوا راجعين إلى بلادهم ، قد آمنوا وصدقوا<sup>(١)</sup> .

• • •

كان أولئك النفر ، طليعة للدعاية الموقفة للإسلام في يثرب . وقد أمرت جهودهم على عجل ، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام .

حتى إذا استدار العام ، وأقبل موسم الحج ، خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا - فيهم الستة الذين كلمهم النبي صلى الله عليه وسلم في الموسم السابق - وعزموا على الاجتماع برسول الله صلى الله عليه وسلم ليوثقوا معه إسلامهم .

### بيعة العقبة الأولى

وقد لقيهم النبي بالعقبة ، وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده ، والاستمسك بفضائل الأعمال والبعد عن منكرها .

(١) إسناده حسن

عن عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى « أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتاناً فقتريه ، بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف .

قال : فإن وفيتم فلكم الجنة . وإن غشيتم (١) من ذلك شيئاً ، فأخذتم بحمده في الدنيا فهو كفارة له . وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأصرمكم إلى الله . إن شاء عذب ، وإن شاء غفر » (٢) .

هذا ما كان محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إليه ، وكانت الجاهلية تنكره عليه

أبكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد ؟؟  
أنتم وفد الأنصار هذه البيعة ثم قفل عائداً إلى « يثرب » . فرأى النبي أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ، ليتعهد نداء الإسلام في المدينة ، ويقراً على أهلها القرآن ، ويفقههم في الدين ، ووقع اختياره على « مصعب بن عمير » ليكون هذا المعلم الأمين .

ونجح « مصعب » أيما نجاح في نشر الاسلام وجمع الناس عليه ، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد - دائماً - في طريق كل نازح غريب ، يحاول أن ينقل الناس من موروثات ألقوها ، إلى نظام جديد ، يشمل الحاضر والمستقبل ، ويعم الإيمان والعمل ، والخلق والسلوك ...

ولا تحسبن « مصعباً » كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على المشرق . فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك العذراء ! وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح .

(١) : ارتكبتين

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخاري (١/٥٤-٥٨) ومسلم (٥/١٣٧) .

وربما فتح مدرسة ، ظاهرها الثقافة الجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص  
ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ، ومال بهم حيث يريد .. !!  
هذا ضرب من التلصص للروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين .  
والذين يمثلون هذه المساخر ، يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم ،  
فإذا رأيت إصرارهم ومغراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر  
والبحر والجو .

أما مصعب فكان من ورائه نبي مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون  
السائد وما كان يملك من وسائل الأغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرس ،  
كل ما لديه ثروة من الكياسة والفتنة ، قبسها من محمد صلى الله عليه وسلم ،  
وإخلاص لله ، جعله يضحى بمال أسرته وجاهها في سبيل عقيدته .. ثم هذا القرآن  
الذي يتأنيق في تلاوته ، ويتخير من روايته ، ما يغزوه الألباب ، فإذا الأئمة ،  
رقيق له ، وتفتح للدين الجديد .

وعاد «مصعب» إلى رسول الله بمكة ، قبيل الموسم الحافل ، يخبره بما لقي  
الإسلام من قبول حسن في « يثرب » ويشره بأن جموعاً غفيرة دخلت فيه عن  
اقتناع مس شفافهم ، وبصر أنار أفكارهم ، وسوف يرى من وفودهم بهذا  
الموسم ما تقر به العين .

### بيعة العقبة الكبرى

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا - دون شك - تاريخه القريب ،  
والصعاب الهائلة التي لقيها . وحز في نفوسهم أن يستضعف أخوانهم في مكة ، وأن  
يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور !!  
ولذلك تساءلوا - وهم خارجون من المدينة قاصدون البيت العتيق - حتى  
متى نترك رسول الله يطوف ويتردد في جبال مكة ويخاف ؟



لقد باع الإيمان أوجهه في هذه القلوب الفتية . وأن لها أن تنفّس عن حماسها ،  
وأن تفك هذا الحصار الخناق المضروب حول الدعوة والداعية . . .

قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه مناسيكون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم ،  
فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين ، حتى توافينا ، فقلنا :  
يا رسول الله ، علام نبأيك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : تبايعوني على السمع والطاعة  
في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي  
عن المنكر ، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصروني  
فتمنعوني - إذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ،  
ولكم الجنة .

فقمنا إليه ، وأخذ بيده «أسعد بن زرارة» - وهو أصغر السبعين بعدى -  
فقال : رويدأ يا أهل يثرب ، فإن لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه  
رسول الله ، وإن إخراجنا اليوم ، مناواة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن  
تعضّكم السيوف .

فإما أنتم قوم تبصرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله وإمّا أنتم قوم  
تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فيينا ذلك فهو أعدل لكم عند الله !  
فقالوا يا «أسعد» أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ،  
فقمنا إليه رجلا رجلا فبايعناه<sup>(١)</sup> . . .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٩٤) والحاكم (٢/٦٢٤-٦٢٥) والبيهقي في  
سننه الكبرى (٩/٩) من طريق ابن خيثم عن أبي الزبير عن جابر . قال الحاكم : صحيح  
الإسناد ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ بن كثير (٣/١٦٠) من البداية : « وهذا إسناد  
جيد على شرط مسلم » وقال الحافظ في « الفتح » (٧/١٧٧) « رواه أحد بأسناد حسن  
وصححه الحاكم وابن حبان » قلت : وفيه علة . وهي عن أبي الزبير وكان مدلساً وليس  
هو من رواية الليث بن سعد عنه ؛ ففعل تصحيحه أو تحسينه بالنظر لشواهد والله أعلم .

وعن كعب بن مالك : نمنا تلك الليلة — ليلة العقبة — مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسلل تسلل الفطامستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نساتنا ، نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو ابن عدي .

فلما اجتمعنا في الشعب تنتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أن أحب يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم قال : يا معشر الخزرج <sup>(١)</sup> إن محمداً منّا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزمة من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحقوكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، وما نهوه عن مخالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده ...

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك وربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايكم هل أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .

قال كعب : فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن — والله — أبناء الحروب ، ورثناها كإبراً عن كإبر ، فاعترض هذا القول — والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم — أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال — يعني اليهود — حبالا ، وإننا قاطموها .

(١) . تقصد أهلي يترتب جميعاً من « أوس » و « خزرج » .

خهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟  
قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ويل الدم والمدم والمدم  
أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمهم . .

وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا منهم اثني عشر تقياً  
يكونون على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم النقباء ، تسعة من ( الخزرج )  
وثلاثة من « الأوس »<sup>(١)</sup> ، فقال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام : أنتم على  
قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفلة الخواريين لعيسى بن مريم - وأنا كفيل على  
قومي .

تلكم بيعة الدقبة ، وما أبرم فيها من موثيق ، وما دار فيها من محاورات . .  
إن روح اليقين والقداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة  
جهلت . وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملئ العهود  
كلا ، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، وللغارم المتوقعة نظر إليها  
قبل المغانم الموهومة .

مغانم ؟ أين موضع المغانم في هذه البيعة ؟ لقد قام الأمر كله على التجرد  
الحض والبذل الخالص .

هؤلاء السبعين مثل لا انتشار الإسلام ، عن طريق الفكر الحر والافتتاح  
الخاص . . .

---

(١) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في المغازي ( ٢٧٣/١ - ٢٧٦ ) عن ابن مشام  
وأحمد ( ٤٦٠/٣ - ٤٦٢ ) وأبي جرير في تاريخه ( ٩٠/٢ - ٩٣ ) من طريق ابن إسحاق  
قال : حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين أن أخاه عبد الله بن كعب  
— وكان من أعلم الأنصار — حدثه أن أباه كعباً حدثه ، وهذا سند صحيح وصححه ابن  
حبان كما في «الفتح» ( ٤٧٥/٧ ) قلت : وأما قوله في آخر القصة : « فقال لهم الرسول  
أنتم . . . » فأخرجه ابن إسحاق ( ٢٧٧/١ ) عن عبد الله بن أبي بكر مرسلًا فهو ضعيف  
ورواه ابن جرير ( ٩٣/٢ ) من طريق ابن إسحاق .

فقد جاءوا من « يثرب » مؤمنين أشد الإيمان . ومليين داعي التضحية ، مع أن معرفتهم بالنبي ، كانت لمحبة عابرة ، عبرت عليها الأيام ، وكان الظن بها أن نزول .

لكننا لا يجوز أن نذكر مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة ، والثقة ، إنه القرآن !! لأن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبري لم يصحبوا الرسول إلا لئاما فإن الوحي المشع من السماء ، أضاء لهم الطريق ، وأوضح الغاية ...

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن ، صال على السنة الحفظ وتداولته صحائف السفارة الكرام البررة ، والقرآن النازل بمكة ، صور جزاء الآخرة رأى العين .

فتوشك أن تمد يدك ، تقطف من أثمار الجنة ، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم ! وحكى القرآن أخبار الأولين ، وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم وكيف طغى الكفار ، وأسكروهم الإمهال فتمعتوا وتجبروا ، ثم حل العدل الإلهي ، فذهب الظالمون بدداً ، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ، ودورا خربة .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم ..!!

ثم إن الرسول جعل من هذا الإيمان بالحق رباطاً يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب .

فالمسلم في المدينة - وإن لم ير أخاه المستضعف في مكة - يحنو عليه، ويتعصب له ، ويفض من ظالمه ، ويقاتل دونه - وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب ، تجيش في حناياهم مشاعر الولاء ، لمن أحببهم بالغيب في ذات الله .

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله قال : أيها الناس اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أن الله عبادة ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يعذبهم النبيون والشهداء على منازلهم

وقربهم من الله . فجتا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يعبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ! ، إنعتم لنا ، حلهم لنا — يعني صفهم لنا — فسر وجه النبي بسؤال الأعرابي وقال : هم ناس من أفتاء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابون في الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) .

الإيمان بالله ، والحب فيه . والأخوة على دينه ، والناصر باسمه ، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه ، وأرهقوا المسلمين حتى شغلهم بأنفسهم ، فاناموا نومة الجحش الذي اغترف الإثم وأمن القصاص .

حسنت ظنك بالأيام إذا حسنت      ولم تخف سوء ما يأتي به القدر  
وسألتك الليالي فأغتررت بها      وعند صفو الليالي يحدث الكدر

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣٤٣/٥) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن ابن غنم عن أبي مالك ، الأضمرى « وشهر » فيه ضعف ، وقال للندري (٤٨٤) : « رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن ، وألحاهم وقال . صحيح بالإسناد » قلت : ولم أجده في مستدرك الحاكم من حديث أبي مالك ؛ ونما أخرجه (١٧٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنه بنحوه وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي . وهو كإلقال فهذا شاهد قوى لحديث أبي مالك .

أجل ، ففي هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية ، وأن ينهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء .

\* \* \*

وامتتمع شيطان من المشركين كان يجول في مضارب الخيام ومنازل الحجيج إلى الضبعة المنبثثة قريباً من العقبة ، واستطاع أن يقف على جلية الخبر . فصرخ ينذر أهل مكة : « إن محمداً والصباء معه ، قد اجتمعوا على حربكم .. » !!  
وكان صوته جهوراً يوقظ النيام .

وشعر المبايعون كأن أثمارهم بالمشركين قد انكشف ، فلم يكثرثوا للنتائج .  
وقال « سعد بن عباد » : يارسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت للملين على أهل « منى » خدأً بأسياقتنا ، فقال رسول الله : لم تؤمر بذلك ، ولسكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال كعب : فلما أصبحنا غدت علينا جيلة قریش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم حثم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا . وتبايعونه على حربنا ، وإنه — والله — مامن حى من العرب أبفض أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يخلفون ، ما كان من هذا شىء وما علمناه ، وصدقوا ، لم يعلموا . قال كعب : وبعضنا ينظر إلى بعض (١) .

---

(١) هو من حديث كعب بن مالك الذى سبق فى صفحة ١٥٩ وتقدم تخريجها هناك . وهناك ملاحظة وهى أن المصنف روى أول الحديث هنا بالمعنى . وهو غير متفق مع لفظ الحديث إذا تؤمل فيه بدون تأثر بأمر خارجى : ولفظة : « فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة يأفد صوت سمته قط ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أرب العقبة هذا ابن أرب . امتنع أى عدو الله . أما والله لأفرغن لك . فهذا السباق لا يمكن أن يفهم منه أن « الشيطان » المعروف بالام هو رجل من

يبيد أن القرآن تجمعت على أن ما قيل حق ، فخرجت قريش تطلب الأنصار ،  
فقاتوهم ، ولم يذركوا غير سعد بن عبادة .

فعادوا به مغالوة يدها إلى عنقه ، وأخذوا يجذبونه من شعره ويلسكونه ،  
فأنقذه منهم جبير بن مطعم ، والحارث بن حرب ، إذ كان «سعد» يجير لهم ما قافلها  
للمارة بالمدينة .

## طلائع الهجرة

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له ، وسط صحراء تروج بالكفر والجهالة  
هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له ، وقد تنادى المسلمون من كل  
مكان : هلموا إلى يثرب ! فلم تكن الهجرة تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء ،  
بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن .

وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن  
يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه ، وأصبح ترك المدينة — بعد الهجرة إليها —  
فكوصاً عن تكاليف الحق ، وعن نصره الله ورسوله ، فالحياة جهاديين ، لأن قيام  
الدين يعتمد على إعزازها .

وفي عصرنا هذا ، أعجب اليهود بأنفسهم ، وعانق بعضهم بعضاً مهيناً ، لأنهم  
استطاعوا تأسيس وطن وقومى لهم ، بعد أن عاشوا — مشردين — قروناً طويلاً

---

المشركين. وأيضاً يبعد جداً أن يخاطب عليه الصلاة والسلام هذا الرجل بقوله :  
«أى عدو الله لأفر عنك» . ويؤيد ما ذكرنا رواية الطبراني لهذه القصة عن عروة  
مرسلاً وفيها : «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يرعكم هذا الصوت فإنه عدو  
الله إبليس ؛ ليس سمعه أحد ممن تخافون ؛ وقلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرح  
بالشيطان : يا ابن أرب هذا عمك فسأفرخ لك» قال الهيثمي ٤٧/٦ : « وفيه ابن لهيعة ،  
وحديثه حسن وفيه ضعف » .

ونحن لا ننكر جهد اليهود في إقامة هذا الوطن ، ولا حماس المهاجرين من كل فج لايش به ، ومحاولة إحيائه وإعلانه .

واسكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم - أو بتعبير أدق ، ما صنع لليهود اليوم - وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم ، يوم هاجروا إلى يثرب نجاه بدعوتهم ، وإقامة لدولتهم .

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الذميمة على الإسلام وأهله . فإذا العالم كله يهجم على ناسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء ، فلم يستطع مليون عربي حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئاً ، فهاجروا على وجوههم في الأرض ، نتيجة اتفاق « أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا » و ... ملوك العرب على خذلان أولئك العرب النعماء . وبذلك قام الوطن القومي لليهود ، وبثت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه ، وإسداء العون له ، من دهاقين السياسة والمال ، في أنحاء الدنيا !! .

أين هذا الخضيض ، من رجال أخلصوا الله طواياهم ، وترفعت عن المآرب همهم ، وذهلوا عن المتاع المبدول والأمان المتاح . واستهونهم المثل للعليا وحدها في عالم يمج بالعمم البكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التي اعتنتها : وتبعوا أصحابها المتجرد المكافح ، وهو لا بنى يقول : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » إلا إن المدينة الهضلة التي تعشقها الفلاسفة ، وتخيّلوا فيها الكمال جاءت في سطور الكتب ، دون ما صنع المهاجرون الأولون ، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة .

إن المسلمين - بإذن رسول الله - هرعوا من مكة وغيرها إلى « يثرب » يحدوهم اليقين ، وترفع رؤوسهم الثقة .



ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء ، ولا ارتحال طاب  
تحت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة .

إنها ! كراه رجل آمن في سربه ، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه ،  
وتضحية أمواله واللجاة بشخصه فخرس ، وإشعاره - وهو يصفى مركزه - بأنه  
مستباح منسوب ، قديهلك في أرائل الطريق أوتهايتها . وبأنه يسير نحو مستقبل  
مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلائل وأحزان ، ولو كان الأمر مغامرة فرد  
بنفسه لقييل : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طوال البلاد وعرضها ، يحمل  
أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير ، وضاء الوجه ؟ !

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله الذي له مافى  
السموات والأرض ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

هذه الصواب لا يطيقها إلا مؤمن ، أما الهيباب الخوار القلق ، فما يستطيع  
شيثاً من ذلك إنه من أولئك الذين قال الله فيهم : « وَابُوا أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ  
اقتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اأخرُجُوا مِن ديارِكُمْ مَا فَمَلَوْهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ . . . »

أما الرجال الذين التفتوا بمحمد صلى الله عليه وسلم في مكة ، وقبسوا منه أنوار  
الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر . فإنهم نفرُوا - خفافاً - ساعة قيل لهم : هاجروا  
إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

ونظر المشركون ، فإذا ديارب - (مكة) كانت عامرة بأهلها قد أنفرت ، ومحال  
مؤنسة قد أمحلت .

مر عتبة ، والعباس ، وأبو جهل ، على دار عمر بن ربيعة بعد ما غلقت ، فقد  
هاجر رب الدار . وزوجته ، وأخوه أحمد - وكان رجلاً ضرير البصر - ونظر عتبة  
إلى الدار تحفق أبواها ببابا ، ليس بها ساكن ! فلما رآها تصفر الربيع في جنباتها قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ، ستدرکہا للنكباء والحروب

ثم قال : أصبحت الهدار خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل للعباس هذا من عمل ابن أخيك ، فرق جماعتنا ، وشدت أمرنا ، وقطع بيننا ..  
وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة .

فهم يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم ، ويقهرون المستضعفين ، فإذا أبو الاستكانة ، فإياؤهم علة المشكلات ومصدر القلاقل .. !!

وكان من أول المهاجرين « أبو سلمة ، وزوجه ، وابنه » فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، رأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ وأخذوا منه زوجته ، فغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، وقالوا : لانترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجادبوا الغلام بينهم ، فخلعوا يده وذهبوا به وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، فكانت أم سلمة - بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها - تخرج كل خداة بالأبطح ، تبكي حتى تسمى ، نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها . وقال : ألا تخرجون . بن هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحق بزوجك ، إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبتة ، وهاجرت إلى المدينة ...

ولما أراد « صهيب » الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صلوا كما حقيراً . فكثر مالك عندنا ، وبلغت ، والذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخولون سبيلي ؟ قالوا : نعم ! قال : فإني قد جعلت لكم مالي . فباع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ربيع صهيب ! (٢) .

---

(١) حديث صحيح ، ذكره ابن هشام في « السيرة » ( ٢٨٩-١ ) مطلقاً مرسلًا . وقد وصله الحاكم ( ٣-٣٩٨٣ ) من حديث ثابت عن أنس ومن حديث أيوب عن عكرمة مرسلًا ، نحوه . وقال الحاكم . ( صحيح على شرط مسلم ) وهو كما قال وله شاهد من حديث صهيب نفسه ، رواه الطبراني كما في المجمع ( ٦ - ٦٠ ) ، والبيهقي كما في ( البداية ) ( ٩٧٣/٣ - ١٧٩ ) .

وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا . حتى كادت مكة تخلو من المسلمين . وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأزر إليها ، وحصن يحمي به وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمد . وهاجت في دماغها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يزال في مكة ، وهو - لا بد - مدرك أصحابه اليوم أو غداً ، فلتمجبل به قبل أن يستدير إليها ..

### في دار الندوة

واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ، ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر . فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد صلى الله عليه وسلم وبشد وثاقه . ويرعى به في السجن لا يصله منه إلا الطعام ، ويترك على ذلك حتى يموت ..

ورأى آخر أن ينفي من مكة فلا يدخلها . وتنفض قريش يديها من أمره . وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما . واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه « أبو جهل » . قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً . ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً ، ثم يضربونه - جميعاً - ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقومون على حرب قريش كافة ، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أدبناها .

ورضى المؤمنون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم : وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخزجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » إن هذا الحكم لم يتخذ في مجلس سر ، بل في اجتماع عام .

ومن الظاهر أن يعلم به رسول الله ، وأن يعرف حقيقة وضعه في مكة ، إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ ، ثم يقدمه الطعام قرباناً للأضنام !!

على أن رسول الله لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم .  
لقد رسم الخطة التي يذهب بها إلى « يثرب » حين ندب المسلمين للهجرة إليها  
روى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله - وهو يومئذ  
بمكة - للمسلمين : « قد أريت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين  
لايتين <sup>(١)</sup> » فهاجر من هاجر قبل لمدينة حين ذكر ذلك رسول الله ، ورجع <sup>(٢)</sup>  
إلى المدينة فهاجر من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين .

## هجرة الرسول

حين عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك مكة إلى المدينة ، أتى الوحي  
الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل « وقُلْ : ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ  
صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ \* واجعلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » <sup>(٣)</sup> .  
ولا نعرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ( ١٨٦ / ٨ ) والحاكم ( ٣ / ٣ - ٤ ) والبيهقي  
( ٩ / ٩ ) من حديث عائشة ، والبخاري ( ٣٥٤ / ١٢ - ٣٥٥ ) ومسلم ( ٥٢ / ٧ ) .  
وابن ماجه ( ٤٥٥ / ٢ ) من حديث أبي موسى نحوه .  
(٢) بدأ رجوعهم ، وظل حتى السنة السادسة للهجرة العامة .  
(٣) هو من حديث ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم  
أمر بالهجرة وأنزل عليه : قلت . فذكر الآية أخرجه الترمذي ( ٤ / ١٣٧ ) والحاكم  
( ٣ / ٣ ) والبيهقي ( ٩ / ٩ ) وأحمد ( رقم ١٩٤٨ ) من طريق قابوس بن أبي ظهان  
عن أبيه ( ولبس في المسند والبيهس . ( عن أبيه ) عن ابن عباس وقال الترمذي . « حديث  
حسن صحيح » . وقال الحاكم : « صحيح الاستياذ ورفقه الذهبي . وفيه نظر فإن قابوس  
بن أبي ظبيان أورد في « الميزان » ونقل عن ابن حبان أنه قال فيه : « روى  
الحفظ بنفرد عن أبيه بما لأصل له ، وربما رفع المرسل ، وأسنده الموقوف ولذلك قال الحافظ  
في « التقرير » « فيه ابن » .

الذى لاقى في جنب الله مالاتي . ومع ذلك فإن استحقاق التأييد لأعلى لايعنى التفريط قيد أئمة في استجماع أسبانه وتوفير وسائله .

ومن ثم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم خطة هجرته ، وأعد لكل فرض عدته ، ولم يدع في حسابانه مكاناً للحفظ العمياء .

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، وأن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح

ثم يتوكل — بعد ذلك — على الله ، لأن كل شيء لاقيام له إلا بالله .

فاذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه

على هزيمة بلى بها . وقلما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه !!

وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً . ثم يحىء عون أعلى

يجعل هذا النصر مضاعف الثمار .

كالسفينه التي يشق عباب الماء بها ، ربان ماهر ، فاذا التيار يساعدها وللريح

تهب إلى وجهتها . فلا تمسكت غبر بعيد حتى تنتهى إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر .

وهجره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة جرت على هذا

القرار . فقد استبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم معه علياً وأبا بكر ، وأذن لسائر

المؤمنين بتقدمه إلى المدينة .

فأما أبو بكر فان الرسول صلى الله عليه وسلم قال له حين استأذنه ليهاجر :

لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحباً<sup>(١)</sup> . وأحس أبو بكر كأن الرسول صلى

الله عليه وسلم يعنى نفسه بهذا الزد !

(١) رواه ابن اسحاق ( ٧ / ٢ ) بدون إسناد : لكن معناه فيما أخرجه البخارى

( ٧ / ١٨٣ - ١٩٧ ) من حديث عائشة الطويل في الهجرة بلفظ : « ونجى أبو بكر قبل المدينة »

فابتاع راحلتين فحبسهما في داره ، يعلفهما إعدداً لذلك .  
وأما على فإن الرسول صلى الله عليه وسلم هياه لدور خاص ، يؤديه في هذه  
المغامرة المخوفة بالأخطار !

قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتتهم عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، أنها  
قالت . كان لا يخطيء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر ،  
أحد طرفي النهار إما بكرة ، وإما عشياً ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه  
رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه . أتانا رسول الله صلى  
عليه وسلم بالهاجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال :  
ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل .  
تأخر أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند رسول  
الله أحد إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من  
عندك ! قال : يا رسول الله ، إنما هما ابتائى .

وما ذاك ؟ - فذاك أبي وأمي -

قال : إن الله أذن لي في الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول  
الله ؟ قال : الصحبة ...

قالت عائشة : فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم . أن أحداً يبكي من  
الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي .<sup>11</sup>

ثم قال : يابني الله إن هاتين الراحلتين كنت أعدتهما لهذا فاستأجرا عبد الله

---

— فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رسلك فإنني أن يؤذن لي . فقال أبو بكر :  
هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ليصعبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمرة - وهو الجبط - أربعة أشهر . رواه أحمد  
أيضاً له (١٩٨/٦) ثم وجدت له شاهداً من حيث ابن عمر بلفظ الكتاب رواه الطبراني  
بسند قال الهيثمي (٦٢/٦) « فيه عبد الرحمن بن بشير الدمشقي ، ضعفه أبو حاتم . »

ابن أريقط - وهو مشرك - (١) يدلها على الطريق . ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده برعاهما لميعاده (١) ..

قال ابن إسحاق : ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج - يقصد نوى الخروج - إلا على وأبو بكر وآله . أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ..

### درس في سياسة الأمور

ويلاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام كتم أسرار مسيره . فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة . ولم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم .  
وقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء ليستعين بخبرته على مغالبة للطاردين ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها . فإذا اكتمات في أحد ، ولو مشركاً استخدمه وانتفع بموهبته .

ومع هذه المرونة في وضع الخطة فإن النبي عليه الصلاة والسلام أصر أن يدفع

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/٢ - ٣ من ابن هشام) وتبعه شيخه الذي لم يسم ، لكن قد سماه ابن جرير (٢/١٠٣) في رواية عن ابن إسحاق فقال : « قال حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبيد بن الله الحسين التيمي قال : حدثني عروة بن الزبير به ومحمد بن عبد الرحمن هذا في عداد الجهوليين : «أوردت ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل» (٣/٣١٧٢) وذكر أنه روى عن جماعة وعنه ابن إسحاق . ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . لكنه لم ينفرد بالحديث فقد أخرجه ابن جرير (٢/١٠١ - ١٠٣) من طريق هشام بن عروة به نحوه . وإسناده صحيح . وأخرجه البخاري وأحمد من طريق الزهري قال : «رواه به ، مع شيء من الاختصار .

ثمن راحلته . وأبي أن يتطوع أبو بكر به ، لأن البذل في هذه الهجرة ضرب من العبادة ينبغي الحرص عليه وتستبعد النيابة فيه .

واتفق الرسول عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر على تفصيل الخروج ، وتخيروا الغار الذي يأرون إليه ، تخيروه جنوباً في اتجاه اليمن لتضليل المطاردين . وحددوا الأشخاص الذين يتصلون بهم في أثناء اللجأ إليه ، ومهمة كل شخص .

ثم عاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته ، فوجد قريشاً بدأت تضرب الحصار حوله ، وهدمت بالفتيان الذين وكل إليهم اغتيال محمد عليه الصلاة والسلام وتفرق دمه بين القبائل ! !

وأوعز الرسول عليه الصلاة والسلام إلى علي بن أبي طالب في هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى برده الذي ينام فيه ، وأن يتسجى به على سريرته . وفي هجمته من الليل وغفلة من الحرس ، أنزل الرسول عليه الصلاة والسلام من بيته إلى دار أبي بكر ثم خرج الرجلان من خوخه في ظهرها . . . إلى غار ثور . . . إلى الغار الذي استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ، ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته في حراسة الصمت والوحشة والاقطاع . . . !

## في الغار

وسارت الأمور على ماقدرا ، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من أخبار . وأمر عاصم بن فهيرة مولاة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار . فكان عبد الله بن أبي بكر في قريش يسمع ما يأترون به وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر . ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم ، وكان عاصم في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غم أبي بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة ، أتبع عاصم بن فهيرة أثره بالغم ، يعنى عليه .



ونلك هي الحيلة البالغة . كما تفرضها الضرورات المعتادة على أى إنسان . .

وانطلق مشركو مكة فى آثار المهاجرين يرصدون الطرق ، ويفتشون كل مهرب وراحوا يفتقبون فى جبل مكة وكهوفها ، حتى وصلوا - فى دأبهم - قريباً من غار ثور ، وأصت الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلى أقدام المطاردين ، فحقق إلى جوارهم فأخذ الروح أبا بكر ، وهمس يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو نظر أحدكم تحت قدمه لآنا » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما (١) .

ويظهر أن المطاردين داخلهم القنوط الله العثور عليهما فى هذا الفج ، فترا كضوا عائدتين ، وروى أحمد (٣) : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل - جبل ثور - اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ففروا بالغار ، فأوا على بابه نسج العنكبوت . فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فسكت فيه ثلاث ليال » .

ورواية أحمد حسنة ، وإن لم ترد بها السنن الصحاح ، ولم يرد كذلك ذكر الحائم باضت على فم الغار أو غير ذلك .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠٧/٧) . وسلم (١٠٩/٧) وغيرهما من حديث أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .

(٢) فى للسند (رقم ٣٥١) من طريق عثمان الجزرى أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس به . وحسن المؤلف لسنده ، وكأنه تبع فيه ابن كثير فى «البداية» (١٨٨-١٨/٣) . وتبعه أيضاً الحافظ فى «الفتح» (١٨٨/٧) وفى تحسينه نظر قان عثمان الجزرى وهو ابن عمرو بن سراج قال المقبل «لا يتاح فى حديثه» ولهذا قال الحافظ ابن حجر فى «التقريب» : فيه ضعف . ولا يقويه الشاهد الذى ذكره ابن كثير ، وابن حجر من رواية الحسن البصرى فإنه - مع كونه مرسل - فيه بشار الحفاف وهو ابن موسى وليس بثقة كما قال ابن معين ، والنسائى ، وضعفه غيرهما .

قال الله تعالى في ذكر الهجرة: «إلا تنصروه فقد نصره الله، إذا أخرجته الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم» .

والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق لأنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذى لجب «وما يعلم جنود ربك إلا هو»

ومن صنع الله لنبيه أن تعى عنه عيون عداته وهو منهم على مد الطرف، ولم يكن ذلك محابة من القدر لقوم فرطوا في استكمال أسباب النجاة، بل هو مكافأة من القدر لقوم لم يرعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها، وكم من خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتيان تمر بها فترات عصيبة لأمر فوق الإرادة أو وراء الحسبان. ثم تستقر أخيراً وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود قوله تعالى: «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

### في الطريق إلى المدينة

مرت ثلاث ليال على مبيت الرسول عليه الصلاة والسلام في الغار، وخذ حماس المشركين في الطلب. وتأهب المهاجران لإستئناف رحلتها الصعبة.

وجاء «عبد الله بن أريقط» في مواعده ومعه رواحله قد أعلفها لإستقبال سفر بعيد. وتزود الركب ثم سار على اسم الله.

غير أن قريشاً ساءها أن تحقق في استرجاع محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه فجعلت دية كل واحد منهما جائزة لمن يجيء بهما أحياء أو موتاً.

ومائتان أومائه من الإبل في الصحراء ثروة تفرى بركوب المخاطر وتحمل المشاق

وقد قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين لن يألوا جهداً في الإساءة إليه، فالتزام في سيره جانب المحاذرة، وأعانهم مهارة الدليل على سلوك دروب لم تعتمدها القوائيل، ثم أطاق الزمام للرواحل ففضت تصل النهار بالليل.

رمى بصدور العيس منخرق الصَّبَا فلم يدر خلقٌ بعدها أين يما؟  
فلما مروا بجي مدلج مصعدن، بصر بهم رجل من الحمي فقال: لقد رأيت آفقا أسودة بالساحل، ما أظنها إلا محمداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه ففطن إلى الأمر سراقة بن مالك ورغب أن تكون الجائزة له خاصة فقال: بل هم فلان وفلان قد خرجوا الحاجة لهم... ومكث قليلاً ثم قام فدخل خبائه وقال لخادمه: اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدك خلف الأكمة.

قال سراقة: فأخذت رمحي وخرجت من ظهر البيت وأنا أخط بزجه الأرض، حتى أتيت فرسي فركبتها، فعدتها فقرت بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها! فقامت..

وامتطى سراقة فرسه مرة أخرى وزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يتبين هذا العذر الجسور، فلما دنا عرفه فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان ماضياً إلى غابته - : هذا سراقة بن مالك قد رهقنا! وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة أخرى ملقية سراقة من على ظهرها، فقام معفراً ينادى بالأمان!!

ووقع في نفس سراقة أن الرسول عليه الصلاة والسلام حق فاعتذر إليه وسأله أن يدعو الله له وعرض عليهما الزاد والمتاع. فقالا: لا حاجة لنا، ولسكن عمنا الطلب<sup>(١)</sup>، فقال: قد كفيتم، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد

(١) إلى هنا أخرجه البيهقي (١٩٠/٧-١٩٢) والحاكم (٦/٣-٧) من حديث سراقة بن جهم: وبقيّة الفصة إلا السطر الأخير أخرجه مسلم (٢٣٦/٨-٢٣٧) من حديث البراء بن عازب والسطر المذكور عند البيهقي (٧/٢٠٠) من حديث أنس وراوه أحمد أيضاً (٣/٢١٢).

عليه الصلاة والسلام وصاحبه ! فجعل لا يلقى أحداً من الطلاب إلا رده وهو يقول :  
كفيم هذا الوجه !

أصبح أول النهار جاهداً عليهما ، وأمسى آخره حارساً لهما ... !!

### دعاء

إن أسفار الصحراء توهي العائقة الآمنين . فكيف بركب مهدر الدم  
مستباح الحق ؟

ما يحس هـ . هذه المتاعب إلا من صلى نارها لقد برزنا لوهج الظهيرة يوماً  
فكادت الأشعة البيضاء المنعكسة على الرمال تخطف أبصارنا . فعدنا منغمضين  
نستبق من عيوننا ما خفنا ضياعه .

وعندما تصبح وتسمى وسط وهاد ونجاد لا تنتهي حتى تبدأ ، تغال العالم كله  
مهامه مغبرة الأرجاء دا كنه الأرض والسماء .

وجرت عادة المسافرين أن يأووا في القيلولة إلى أي ظل ، في بطاح بنتعل كل  
شيء فيها ظله ، حتى إذا جنحت الشمس للمغيب ، تحركت المطايا اللاعبة تغالب  
الجفاف والكرى .

وللعرب طرفة احتمال هذا الشظف ، مع قلة الزاد والرى .

وقد سر بك أن الرسول - وهو طفل - قطع هذه الطريق ، ذهب مع  
أمه لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده !

وإنه - الآن ليقظهما وقد بلغ الثالثة والخمسين ، لا لزيارة أبويه اللذين ماتا  
بالمدينة بل لرعاية رسالته التي تشبث بأرض يثرب جذورها ، بعد ما تبرمت مكة  
بها وبصاحبها وبمن حوله ...

إنه أرسخ أهل الأرض يقينا بأن الله ناصره ومظهر دينه ، بيد أنه أسيف  
للفظظة التي قوبل بها ، وللجحود الذي لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى

المجرة على هذا النحو العنيف ، ها هو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن الجوائز المعريه لمن يغتاله ...

روى أبو نعيم <sup>(١)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله قال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً . اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام . اللهم أصحبنى فى سفرى ، وأخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللى ، وعلى صالح خلقى فقوئى ، وأليك ربّ فخبينى ، وإلى الناس فلا تنكبنى . رب المستضعفين وأنت ربى . أعود بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به اللظلمات ، وصلاح عليه أمر الأوّاب والآخريّن أن تحمل على غضبك ، وتنزل بى سخطك . وأعود بك من زوال نعمتك ونجاة نعمتك ، ونحول عافيتك وجميع سخطك . لك العتبى عندى خير ما استطعت . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

• • •

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة شاع فى حوالب الصحراء ، وكان أسلاك البرق طيرته إلى أقصى البقاع . فلم به البدو والحضر على طول الطريق حتى يثرب ، بل إن المحال التى عرج بها وصل نبؤها إلى أهل مكة بعد أن انصرف عنها .

والناس يعجبون بقصص البطولة ، وتستثيرهم ألوان التحدى ، وهم يتناقلون الأخبار السبالة على الألسن ، فيضعون عليها ثياب الأساطير وقد سرت قلوب

---

(١) عزاه إليه ابن كثير ( ١٨٧ / ) من طريق محمد بن اسحاق قال : بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً الى الله يريده المدينة قال : فذكر الدطاه قلت : وهذا اسناد ضعيف معضل .

كثيرة بقلب محمد عليه الصلاة والسلام على من تبعوه ، وترجمت عواطفها هذه  
شعراً يتغنى به ولا يعرف قائله !! ..

من ذلك ما روى عن أسماء<sup>(١)</sup> بنت أبي بكر قالت : مكثنا ثلاث ليال ما ندرى  
أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى  
بأبيات من الشعر :

جزى الله رب الناس خير جزائه رقيقة بين حلا خيمتي أم معبد  
هم انزلا بالبر ثم تروحا . . ! فأفلح من أمسى رفيق محمد  
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ومعهدها للمؤمنين برصد . !  
قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
وأن وجهه إلى المدينة !

من القائل ؟ تذكر الرواية أنه من الجن ! وتلك عادة العرب في نسبة شعرها  
فلكل شاعر عندهم شيطان .. !<sup>(٢)</sup>

---

(١) إسناده معضل : قال ابن إسحاق كما في السيرة ( ٢ / ٤ - ٥ ) : « تحدثت أسماء  
بنت أبي بكر أنها قالت : « .. فكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله  
عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن  
الناس يسمونه باسم صوتهم وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول : فذكر الأبيات  
وبعضها عن غير ابن إسحاق كما ابن هشام .

(٢) أقول : إذا جاز هذا على العرب في جاهليتها أفيجوز ذلك عليهم في إسلامهم وقد  
نور الله به قلوبهم أن تتدنس بشيء من الأوهام ؟ أيجوز أن يقال في حق أسماء إنها أطلقت  
اسم « الجن » بل « الشيطان » على « المؤمن » ؟ وما هي الضرورة التي تلجئ حضرة  
المؤلف إلى هذه التأويلات البعيدة بل الباطلة ؟ ! ألا ترى في الرواية - كما ذكرنا - أن  
الجنى كان الناس يتبعونه باسم صوتهم وما يرونه ؟ ! أفهنا من صفات الإنسى ؟ ! خير المؤلف  
إن يمرض عن ذكر هذه الرواية مطافاً - ولا سيما وهي ضعيفة .

والراجح أن الأبيات المذكورة من إنشاد مؤمن يكتم إيمانه بمكة ويتسمع أخبار المهاجرين فيبدي فرحته بما يلقون من توفيق ، ويجد متنفساً لشاعره المتوارية في هذا الغناء المرسل .

والأبيات تشير إلى واقعة عرضت لارسل عليه الصلاة والسلام في أثناء رحلته . فقد صر على منازل خزاعة . ودخل خيمة أم معبد ، فاستراح بها قليلاً ، وشرب من لبن شاتها .

### الوصول إلى المدينة

وكذلك ترامت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينة . فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد ، ويتشوقون إلى مقدمه بلهفة . فإذا اشتد عليهم الحر عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد ، وملء جوانحهم الترقب ، والقلق ، والرجاء .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة برز الأنصار على عادتهم منذ سمعوا بمخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم ، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعه ويودون رؤيته . فلما حيت الظهيرة وكادوا يأسون من مجيئه . وينقلبون إلى بيوتهم . صعد رجل من اليهود على أطعم من أطامهم ، لبعض شأنه ، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه يتقاذفهم السراب . وتدو بهم الرواحل

---

— من أن يتأولها هذا التأويل المستكبر ثم وجدت الحديث موصولاً أخرجه الحاكم (٩/٣ - ١٠) من حديث هشام ابن حبيب وقال : « صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وفيما قاله نظر وقال المهيني (٥٨/٦) : رواه الطبراني وفي إسناده جماعة لم أعرفهم » لكون الحديث طريقين آخوين أوردهما الحافظ ابن كثير في « البداية » (٣/١٩٢ - ١٩٤) فأحدث بهذه الطرق لا ينزل عن رتبة الحسن . والله أعلم .

رويداً رويداً إلى المدينة ، إلى وطن الإسلام الجديد ، فصرخ اليهودى بأعلى صوته :  
يا بنى قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذى تنتظرون ...  
فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم ، وسمع التكبير يرج أحماء  
المدينة ، وليست « يثرب » حلة العيد ومباهجه .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب  
ابن عمير ، وابن أم مكتوم . فجاءا يقرئان الناس القرآن ، ثم جاء عمار ، وبلال .  
وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين راكباً . ثم جاء رسول الله صلى الله عليه  
وسلم . فمأرايت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به ، حتى رأيت النساء والصبيان  
والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء<sup>(١)</sup> .

يا عجباً لتفاض الحياة واحتملاف الناس ! إن الذى شهرت مكة سلاحها لتقتله ،  
ولم ترجع عنه إلا مقهورة استقبلته المدينة وهى جزلانة طروب ، وتنافس  
رجالها يعرضون عليه المنعة والعدة والعدد ...

ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن رأى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فلما قدم الركب لم يعرفوه من أبى بكر لأول وهلة حتى أن العواتق  
كن يترأينه فوق البيوت يقلن . أيهم هو ؟ .

ونزل النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة  
ليلة أسس خلالها مسجد قباء . وهو أول مسجد أسس فى الإسلام . وفيه نزل قوله  
تعالى : « لمسجد أسسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه  
رجال يحبون أن يتطهروا » .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/٢٠٨-٢٠٩-٨٠٢/٥٦٨) . والطيالسى (٢/٩٤) .



## استقرار المدينة

رجل العقيدة يسير طوعاً ولها ، ويمجد طمأنينته حيث تقرر عقيدته وتلقى  
الرحب والسعة .

والناس ينددون معادتهم فيما تملقت بهم همهم وجاشت به أمانهم ، وهم ينظرون  
إلى الدنيا وحظوظهم منها على ضوء مارسب في نفوسهم من عواطف وأفكار ..  
فطالب الزعامة يرضى أو ينقم ، وينشط أو يكسل . بمقدار قر به أو بعده من  
أمله الحبيب .

أنظر إلى المتنبي كم مدح وهجا ؟ وكيف انتقل من الشام إلى مصر ، ومن مصر  
إلى غيرها ، وانظر إلى ذكره أحاديث الناس عنه وعن بنيته .

يقولون لي ما : ما أنت ؟ في كل بلدة وما تبغى ؟ ما تبغى جل أن يُسمى

والذي جل أن يسمى صرح به في كل مكان آخر فطلب أن تناط به ضيعة  
أو ولاية ! ! أى بضم ما وضعت الحظوظ في أيدي الملوك والملاك ، وإنه ليقع جل  
هذا الأمل من كافر فيقول :

أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له ؟ فإني أغنى منذ حين وتشرب !

والمتنبي في نظري أهل - بكفايته - للمناصب الرفيعة . ولكن التطلع إلى  
الدنيا بهذه النزق والإلحاح ، محكوم بالمشيئة التي ذكرتها الآية : « من كان  
يريدُ العاجلةَ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريدُ » .

ومن الناس من يعشق الجمال ويجرى وراء النساء ويمجد في المتعة بهن نهيمته  
يسكن بعدها ويستكين . ويقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

ومنهم من يبحث عن المال ويقضى صحابة نهاره وشطر ليله يتتبع الأرقام  
في دفاتره ، يحصى ما وقع في يده ويتربص بما لم يقع . وربما ذهل عن طعامه  
ولباسه في غريزة الاقتناء التي مدت عليه المنافذ .

\* \* \*

إلى جانب هذه الأصناف نجد فريقاً آخر من البشر لا يطبق الكف عن  
إسداء الجليل ، وبذل النصيحة ، ورعاية الصالح العام . وإفناء ذاته في سبيل الفضائل  
التي ملاسكت له وعمرت قلبه ...

إنه يبيت مسهداً لو فرط في واجب ... راحته الكبرى في نشدان الكمال .  
وسعادته القصوى يوم يدرك منه سهماً ...

وأصحاب الرسائل رهناء ما تحملوا من أمانات ضخمة ، ففانهم ومقارمهم  
وحالمهم وترحالمهم وصدقاتهم وخصومتهم ترجع كلها إلى المعاني التي ارتبطوا بها .  
وحيوا لأجلها ...

وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ضرب من نفسه المثل القذ للكافرين  
فبند أخذ على عاتقه تمزيق الأسداف التي ألفت على العالم ليلاً كثيفاً من الشرك  
والخرافة لم يفتح أحد في ثيبه عن عزمه أو تعويق مسيره أو ترضيته برغبة أو رده  
برهية ، وفنيت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان ، فالغريب عنه إذا عرف الحق  
قريب ، ووطنه إذا تذكر للهدى فهو منه برى . والمؤمنون به آخر الدهر هم  
إخوته وإن لم يشاهدوه .

ولقد عاش في مكة ثلاثة وخمسين عاماً حتى ألقها وألقته ، لكنه اليوم يخرج  
منها إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرمه .

والرجال الذين تتبع معادتهم من قلوبهم وير تبطون أمام ضمايرهم بمبادئهم  
لا يكرمون بيثة بعينها إلا أن تكون صدى لما يرون .  
فلا غرو إذا دخل محمد صلى الله عليه وسلم المدينة دخول الوامق المعتز . .  
واستبشر بما آتاه الله فيها من فتح . وتوسم من وراء هذه الهجرة بشائر  
الخير والنصر .

ثوى في قریش بضع عشرة حجة	يذكر لو يلقى حبيباً موافياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم يرَ من يؤوى ولم يرَ واعياً
فلما آتانا واستقرت به النوى	وأصبح مسروراً بطيبة راضياً
وأصبح لا يخشى ظلامه ظالم	بعيد ولا يخشى من الناس باغياً
بذلنا له الأموال من جل مالنا	وأفسنا عند الوغى والتأسيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم	جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره	وأن كتاب الله أصبح هادياً

\* \* \*

إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين القارين بدينهم من شتى البقاع ليس بالعمل  
المهين . وفي عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكلة تحتاج إلى الحل السريع ؟  
ومتى خلت حياة الرجل العظيم من المشكلات ؟  
وصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة (يحمى) اللاريا ، فلم تمض  
أيام حتى مرض بها أبو بكر ، وبلال .  
واستوخم الصحابة جوَّ المهجر الذى آواهم . ثم أخذت تستيقظ غرائز الحنين  
إلى الوطن المفقود .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر الصحابة على احتمال الشدائد .  
ويطلبهم بالمزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام وقال : « لا يصبر على لأواء

المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ، ولا يدعها  
رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه » (١) .

وهذا ضرب مع جمع القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب به وتنفر  
من مغادرته .

وعن عائشة قالت . لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وعك أبو بكر  
وبلال ، فدخلت عليهما فقالت : يا أبت كيف تجردك ؟ وبابلال كيف تجردك ؟ وكان  
أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل أمرىء مصبّح في أهله والموت أدنى من شرك نعله .  
وكان بلال إذا أفلح عنه يرفع عقيرته ويقول :

الآليت شعرى هل أبيتن ليـيلة بواد ، وحولى إذخر وجليل  
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفل ؟ (٢)

قالت : فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : اللهم حبيب  
إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا في مدّها وصاعها ،  
وانقل حمّاها وأجمعها بالجحفة » (٣)

وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل بالمدينة ضعفي  
ما جعلت بمكة من البركة » (٤)

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤/١١٣) وأحمد (رقم ١٥٨٣) من حديث سعد  
ابن أبي وقاص بتقديم الجملة الأخرى على الأولى . ورواه البزار من حديث عمر بنحو ما في  
السنن ، قال الهيثمي (٣/٣٠٦) ورجاله رجال الصحيح .  
(٢) جبال مكة .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (٧/٩٩ — ٢١٩) وأحمد (٦/٦٥) ، ٢٢١ ،  
— ٢٣٩ ، ٢٣٩ — ٢٣٩ ، ٣٦٠ ، ورواه مسلم (٤/١١٩) مختصراً بدون الآيات  
وهو رواية لأحمد (٦/٥٦) ،

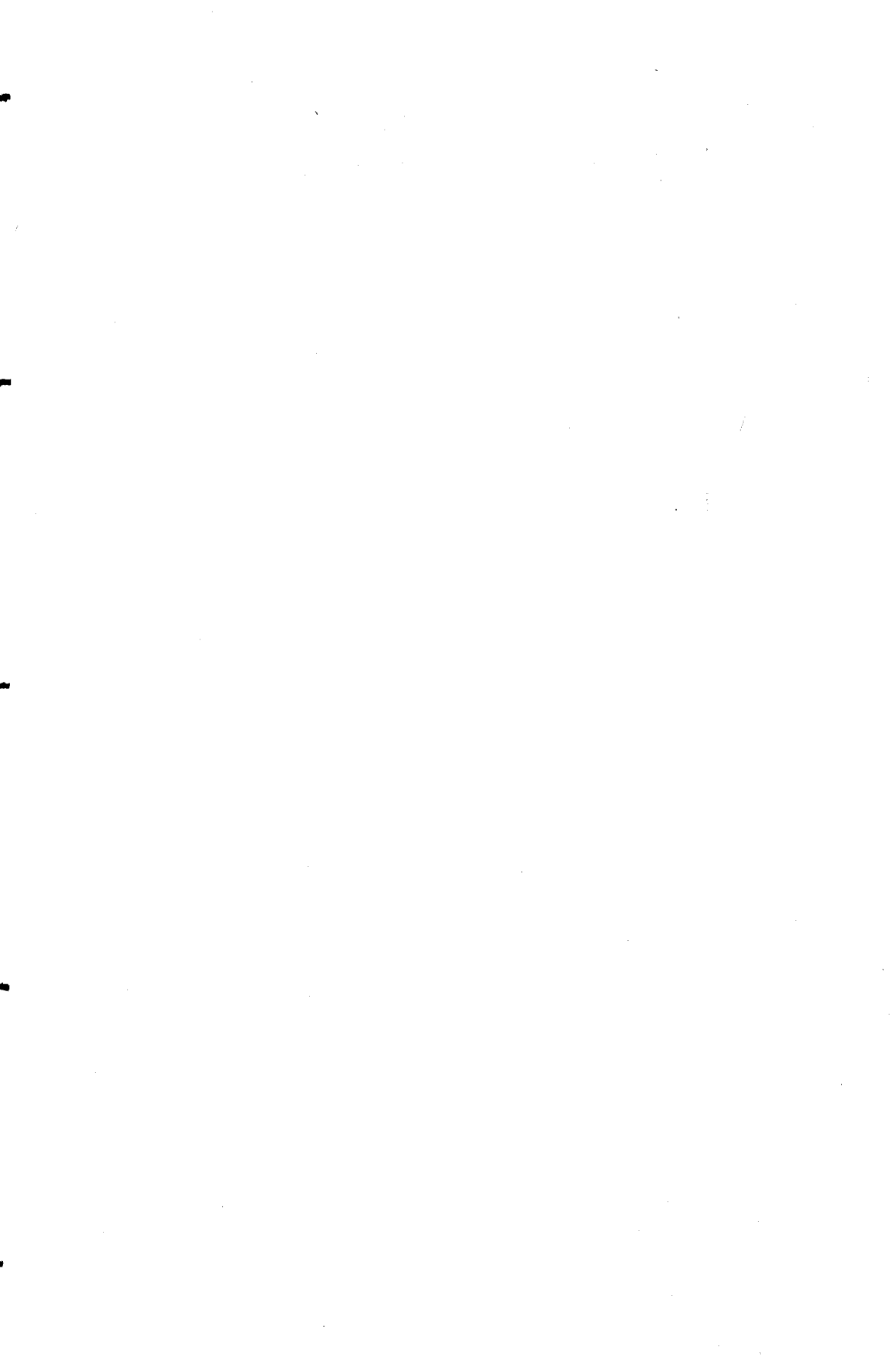
(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري (٥/٧٨) ومسلم (٤/١١٥) وأحمد (٢/١٤٢)

وعن أبي هريرة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بأول  
التمر قال : اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدنا وفي صاعنا ، بركة مع  
بركة ، اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليك ، وإني عبدك ونبيك ، وإني دُعَاكَ  
لمسكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل مادعاك لمسكة ومثله معه » ثم يعطيه أصغر من  
يخصر من الولدان ... (١)

بهذا التشويق والإقبال ارتفع الروح المعنوي بين المسلمين ، وأنجمت القوى  
الفتية إلى البناء ، متناسية الماضي وما يضم من ذكريات ، إن الهجرة الخالصة  
لا تعود في هبة ولا ترجع عن تضحية ولا تبكي على فائت ، بل هي كما قال الشاعر :  
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجه آخر الدهر تقبل .. !!

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤/١١٧) .



( ٥ )

أسس البناء للمجتمع الجديد

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس ، همها أن تعيش بأى أسلوب ، أو تحتفظ طريقها في الحياة إلى أى وجهة ، وما دامت تجد القوت واللذة ، فقد أراحت واستراحت .

كلاكلا ، فالمسلمون أصحاب عقيدة محددة تصدقهم بالله ، وتوضح نظرهم إلى الحياة ، وتنظم شئونهم في الداخل على أنحاء خاصة ، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة .

وفرق بين امرئ يقول لك : همسى في الدنيا أن أحيأ تحسب ! وآخر يقول لك : إذ لم أحرس الشرف ، وأصن الحقوق ، وأرض الله ، وأغضب من أجله ، فلا سمعت بي قدم ، ولا طرفت لى عين . . . ؟!

والمهاجرون إلى المدينة ، لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء .  
والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العدا . وأهدفوا أعناقهم للقاصي والداني ، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق . . .

إنهم — جميعاً — يريدون أن يستضيئوا بالوحي ، وأن يحصلوا على رضوان الله ، وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خلق الناس ، وقامت الحياة . . .  
وهل الإنسان إذا حجد ربه ، واتبع هواه ، إلا حيوان ذميم ، أو شيطان رجيم ؟؟

من هنا شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم — أول مستقرة — بالمدينة بوضع الدعائم التي لا بد منها لقيام رسالته . وتبين معالمها في الشئون الآتية :

- ١ — صلاة الأمة بالله .
- ٢ — صلاة الأمة بعضها بالبعض الآخر .
- ٣ — صلاة الأمة بالأجانب عنها ، ممن لا يدينون دينها .



## المسجد

ففي الأمر الأول مآدر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد ، لتظهر فيه شعار الإسلام التي طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين ، وتنقى القلب من أدران الأرض ، ودمئاس الحياة الدنيا .

والمروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنى مسجده الجامع حيث بركت نافته ، في مربرد لعلايين يكفلهما « أسعد بن زرارة » ، وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله ، فأبى الرسول عليه الصلاة والسلام إلا ابتياعه بثمنه ! وكان المربرد قبل أن يتخذ مصلى كهذه المصليات التي تنتشر في ريفنا . كانت تبيت فيه نخيل وشجر غرقد ، وتختفي في ترابه بهض قبور للمشركين .

فأمر الرسول بالنخل ققطع ، وبالقبور<sup>(١)</sup> فنبشت ! ؟ وبالحرب فسويت . وصفوا للنخيل قبلة للمسجد<sup>(٢)</sup> — والقبلة يومئذ بيت المقدس — وجعل طوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك تقريبا ، وجعلت عضاداته من الحجارة ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بنى باللبن ، واشترك الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حمل اللبنة والأحجار على كواهلهم .

وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء .. بهذا الفناء

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ! !

وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي عليه الصلاة والسلام يجهد

(١) هي أجدات أتى عليها البلي « حتى هجرت » فلا يدفن بها أحد .

(٢) ثبت هذا في « الصحيحين » وغيرهما من حديث أنس .

كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم ، فارتجز بعضهم هذا البيت :

أئن قعدنا والرسول يعمل      لئذاك منا العمل المضلل !!

وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصياء . وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد نقلت الكلاب إليه فتغدو وتروح .

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذي ربي ملائكة البشر ، ومؤدبى الجبابرة وملوك الدار الآخرة ، في هذا المسجد أذن للرحمن لنبي يؤم بالقرآن خير من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامى ، تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى فهو ساحة للعبادة ، ومدرسة للعالم ، وندوة للأدب ، وقد ارتبطت بفرضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليدى لباب الإسلام ، لكن الناس - لما أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجليلة - استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة ، تضم مصلين أفراماً !! .

أما الأسلاف الكبار فقد أنصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها ، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام . . .

والمسجد الذى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم همته إلى بنائه قبل أى عمل آخر بالمدينة ، ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها ، فالأرض كلها مسجد ، والمسلم لا يتقيد فى عبادته بمكان .

إنما هو رمز لما يكثر له الإسلام أعظم اكتراث ، ويتشبث به أشد تشبث وهو وصل العباد بريهم وصلاً يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع آناء الليل والنهار فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المعروف بالمنكر ! .

والحضارة التي جاء بها الإسلام . تذكر أبدأ بالله وبلقائه وتمسك بالمعروف ،  
وتبغض في المنكر ، وتقف على حدود الله . . .

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يتحدث مع صحبه في  
إقامة المسجد ، يمهده للصلاة ؛ فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكا يغمز ؟؟

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف (١) قال : كانت أول خطبة خطبها  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله  
ثم قال : « أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليضعن أحدكم ،  
ثم ليذعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه — ليس له ترجمان ولا حاجب  
يحببه دونه — ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وأتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما  
قدمت لنفسك ؟ فينظر ؛ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير  
جهنم ، فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد  
فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائته ضعف ، والسلام  
عليكم وعلى رسول الله . . . !!!

## الاخوة

أما عن الأمر الثاني — وهو صلة الأمة بعضها ببعض الآخر — فقد أقامه  
الرسول صلى الله عليه وسلم على الإخاء الكامل . الإخاء الذي تمحي فيه كفاية

(١) هذا ؛ خطأ ؛ وإنما رواه البيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال :  
فذكره . هكذا أورده الحافظ ابن كثير في « البداية » ( ٣ / ٢١٤ ) ثم أعلاه بالإرسال  
وقد روى ابن جرير ( ٢ / ١١٥ - ١١٥٥ ) بسند صحيح عن سعد بن عبد الرحمن الجمحي  
أنه أبلغه عن خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . في أول جمعة صلاها بالمدينة فذكرها  
وهي منابر كل القارية لخطبة أبي سلمة ؛ وهي ضعيفة أيضاً لأنها معضلة ؛ الجمحي هذا يروى  
عن أتباع التابعين مثل هشام بن عروة ؛ وغيره .

« أنا » ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصالحها وآمالها ، فلا يرى لنفسه كياناً  
دونها ، ولا امتداداً إلا فيها . . .

ومعنى هذا الإخاء ، أن تذوب عصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام .  
وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا  
بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً . لا نقضاً فارغاً ،  
وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا نعمة تنثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر . . . !!  
وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملاً  
للمجتمع الجديد بأروع الأمثال . . .

حرص الأنصار على الخفاوة بإخوانهم المهاجرين ، فما نزل مهاجرى على  
أنصارى إلا بقرعة ! ! وقدر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه ، ولا نالوا  
منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف .

روى البخارى : أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين  
عبد الرحمن بن عوف وشعد بن الربيع : فقال سعد لعبد الرحمن . إني أكثر  
الأنصار مالا ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك ! فسمهالى  
أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك  
ومالك ، أين سوقكم ؟ ؟

فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمين ! ثم  
تابع الغدو .. ثم جاء يوماً ، وبه أثر صفرة<sup>(١)</sup> ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :  
« مهيم<sup>(٢)</sup> » ؟ قال : تزوجت !

قال : « كم سقت إليها » قال : نواة من ذهب !

وإعجاب المرء بسماحة « سعد » لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن ، هذا الذي زاحم اليهود في سوقهم ، وزهم في ميدانهم ، واستطاع - بعد أيام - أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، إن علو الهمة من خلائق الإيمان ؛ وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه ، وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق في هذا العالم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة . لم يميز عنهم بلقب إعظام خاص ، وفي الحديث : « لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذته - يعني أبا بكر - خليلاً - ولكن إخوة الإسلام أفضل » (١)

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجنون والبخل والجشع ، لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جيلوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضية ، ما سجلت لهم الدنيا هذا التأخي الوثيق في ذات الله .

فسمو الغاية التي التقوا عليها ، وجلال الأسوة التي قادتهم إليها ، نبياً فيهم خلال الفضل والشرف ، ولم يدا مكاناً لنجوم خلة رديئة .

ذلك ، ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً ، تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أعجاب ومواهب وخيرات ؛ فكان صورة لأعلى قمة من السكال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه ، وداروا في فلسكه ، رجالاً يهيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف امتخراجه بالآلات والأنتقال

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ( ١٤/٧ ) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ .  
(١٣ - فقه السيرة)

والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم ، ونما هي أثر تخاص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعفة .

وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا - بالاسلام - في نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخوانا . ولو كانوا عميد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض !!

على أن تنويهنا بقيمة التسامي النفساني في تأسيس الإخاء ، لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظاماً يؤخذون بحقوقه أخذاً ، فإذا لم يؤدوها طواعياً أدونها كرهاً وذلك كما يجبرون على العلم ، والجنديّة ، وأداء الضرائب ، وغير ذلك .

\* \* \*

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقمة « بدر » حتى نزل قوله تعالى : « وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم » فألغى التوارث بمقد الأخوة ، ورجع إلى ذوى الرحم . وروى البخارى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ... »

قال : كان المهاجرون - لما قدموا المدينة - يرت المهاجرى الانصارى دون ذوى رحمه ، للأخوة التى آخى النبي عليه الصلاة والسلام بينهم . فلما نزلت : « ولكل جعلنا موالى ... » نسخت ثم قال « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ، ويوصى له .

\* \* \*

روى في تفصيل هذا الإخاء أن النبي صلى الله عليه وسلم تأخى مع على وتأخى حمزة مع زيد ، وأبو بكر مع خارجة ، وعمر مع عتبان بن مالك .. الخ ومن العلماء من يشك في أخوة الرسول عليه الصلاة والسلام مع على .

ولكن ماصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل علياً منه بمنزلة هارون  
من موسى يؤيد هذه الرواية<sup>(١)</sup> : وليس يחדش هذا من منزلة أبي بكر  
ولا استحقاقه الصدارة .

o o o

### غير المسلمين

أما الأمر الثالث ، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها ، الذين لا يدينون بدينها ،  
فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي  
لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار  
دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط  
هو رجل مخطيء بل متجاهل جريء .

(١) قلت : كلا ، لا تأبىد ، فإن الأخوة المذكورة أخص من تلك للزلة ، ولا يثبت  
الأخص بالأعم ، فلا يعدم إثبات الأخوة بنص خاص . وقد تتبعت الأحاديث الواردة فيها فوجدتها  
لا تخلو من كذاب ، ومن أشهرها ما أخرجه الترمذى (٣٢٨/٤) والحاكم (١٤٢) من  
طريق حكيم بن جبير عن جميع بن عمير عن أبي عمر قال أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بين أصحابه بجاه على تدعى عيناه فقال : يا رسول الله أخيت بين أصحابك ولم تواخ ببنى وبين  
أحد ؟ فقال رسول الله : أنت أخى في الدنيا والآخرة . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن  
غريب » وتمقب الشارح للبار كפורى بقرله : « حكيم بن جبير ضعيف مرهق بالتشيم » قلت :  
ذهل هو والترمذى عن علته الحقيقية وهى « جميع بن عمير » هذا . قال الذهبى فى اللباز :  
« قال ابن حبان . رافضى يضع الحديث وقال إن عميرا كان من أكاذب الناس » ثم ساق  
له الذهبى هذا الحديث ، وقد رواه أيضاً سالم بن أبي حنيفة الكاهلى أخرجه الحاكم متابعة للحكيم  
ابن جبير ، فتعقبه الذهبى فى « التخليص » بقوله : « قلت : جميع انهم ، والكاهلى هالك ،  
قلت : كذبه ابن أبى شيبة وموسى بن هارون . وقال الدارقطنى : هو فى عداد من يضع  
الحديث » ومن شاء الاطلاع على بقية الأحاديث وعليها فليراجع « المجموع » (١١١/٩)  
واللالى للصنوعة (١٩٨ ، ١٩٤ ، ٢٠١) .

عندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وجد بها يهوداً توطنوا  
ومشركين مستقرين .

فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للابعاد أو المصادرة والخصام ، بل قبل -  
عن طيب خاطر - وجود اليهود والوثنية ، وعرض على الفريقين أن يعاهدكم معاودة  
للفد للند ، على أن لهم دينهم وله دينه .

ونحن نقطف فقرات من نصوص المعاهدة التي أبرمها مع اليهود ، دليلاً على  
إتجاه الإسلام في هذا الشأن .

جاء في هذه المعاهدة ، أن المسلمين من قریش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم  
وجاهد معهم أمة واحدة .

وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة<sup>(١)</sup> ظلم ، أو إثم ، أو  
عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم !!

وأنه لا يجير مشرك مالا لقریش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ..

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر . أن ينصر  
محدثاً<sup>(٢)</sup> ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ،  
ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين .

وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين .

لل يهود دينهم وللمسلمين دينهم .

وأن ليهود بني النجار والحارث وساعدة وبني جشم وبني الأوس النخ .

مثل ما ليهود بني عوف .

وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب

أهل هذه الصحيفة .

(٢) مجرمًا .

(١) محض .



وأن بينهم النصيح والنصيحة والبر ، دون الإثم .  
وأنه لم يأتي أمرؤ بمخيفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار  
حولا آثم .

وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ...  
وأن بينهم النصر على من دم يثرب .  
وأن من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن ، إلا من ظلم . وأثم ...  
وأن الله جار لمن بروا تقي (١) .. » .

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر  
السكينة في ربوعها ، والضرب على أيدي العابدين ومدبري الفتن أيا كان دينهم .  
وقد نصت - بوضوح - على أن حرية الدين مكفولة .

فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف . بل تكافئت  
العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم ، وحماية الجار ، ورعاية الحقوق الخاصة  
والعامة ، واستنزل تأييد الله على أبر مافيهما وأتقاه ، كما استنزل غضبه على من  
يخون ويغش ..

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو . وأقرت حرية  
الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها ، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها .  
ويلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المعاهدة أشار إلى العداوة  
القائمة بين المسلمين ومشركي مكة وأعلن رفضه الخاسم لموالاتهم وجرم إسداء أى  
عون لهم وهل ينتظر إلا هذا الموقف من قوم لا يزال جروحهم تقطر دماً لبني  
قريش وأحلافها عليهم ؟

أكان لليهود صادقين في موافقتهم على هذا العهد .

(١) روى هذه الوثيقة ابن إسحاق ( ١٦/٢ - ١٨٠ ) . بدون إسناد .

أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه وقبلوا إنفاذه .  
وآفة اليهود أن يرتبط الوفاء بهامدى المنفعة المرجوة منها . فإذا بدا أن للمعاهدة  
المبرمة لا تحقق المطامع المبتغاة ، قلّ التمسك بها والتمسّت الفرص للتخلل منها .  
وقد كان اليهود يبنون عظمتهم للاديه والسياسية على تفرق العرب ، قبائل  
متناحرة ، فلما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى وتتابعت  
الأيام تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة . . استشعر اليهود  
القلق وساورتهم الموم ، وشرعوا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه .  
ثم إن اليهود في المدينة يكوّنون البيئة التي تتوافر فيها سوائت الثندين المصنوع .  
والاحتراف للسمج بمبادئ السماء وأبرز خلال هذه البيئات المحقد والتفاق والتمسك  
بالقشور والولع بالجدال . ومن وراء ذلك قلوب خربة ، ونفوس معوجة .  
وربما اقتبسوا من جوارهم للعرب بعض فضائل الصحراء ، كالكرم والشجاعة  
بيد أن انطواءهم العنصرى غلب على سيرتهم . فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم  
كما تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوهة ...

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام . فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطأ  
من الوثنيين في مخاصمته . فإن محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى توحيد الله ، وإصلاح  
العمل ، والاستعداد لحياة أرق في الدار الآخرة والدين الذي جاء به ، وقر موسى ، وأعلى  
شأنه . ونوه بكتابه . وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه ، ويازموا حدوده .

لكن اليهود صموا - أولاً - صمت المستريب . ثم بدا لهم فقرروا المعاندة بالجحود  
وهذا الترحيب المتوقع تلمح دلالة في كثير من الآيات فإن عبدة الأصنام . إذا  
أنكروا النبوة ، فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها « ويقول الذين كفروا .  
لست برسلا . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب »  
وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله . فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا

وجدوا من يذكركم به « وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِ يَوْمِنُونَ . »

غير أنك تدهش ، إذا تجدد الجرأة على الله ، والنفور من أحكامه ، ووصفه بما لا يليق . شائعة بين اليهود ، شيوعها بين المشركين !

فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولداً ، بشراً أو حجراً ، فماذا ترى فين يهصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل ؟

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ : يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا .. »

« لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنْ اللَّهُ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ \* سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ : ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . »

o o o

على أن الإسلام يدع أولئك الجحده في ضلالهم ، فلا يستأصل كفرهم بالسيف ، ويكتفى بأن يعان دعوته ، ويكشف حقيقته ، ويملا الجو بآياته ومعامله .

فن استراح إليها فدخل فيها ، فيها ونعمت وإلا فهو وشأنه . ولا يطالبه الإسلام بشيء إلا الأدب والمسالمة ، وترك الحق يسير ، من خير عائق أو تكبير .

ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فمد يده إلى اليهود ومصافحاً ، وتحمل الأذى مسامحاً ، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه ، إستدار إليهم ، وجرت بينهم من الوقائع ، ما سنقص أخباره في موضعه ....

o o o

بتقوى الله والاخلاص له ، دُعِمت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد .

وبالإخاء الحق ، تماسك بنيانه وتوثقت أركانه ...

وبالعدل والمساواة ، والتعاون ، رُسِمت سياسة الأجانب ، وهو مل أتباع

الأديان الأخرى .

ومن ثم استقرت الأوضاع . ووجد المسلمون متسعاً لتجدد قواهم وترتيب شئونهم

## المصطفون الأخيار

إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتبع لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء ، ووسائل الارتقاء .

إن مشاعرك ترقى عندما تسمع النغم العذب ، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة ، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات اللثيرة بصفتهم جوهرة القصة المنفتحة ، فيضحكون ، ويبكون ، ويهدأون ويضجون . . فما ظنك بقوم يتبعون رجلاً تسكلمه السماء ، ويتفجر من جوانبه السكال ، ويسكب على من حوله آيات للطهر ؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير ، دفع بها إلى الأمام ، وإذا علقت بمسالكهم شهوة ، نقاها فرد عليها سناءها . إن للاظهار إشعاعاً يغير البيئة التي يظهر فيها ، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيء منه ، تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز ، فتنتوى في مجاله . وتمشى في آثاره !!

وقد التف بمحمد صلى الله عليه وسلم فريق من الربانيين الأتقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين ، فزكت - بصحبته - نفوسهم ، وشفقت طباعهم ، حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .

ولا تحسبن العقل الجبار - مهما أوتي من نفاذ - يستطيع إدراك السكال بقوته الخاصة . فإذا لم تسدده عناية عليا . فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر بغاية أو يمتدى طريقاً ، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتسكأثر أمام عينه للضباب إنه يحكم القيادة ، ويضبط الآلات ، ويرسل أنوار مصابيح في أحشاء النجوم المتراكمة . فإذا لم يتلقى إرشاداً يحدد له مكانه ويعرفه كيف يهبط . . فإنه سيمظل يحلق عبثاً . . ثم تهوى به الريح في مكان سحيق .

وكم من فلاسفة عاجوا شئون الكون والحياة . فمنهم من ضل عن الحق على

طول بحثه عنه ، فلم يصل إليه قط ! ومنهم من استغرق في الوصول إليه أحواما طوالا .  
ولومشى وراء الرسل لانتهى إليه في أيام قصار ، وهو في مأمن من الشرود والعتار !  
ثم إن الإنسان ليس عقلا فحسب ، إنه — قبل ذلك — قلب ينبغي أن يسلم  
من الأهواء والآثام ، وأن ينجو من الشقاوة والظلام ، وأن يكون في حنايا صاحبه  
قوة تسوق إلى الخير والحب ، وحاديا يهفو إلى الجمال والرحمة . . .

والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية .  
وأشبه الناس بهم من اقتفى آثارهم وأخذ في طريقهم وأول أولئك قاطبة .  
من محبوبهم في حياتهم ، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم . . .

قال عبد الله بن مسعود : « من كان مستنفا فليستن بمن مات فإن الحى لا تؤمن  
عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام . كانوا أفضل هذه الأمة ،  
أبرها قلوبا وأعماقها علما وأقلاها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه .  
فأعزفوا لهم فضلهم ؛ واتبعوهم على أمرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ،  
فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . . . »

ولاشك أن أصحاب محمد يرجعون أصحاب موسى وعيسى .  
فإن تاريخهم في الإيمان والجهاد وإبلاغ الدعوة إلى الأخلاق كاملة مضبوطة ،  
غير منقوصة ، ولا محرفة ، لا يشبه أى تاريخ آخر . . .

ونحن نسوق هذه المقدمة بين يدي الكلام عن الأذان ، وكيف شرع ؟ فإن  
ميلاد هذه الشريعة العظيمة ، يحمل معه آيات بينه عن عظمة النفوس إذا صفت  
ففضحت بالحق ، وسكن إليها الإلهام . . .

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، إنما

يجتمع الناس إليه للصلاة حين موافقتها بغير دعوة . فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل بوقا كبوق يهود الذي يدعون به اصلاصهم ، ثم كرهه ، ثم أمر باناقوس ، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة . فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بني الحارث النداء ، فأتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بي هذه الليلة طائف ، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده ، فقلت يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قال : قلت ندعو به إلى الصلاة .. قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت ماهو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن لا إله إلا الله . فقام مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك . فلما أذن بها بلال سمعه عمر وهو في بيته فخرج إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يجر رداءه يقول : يا بني الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فله الحمد<sup>(١)</sup> . وفي رواية :

---

(١) حديث أخرجه ابن إسحاق في « المنازي » ( ١٩/٢ — ٢٠ ) : حدثني محمد ابن إبراهيم الحارث عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد عبيد ربه عن أبيه وهذا سند حسن ، وقد أخرجه أبو داود والدارمي وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وأحمد كلهم من طريق ابن إسحاق به وأخرجه الترمذي مختصراً . وقال : « حديث حسن صحيح . وصححه جماعة من الأئمة ذكرتهم في كتبي » صحيح سنن أبي داود « ( رقم ٥١٢ ) وله شاهد مختصر من رواية أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار أخرجه أبو داود ( رقم ٥١١ من صحيح أبي داود — ولم يطبع ) وأخرجه البيهقي ( ٣٩٩/١ — ٤٠٠ ) .

فأمر رسول الله بلالا فأذن به<sup>(١)</sup> . قال الزهري : وزاد بلال في نداء الصلاة الغداة : الصلاة خير من النوم مرتين . فأقرأ رسول الله<sup>(٢)</sup> .

وفي رواية أخرى رأى عمر في المنام : لا تجملوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بما رأى وقد جاء النبي عليه الصلاة والسلام الوحي بذلك .

فما راع عمر إلا بلال يؤذن فقال رسول الله حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحي<sup>(٣)</sup> .

وهذا يدل على أن الوحي قد جاء بتقرير ما رآه عبد الله بن زيد . . .

هذه الكلمات الطيبة التي ترتفع بين الحين والحين ، تقرع الأذان ، وتوقظ القلوب وتصيح بالناس : هلموا إلى الله .. وعاشا في رؤياصالحة ذهن نير . فأسرع بها إلى

(١) لا حاجة لهذه الرواية فإن معناها في التي قبلها .

(٢) أخرجه ابن ماجه ( ١ / ٤١١ هـ ) عن الزهري بسند ضعيف . ورواه بنحوه أحمد ( ٤ / ٤٣ ) من قول سعيد بن السيب وفي سنده انقطاع ، لكن معنى الحديث صحيح فإن له شواهد كثيرة أوردت بعضها في « الثمر المستطاب » ، في فقه السنة ، والكتاب » منها عن أنس قال : كان الثوب في صلاة الغداة إذا قال المؤذن حي الفلاح قال : « الصلاة خير من النوم » مرتين أخرجه الدارقطني والطحاوي والبيهقي ( ١ / ٤٢٢ ) وقال : « إسناده صحيح » ( تنبيه ) لا يخفى على الفقيه أن بلالا كان يؤذن الأول للفجر ، فإذا ضممتها إلى ما تقدم ينتج منه أن السنة أن يقال : « الصلاة خير من النوم » في الأذان الأول لا الثاني ، وهذا ما جاء به النص فقال ابن عمر : كان في الأذان الأول بعد الفلاح ؛ « الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم » أخرجه الطحاوي ( ١ / ٨٢ ) وغيره بسند حسن كما قال الحافظ في « التلخيص » ( ٣ / ١٦٩ ) . وفي الباب عن أبي مخزومة .

(٣) ذكر « ابن هشام » ( ٢ / ٢٠ ) فقال : وذكر ابن جريج قال لي عطاء : سمعت عبيد بن عمير الليثي ؛ فذكره . وهذا - مع انقطاعه - مرسل .

يرسول الله ، يرويها كما أقيمت في روعه ، لتكون نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت على ظهر الأرض صلاة ..

وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التألق وقة الحق ، وهو أمانة على أن الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم ، وتوجه إليه على البديهية وبعد التروى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً ، يقرؤهم عليهم ويقرأونه عليه ، لتكون هذه المدارس إشعاراً بما على الصحاب من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر !!

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ على القرآن !!  
فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ! قال : إني أحب أن أسمعه من غيري !  
قال : فقرأت له سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » قال حسبك الآن ، فالتفت إليه ،  
فإذا عيناه تذرطان (١) ..

زاد في رواية « شهيداً ما كنت فيهم .. »

وإذا كان الاهتداء إلى ألفاظ الأذان قد ترشحت له سريرة مصفاة ، مشغوفة بالعبادة ، مشغولة بالحق ، فإن من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كذلك ، من اندمجوا في معاني الإيمان ، وخلصوا لمعين الرسالة حتى إن الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن ، تنويهاً بمكانتهم عند الله ورسوخهم في آياته .

(١) أخرجه البخاري (٧٠٠ ، ٧٧/٢٠٢/٨) ومسلم (١٩٦/٣) والرواية له ونصها « عن ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم : شهيداً عليهم مادمت فيهم أو ما كنت فيهم . (شك مسر الراوى) .



عن أنس بن مالك قال رسول الله لأبي بن كعب : « إن الله أسرنى أن أقرأ عليك » لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ٠٠ » ، قال أبى : وسمانى ؟ قال : نعم ، وفى رواية « الله سمانى لك ؟ قال : نعم . قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم قال : فذرفت عيناه ٠٠ » (١) .

• • •

## معنى العبادة

وسر الارتقاء الروحى والجماعى الذى أدركه صحابة محمد أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح ، فلم يشعر وا فى الفعل له بما يشعر به الكثيرون من عنت وتكلف ، ولا يمانون من شرود وحبيرة . !

هناك طبيعتان فى الإنسان غير منكورتين ، الإعجاب بأعظمة والعرفان للجميل . فعندما ترى آلة دقيقة أو جهازاً عجيباً أو صورة رائمة أو مقالا بليغاً فإنك لا تنتهى من تبئين حسنه حتى تنطوى جوارحك على الإعجاب بصاحبه ، فإن الفدكاء العميق والافتقار البارز بجعلناك تنحى من تلقاء نفسك احتراماً للرجل الذكى القدير . !

وكذلك عندما يسدى إليك معروف أو تمتد يدك إليك بنعمة إنك تذكر هذا

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٩٠٠٠/٥٨٩ - ٥٩٠) والرواية الأخرى له ولمسلم (٢/١٩٥) وأحمد (٣/١٣٠ ، ١٨٥ ، ٧١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤) وعنده الرواية الأخرى . ورواه الترمذى (٤/٣٦٨) والحاكم (٣/٢٠٤) وصحاه وأحمد (٥/١٢٢ - ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٨٢) من حديث «أبى» نفسه ؛ وأحمد أيضاً (٣/٤٨٩) من حديث أبى حبه البدرى .

الصنيع لمن تطوع به ، وعلى قدر ضخامة ما نلت من خير ، يلهج لسانك بالثناء ويمتلي .  
فؤادك بالحمد ، كما قال الشاعر :

أفادتكم السماء منى ثلاثة يدي ، ولساني ، والضمير المحجبا !!

ورسول الإسلام جاء يثير هاتين الطبيعتين نحو أحق شيء بهما ، ألسنتك تعجب بالعظمة وتحنق بصاحبها ! ألسنتك تقدر النعمة وتشكر مسديها ! إنك ترمق ، بإجلال ، مخترع الطيارة ، وكلما رأيتها تشق الفضاء زدت إشادة بعبقريته ! فما رأيك فيمن يدفع الألوף المؤلفة من الكواكب تطير في جو السماء من غير توقف ولا عوج ؟ وما رأيك فيمن خلق عقل هذا المخترع ، وأودع في تلافيف مخه الذكاء الذي وصل به إلى ماراعك واستثار إعجابك ؟

أليس ربك ورب كل شيء أحق بأن تعرف عظمته وتفتح عبوك على آثار قدرته ... ؟

فإذا عرفت عظمته من عظمة الوجود الذي يحيط بك خجلت من التهجم عليه ونسبة ما لا يليق إليه !! وقلت مع العارفين « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه حقنا عذاب النار » .

إنك لو امتضافك شخص كريم ورأيت البشاشة في وجهه والسماحة في - قراه حفظت له - ماحييت - هذه المنة ، وسميت جهمك كي تكافئه عليها ، وحدث من تعرف بسجايها هذا المضيف الكريم ، فما رأيك فيمن تولى أمرك بنعمائه من المهدي إلى اللحد ؟ فأنت لا تطعم إلا من رزقه . ولا تنكس إلا من ستره ، ولا تأوى إلا إلى كنفه ، ولا تنجو من شدة إلا بإيقاده ... !!

إن محمداً صلى الله عليه وسلم وصل الناس بربههم على ومضات لطف من تقدير العظمة ورعاية النعمة ، فهم إذا انبعثوا طاعته كانوا مدفوعين لأداء هذه الطاعات بأشواق من نفوسهم ورغبات كامنة نجيش بتوقير العظيم وحمد المنعم ...

والعبادة ليست طاعة القهر والسخط ، ولكنها طاعة الرضا والحب .  
والعبادة ليست طاعة الجهل والغفلة ، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة !  
قد تصدر الحكومة أمراً بتسعين البضائع فيقبل التجار كارهين ، أو أمراً  
بخفض الرواتب فيقبل الموظفون ساخطين .  
وقد تشير إلى البريمة العجاء فتتقاد إليك لا تدرى إلى سرعتها تسير أم إلى  
مصرعها .

تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التي شرع الله للناس فالعبادة  
التي أجزاها الله على الألسنة في الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين » والتي  
جعلها حكمة الوجود وغاية الأحياء في قوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا  
ليعبدون » تعني الخضوع المقرون بالمعرفة والمحبة ، أي الناشئ عن الإعجاب بالعملة  
والعرفان للجميل ..

وقد اطردت آيات القرآن تبنى سلوك المؤمنين على هذه العمدة الراسية .  
فهي — إذ تعرف الناس بالله — تريهم صحائف مشرقة من خلقه البديع ،  
وفضله الجزيل ، تمزق ما نسجته الغفلة على الأعين من جهالة وجحود .

« الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج  
به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجروا في البحر بأمره وسخر  
لكم النهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل ،  
والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن  
الإنسان لظلم كفاً »

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بانسياب السكاويه ، إنما  
تولد الإجابة ويبلغ الشيء درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا .  
فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد ، وهب له نفسه وحده ، وعاش بحلم به  
في منامه وينشط له في يقظته ، وذلك يرقى به صعداً في فهم مبدئه وإجادة خدمته .

ومن ثم فإن الإسلام لا يخفل بالإيمان النظري البحت ولا يقبله إلا ليكون مسلماً إلى ما بعده ، وهو الإيمان بالعقل وال عاطفة معاً .

لا بد من تلوين الوجودان في قضايا الإيمان ، ليس بمسلم من يعرف الله ويكرهه ولا قيمة لمسلم يعرف الله ووجدانه خال باهت ، فلا إعجاب فيه ولا شكران . كما أنه لا غمط فيه ولا جحود .

والمسلم كل المسلم هو الذي يعرف الله معرفة اليقين ، ويضم إلى هذه المعرفة إحساساً يعترف بعبادة المجيد ونعماء المنعم ، تباركت أسماؤه !

والإيمان بهذه المثابة هو الإيمان المنتج ، وهو صانع العجائب ، وبأنى الدول ، ومقيم الحضارات السنية هو الذى يجعل الفرد يستحلى التكاليف المنوطة بعنقه ، فيقبل على أدائها ، وكأنها رغبات نفس ، لا واجبات دين . . .

أتظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قام يصلى حتى تورمت أقدامه كان يغالب الألم النائح في بدنه كما يغالبه التلميذ المذنب ، عندما يوقف الساعات الطوال معذباً مهاناً ؟

كلا . . . كلا . . . إن استعذابه للمناجاة واستغراقه في الخشوع أذهلاه عما به ، وغلبها على بوادر الألم الناشئ . من طول الوقوف . .

والرجل الموفور الحماس ، الفائر العاطفة ، قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل في عمله ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين الباردين .

ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والعجز ، أترى حذيفة بن اليمان عندما انطلق يتعرف أحوال المشركين في غزوة الخندق ، في ليلة باردة ، قارصة الجو ، لائحة السبرات :

لا ينبح السكب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا !  
لقد انطلق وهو يقول عن نفسه : كأنما أسير في حمام . .

هذه حرارة الإيمان غمرت - بدنهما - الرجل ، وجملته ينفذ في كبد الليل البارد وكأنه سهم مسدد .

هذا الإيمان المرتكز على العواطف المتقدمة ، هو الذى أشعل المعارك الطاحنة ، وقاد إلى النصر المظفر ، وهو الذى هدم ما تركز قرونًا طويلة ، من سلطان الظلم والبنى ، بعد ما ظن أنه لن يطيح أبداً .

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان في العقل وال عاطفة معاً ، يذو شجرته الباسقة مزبد من معرفة الله ، والشعور بعظمته ونعمته .

ذلكم أسلوب القرآن في تعريف الناس بالله . إنه أسلوب يقيمهم على عبودية الحب والتفانى ، لا على عبودية التحقير والموان ، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار بالإحسان ، لا للعبودية المهمة التي تصدر الإرادة وتزرى بالإنسان .

« قل : الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى الله خيرٌ أما بشر كون؟ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله؟ بل هم قومٌ يَعْدِلُونَ !

« أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ .. أإله مع الله ؟ ! بل أكثرهم لا يعلمون ! .

« أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون .

« أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .

« أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟ قل ها اتوا بآلهانكم إن كنتم صادقين . »

إن هذا التساؤل المتواصل السريع ، يفتح على النفس آفاقاً بعيدة من الإيمان  
الذكي ، ويجعلها نهوع إلى الله متجردة ، تفر من شوائب الشرك نفور الرجال  
الكبار من عبث الصبية .

وآيات النظر والتفكير . يدور - أغلبها - على هذا المحور الثابت .

وربما احتاجت النفس - في ساعات غرورها - إلى لون من أدب القمع  
والتوعد بكبح جماحها ، وهذا لا يتناقى - البتة - مع الأصل الذي قرناه آنفاً ،  
فإن قسوة الأب مع ولده - حيناً - لا تغير من طبيعة الحنان فيه .

والقرآن إذ يحرك المواهب السامية في الإنسان - بعرض آثار القدرة العليا  
عليه - قد يردف ذلك بوخزات توظف الإحساس الخدر ، ليلتفت ويعقل ،  
لا لينكش ويجبن .

قال الله تبارك وتعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع  
في الأرض ، ثم يُخرجُ به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيجُ فتراه مُضفراً ، ثم  
يجعله حطاماً . إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب . »

ويقول بعد ذلك : « أفمن شرحَّ اللهُ صدره للإسلام فهو على نورٍ من  
ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك في ضلالٍ مبين »

• • •

وقد سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم المنهج نفسه في غرس الإيمان ورعاية  
شماره .

وكانت سيرته في لاقبال على الله درساً حياً ، ينعم الأئمة بإجلال الله وإعظامه  
والمسارعة إلى طاعته . والنفور من عصيانه .

وكانت القلوب تنفتح على هدى الله ورسوله ، فما تسع بعمده شيئاً .

عن جبير بن مطعم سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ في المغرب بالطور  
فلما بلغ الآية « أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السمواتِ  
والأرض؟ بل لا يوقنون! أم عندهم خزائن رُبك؟ أم هم المسيطرون؟ »  
كاد قلبي أن يطير... (١)

ومد الإيمان من فكرة في الرأس إلى عاطفة في القلب، تجعل الرجل ينبض  
باليقين والإخلاص، هو من صميم السنة. وهو مهاد الخلال الفاضلة التي صادت  
المسلمين وأعلنت شأنهم، وهو معنى الحديث المشهور « ثلاث من كنَّ فيه وجد  
بهن طعم الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن أحب عبداً  
لا يحبه إلا الله. ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن  
يلقى في النار... (٢)

ومن ذلك أيضاً أن يتفاضل الإيمان بالرسالة والمغلاة بصاحبها إلى حد ينسى  
الإنسان معه نفسه فهو - عن حب واندفاع، لاعتن تكليف ورهبة - يفدى  
الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس.

عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام وهو آخذ بيد  
عمر فقال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي! فقال  
الرسول صلى الله عليه وسلم: لا - والذي نفسي بيده - حتى أكون أحب  
إليك من نفسك، فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إلي من نفسي! فقال رسول  
الله صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر (٣) «، أي الآن فقط تم إيمانك.

- 
- (١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٨٤٩/٩) من حديث جبير بن مطعم،  
(٢) حديث صحيح. أخرجه البخاري (٥٩/١ - ٥٢) ومسلم (٤٨/١) وغيرهما  
من حديث أنس.  
(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (٤٤٥/١١) وأحمد (٢٣٣/٤) من حديث  
عبد الله ابن هشام.

وهذا الحديث يحتاج إلى إيضاح . إن الفضائل لا يجوز أن تطيش بها كفتحة .  
وقد أحترم الناس خالق الوفاء في السموات ، لما ترك ابنه يذبح ، مؤثراً أنه  
تسلم ذمته ، ويرد إلى من إثمته وديعته .

والمرء إذا ضحى بنفسه فداء شرفه ، فقد أدى واجبه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يطلب من الناس أن يقدموا فيه صووة اللحم والدم  
ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ليوتوا كى يحيا أو يهونوا كى يعظم ، أو ليفتدوا  
أبجد . الخاصة بأرواحهم وأموالهم ، أو ليتأله فوقهم ، كما تأله فرعون وأمثاله  
من الجبابرة .

كلا كلا ، فحمد يريد من المؤمنين أن يقدموا فيه معنى الرسالة وأن يقتدوا  
فيه مثلها العالية ، وأن يصونوا - في شخصه - معالم الحق للمنزل ومآثر الرحمة العامة .  
إن الأنبياء لم يحيو لأنفسهم ، والمصيبة فيهم لا تنزل بهم أو بأهلهم خاصة .

إنهم يحيون للعالم كله . أليسوا مناط هدايته التامة وسعاده العامة ؟

فلا غرو إذ كانت تقديرتهم من أصول الإيمان ومعاهد الكمال .

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أهلاً لأن يحب وماترف الدنيا رجلاً قاضت  
القلوب إجلاله ، وتقانى الرجال في حياطته وإكباره مثل ما يعرف ذلك لصاحب  
الرسالة اعظمى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

### قيادته تهوى إليها الأفتدة

عين عبد الله بن سلام قال : أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة  
انجفل الناس إليه ، فسكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستشيتته علمت أن  
وجهه ليس بوجه كذاب قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال :-



« يا أيها الناس أفسوا السلام . وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام ،  
تدخلوا الجنة سلاماً » (١) .

إن أضواء الباطن تنضح على الوجه فتقرأ في أساريره آيات الطهر ، وقد ذهب  
عبد الله يستطلع أخبار هذا الزعم المهاجر . فنظر إليه يحاول استكشاف حقيقته ،  
فكان أول ما طمأن إليه بعد التثبت من أحواله ، أن هذا ليس بكاذب ، والملاح  
العلمية والحلقية لشخص ما ، لا تعرف بنظرة خاطفة ، ولكن الطابع المادى الذى  
يضيء على الروح الكبير ، كثيراً ما يكون عنواناً صادقاً على ما وراءه .

على أن الذين عاشروا محمداً صلى الله عليه وسلم أحبوه إلى حد الهيام ، وما  
ييالون أن تندق أعناقهم ولا يחדش له ظفر .

وما أحبوه كذلك ، إلا لأن أنصبتهم من الكمال الذى يعشق عادة لم يرزق  
بمثلهما بشر .

كان ثومان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحب له ، قليل الصبر  
عنه فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ، يعرف الحزن فى وجهه ، فقال له رسول الله  
صلى الله عليه وسلم . ما غير لونك ؟ فقال : يا رسول الله ، ما بى مرض ولا وجع ،  
غير أبى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى أفتك ، ثم أبى إذا ذكرت  
الآخرة أخاف ألا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين ، وإبى إن دخلت الجنة  
كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخلها لم أرك أبداً فنزل قوله تعالى :  
( ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين  
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ) (٢) .

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى (٣١٣/٢) وابن ماجه (٤٠٠/١) والحاكم  
(١٣/٣) وأحمد (٤٥١/٥) وقال الترمذى : « حديث صحيح » وقال الحاكم : صحيح على  
شروط الشيخين « ووافقه الذهبي . وهو كما قالوا .  
(٢) رواه الواحدي فى « أسباب النزول » (ص ٢٢) تعليقا عن الكلبي . وقال -

وفي الحديث . المرء مع من أحب ، (١) والمقصود حب الأسوة . لاحب  
الهوس ، فإن الرجل إذا أحب من هو مثله أو أعلى منه ، فأساس هذا الحب تفتح  
قلبه لخلال النبل التي خصوا بها . وعظمة المواهب التي يهزم بها القدر .

وآثار الشجاعة والسكرم لا يرحب بها الجبن الشحيح . إنما يهيمها في أصحابها  
من أوتى حظاً منها ، وهو بسبيله إلى استكمال مافاته من تمامها .  
فمن نعمة لله أن ياحق بالعضاء من يشق فيهم جل العظمة . ولذلك قال بعد  
الآية السابقة : « ... ذلك الفضل من الله وكفى بالله عابياً » .

والحق أن التابع المحب شخص فاضل .

ففي الدنيا كثير من الأخساء الذين إن علوا ، حقروا من دونهم . وإن دنوا ،  
كرهوا من فوقهم ! فما تدرى متى تحلوا نفوسهم من أحاسيس البغضاء والضعة ؟  
أما عشاق البدى ، المجرده ، فإن مجدوا رجلها المشود حتى يحيطوا به ،  
وتلمع عيونهم حباً له ، أى حباً للمباهى . التي حبيت فيه وانصرت به .

وما كان ربك ليضيع هذا اليقين ولا أصحابه الأبرار .

عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل النبي صلى الله عليه وسلم فيه المدينة أضاء منها

فذكره . وهذا مع إعضاله فإن الكلبي كذاب : لكن أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير »  
(ص ١٢) ومن طريقه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٥/٧) وعنه الواحدى (ص ١٢٣) .  
وابن مردويه والمقدسى « في صفة الجنة » من حديث عائشة مختصراً ليس فيه قوله ما غير لولئك  
وقال المقدسى : لأرى بإسناده بأساً « وله شاهد من حديث ابن عباس وآخر من مرسل  
سميد بن حبير وغيره أوردتها الحافظ ابن كثير في البداية (١/٥٥٢-٥٢٣)  
(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (١٠/٤٥٩-٦٢) . ومسلم (٨/٤٣) . من حديث  
أنس وابن مسعود وأبي موسى . وهو حديث متواتر كما قال ابن كثير وغيره .

كل شيء . فلما كان اليوم الذي مات فيه ، أظلم منها كل شيء . وما نفطنا أيدينا  
من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (١) .

فانظر إلى بشاشة العاطفة الفاصرة : كيف صبغت الآفاق بألوانها الزاهية ، وانظر  
إلى حسرة النقد : كيف تخلف موادها السكبى على كل شيء . . .  
هكذا كانت دار الهجرة أقد أحببت الله وأحبت رسوله .

فكان هذا الحب المسكين سر انتصارها الرائع للإسلام ، ومبعث التضحية  
عن طيب نفس بكل مرتخص رغال .

وقوم يربطهم بقائدهم هذا الإعزاز المائل ، تندك أمام عزائمهم الأطواد  
الراسية . . .

\* \* \*

سأل الحسن بن علي ، هند بن أبي هالة عن أوصاف رسول الله صلى الله عليه  
وسلم . فوصف له بدنه فكان مما قال « . . . يشى هونا ، ذريع المشية - واسع  
الخطو - إذا مشى كأنما ينحط من صلب - يهبط بقوة - وإذا التنف ، التفت  
جميعاً . خافض الطرف . نظره إلى الأرض ، أطول من نظره إلى السماء . جل نظره  
الملاحظة - أى لا يحدق - يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لى منطقته . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل  
الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة . طويل السكوت ،  
يفتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطرافه - ويتكلم بجوامع الكلم ،

---

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى (٤٩٥/٤) والمالك (٥٧/٣) وأحمد  
(٢٢١/٣ ؛ ٢٦٨) وقال الترمذى « حديث صحيح » وقال الحاكم : « صحيح على شرط  
مسلم » ووافقه الذهبي وهو كما قال . ورواه الدارنى (٤١/١) بنحوه وسنده صحيح أيضاً  
على شرط مسلم وهو رواية للحاكم وأحمد (١٢٢/٣) .

فصلاً ، لا انضول فيه ولا تقصير ، دَمِئًا ، ليس بالجافي ولا المهين . يعظم النعمة وإن دقت . لا يذم شيئًا ، ولم يكن يذم ذَوَاقًا - ما يطعم - ولا يمدحه . ولا يُقام لغضبه ، إذا تُعرِّض للحق بشيء ، حتى ينتصر له . ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها - سماحة - إذا أشار ، أشار بكفه كلها . وإذا تعجب قلبها . وإذا غضب ، أعرض وأشاح . وإذا فرح ، غض طرفه . جلُّ ضحكك التَّبَسُّم . ويفترقه عن مثل حبِّ الغمام ...

وقال ابن أبي هالة يصف نخرجه - على الناس - : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم . ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس . ويحسن الحسن ويصونه ويقبح القبيح ويؤهنه . معتدل الأمر غير مختلف . لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملؤا . لكل حال - عنده - عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره .. الذين يلونه من الناس خيارهم . وأفضلهم عنده ، أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة ، أحسنهم مؤاساة ومؤازرة .

ثم قال - يصف مجلسه - : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكانًا ، إذا انتهى إلى القوم ، جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك . ويعطى كل جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه . من جالسه أو قامه لحاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول . قد وسع الناس بسطه وخلقه . فصار لهم أبًا ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء ،

وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات . ولا تؤن فيه الحرم - لانخشي فلتاته - .  
يتعاطفون بالتقوى . يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ،  
ويؤنسون الغريب .

وقال بصف سيرته : كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ايس بفظ  
ولا غليظ ، ولا صخاب . ولا نخش ، ولا عتاب . ولا مدّاح ، يتغافل عما لا يشتهي  
ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار . وما لا يعنيه . وترك  
الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما  
يرجو ثوابه . إذا تكلم ، أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا سكت  
تسكّموا . لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ .  
حديثهم حديث أولم . يضحك مما يضحكون منه . ويعجب مما يعجبون منه .  
ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها  
فأرقدوه . ولا يطلب الثناء إلا من مكافئه .. (١)

\* \* \*

هذه خطوط فصار . لما يراه الناس من مظاهر الكمال في سيرة النبي «المحمد»

(١) حديث ضعيف أخرجه بطوله الترمذى في «الشمائل» (١ / ٢٨) من طريق جميع بن عمرو بن عبد الرحمن المجلى قال : حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة ، يكنى أبا عبد الله عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن هلى وهذا سند ضعيف جميع بن عمر هذا ضعيف وقال أبو داود : «أخشي أن يكون كذاباً» . وأبو عبد الله التميمي مجهول كما في «التعريب» وابن لأبي هالة اسمه هند ابن أبي هالة وهو مستور ترجمه ابن أبي حاتم (٤ / ٤ / ١١٧) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . ونقل الحافظ في ترجمة أبيه من «التهذيب» عن أبي داود قال في هذا الحديث . «أخشي أن يكون موضوعاً» وأشار البخارى إلى أنه لا يصح . (راجع ترجمة هند ابن أبي هالة في «الجرح والتعديل» مع التعاليق عليه .

أما حقيقة ما بنى عليه هذا الرسول الكريم من أعجاز وشمال ، فأمر لا يدرك  
كسبه . ومعرفة العطاء لا يطبقها كل أحد ، فكيف بعظيم ، خلافة القرآن ؟  
إن الأمة التي أخرجت للناس في المدينة بلغت الأوج .

كانت تعمل وتجاهد لله وحده . وتدعى إلى غايتها المرموقة في جذل وثقة .  
التفت حول نبيها التعاف للتلازمة بالعلم ، والجند بالقائد ، والأبناء بالوالد الخيون .  
وتساندت فيما بينها ، بالأخوة المتبادلة المتناصرة ، فهم نفس واحدة . في أجسام  
متعددة ، ولبنات مشدودة ، في بناء منسق صلب .

وأدارت علاقاتها بالآخرين على العدل والبر . فليس يظلم في جوارهم ريء ،  
أو يحرم من أطافهم عان .

ورغم ما وقع عليها من بنى قديم . فقد جعلت الإسلام يجب ما قبله .  
فن تطهر من جاهليته وتاب إلى ربه فلا نظر إلى ماضيه . بل ينضم إلى الأمة  
المسلة عضواً كريماً فيها ، تغفر سيئاته ليستقبل - بصالح عمله - كتابه الجديد .  
أما الذين بقوا يكفرون ويصدون ، فلا بد من الإعداد لهم ، حتى تخلص الأرض  
من كفرهم وصدوم .

( إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً  
إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ) .

كانت هذه الأمة تسكح الله وتصل مساءها بصباحها في عبادته ، وقد حزبت  
أمرها على واحد من اثنين ، إما أن تحيا لله ، وإما أن تموت فيه !

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر العالم ، لرأيت عناصر الغالب  
والإمتياز تتجمع - لديهم - صاعدة . على حين تقور - في كيان الملل الأخرى -  
زلازل حاطمة ؛ فلا غرو إذا صاروا - بمد سنين معدودات - دولة فتيه ، تقضى  
لربها ولنفسها ماتشاء .

ثم إن الشرائع المفصلة أخذت تنزل في المدينة منظمة أحوال المسلمين الخاصة والعامّة ومبيّنة قواعد الحلال والحرام على تدرج ، إلى أن وصلت إلى وضعها الأخير كما سجلها تاريخ التشريع .

فقامت الحدود ، وفرضت الزكاة ، والصيام ، وزيدت ركعات الصلاة لأول العهد بيثرب .

عن عائشة فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرب صلاة السفر وزيدت في صلاة الحضر . . (١)

ومما يذكر أن النبي بنى بالسيدة عائشة في غضون السنة الأولى للهجرة وكان قد عقد عليها قبل الهجرة . . (٢)

وستحدث عن تعدد الزواج ، وزوجات الرسول في موضع آخر .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢ / ٣٦٨ - ٣٦٩) ومسلم (٢ / ١٤٢) عنها وفي رواية للبخاري (٨ / ٢٤) قالت . (فرضت الصلاة ركعتين ؛ ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ففرضت أربعاً وتركت صلاة السفر على الأولى) .

(٢) هذا معنى ما صح عن عائشة قالت تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بستين أو ثلاث وأنا بنت سبع سنين فلما قدم المدينة جاءني نسوة . . . ثم أتيت بي رسول الله فبنى بي وأنا بنت تسع سنين . رواه البخاري (٧ / ٨١٧) وأحمد (٥ / ٢٨٠) واللفظ له ومسلم أيضا (٤ / ١٤٠) وفي رواية له عنها « تزوجني صلى الله عليه وسلم في شوال وبنى في شوال : . . »

The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that proper record-keeping is essential for the integrity of the financial system and for the ability to detect and prevent fraud.

It is noted that the current system of record-keeping is outdated and inefficient. The proposed changes aim to streamline the process and reduce the risk of errors. This includes the implementation of a new software system that will allow for real-time monitoring and reporting.

The second part of the document outlines the specific steps that will be taken to implement these changes. This includes the selection of a vendor, the development of a detailed implementation plan, and the training of staff on the new system. It is expected that these changes will be completed within the next six months.

Finally, the document concludes by stating that the implementation of these changes is a top priority for the organization. It is hoped that these improvements will lead to a more efficient and secure financial system, and that they will be a model for other organizations to follow.

The following table provides a summary of the key components of the proposed system. It details the various modules and their functions, as well as the estimated costs and timelines for each. This information is intended to provide a clear overview of the project and to facilitate the decision-making process.



(٦)

الكفاح السَّامِي

دخل الإسلام المدينة وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما يأوى الجنى إلى قلعته الشائخة، وأخذوا يستعدون حتى لا تقتحم عليهم من أقطارها . وهم تعلموا من السنين الفبر التي مرت عليهم في مكة أن الضعف مدرجة إلى الهوان مزلفة إلى الفتنة ، والمرء لا يقدر العافية حق قدرها إلا بعد الإبلال من المرض ، ولا يعرف قيمة الغنى إلا عند التخلض من ذل الحاجة .

ومن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من هجر الماضي ؟

ذلك نبهم تعقبه القتلة ألف ميل ليقتالوه ، سواد المهاجرين نهب ما لهم وسلبت دورهم وشردوا من البند الحرام . إن «حالة الحرب» قائمة - يقيناً - بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الحصار .

على أن العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه تجاوزت قريشا إلى غيرهم من مشركي الجزيرة الضالة ولن تذهب الفروض بنا بعيداً، فإن عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يجاهرون بخصومتهم للإسلام . وانضم إلى هؤلاء وأولئك ، اليهود الذين أوجسوا خيفة من انتشار هذا الدين . واندحار الوثنية العربية أمامه . . .

فما بد - إذا - من التأهب لكل طارئ ، والتربص بكل هاجم ، وتجهيز القوة التي تؤدب الجرمين يوم يتطاولون !

والقتال الذي شرعه الإسلام وخاض معاركه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وهو أشرف أنواع الجهاد، وقد بينا في كتبنا<sup>(١)</sup> الأخرى - بالاستدلال

(١) الإسلام والاستبداد السياسي « و « التعصب والتسامح بين المذبية والإسلام » .

العلمي والاستقرار التاريخي - أن الحروب التي اشتبك فيها الإسلام - على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه - كانت فريضة لحماية الحق ، ورد للظالم ، وقع العدوان ، وكسر الجبابرة .

أما نخزص المستشرقين والحقده على الإسلام من أهل الأديان الأخرى والادعاء بأن المسلمين جنحوا إلى القوة حيث لامبرها ، فذلك كله لغو طائش ، وهو جزء من الحملة المدبرة لحو الإسلام من الأرض ؛ واستبقاء أهله عبداً للصليبية والصهيونية وما إليهما .

وما من أيام للقتال فيهن أوجب على المسلمين من أيام يهدد فيها الإسلام وآله بالفناء .

وتألب عليه شق القوي ، بل يصطالح ضده الخصوم الألداء ، محاولين سحقه إلى الأبد .

وقد وقع ذلك في صدر الإسلام ، قبل الهجرة وبمدها ، ووقع في هذه الأيام فسقطت أوطان الإسلام في أيدي لصوص الأرض ، تم رسمت أخبث السياسات للذهاب به رويداً رويداً .

فكيف تستغرب الدعوة إلى التسليح ، والإهانة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم على التضحية في سبيل الله ؟

كيف تستنكر صناعة الموت في أمة يتروائب حولها الجزارون من كل فج ؟

كلا كلا « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يمجزون \* وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين ، من دونهم لا تعلمونهم \* الله يعلمهم \* وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون \* وإن جنحوا للسلم فاجنح

لها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ  
فَأِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .

\* \* \*

وتمشياً مع توجيه الوحي وسياسة الواقع ، وحفاظاً على حق الله وحق الحياة  
درّب النبي صلى الله عليه وسلم رجاله على فنون الحرب ، واشترك معهم  
في التمارين والمناورات والمعارك ، وعد السعى في هذه الميادين خطوات إلى أجل  
القرب وأقدس العبادات ، لعله بذلك يفل شوكة الكفر ، ويكسر عن  
المسلمين أذاه .

« فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين \* عسى  
الله أن يكف بأس الذين كفروا \* والله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً »  
عن عتبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر  
يقول : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي  
ألا أن القوة الرمي (١) .

والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المعارك .

والرمي أعم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو القنابل .

وعن يقيم اللخمى ، قال : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين  
— تتردد بينهما — وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ قال عقبة : لولا كلام سمعته من

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم ( ٥٢ / ٦ ) وأبو داود ( ٣٩٤ / ١ ) والترمذي  
( ١٢٢ / ٣ ) وابن ماجه ( ١٨٨ / ٢ ) وأحمد ( ١٥٧ / ٤ ) من حديث عقبة بن عامر  
وصححه الحاكم ( ١٣٨ / ٢ ) على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي .

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه . قال : وماذاك ؟ قال سمعته يقول : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ! » (١) .

فانظر كيف يبقى الشيوخ المسنون على دربتهم في إصابة الهدف ، ومهارة اليد ونشاط الحركة . إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعاً .

وعن أبي نجيح السلمى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة » فبلغت يومئذ عشرة أسهم ، وسمعته يقول « من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة » (٢) .

وعن عقبة بن عامر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : ١ - صانهه يحتسب في عمله الخير . ٢ - والرامي به . ٣ - ومنبله ، للمدب به ، فارموا واركبوا . وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لهُو باطل ، ليس من اللهُو محموداً إلا ثلاثة :

١ - تأديب الرجل فرسه . ٢ - وملاعبته أهله . ٣ - ورميه بقوسه ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها أو كفرها (٣)

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم ( ٥٢ / ٦ ) ، وروى الجملة الأخيرة منه أصحاب السنن من طريق أخرى يأتي الكلام عليها .

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود ( ١٦٥ / ٢ ) والنسائي ( ٥٩ / ٢ ) وأحمد ( ٣٨ / ٤ ) والحاكم ( ٩٥ / ٢ ) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » وواقفه الذهبي ! وإنما هو على شرط مسلم وحده فإن تابعيه معدان بن أبي طلحة لم يخرج له البخاري وروى عنه الترمذي ( ٧ / ٢ ) الجملة الأخيرة وقال : « حديث حسن صحيح » وكذلك رواه ابن ماجه ( ١٨٨ / ٢ ) نحوه لكن من طريق أخرى . وهو رواية للعالم ( ٩٦ / ٢ ) وكذا النسائي ( ٦٠ / ٢ ) (٣) في سنده اضطراب كما قال الحافظ العراقي في « تخريج الأحياء » ( ٦ / ٢٥٢ ) وبيانه : أنه رواه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي سلام عن خالد بن زيد — ( ١٥ — فقه السيرة )

وعن ابن عمر « الخيل معقود في فواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة » (١) .

وهذا ترهيب من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، في تعليم الفروسية ، وإبراز لون معين من ألوان القتال لا يحط من قيمة الألوان الأخرى ، أو يؤخر منزلتها .  
الأتري كيف حض النبي على تعلم القتال في البحر نقل : « غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها والمائد فيه -- الذي يصيبه الدوار والقيء -- كالمشحط في دمه » (٢) .

---

== من عقبه ، به . أخرجه أبو داود ( ٣٩٣/١ - ٣٩٤ ) والنسائي ( ١٢٠/٢ ) والحاكم ( ٩٥ / ٢ ) وأحمد ( ٤ / ١٤٦ ؛ ١٤٨ ) . وخالفه يحيى بن أبي كثير فقال : حدثنا أبو سلام عبد الله الأزرق عن عقبه بن عامر ، أخرجه الترمذي ( ٦ / ٣ ) وابن ماجه ( ١٨٨ / ٢ ) وأحمد ( ٤ / ١٤٤ ، ١٤٨ ) وقال الترمذي : « حديث حسن » وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي ، وكأنهم لم يقفوا على هذا الاضطراب الذي نبه عليه الحافظ العراقي رحمه الله ؛ وأيضاً فإن له علة أخرى . هي جهالة خالد بن زيد وعبد الله بن الأزرق . وهو بن زيد بن الأزرق . فسواء كانت الرواية عن هذا أو ذلك فهي معلولة للجهالة . نعم ذكر الحاكم للحديث شاهداً من حديث أبي هريرة وقال : إنه : صحيح على شرط مسلم ، فتعقبه الذهبي بأن فيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك .

(١) حديث صحيح مرفوع أخرجه البيهقي ( ٤١/٦ ) ، ٤٣ ، ومسلم ( ٣١/٦ ؛ ٣٢ ) من حديث ابن عمر وعروة البارقي وليس في حديث ابن عمر : « الأجر والغنيمة » فلو عزي الحديث لعروة كان أولى .

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم ( ١٤٣ / ٢ ) من حديث عبد الله بن عمرو : وقال « صحيح على شرط البيهقي » ووافقه الذهبي . وهو كما قالوا وإعلال للناووي له تبعاً لأبن الجوزي بأن فيه خالد بن يزيد ؛ يروي الموضوعات عن الأثنيات خطأ فاحش ، لأن خالدًا هذا ، لا ذكر له في سند الحديث عند الحاكم ، فالظاهر أنه عند غيره من خرج الحديث وبعد وروده من طريق آخر صحيح ، لا يضره رواية أحد المتهمين له .

والدول تحتاج إلى الكفائب في البر والأساطيل في البحر والجو وكل سلاح  
يعون لأخيه في إدراك النصر ، وأسبق الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلا من  
العدو ، وأرعاهم لذمام أمته . وشرف عقيدته ، سواء مشى ، أم رمى ، أم أبحر ،  
أم طار .

### سرايا . . .

فلما استقر أمر المسلمين ، أخذوا يرسلون سراياهم المسلحة ، تجوس خلال  
الصحراء المجاورة ، وتخرق طرق الفوافل المارة بين مكة والشام ، وتستطلع أحوال  
القبائل الضاربة هنا وهناك .

١ - ففي رمضان من السنة الأولى التقى « حمزة بن عبد المطلب » في ثلاثين  
من المسلمين ، بأبي جهل يقود قافلة لقريش ، ومعه ثلاثمائة راكب . وقد حجز  
بينهما مجدي بن عمر الجهمي فلم يقع قتال .

٢ - وفي شوال من السنة نفسها ، سار عبيدة بن الحارث في ستين راكبا إلى  
وادي رابع . فالتقى بمائتي مشرك على رأسهم أبو سفيان ، وقد ترامي القريشان  
بالنبيل ولم يقع قتال .

٣ - وفي ذى القعدة خرج « سعد بن أبي وقاص » في نحو عشرين رجلا  
يعترض عيرا لقريش فقاتته .

٤ - وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول بنفسه بعد أن استخلف سعد  
ابن عباد على المدينة ، وسار حتى بلغ ودان يريد قريشاً وبني ضمرة ، فلم يلق  
قريشاً ، وعقد حلقاً مع بني ضمرة .

٥ - وفي ربيع الأول من السنة نفسها ، خرج الرسول على رأس مائتين من  
المهاجرين والأنصار إلى « بواط » معترضاً عيرا لقريش يقودها أمية بن خلف  
ومعه مائة من المشركين فقاتته .

٦ - وفي جمادى خرج إلى العشيرة من بطن « ينبع » . وأقام شهراً ، صالح

فيه بنى مدلج .

٧ - ثم أغار كرزين جار القهرى على المدينة ، واستاق سرحها ، فخرج النبي

في طلبه حتى بلغ وادى سفوان قريباً من « بدر » فلم يدركه . ويسمى المؤرخون

هذه « غزوة بدر الأولى » .

و الحكمة في توجيه هذه السرايا على ذلك النحو المتتابع تملخص في أمرين :

أولهما : إشعار مشركي يثرب ويهودها وأهزب البادية الضاربين حولها ،

بأن المسلمين أقوياء : وأهمهم تخلصوا من ضعفهم القديم . ذلك الضعف الذي مكن

قريشاً في مكة من مصادرة عقائدهم وحرقاتهم ، واغتصاب دورهم وأموالهم ، ومن

حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضالة شأنها ، فإن المتربصين

بالإسلام في المدينة كثر . وإن يصددهم عن النيل منه إلا الخوف وحده . وهذا

تفسير قوله تعالى « ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم

لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

والصنف الأخير هم المنافقون الذين يبطنون البغضاء للإسلام وأهله ، ولا يمنعونهم

من إعلان السخط عليه إلا الجبن وسوء النية ، أما الأولون فهم المشركون

والصوص الصحراء وأشباهم ممن لا يبألون - لولا هذه السرايا - الهجوم على

المدينة واستباحة حاماها .

وقد كان من الجائز أن تتكرر حادثة « كرزين جار » السابقة . وتجرأ

البدو على تهديد المدينة حينئذ بمدحهم حين غبر أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات

الطمع وحفظت هيبة المسلمين .

والأمر الآخر - في حكمة بعث السرايا - إنذار قريش عقب طيشها .



فقد حاربت الإسلام ، ولا تزال تحاربه ، ونسكت بالمسلمين في مكة ، ثم  
سقطت ماضية في غيرها ، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله . ولا  
تسمح لهذا الدين أن يجد قراراً في بقعة أخرى من الأرض ، فأحب الرسول صلى  
الله عليه وسلم أن يشعر حكام مكة ، بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار  
الفادحة ، وأنه قد مضى - إلى غير عودة - ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه  
على المؤمنين ، وهم بأمن من القصاص ...

والمستشرقون الأوروبيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع  
الطريق . وهذه النظرة صورة للحقد الذي يعنى عن الحقائق ، ويتيح للهوى أن  
يتكلم ويحكم كيف يشاء .

وقد ذكرنى هذا الاستشراق المفرض بما حكوه عند قمع الإن-كبابز لثورة  
الأهلين في أفريقيا الوسطى - مستعمرة كينيا - وهم يطلبون الحرية لوطنهم  
ويحاولون إجلاء الأجانب عنه ...

قال جندي إنكليزى لآخر - يصف هؤلاء الإفريقيين - : إنهم وحوش ،  
تصور أن أحدهم عضنى وأنا أفتله !!!

إن هذه الأنحوكة صورة من تفكير المستشرقين في إنصاف أهل مكة  
واللعنى على الإسلام وأصله ...

### سرية عبد الله بن جحش

وفى رجب من السنة الثانية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن  
جحش في رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً . وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد  
يومين من مسيره .

فإذا نظرت في ووعى ما كلفه الرسول به ، مضى في تنفيذه غير مستكره أحدًا  
من أصحابه فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه : أمض حتى تنزل  
نخلة بين مكة والطائف ، وترصد بها قريشًا ، وتعلم لنا من أخبارهم .

فقال عبد الله : سيما وطاعة ، وأطلع أصحابه على كتاب الرسول قائلاً : إنه  
نهاني أن استكره أحدًا منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فينتطلق معي ،  
ومن كره ذلك فليرجع . . فلم يتخلف منهم أحد ، غير أن البعير الذي كان يتعقبه  
« سعد بن أبي وقاص » و « عتبة بن غزوان » نددّ مهما فشتلا بطلابه ، ومضى  
عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة . ففرت عبر قريش فهاجمها عبد الله ومن معه ،  
فقتل في هذه المعركة « عمرو بن الحضرمي » وأسر اثنان من المشركين ، وعاد  
عبد الله بن جحش بالثأفة والأسيرين إلى المدينة .

ويظهر أن هذا القتال وقع في آخر رجب ، أي في الشهر الحرام .

فلما قدمت السرية على رسول الله قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ،  
ووقف التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لانتهاهم المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله  
وكثر في ذلك القيل والنال ، حتى نزل الوحي حاسمًا هذه الأقاويل ومؤيدًا  
مسلك عبد الله تجاه المشركين .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير . »

وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ  
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ . وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ « (١) .

(١) أورده ابن هشام (٢/٥١-٦) عن ابن إسحاق قال ابن إسحاق في آخره  
« والحديث في هذا عن الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وقد رواه البيهقي في  
« سننه الكبرى » (١٢/٩) بسند صحيح عن الزهري عن عروة فرسلا به ولكنه لم يسبق

إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها . فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله ! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها نجاة ، فأصبح انتهاكها كما معرفة وشناعة ؟ ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وصلب أموالهم ؟ لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عند ما تكون في مصلحته .

---

فاذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتفضها هدم القوانين والدمائير جميعاً .

---

فالقانون المرعى - عنده في الحقيقة - هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب .

وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضي في خطتهم الأصبيلة ، وهي سحق المسلمين ، حتى لا تقوم لدينهم قائمة فقال :

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا »

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفریط في الإيمان الذي شرفهم الله به ، وخط سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قِيمَتُهُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وزكى القرآن عمل « عبد الله » وصحبه . فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة

---

== الحديث بتامه بل طرفاً من أوله ثم أحال على باقيه . وقد وصله هو وابن أبي حاتم من طريق سليمان التميمي عن الحضرمي عن أبي السوار عن جندب أبي عبد الله به مختصراً وليس فيه قوله صلى الله عليه وسلم . « ما أمرتكم قتالاً في الشهر الحرام » وسنده صحيح إن كان احضري هذا هو ابن لاحق فقد قيل إنه غيره وإنه مجهول ورجحه النماظ في التهذيب والله أعلم ، ثم رأيت البيهقي قد ساق في موضع آخر من السنن ( ٩ / ٥٨ - ٥٩ ) حديث عروة بتامه ما أمرتكم . . . »

وشجاعة وتوغلوا في أرض العدو مسافات شاسعة ، متعرضين للقتل في سبيل الله متطوعين لذلك من غير مكره أو محرج .

فكيف يجزون على هذا بالتقريع والتخويف ؟ قال الله فيهم .

« إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَنُورٌ رَّحِيمٌ » .

والقرآن في فعال هذه السرية ، لم يدع مجالاً للهوادة مع المشركين المعتدين مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصوصهم .

فبعد أن كان أغلب المسكتبين في السرايا السابقة من المهاجرين أخذت البعث الخارجة تتألف من المهاجرين والأصهار معاً .

وزاد الشعور بأن الكفاح المرتقب قد يطول مداه ، وتكثر تبعاته ولكنه كفاح مستحب ، مقرون بالخير العاجل والآجل .

وأدركت مكة أنها مؤاخذة بما جد أو يحد من سيئاتها ، وأن تجارتها مع الشام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة .

وكأن هذه الأحاديث الشداد هي المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من وقوعها عندما جمع رجال مكة . وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور في « بدر » .

## معركة بدر

ترامت الأنبياء إلى « يثرب » أن قافلة ضخمة قريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة ، تحمل لأهلها الثروة الطائلة . ألف بعير موقرة بالأموال يقودها « أبو سفيان بن حرب » مع رجال لابزيدون عن ثلاثين أو الأربعين .

إن الضربة التي تنزل بأهل مكة - لو فقدوا هذه الثروة - موجة حقا ،  
وفيهما عوض كامل لما لحق المسلمين من خسائر في أثناء هجرتهم الأخيرة . لذلك  
قال الرسول عليه الصلاة والسلام : هذه غير قريش ، فيها أموالهم ، فأخرجوا  
إليها ، لعل الله ينقلكموها (١) .

لم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفا ، بل ترك الأمر المرغبة  
المطلقة ثم صار - بعد - بمن أمكنه الخروج .

وكان الذين صحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المرة يحسبون أن مضيقهم  
في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوا في السرايا الماضية ، ولم يدركوا أن أحد منهم أنه  
مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ! ولو علموا لا اتخذوا أهبتهم كاملة ، ولما سمح  
لمسلم أن يبقى في المدينة لحظة ! لذلك فترت المهم عندما وردت أخبار أخرى بأن  
القافلة المطلوبة غيرت طريقها .

واستطاع قائدها « أبو سفيان » أن ينجو من الخطر المحدق به ، بعد أن  
أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم ، ويستشير حميتهم للخروج في تعبئة ترد  
كل هجوم .

وغالب النبي صلى الله عليه وسلم هذا الفتور العارض ، وحذر صحابته من عتبي  
للعود السريع إلى المدينة أن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها !  
وأصر على ضرورة تعقب المشركين كيف كانوا .

وذلك قوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا  
من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون  
إلى الموت وهم ينظرون » .

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام ( ٢ / ٦١ ) عن أبي إسحاق بسنده الصحيح عن  
ابن عباس .

والذين كرهوا اللقاء قریش ، ما كانوا اليها بوا الموت ، ولكنهم لم يعرفوا  
الحكمة في خوض معركة مباغته دون إتقان ما ينبغي لها من مدة وعدد ، بيد أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزن الظروف للملابسة الأمر كله ، فوجد الإقدام  
خير من الإحجام ، ومن ثم قرر أن يمضي . فإن الحكمة من توجيهه هذه البعوث  
المسلحة تضيع بسدى لو عاد على هذا النحو .

وقد اختلفت — على عجل — مشاعر التردد ، وانطلق الجميع خفاقا إلى غايتهم .  
والمسير بإزاء طريق القوافل إلى « بدر » ليس سفراً قاصداً أو زمة لطيفة .  
فالمسافة بين « المدينة » و « بدر » تريبو على ١٦٥ كيلو مترا ، لم يكن مع  
الرسول وصحبه غير سبعين بعيراً يعقبونها .

روى أحمد<sup>(١)</sup> عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا يوم بدر ، كل ثلاثة على  
بعير — أى يتعاقبون — وكان أبو لبابة وعلى بن أبي طالب زميلي رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، قال : فكانت هقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له :  
نحن نمشي عنك — ليظل راكبا — فقال : « ما أنتم بأفوى منى على المشى ، ولا  
أنا بأغنى عن الأحر منكما » . !!

وبعث المسلمون عيونهم يتعرفون أخبار قریش : أين القافلة وأين الرجال  
الذين قدموا لحمايتهم ؟

\* \* \*

حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته ، بعث « ضحيم بن عمرو والغفاري »  
إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم .

---

(١) في للسند (رقم ٣٩٠١ ، ٣٩٦٥) وسنده حسن . وأخرجه الحاكم (٢٠/٣)  
وقال : « حديث صحيح على شرط مسلم » !

واستطاع « ضمخم » هذا إزعاج البلدة قاطبة : فقد وقف على بعيره بعد أن جدد أنفه . وحول رحله ، وشق قميصه ، يصيح : يا مشر قريش اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان ، عرض لها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، العوث العوث !

فتجهز الناس جميعا ، فهم إما خارج وإما باعث مكانه رجلا ، وانطلق سواد مكة وهو يغلى ، يمتطى الصعب والذلول . فكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائتا فرس يقودونها . ومعهم القيان بضر بن بالدوف وينين بهجاء المسلمين . . .

وولوا وجوههم إلى الشمال ، ليدركوا القافلة المارة تجاه يثرب هابطة إليهم . لكن أبا سفيان لم يستم في انتظار النجدة للقبلة ، بل بذل أقصى ماله من حذر ودهاء ، لمخاتلة المسلمين والإفلات من قبضتهم ، وقد كاد يسقط بالعير جمعا في أيديهم وهم يشتدون في مسيرهم نحو بدر ، غير أن الحظ أسعفه !

روى أنه أتى مجدي بن عمرو ، فسأله : هل أحسست أحدا ؟ قال : ما رأيت أحدا أنكره . إلا إنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل . ثم استقيا في شن لها ثم اطلقا فأتى أبو سفيان مناخهما ، وتناول بعرات من فضلات الراحاتين ثم فتحها فإذا فيها النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب ! وأدرك أن الرجلين من أصحاب محمد . وأن جيشه هنا قريب !

فرجع إلى العير بضرب وجهها عن الطريق ، شاردا نحو الساحل ، تاركا بدرا إلى يساره ... فنجاه .

ورأى أبو سفيان أنه أحرز الفلة فأرسل إلى قريش يقول : إنما خرجتم لتبعوا عيركم ورجالكم وأموالكم . وقد تجاهها الله . فارجموا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم ثلاثا ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر وتزف عينا القيان . وتسمع بنا العرب ، وبسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا .

وهذا الذي عان به أبو جهل ، هو ما كان يحاذره الرسول عليه الصلاة والسلام فإن تدعيم مكانة قريش . وامتداد سطوتها في هذه البقاع — بعد أن فعلت بالمسلمين ما فعلت — يعتبر كارثة للإسلام ، ووفقاً لنفوذ ، وهل كانت السرايا تخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله وتوهين كلمة الشرك ، وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذي لا يملك نفعاً ولا ضرراً ؟

لذلك لم يلتفت الرسول لقرار القافلة ، الفقائه اضرورة التجوال المساح في هذه الأبحاء . إبرازاً لهذه المعاني القوية . وتمكيناً لصداها في القلوب .

\* \* \*

ومضت قريش في مسيرها . مستجيبة لرأى أبي جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادي بدر ، وكان المسلمون قد اتهموا من رحيلهم المضي إلى العدوة الدنيا .

وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر ، وهو لا يدري ما وراء هذا اللقاء الرهيب .

وهبط الليل فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً والزبير وسعداً ، يتحسسون الأحوال وينتصسون الأخبار ، فأصابوا غلامين لقريش كانوا يدانهم بالماء ، فأتوا بهما ، وسألوهما — ورسول الله قائم يصلي — فقلا : نحن سقاة قريش . بعثونا نسقيهم من الماء .

فكره القوم هذا الخبر ، ورجوا أن يكونا لأى سفیان — لاتزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة ! — اضربوهما ضرباً موجعاً حتى اضطر الغلامان أن يقولوا : نحن لأى سفیان ! فتركوهما ، وركع رسول الله وسجد سجدة وسلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما . !

صدقا والله إنهما القريش ، ثم قال للغلامين : أخبراني عن قريش ا قالوا : هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟



قالا : كبير ا قال : ما عدتهم ؟ قال : لاندرى ا قال كم ينحرون كل يوم ؟ قال :  
يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله . القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ،  
ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو  
البختري بن هشام . وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ،  
وطهيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وعمرو بن هشام ،  
وأمية بن خلف ... الخ .

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألفت  
إليكم أفلاذ كبدها ... (١)

وانكشف وجه الجد في الأمر . إن اللقاء المرتقب سوف يكون مرة المذاق  
لقد أقبلت قريش تحب في خيلائها ، تريد أن تعمل العمل الذي يرويه القصيد ،  
وتذرع المطايا به البطاح ، ونحسم به صراع خمسة عشر عاماً مع الإسلام ، لتنفرد  
- بعدها - الوثنية بالحكم النافذ ...

ونظر الرسول حوله ، فوجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله  
نفسه وماله . وأنصارى ربط مصيره وحاضره بهذا الدين لذي انتداه وآوى أصحابه .

فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف . حتى يبصروا - على ضوءه - ما يفعلون

إن المرء قد تقبضه أحداث عارة وهو ماض في طريقه - يحتاج في مواجهتها

لأن يستجمع مواهبه ، وأن يستحضر تجاربه ، وأن يقف أمامها حاد الانتباه

سرهف الأعصاب ، وهذه الامتحانات المبالغثة أدق في الحكم على الناس وأدل على

قيمتهم ، من الامتحانات التي يعرفون ميعادها . ويقدمون إليها ، واثقين مستعدين

(١) أخرجه ابن هشام (٢/٦٥) عن ابن اسحاق حدثني يزيد بن رومان عن عروة  
ابن الزبير بن العاصم . وهذا إسناد صحيح لكنه مرسل . وقدرناه أحمد (رقم ٩٤٨)  
من حديث علي ابن أبي طالب دون قوله : ثم قال لهما ... « وسنده صحيح ، ورواه  
مسلم (١٧٠/٥) مختصراً من حديث أنس .

والمسلمون الذين خرجوا لأمر يسير ، ما لبثوا أن أقبلوا أنفسهم أمام امتحان شاق ، تيقظت له مشاعرهم ، فشرعوا ، بقلوبهم - على عجل - تكاليفه ونتائجها .  
وثار منطلق اليقين القديم فأهاج القوم إلى الخطة الفذة التي لا يحيص عنها المؤمن .  
استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس . فقام أبو بكر الصديق ، فقل وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب ، فقل وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو . فقل : يا رسول الله ، امض لما أراك الله : فنحن معك . والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فو الذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له .

ثم قال : أشيروا على أيها الناس - وإنا يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وأهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا وراءك من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت في ذمتنا ، فممنعنا منه أبناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأوصار ترى عليها نصره إلا من دهمه بالمدينة .

فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ . والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال : أجل . فقال . قد آمننا بك وصدقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهداً ومواثيقنا على السمع والطاعة لك . فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك . فو الذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا الصابرون في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله بربك منا ما تقر به عينك ، ففسر على بركة الله .

وفي رواية : اعلمك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر  
الهدى أحدث الله إليك فامض ، اتصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت ،  
وعاد من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، وأعطنا ماشئت ،  
وما أخذت منا ، كان أحب إلينا مما تركت .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سعد » ونشطه ثم قال : سيروا  
وإبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين . والله لكأبى أنظر إلى مصارع  
القوم .. (١)

(١) رواه ابن هشام ( ٢ / ٦٣ - ٦٤ ) عن ابن اسحاق بدون إسناد . والرواية  
الأخرى أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو وابن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه  
عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كانت بالروحاء خطب  
الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر « الحديث نحوه ذكره ابن كثير ( ٣ / ٢٦٤ )  
وهذا مرسل وكذلك رواه ابن أبي شيبة كما في « الفتح » ( ٧ / ٢٣٠ ) وعن عبد الله بن  
مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود - هو بن عمرو - مشهداً لأن أكون صاحبه  
أحب إلى ما عدل . أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال : لانقول  
كما قال قوم موسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا ولسنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين  
يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وصره قوله . ورواه البخاري  
( ٧ / ٢٣٠ ) والحاكم ( ٣ / ٣٤٩ ) وصححه ووافقه الذهبي . وأحمد ( رقم ٣٦٩٨ ؛ ٤٠٧ ،  
٤٧٦ ) ، ورواه الطبراني من حديث أبي أيوب الأنصاري . قال الهيثمي « ٧٤ / ٦ » :  
« وإسناده حسن » . وفي حديث أنس المشار إليه آنفاً عند مسلم ؟ « قال : فقال رسول  
الله صلى الله عليه وسلم : هذا مصرع فلان ؛ قال ويضع يده على الأرض ههنا وههنا قال  
فماط أحدهم عن موضع لم يد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

تأهب المسلمون لخوض المعركة ، وعسكروا في أدنى ماء من بدر .

فجاء الحباب من المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزله الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ! قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، أمتض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتمسكروا فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . ثم أسر بإنفاذه ! فلم يجيء نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب ، وامتلكوا مواقع الماء (١) .

وقضى المسلمون ليلاً هادئاً الأنفاس منير الأفاق ، غمرت الثقة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم ، وتساخط عليهم مطر خفيف رطب حولهم الجو وجعل نسائم الصباح تهب عليهم فتتبعش صدورهم وتجدد أملهم ، وكان الرمل تحت أقدامهم دهباً يتلبد وتماصك ، وجعل حركتهم عليه ميسرة « إذ يفشيك الداس أمانة منه ، وينزل عليك من السماء ماء ليظركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ويربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفقده الرجال ، وينظم الصفوف ، ويسدى

---

(١) رواه ابن هشام (٢ / ٦٦) عن ابن إسحاق قال : حدثت عن الرجال من بقي سلمة أنهم ذكروا أن الحباب .. « وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بن ابن إسحاق والرجال من بقي سلمة . وقد وصله المصنف (٣ / ١٠٦ ؛ ١٢٧) حديث الحباب وفي سننه من لم أعرفه وقال الذهبي في « تلخيصه » : « قلت حديث منهكر وسنده » كذا الأصل ولعله سقط منه « وه » أو نحوه ررواه الأموي من حديث ابن عباس كما في البداية ، (٣ / ١٦٧) وفي السككن وهو كذاب !

النصائح ، وبذكر بالله والدار الآخرة . ثم يعود إلى عريش هي له فيستغرق في الدعاء الخاشع ، ويستغث بأمداد الرحمن . . .

ووقف أبو بكر إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يكثّر الابتهاال والتضرع . ويقول فيم يدعو به « اللهم إن تترك هذه المصيبة لا تعبد بمدّها في الأرض » وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم نصرك » ويرفع يده إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداؤه ويقول - مشفقاً عليه من كثرة الابتهاال - : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وتزاحف الجمعان وبدأ الهجوم من قبل المشركين ، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذي بناه المسلمون قائلاً : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الحوض يبغى اقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه ! فبرز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . فخرج للقائم فتية من الأنصار ، فنادوا : يا محمد أخرج إلينا كفاءنا من قومنا وقيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذي استرجع أولئك الأنصار رغبة منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو في مثل هذا الموقف . فقال : قم يا عبدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي . فبارز عبدة عتبة ، وبارز حمزة

(١) حديث صحيح ، أخرجه مسلم ( ١٥٦/٥ - ١٥٧ ) وأحمد ( رقم ٢٠٨ ، ٢٢١ ) من حديث عمر بن الخطاب ، وبعضه في البخاري ( ٢٣١/٦ ) من حديث ابن عباس .

شيبه . وبارز على الوايد . فأما حمزة فلم يمهل شيبه أن قتله ، وكذلك فعل على مع خصمه ، وأما عبيدة وعتبة . فقد جرح كلاهما الآخر ، فسكر حمزة وعلى بأسيا فهما على عتبة فأجهزوا عليه ، واحتملا صاحبهما . فجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفرشه الرسول قدمه فوضع خده على قدمه الشريف وقال يا رسول الله لو رأي أبي أبوطالب لعلم أني أحق بقوله :

ونسلمه حتى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم أسلم الروح .. (٢)

وامتشاط الكفار غضبا للبداية السيئة التي صادقتهم فأمطروا المسلمون وابلانهم سهامهم ، ثم حى الوطيس وتهاوت السيوف ، وتصايح المسلمون . أحد أحد وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكسروا هجمات المشركين ، وهم مرابطون في مواقعهم . وقال إن اكتنفتكم القوم فانضحوم عنكم بالنبل ، ولا تحموا عليهم حتى تؤذنوا (٣)

فلما اتسع نطاق المعركة واقتربت من قمتها كان المسلمون قد امتنفتوا جهدا

---

(١) روى النص في هنا ابن هشام (٦٧/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ورواها أبو داود (٤١٦/١) من حديث علي بدون قصة الأسود وإسناده صحيح وكذلك رواه أحمد (رقم ٦٤٨) .

(٢) وهذا القدر أورده ابن كثير (٣٧٤/٢) وقال : رواه الشافعي « ولم يذكر عن . ورواه بنحوه الحاكم (١٧٨/٣) من حديث ابن شهاب مرسلا وليس فيه « ثم أسلم الروح » ويبدل على ضعف هذه الزيادة أن الحاكم روى من حديث ابن عباس أت عبيدة ابن الحارث مات بالصفراء منصرفه من بدر فدفته رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك وسنده حسن ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) رواه ابن إسحاق (٦٨/٢) بدون سند ، وفي البخاري (٢٤٥/٧) عن أبي أسيد قال لنا رسول الله يوم بدر : إذا أكتبوكم فارموموا واستبقوا نبلكم .

أعدائهم والحقوا بهم خسائر جسيمة . والنبي في عريشه يدعو الله ويرقب بطوالة  
رجاله وجهدهم . قال ابن اسحاق (١) : خفق النبي عليه الصلاة والسلام خفقة في  
العريش ثم انتبه فقال : « أأبشر يا أبا بكر أتأناك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان  
خروسه يقوده على ثنايا النقع » .

لقد انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين ، وهم بين كر وفر جند الحق  
يستبلسون لنصرة الرحمن وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغرام أن يغالبوا  
القدر .

فلا عجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث في قلوب المسلمين روح لليقين .  
وتمحضهم على الثبات والإقدام .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه إلى الناس فخرضهم قائلاً :  
« والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً . مقبلاً غير  
مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأميل في الآخرة هو بضاعة الأنبياء ، وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق  
من راحة إلا هناك ؟

وعمل هذا التحريض عمله في القلوب المؤمنة .

روى أحمد (٢) أن المشركين لما دنوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
لأصحابه قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الانصاري

(١) في «الغازي» وعند ابن هشام (٦٨/٢ - ٦٩) بدون سند ؛ ولكن وصله الاموي  
عن طريق ابن اسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعيير ؛ وهذا سند حسن  
وسكت عنه ابن كثير (٢٨٤/٣) .

(٢) في للسند (١٣٦/٣ - ١٣٧) بدون الابيات . وكذلك — أخرجه مسلم  
(٤٤/٦ - ٤٥) . والحاكم (٤٢٦/٣) مستدركا على مسلم فوم . أخرجه كلهم من  
حديث أنس ، مسلم أيضا من حديث البراء مختصراً . أما الأبيات فمرأها الحفاظ ابن  
كثير (٢٧٧/٣) لابن جرير .

يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض ! قال نعم . قال : بنح بنح قال رسول  
الله : وما يحملك على قول بنح بنح ؟ قال لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون  
من أهلها !

قال : فأبك من أهلها ...

وأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل  
تمرأتى هذه ، إنها حياة طويلة . فرمى ما كان معه من التمر ثم قال لهم وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلى التقي وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضه النقاد

غير التقي والبر والرشاد

فما زال حتى قتل . !

ووهت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد في متاع الحياة  
الدنيا . وراعهم محمد عليه الصلاة والسلام . وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد  
القتال . ومعه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبسالون شيئاً ، فانتكسرت قريش  
وأخذها الفرع .

وصاح النبي عليه الصلاة والسلام - وهو يرمى كبرياء الكفر - ثم غ في التراب :  
« شامت الوجوه ... » (١)

فانهزمت قريش ...

وذلك قول الله في كتابه : « إِذْ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنى مَعَكُمْ  
فَقِيظُوا الَّذِينَ آمَنُوا ه سَأَلْتى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ، فَاضْرِبُوا »

(١) حديث حسن وهو من رواية عبد الله بن نجيبة النخعي . وله شاهد من حديث  
حكيم بن حزام قال الهيثمي ( ٨٤ / ٦ ) : « رواه الطبراني بإسناده حسن »



فَفَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،  
وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، ذَلِكَ فَذُو قُوَّةٍ ، وَأَنَّ  
الْكَافِرِينَ هَذَا أَبَ النَّارِ .

• • •

وحاول أبو جهل أن يقف سبيل الهزيمة النازلة بقومه ، فأقبل بصرخ بهم ،  
وعشاة الغرور لا تزال ضاربة على عينيه . « واللوات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم  
في الجبال . خذوهم أخذاً . »

وماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة؟ لكن أبا جهل - والحق  
يقال - كان تمثالا للعدا إلى آخر رمق ، والطمس المنسوج على بصيرته جزء من  
كيانه لا ينفك عنه أبداً ، لذلك أقبل يقاتل في شراسة وغضب وهو يقول :

ما تنقم الحرب الشموس مني ؟      بازل عامين حديث سني !

لمثل هذا ولدني أمي .

وأحاطت به فلول المشركين يقولون : أبو الحكم لا يخاص إليه ، فكان بينهم  
وسط غابة ملتفة . بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعا جذعا ، أمام حماس  
المؤمنين الذين اشتد بأسهم ، وأغرتهم بشارت الفوز ، وساد هتافهم الوقعة وهم  
يقولون : أحد أحد !

قال عبد الرحمن بن عوف : يا بني اني الصنف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يميني  
وهو من يساري فتبان حديثا السن ، فسكأتى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرأ  
من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال : عاهدت  
الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ! وقال لي الآخر سرأ من صاحبه مثله .

قال : فما سرى أنى بين رجائين مكاهما .

فأشرت لها إليه . فشدنا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتى قتلاه ، وهما ابنا عفراء<sup>(١)</sup> ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت ، وقد امتشهد البطلان في هذه الواقعة ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على معرعهما يدعو لهما ويذكر صنيعهما<sup>(٢)</sup> .

أما أبو جهل فقد سقط مكانه يلفظ أنفاسه ، وتفزق المشركون بعنده بدأ ، وتركوها سيقانهم للريح ، تبعثرهم في فجاج الصحراء ، كما تبعثر كتيبا من الرمل للنهار .

ومر عبد الله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم ، لا يزال به رمق ، فجثم على صدره يبغى الإجهاز عليه ، ونحرك «أبو جهل» يسأل : لمن الدائرة ؟ قال عبد الله :

لله ورسوله ، ثم استلقى عبد الله : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال له : وبماذا أخزاني ؟ هل أعمد من رجل قتله قومه ؟ وتفزق من في عبد الله ثم قال له : أأنت روبيعينا بمكة ؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٧/٢٤٦) ومسلم (٥/١٤٨ — ١٤٩) وأحمد (رقم ١٦٧٣) واستدرکه الحاكم (٣/٤٢٥) فوهم ، وقوله : « وهما ابنا عفراء » هكذا في رواية البخاري ، وعند الآخرين : « والزجلين معاذ بن عمرو بن الجوح ومعاذ ابن عفراء » وهي رواية للبخاري (٦/١٨٩ — ١٩٠) فتمثل الرواية الأولى على طريقة التفلين .

وانظر « الفتح » (٧/٢٣٦) .

(٢) الجزم بهذا خطأ بين لأنه من رواية الواقدي بدون سند ! كما في ابن كثير (٣/٢٨٩) وحتى لو سلم سنده وكان رجاله ثقات لم يصح لأن الواقدي منهم بالكذب . ويدل على ضعف هذه الرواية أن معاذ بن عمرو مات في زمن عثمان كما جزم به البخاري وغيره (راجع ابن هشام ٢/١٢٢) .

فجعل عبد الله يهوى عليه بسيفه حتى خد (١) .

ولقي مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديداً من رهوس الكفر بمكة دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين . وسقط في الأسر سبعون كذلك .

وفراً بقية التسمائة والخمسون يروون لمن خلفهم أن الظالم مرتعه وخيم ، وأن البطر يجر في أعقابه الخزى والعار .

• • •

وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض والسماء . إن هذا الظفر المتاح رد عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من أغلال قتال « ولقد نصركم الله ببدر » وأنتم أذلة فأتقوا الله اعلمكم تشكرون » .

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلاً ، استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا إلى عليين ثبت عن أنس بن مالك ، أن حارثة بن سراقة ، قتل يوم بدر ، وكان في النظارة ، أصابه سهم طائش فقتله ، نجأت أمه فقالت : يا رسول الله ، أخبرني عن حارثة ؟ فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليبرن الله ما أصنع - تعنى من النياحة - وكانت لم تحرم بعد ! ! فقال لها الرسول : ويحك أهبات ؟ إنها جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى ... (٢)

(١) رواه بنحوه ابن هشام (٧٢/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد وبعضه في السنن (رقم ٤٢٤٦) والبيهقي (٦٢/٩) عن ابن مسعود بسند منقطع ، وقصة قتل ابن مسعود لأبي جهل صحيحة رواها البخارى (٢٣٥/٧) ومسلم (١٨٣/٤ - ١٨٤) وأحمد (١١٥/٣ ، ١٢٩ ، ٢٣٦) من حيث أنس .  
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠/٦ - ٢١ - ٢٤٣/٧) .

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفتمهم سهام طائشة ، فكيف بن خاض إلى المنايا العمرة الصعاب ؟ ...

في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادئ . فقصت بينهم السيوف وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنهم ، ومزقوا أغلى الأواصر الإنسانية في سبيل ما يعتقدون . فلا عجب إذا رأيت الأمن المؤمن يقاض أباه الملهد ، ويحسمه في ذات الله . وللقاتل الذي دار به « بدر » سجل صوراً من هذا النوع الحاد : كان أبو بكر مع رسول الله ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل ، وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين . وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبي . فلما سحبت جثة عتبة لترعى في القليب ، نظر الرسول إلى أبي حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه ! فقال له : يا حذيفة ، لماذا قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام فلما رأيت ما أصابه وذكرت مآمات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجوه ، أحزنتني ذلك !

فدعا له رسول الله بخير . وقال له خيراً . . . (١)

وأمر رسول الله بقتل المشركين فطرحوا في القليب . وروى أنه قال عند مرآهم بثس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخزجتموني وآواني الناس ، وقاتلموني ونصرني الناس (٢) فلما ووريت جثتهم وأهيل الأرباب

(١) حديث ضعيف رواه ابن هشام (٧٥/٢) ! عن ابن إسحاق بلاغاً .

(٢) حديث ضعيف رواه ابن هشام (٧٤/٢) عن إسحاق قال : حدثني بعض أهل العلم . وهذا اسناد متصل . وقد رواه أحمد (١٧٠/٦) من طريق إبراهيم .

على رفاتهم ، انصرف الناس وهم يشعرون أن أئمة الكفر قد استراح الدين  
والدنيا من شرورهم إلا أن النبي استعاد ماضيه الطويل في جهاد أوائل القوم .  
كم عالج مخالفتهم وحاول هدايتهم ؟ . وكم ناشدهم الله وخوفهم عصيانه وتلا  
عليهم قرآنه ؟

وم — على طول التذكير — ينجحون ، وبالله وآياته ورسوله يستهزئون  
فخرج<sup>(١)</sup> النبي في جوف الليل حتى بلغ القليب المطوى على أهله وسمعه الصحابة يقول  
« يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن

== عن عائشة مرفوعاً بلفظ : « حزاكم الله شراً من قوم نبي ، ما كان أسوأ الطرد ،  
وأشد التكديب » ورجاله ثقات لكنّه منقطع بين إبراهيم وهو النخعي وابن عائشة .

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن إسحاق ( ٧٤/٢ ) : حدثني حميد الطويل عن أنس  
به وهذا سند صحيح وحمد وإن كان مدلساً فإن ما يرويه ممنناً عن أنس بينهما ثابت  
البناني كما ذكروا في ترجمته وهو ثقة من رجال الشيخين وقد أخرجه أحمد ( ١٠٤/٣ ، ١٨٧ )  
من طرق عن حميد به . وقال الحافظ ابن كثير ( ٢٠٢/٣ ) إنه على شرط الشيخين «  
قلت : وقد وصله مسلم ( ٢٦٣/٨ ) وأحمد ( ٢١٩/٢ ، ٣٧٧ ) من طريق حماد بن سلمة  
عن ثابت عن أنس ورواه أحمد ( ١٤٥/٣ ) من قتادة عن أنس لكن رواه البخاري  
( ٢٤٠/٧ — ٢٤١ ) من طريقه قال : ذكر لنا أنس عن أبي طلحة : فجملة من سند  
أبي طلحة وهو الأصح كما قال الحافظ ابن كثير وابن حجر . ثم أخرجه مسلم والطحاوي  
( ٩٧/٢ — ١٠٨ ) ترتيب الشيخ أحمد البتا وأحمد ( رقم ١٨٢ ) من طريق سلمان  
ابن المغيرة عن ثابت عن أنس عن عمر . فالظاهر أن أنس / منه صلى الله عليه وسلم وإنما  
رواه عنه بواسطة الصحابة . فكان تارة يرسله . وتارة يوصله . والحديث رواه غير من  
ذكر من الصحابة عبد الله بن عمر . أخرجه البخاري ( ٢٤٣/٧ ) وغيره . وفي الباب  
عن مسعود وابن عبيدان وغيرهما وأما إنكار عائشة الذي ذكره المؤلف في التعليق فقد  
أنكره العلماء وبينوا أن الصواب بجانب الذين رووا هذا الحديث . راجع « البداية »  
لابن كثير . و « الفتح » لابن حجر . وعندى أنه لا تمارض بين روايتهم وروايتها .  
بل اجمع بينها هو الصواب كما بينته في « أحكام الجنائز وبدعها » ولله يطبع قريباً .

هشام ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً !  
فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادى قوماً جيئوا ؟ قال : ما أقيم بأسمع لما أقول  
منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني (١) .

كانت واقعة بدر في السابع عشر من رمضان لسنتين من الهجرة . وقد أقام  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاثاً : ثم قفل عائداً إلى المدينة يسوق أمامه  
الأسرى والغنائم ! ورأى قبل دخولها أن يعجل البشرى إلى المسلمين المقيمين فيها  
لا يدرون مما حدث شيئاً .

فأرسل « عبد الله بن رواحة » و « زيد بن حارثة » مبشرين يؤذنان الناس  
بالنصر العظيم .

قال « أسامة بن زيد » . فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول  
الله ! وكان زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها يمرضها بأمره . وضرب رسول  
الله بسهمه وأجره في بدر (٢)



## محاسبة وعتاب

برغم ما سجله التاريخ من تحمل ومواصلة بين الأنصار والمهاجرين فإن متاعب  
العيلة . ومشكلات الفقر تمتشت خلال المجتمع الجديد ، إن سترها التعفف حيناً .

---

(١) تنكر عائشة هذا الحديث محتجة بقول الله (وما أنت مسمع من في القبور \* إن أنت  
إلا نذير) وتقول : إن اللفظ الذي قاله الرسول : ما أنتم بأعلم لما أقول منهم .  
(٢) حديث صحيح ، أخرجه البيهقي (١٧٤/٩) بسند صحيح من حديث أسامة ورواه بنحوه  
الحاكم (٤٨/٣) عن الزهري مراسلاً . وفي الباب أحاديث أخرى تراجع في « المجموع »  
• (٨٣/٩ — ٨٤)

أبرزتها الحاجة حيناً آخر ، والأزمات التي تصاحب تكوين دولة من العدم ومسط  
أمم تكيد لها وتترص بها الدوائر ، يجب أن تتوقع ، وأن توطن النفوس على  
احتمالها . وألا تكون حدة الشعور بها سبباً في ضعف السيرة وعجز الهمة ...

وقد أخذ الله المسلمين - قبل معركة بدر وبمدها - بأمر بدرت منهم ،  
يجب لهم أن يتزهوا عنها . مهما بلغ من شدة الدوافع وللبررات لارتكابها .  
فهم يوم خرجوا من يثرب للملافة مشركي مكة ، تعلقت أمانيتهم بإحراز العير  
وما تحمل من ذخائر ونفوس ...

حقاً إنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وضجوا في سبيل الله بأنفسهم  
وأولادهم ... فليعضوا في طريق الفداء إلى المرحلة الأخيرة ، ومهما عضهم الفقر  
بنائه ، فليكن التنكيل بالكافرين أرجح في ميزانهم من الاستيلاء على الغنيمة .  
« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات  
الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يمحى الحق بكلماته ويقطع دابر  
الكافرين » .

ومن هذا القبيل تسابقهم بعد النصر إلى حيازة الغنائم ومحولة كل فريق  
الاستئثار بها ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرأ  
فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون  
وأكبت طائفة على المغنم يمحزونونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله  
لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ،  
قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين  
خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا نحن نحينا منها العدو وهزمناه ،  
وقال الذين أحدثوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ،  
فأنزل الله « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ « فقسّمها رسول الله بين المسلمين <sup>(١)</sup> .

هذا التنازع المؤسف إثر البأساء الشاملة التي لحقت بالمهاجرين والأنصار على السواء . وقد نظر رسول الله إلى مظاهر هذا البؤس على أصحابه وهم خارجون إلى بدر، فرقى لحلم ، وتألم لما بهم ، وسأل الله أن يكشف كرباتهم فمن عبد الله بن عمرو <sup>(٢)</sup> قال : خرج رسول الله يوم « بدر » في ثلثمائة وخمسة عشر رجلا من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم خفاة فاحلهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وبامنهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حلين واكتسبوا وشبعوا .

إن الجوع والعري عندما يطول أمدهما يتركان في النفوس ندوبا سيئة ، ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح على أن هذه الأزمات إن أخرجت العامة وأهاجتهم إلى طلب الغذاء والكساء لأنفسهم وذرائعهم بحرص ومجاهرة ، فإن المؤمنين الكبار ينبغي أن يتماسكوا ، وأن يكتسبوا أحاسيس الفاقة الملحة فلا يتنازعو على شيء .

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد ( ٣٢٣ / ٥ — ٣٢٤ ) والحاكم ( ٣٢٦ / ٢ ) من طريق مكحول عن أبي أمامة عن عباد بن الصامت . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ! وأبو أمامة لم يره مكحول كما قال أبو حاتم فهو منقطع ، ومن هذا الوجه أخرجه ابن مشام ( ٧٦ / ٢ ) عن ابن إسحاق . ومن يقه أحمد ( ٣٢٢ / ٥ ) لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود ( ١١ / ١٣٠ ) والحاكم وقال : « صحيح الاسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قالوا . وبه صح الحديث .

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود ( ١٣ / ١ — ١٣٢ ) والحاكم : ( ١٤٥ / ٢ ) والبيهقي ( ٥٧ / ٩ ) وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم ! وإنما هو حسن فقطه وحسنه الحافظ في « الفتح » ( ٢٣٣ / ٧ ) .



وذلك الأدب هو ما أخذ الله به المسلمين ، وافتتح به السورة التي تحدثت عن القتال في بدر..

ذلك أن الخاصة من الرجال هم قدوة غيرهم ، فإذا ساءت أخلاقهم للضوابط العارضة واضطرب مسلكهم فسيكون سواد الشعب إلى مزلق الفوضى أسرع .. وقد رأينا « الألمان » في الحرب العالمية الأولى و « الإنجليز » في الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام ، واصفرت الوجوه ، وما صارت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها المصابرين المتجملين .

ومما حاسب الله عليه المسلمين حساباً شديداً موقفهم بإزاء الأسرى ، فإن الرغبة في استبقائهم للانتفاع من ثرواتهم غلبت الآراء الأخرى بضرورة الاتصاف من مآثم السابقة ، حتى يكونوا نكالا لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمتقين ...

استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ! وإنى أرى أن تأخذ منهم للفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمسكنى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه . وتمسكن علياً من عقيل بن أبى طالب ، فيضرب عنقه ، وتمسكن حمزة من فلان أخيه ، فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ماقلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الفداء قال عمر : فعدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وهما يبكيان ! فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فان وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تبأ كيت لبكائك كما ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة .

وأُنزل الله تعالى : « ما كانَ لِنبي أنْ يكونَ له أسرى حتَّى يُثخنَ في الأرضِ ، تريدونَ عَرَضَ الدُّنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ ، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ . لو لا كتابٌ مِن الله سبقَ لِمسكُم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ » (١) .

إن الوقوع في الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التي اقترفتها الأسرى أيام حريتهم ، وهؤلاء الطغمة من كهراء مكة ، لهم ماضٍ شنيع في إيذاء الله ورسوله ، وقد أبطرتهم منازلهم ، فساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ، ما كان لها من داع ، فكيف يتركون بعد أن استمكنت الأيدي من خناقهم ؟

أذلك لأن لهم ثروة يفتدون بها ؟ ما كان يليق أن ينظر المؤمنون إلى هذه الأعراس التافهة متناسين ما فرط من أولئك الكفار في جنب الله .

إنهم مجرمو حرب - بالإصطلاح الحديث - لأسرى حرب ، وقد ندد القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال :

« ألم ترَ إلى الذينَ بدلوا نعمةَ اللهِ كُفْراً وأحلوا قومَهمِ دارَ البوارِ . جهنمَ يصلونها ، وبئسَ القرارُ » .

(١) حديث صحيح ، أخرجه مسلم ( ١٥٦/٥ - ٢٥٧ ) وأحمد ( رضم ٢٠٨ ؛ ٢٢ ) والبيهقي ( ٦٧/٩ - ٦٨ ) من حديث عمر .

وهناك نصوص توصى برعاية الأسرى وإطعامهم ، وتشرع القوانين الرحيمة في معاملتهم ، وهذا ينطبق على جواهر الأسرى من الأنواع والعامه .  
أما الذين تاجروا بالحروب ، لإشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال شأقتهم ، وذلك هو الإثنان في الأرض .

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار ، فإنها تتأخر بالعناصر الخبيثة ، وإذا كان من حق للشجرة لكي تنمو أن تقلم . فمن حق الحياة ، لكي تصلح ، أن تنقى من السفهاء والمتاة والآثمين ، ولن يقوم عرض أبداً عن هذا الحق ، ولو كان القناطير الملقطة من الذهب ، وقد أسمع الله نبيه وصحابته هذا الدرس ، حتى إذا وعوه وتدبروه عفا عنهم ثم أباح لهم — من رحمته بهم — الاتئفاع بما أخذوا من فداء فقال « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ . . . » .

## في أعقاب بدر

شده العرب قاطبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم ، وحسبوه هذيان مجنون ، فلما استبان صدقه صحق نفر منهم فهلك لتوه ، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدري ما يفعل . . .

وكما استبعد أهل مكة المزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بعارها ، استبعد مشركوا المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشريات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حد اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق ، وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين في الأصفاذ ، فسقط في أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا القلب الذي

مكن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها ، ومد نفوذهم على طريق القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطوا على أنفسهم ، يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ويستمدون لنيل ثأرهم . ويعلمون أن يوم الانتقام قريب ، ولم يزدحم المزيمة إلا كرهاً للإسلام ، ونقمة على محمد وصحبه ، واضطهاداً لمن يدخل في دينه ، فكان من ينشرح صدره للإسلام يختفى به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً .  
ذلك في مكة ، حيث كانت الدولة للكفر .

أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والخاتلة ، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تقلى حقداً وكفراً ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي .

روى أسامة بن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب — كما أمرهم الله تعالى — ويصبرون على الأذى :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردنكم من بعد إيمانكم كافرين حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو الذي أمره الله به — حتى أذن فيهم<sup>(١)</sup> .

فلما غزا بدرأ ، وقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش ، وقفل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه منصورين غائبين معهم أسارهم ، قال « عبد الله بن

(١) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في تكميله ، واسناده صحيح كما قال الحافظ ابن

كثير في « التفسير » (١/١٥٣) .

أبيّ « ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه ( أى استقر فلا مطمع في إزالته ) فبايعوا رسول الله صل الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا . .  
على أن هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذى علن فيه فريق  
آخر من اليهود يسخطهم على محمد ، والمهم للهزيمة التي أصابت قريشاً في « بدر »  
بل إن كعب بن الأشرف — من رجالات اليهود — أرسل القصاصد في رثاء  
قتلهم والمطالبة بثأرهم . !

ولقد اتسعت شقه للعداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النابي .  
ثم حاول اليهود أن يحقروا من شأن النصر الذى حظى به الإسلام ، مما مهد  
للأحداث العنيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفراداً وجماعات .  
أما البدو والصاربون حول المدينة وعلى طرق القوافل ، فهم قوم همل ، لا يهتمهم  
شئ من قضايا الكفر والإيمان ، إنما يهتمهم اكتساب القوت من أى وجه ،  
والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب . وتاريخهم الحديث مع قوافل الحجاج  
شاهد صدق على أنهم لا يراعون حرمة ولا يمحشون إلا القوة ، ولولا بطش السعوديين  
بهم ما أمن طريق الحج قط ! وقد سبق لهم استياق نعم المدينة ، وما ورثوه من  
جاهلية طامسة ، جعل قلوبهم مع مشركى الجزيرة ، وقد ذهروا لانتصار المسلمين في  
بدر ، وأخذت جموعهم تمتشد ، تبغى انتهاء فرصة للإغارة على المدينة ، ولكن  
الرسول صلى الله عليه وسلم نهض إلى جموعهم فشتتها ولم يبق في إرهابهم متاعب  
ذات بال .

### بدء الصراع بين اليهود والمسلمين

لم تحدث المسلمين أنفسهم بنقض عهود اليهود ، ولا فكروا في طردهم من  
أرض الجزيرة ، بل على العكس ، توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم  
( ١٧ - فقه السيرة )

في حرب الوثنية المخزفة وتدعيم عقيدة التوحيد ، ورجا المسلمون أن يصدق اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم فيما يثبت به الله من تنزية ومجد ، وأن تكون صلتهم بالكتب القديمة وألفهم لأحاديث المرسلين سبباً في إقناع العرب الأميين بأن الرسلات السماوية حق والإيمان بها واجب .

وهذه المشاعر الحسنة تغمشى مع القرآن النازل يومئذ ، يؤسسها ويؤكدها :  
« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، آتَتْ مُرْسَلًا . قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

« وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابٍ » .

يبد أن لليهود كانوا عند أسوأ الظن فلم تمض أيام على اختلاطهم بالمسلمين في المدينة حتى شرعوا يخرجون صدورهم ويعينون عليهم ، ولو أنهم كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم كما كذبوا بيسى من قبل ، واعتقدوا أن ما وراء توراتهم باطل باطل ، واكتفوا بأداء عبادتهم في بيعهم ، وحيسوا في أفواههم المطاعن على أنبياء الله ... لتركهم المسلمون وشأنهم يكفرون إلى قيام الساعة ، دون حرب أو ضرب .

أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في نقضها . أما أن يصطدم الإسلام بالشرك فينضم بنو إسرائيل بعواظهم وألسنتهم ودعايتهم ضد محمد وصحبه فهذا مالا يستساع .

وفي فرحة المسلمين بانتصارهم في بدر ، لم يستح أولئك اليهود أن يقولوا لرسول الله عليه الصلاة والسلام : « لا يفرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصابت منهم فرصة . أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ! !

وقد نزل الوحي ينذر هؤلاء بسوء المنقلب « قل للذين كفروا : مُتَغَلِبُونَ  
وتحسرن إلى جهنم وبئس المهادء قد كفى لكم آية في فتنتين التقتان فتنة  
تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرين ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يُؤيد  
بِنَصْرِهِ من يشاء \* إن في ذلك لآية لأولى الأبصار » .

والآية الأخيرة تذكير بما وقع في بدر .

وأول من كشف عن ضعفه وهزأ بالإسلام وأهله ، يهود بنى قينقاع ، المقيمين  
داخل المدينة نفسها ، وكظم المسلمون غيظهم ، وانظروا مائة من خض عنده الليالى من  
مكر اليهود .

وسعى هؤلاء إلى حثهم بظلفهم فقد حدث أن امرأة عربية قدمت بحليها في  
سوق بنى قينقاع ، جلست إلى صائغ هناك ، فاجتمع حولها نفر من اليهود  
يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وهي غافلة فعقده  
إلى ظهرها .

فلما قامت انكشفت سوءتها وضحك اليهود منها ! وصاحت المرأة فوثب  
رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وهكذا طارت  
الشرارة ووقعت الحرب بين المسلمين وبنى قينقاع .

وكان ذلك في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة .

لجأ اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها ، ففرض الرسول صلى الله عليه وسلم  
عليهم الحصار ، وأحكمه خمس عشرة ليلة ، حتى اضطروا إلى التسليم ، ورضوا بما  
يصنعه رسول الله في رقابهم ونسائهم وذريتهم فلما أمكن الله منهم جاء عبد الله بن أبي  
سفيان يأمحمد أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبأ عليه رسول الله ،  
فكرر ابن أبي مقاتله : أحسن في موالي . فأعرض عنه الرسول . فأدخل يده في

جذب درعه ، فتغير لون النبي وقال له : أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً .  
ثم أعاد أمره وهو مغضب : أرسلني ويحك ! قال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى  
تحسن في موالى ، أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعهوني من الأحمر والأسود ،  
تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله :  
هم لك <sup>(١)</sup> على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورنا بها .

فرحلوا إلى « أذرعات » بالشام ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك أكثرهم .  
أما كان خيراً لهم أن يؤدوا حقوق الجوار ، ويعرفوا قيم اليهود ، ويبقوا في  
المدينة آمنين موفورين ؟ لقد تعجلوا الشر فباءوا به . . . وفي حوار عبد الله بن أبي  
مع الرسول عليه الصلاة والسلام نزل قوله تعالى : فترى الذين في قلوبهم مرض  
يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن نصيبنا دائرة فعمسى الله أن يأتي بالفتح  
أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أمرُوا في أنفسهم ناديهين <sup>(٢)</sup> . ويحسن  
أن نتأمل في سيرة هؤلاء اليهود ، وسر نعتهم الشديدة على الإسلام ونبيه ومخبرهم  
المعيب إلى الوثنية في نضال الإسلام معها .

أصبح أن نزاع اليهودية والإسلام كان سياسياً لادنياً ؟ وأن الافراد بالسلطان  
في الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

إن التفاعل في فهم العواطف والمشاعر الإنسانية ، يفسر كثيراً من المواقف

(١) لم هنا رواه ابن هشام ( ٢ / ١٢١ ) عن ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن  
قنادة مرسلأما بآقيه فلم أقف عليه الآن .

(٢) رام ابن اسحاق ( ٢ / ١٢١ ) عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت وابن  
جرير عن عطية الموفى وعن الزهري . وكلها مرسلات . وقد أشار ابن كثير في تفسيره  
( ٢ / ٦٨ ) لم تضيف نزول الآية في ابن أبي واثقه أعلم .



الغامضة . لقد رأينا المسلمين في مكة يتحمسون للنصرانية في صراعها مع الجوسية  
ويعجزون لانكسار الروم أمام الفرس . مع أن الإسلام لم يكن قد اتصل بعد  
بالنصارى اتصالاً يبرر هذا الجاس . لكنه الشعور الطبيعي الوحيد الذي ينتظر  
من الرجل الخالص لدينه ، فالمسلمون أصحاب كتاب يدعو إلى التوحيد ، والنصارى -  
وإن اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد وشابوا الحق بالخرافة - فهم - على كل حال -  
أهل كتاب ، ويعتبرون أعلى مرتبة من عبدة النار ، فالرغبة في انتصارهم على الوثنية  
الصريحة الشرك ، ضرب من الوفاء للإسلام نفسه ! ومن الاحترام للحقيقة التي  
معك أن تقرب بما يقرب منها ، وأن تتعمد عن كل ما يبعد عنها .

وقد كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار  
الفرس ، وعدوه رمزاً لغلبة الوثنية في كل صورها على أديان السماء جميلة . . .

فما معنى أن يفضب اليهود للموحدون - كما يزعمون - من انتصار الإسلام على  
الشرك . وبم يفسر حنوهم على القتل من عبدة الأصنام ، وسعيهم الخيث لتغليب  
كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد ؟ ؟ ؟

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين وأن  
صلوكتهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوى ، وأنهم لا يكتثرون بما يقرب  
من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة ، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم  
الغالبة وأثرتهم اللازمة . ومن ثم شكك القرآن في قيمة الإيمان الذي يدعيه  
القوم :

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : نؤمنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا  
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ \* قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ

أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين \* ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ... »

والظاهر أن طوائف اليهود التي عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة اتخذت الدين عنواناً لطامع اقتصادية بعيدة . فلما توهم أن هذه المطامع مهددة بالزوال ، ظهر الكفر الخبيث فإذا هو كفر باقه وسائر المرسلين .

ولم يعرف أولئك شرفاً في حرب الإسلام . ولم يقفهم حد أو عهد في الكيد له فلم يكن بد من إجلائهم ، وتنظيف الأرض منهم .

وقد تعقب المسلمون كل غادر بعده ، مجاهر بحرب الله ورسوله ، مؤيد لقريش ورأيها ، مظهر للعطف والأسف على ما أصابها . . تعقب المسلمون هؤلاء الطغام من زعماء يهود وسراهم بالقتل والإرهاب .

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقاب العادل « كعب بن الأشرف » فإن كعباً هذا سافر إلى مكة - من المدينة - يواسي مشركيها المهزومين في بدر . وبحرصون على إدراك ثأرهم من محمد صلى الله عليه وسلم ومحابته . وهو الذي سأله أبو سفيان أناشدك الله . أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق ؟ إننا نطمع الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء . ونطمع ما هبت الشمال .

قال له كعب : أنتم أهدى منهم سبيلاً فأُنزل الله على رسوله .

« ألم تر إلى الذين أوْتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبّات والطاغوتِ ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . »

وعاد كعب إلى المدينة سافر العداوة ، بعيد الجراءة ، حتى أنه صاغ قصائد الغزل في بعض النساء المسلمات ... وليس بعد ذلك صبر ، فأهدر المسلمون دمه .

وبعث إليه النبي من استنزله من حصنه ليلتي جزاءه الحق .

ذهب إليه «محمد بن مسلمة» و «أبو نائلة» بعدما استأذنا الرسول عليه الصلاة والسلام والسلام أن يقولوا فيه ما يطمئن اليهودي إلى تبرمهما بالاسلام ، أتاه «محمد بن مسلمة» فقال له : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عفانا ، وإني قد أتيتك أستسلفك ! ! . قال كعب : والله لتملنه ! قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، أرهنوني قلت : أى شيء تريد ؟ قال أرهنوني نساءكم ! قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجل العرب ؟ .

قال : فترهنون أبناءكم . قال : يسب ابن أحدنا فيقال : رهن في وسق أو وسقين من عمر . ولكن نرهنك السلاح ...

وصنع أبو نائلة ما صنع محمد بن مسلمة ، قال لليهودي : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ! عادتنا العرب ، ورمقنا عن قوس واحدة ، وقطعت علينا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ! ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، ورضى كعب - أخيراً - أن يسلفهم نظير ارتهان أسلحتهم .

وإلى هذا قصدوا ، فإن كعباً لن ينكر السلاح معهم وهو الذى طالب منهم .

وفي ليلة مقمرة انطلقوا إلى حصنه ليمتوا ما توعدوا عليه : فقالت امرأته وقد سمعت النداء : أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم ، قال كعب : لو دعى النقي لطنعنا لأجاب ، فنزل متوشحاً تنفح منه رائحة الطيب . واستدرجه انقوم في الحديث والسير ، ثم زعم أبو نائلة أنه يريد أن يشم الطيب من شعره ، فسرح فيه يده وهو يقول : ما رأيت كالليله طيباً أعطر ، وزهى كعب بما سمع أو عاد

أبو نائلة فوضع يديه في شعر اليهودى حتى إذا استمكن من فؤديه قال لصحبه : دونكم عدو الله ، فأخافت عليه أسيافهم<sup>(١)</sup> . دخلت في بدنه الأسلحة التي طلبها رهاناً بدل النساء والأبناء ..

وصاح كعب صبيحة لم يبق معها حصن إلا أوقدت عليه النار استجلاء للخبر فلما طلع الصباح علمت يهود بمصرع جبارها ، فذب الرعب في القلوب العنيدة ، وأسرعت الأفاعى إلى حجورها تحببىء فيها ..

لقد أجدت العصا حين أعيت النصيحة وبطل المقاتل . ولزم اليهود حدودهم فلم يتجرأوا على المسلمين بسب ، وظهر كأنهم لن يماثلوا على الله ورسوله مشركا بعد اليوم ...

وهكذا تغرس الرسول عليه الصلاة والسلام - إلى حين - لمواجهة الأعراب المشركين ..

## مناوشات مع قريش

لم يعترف المسلمون بانصر الذى نالوه فى « بدر » ولم يفتروا عن مراقبة خصومهم والإعداد لهم . وقد علموا علم اليقين أن مكة لن تنى عن الانتقام لنفسها وإن نستكين للسكرانة التى حلت بها .

---

(١) حديث صحيح ، رواه ابن هشام ( ١٢٣ / ٢ - ١٢٤ ) عن ابن إسحاق حدثني هبدا لله بن الغيث ابن أبى بردة به نحو ، وهذا سند ضعيف مرسل أو معضل ، وعبد الله هذا ترجمه ابن أبى حاتم ( ١٧٤ / ٢ ) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . ورواه البخارى ( ١٠٦ / ٥ - ١٠٧ / ٦ ، ١٢٠ - ١٢١ / ٧ ، ١٦٩ - ٢٧٢ ) ومسلم ( ١٨٤ / ٥ ؛ ١٨٥ ) وأبو داود ( ١١ / ١٣٦ ) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه نحوه ، والظاهر أن سياق الكتابة مركب من الروايتين . والحديث رواه البيهقي ( ٨١ / ٩ ) من حديث جابر . ثم رواه من حديث موسى بن عقبة معضلاً .

ورأى أبوسفیان - حفظاً لمكانة قومه وإبرازاً لما لديهم من قوة - أن يجعل عملاقليل المغارم ظاهر الأثر . فقرر أن يفاجيء المدينة بغارة خاطفه يعود عقيها وقد رد لقريش بعض سمعتها ، وألحق بالمسلمين ما يستطیع من خسائر .

تم إن أبوسفیان كان نذر الأيس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً صلى الله عليه وسلم ، وينبغي أن يبر في قسمه .

فخرج في مائتي راكب حتى وصل إلى مساكن بني النضير في جناح الليل - بأطراف المدينة - ، ونزل على « سلام بن مشكم » من سادة اليهود . فتعرف منه أخبار المسلمين ، وتدارسا أجدى الطرق لإيذائهم والإفلات من قواهم .

واهتدى أبوسفیان إلى العمل الذي وفي به يمينه ، وحقق به غايته ، فهجم برجاله على ناحية يقل لها : العريض . وحرقوا أسواراً من نخيل بها ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لها فقتلوهما . ثم لاذوا بالفرار عائدين إلى مكة .

وشعر المسلمون بما حدث . فانطلقوا وراء أبي سفیان ورجاله يطاردونهم ويبتغون الإيقاع بهم وأحس المشركون بالطب فجدوا في الحرب . والمسلمون يقطعون الصحراء خلفهم راغبين في اللحاق بهم ، فلما أحس أبوسفیان بالخطر أخذ يتخفف من الأرواد التي يحملها حتى تمكن من النجاة . وعثر المسلمون في طريق المطاردة على هذه المؤن وأكثرها من السويق فسموا هذه المناوشة الطريفة غزوة السويق !

o v o

ولم تقل قرش من هذه الغارة الفاشلة شيئاً يرفع رأسها فككرت أن تتجنب الصدام بالمسلمين حتى تحين الفرصة المواتية ولسكن أي لها ذلك ، وتجارهم تمر في الغدو والرواح بالمدينة ؟ .

قال صفوان بن أمية لقريش : « إن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه عوروا علينا متجربنا فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل

قد وادعوم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ . وإن أقننا في دارنا هذه .  
أكلنا رهوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام  
في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » فقال له الأسود بن عبدالمطلب . تنكب الطريق  
على الساحل . وخذ طريق العراق . ودله على فرات بن حيان من بنى بكر بن وائل  
ليكون رائدكم في هذه الرحلة .

وخرجت عبر قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن  
نعيم بن مسعود ، قدم المدينة يحمل أنباء هذه القافلة ، وخطة سيرها . واجتمع في  
مجلس شرب - قبل تحريم الخمر - بسليط بن النعمان فيباح له بسرها . فأمرع سليط  
إلى النبي صلى الله عليه وسلم يروي له القصة ، فهت النبي لوقته « زيد بن حارثة » في  
مائة راكب يعترضون القافلة . فلقبها زيد عند ماء يقال له القرادة ، فاستولى عليها  
كلها : وكانت تحمل مقادير كبيرة من الفضة ، وفر المشركون مذعورين . فلم يقع  
في الأسر غير فرات بن حيان .

فلما جرى به إلى المدينة دخل في الاسلام ..

ولقد حزنت مكة لهذه النكبة الجديدة ، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة  
بثأرها ، والتهوؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة . فكان ذلك وما سبقه من أحداث  
التهويد القوي لمعركة «أحد» في السنة الثالثة للهجرة .

\* \* \*

ولا يفوتنا إذ نتابع النشاط العسكري للإسلام في سنتيه الأولىين بالمدينة ،  
أن نذكر بعض الشؤون الهامة الأخرى . فقد توفي خنيس بن حذافة السهمي زوج  
حفصة ابنة عمر بن الخطاب . وهو رجل صالح ممن شهدوا بدرًا . فلما تألمت منه ،  
أراد أبوها أن يتخير لها زوجًا . قال عمر : فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه  
حفصة ، فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر !! فقال سأنظر في أمري !  
فلبت ليالي ثم نقيته فعرضت عليه . فقال : قد بدا لي ألا أتزوج .

قال عمر : فلقيت أبا بكر فقلت له : إن شئت أنكحك حفصة ابنة عمر ؟  
فصمت ولم يرجع إليّ شيئاً ، ! فكنت عليه أوجد منى على عثمان . . .  
فلبثت ليالي فخطبها منى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتمها إياه . فلقيني  
أبو بكر فقال : لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟  
فقلت : نعم ، فقال : فإنه لم يعنى أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنى كنت  
هلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها . فلم أكن لأفتشى سر رسول  
الله ولو تركها لقبيلتها (١) . . .

وانجاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبي بكر .  
ثم تزويجه ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب وتزويجه ابنته أم كلثوم لعثمان - بعد وفاة  
رقية - يشير إلى إن النبي صلى الله عليه وسلم يعنى من وراء ذلك توثيق الصلات  
بالرجال الأربعة . الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام ، فى الأزمان التى مرت  
به وشاء الله أن يجتازها بإسلام .

ومن السنة الثانية للهجرة فرض صيام رمضان ، وزكاة الفطر وبينت أنصبة  
الزكاة الأخرى . ومن أجل ما وقع فى هذه السنة تحويل القبلة من بيت المقدس  
إلى الكعبة المطهرة . وقد كان هذا الانتقال مثار تعيظ اليهود واستنكارهم  
الشديد .

كانوا - قبله - يؤمنون فى متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام لهم (١) ولعل  
أساس موادعهم له ظنهم الإفادة منه واستغلال أنصاره ! فلما تميز الإسلام بقبلته  
الجديدة ، امتلأت أنفسهم بالأس . ودفعتهم خيمه الرجاء إلى تشديد الحملة على الإسلام  
وتبئيت السوء له .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (٩ / ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٥٢) والنسائى  
(٢ / ٧٥ - ٧٦ ، ٧٧٠) وأحمد (رقم ٧٤) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وقد أحبط القرآن حرب الجدل التي شنها اليهود إثر تغيير القبلة .

« سيقول السفهاء من الناس : ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟  
قل : لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا هم وجه الله .. »

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر  
من آمن بالله واليوم الآخر .. »

إن الله رب الأزمنة والأمكنة جميعاً ، وتوجيه أمة إلى قبلة معينة ، لا يفي  
انحصاراً في إحاطته ، أو قصوراً في ربوبيته . لقد كانت عودة المسلمين إلى الكعبة  
رجوعاً إلى الأصل الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم . وفي العودة إلى الأصل ، تنزه  
عن الإنحرافات التي حدثت بعد من الذراري الضالين ، وخصوصاً بنى إسرائيل .  
لم يهدأ بال قریش مذغشياً في « بدر » ماغشياً وكان ماجد من الحوادث  
بعد لا يزيد أحقادها إلا ضراماً . فلما استدارت السنة ، كانت مكة قد استكملت  
عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين ، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله .  
فخرج الجيش التأثر في عدد يربو على ثلاثة آلاف .

ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه ، حتى يكون ذلك أبلغ في  
استماتة الرجال دون أن تصاب حرمانهم وأعراضهم ؟ وكانت الترات القديمة  
والغيظ السكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتالٍ مرير .

وفي أوائل شوال من السنة الثالثة ، وصل الجيش الزاحف إلى المدينة ، فنزل  
قريباً من جبل « أحد » وأرمل خيله ترعى زروعها للامتدة هناك ا

واجتمع المسلمون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يتدبرون امرهم .



أيخرجون لمقاتلة العدو في العراء أم يستدرجونه إلى أزقة المدينة ، حتى إذا دخلها قاتله الرجال في العارق ، وقاتله النساء من فوق أسطح البيوت ؟؟

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل إلى الرأي الأخير ، وأيده فيه رجال من أولى النظر والروية . وقال عبد الله بن أبي : هذا هو الرأي الساكن الرجال الذين لم يشهدوا بدرأ ، تمسوا للخروج ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ! وظاهرهم الشباب الطامح في الاستشهاد . وبدا أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز للملافة العدو فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم بيثته وخرج منه لابساً عدته ، متهيئاً للقتال .

وشعر القوم أنهم استكروا الرسول صلى الله عليه وسلم على رأيهم ، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه ! بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد غضاضة من الاضطراب بين شتى الآراء . فقال : ما ينبغي لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه (١) .

وقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأيتهم إلا الخروج . فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس . وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه (٢) ..

ثم خرج في ألف رجل حتى نزل به « أحد » إلا أن عبد الله بن أبي انسحب

---

(١) رواه ابن هشام (٢/١٢٦ - ١٢٨) عن ابن إسحاق عن الزهري وغيره مرسلًا وقد وصله أحمد (٣/٣٥١) من طريق أبي الزبير عن جابر نحوه وسنده على شرط مسلم غير أن الزبير مداس وقد عنفنه . ولكن له شاهد من حديث ابن عباس الذي أخرجه البيهقي كما في « البداية » (٤/١١) بسند حسن فالحديث صحيح وقد رواه أحمد أيضا (رقم ٢٦٠٩) والحاكم (٢/١٢٨ - ١٢٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧) وصححه ووافقه الذهبي وهو حديث طويل في غزوة أحد سيأتي بعض فقراته في الكتاب .

(٢) ذكره ابن كثير (٤/١٢ - ١٣) من رواية موسى بن عقبة معضلا .

في الطريق بثلت الناس . قائلًا ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومحتجًا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك رأيه وأطاع غيره .. !!

فتبعهم عبدالله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - ينصحهم بالثبات ؛ ويؤنبهم على العودة ، ويذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغيرين ، إذا لم يكن لهم إيمان بالله واليوم والآخر ، وثقة بالإسلام ورسوله .

فأبى « ابن أبى » الاستماع إليه . وفيه ومن انسحب معه نزلت الآية :  
« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا .  
قائلوا : لو نعلم قتالًا لا تبعناكم ° هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان »

\* \* \*

عسكر المسلمون بالشعب من « أحد » في عدوة الوادى ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل . ورسم النبي صلى الله عليه وسلم الخطة لكسب المعركة . فجاءت محكمة رائحة . وزع الرماة على أماكنهم وأمر عليهم عبدالله بن جبير - وكانوا خمسين رجلًا - وقال : انضحوا الخليل عفا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ! إن كانت الدائرة لنا أو علينا قاتلوا أماكنكم ، لا تؤتينا من قبلكم (١) ! وفي رواية قال لهم : احموا ظهورنا إن رأيتمونا ، تقتل فلا تنصرونا ! وإن رأيتمونا نغتم فلا تشركونا ! واطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن فرقة الرماة قد أمنت بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه فأقبل يتعهد مقدمته . وأمر ألا ينشب قتالًا إلا بإذنه .

(١) حديث صحيح . أخرجه ابن هشام ( ٢ / ١٢٩ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، وله شواهد كثيرة ، منها عن البراء بن عازب أخرجه البخارى ( ٧ / ٢٨٠ ) وأبو داود ( ١ / ٤١٥ ) وأحمد ( ٤ / ٧٩٣ ؛ ٢٩٤ . ومنها عن ابن عباس . وهو الرواية الثانية التي في الكتاب . أخرجه أحمد والحاكم وصححه كما تقدم قريباً .

وظاهر هو نفسه بين درعين<sup>(١)</sup> ، وأخذ يتخير الرجال أولى النجدة والبأس ليكونوا  
طلبة المؤمنين حين يلتحم الجمعان .

إن عدد المسلمين على الربع من المشركين . ولن يعوض هذا التفاوت  
إلا الأشخاص الذين يوزنون بالألوف وهم آحاد .

روى ثابت<sup>(٢)</sup> عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمسك يوم « أحد » بسيف  
ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأحجم القوم . فقال أبو دجانة : أما  
أأخذه بحقه فأخذه فقلق به هام المشركين ، قال ابن إسحاق : كان أبو دجانة رجلاً  
شجاعاً يختال عند الحرب ، وكانت له عصا جراء إذا اعتصب بها ، علم أنه  
سيقاتل حتى الموت فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعصب  
وخرج يقول .

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل  
ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول  
ويعنى بعدم قيامه في الكيول . ألا يقاتل في مؤخرة الصعوف ، بل يظل  
أبداً في المقدمة .

ثم تدانت الفئتان وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لرجاله أن يجالدوا العدو ،  
وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة . كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون  
ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ! وظهور المسلمون في أعلى صور  
الشجاعة واليقين .

(١) حديث صحيح ، أخرجه الحاكم ( ٢٥ / ٣ ) وعنه البيهقي ( ٤٦ / ٩ ) من حديث  
الزبير بن العوام . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو حسن الإسناد عندي وأخرجه  
الترمذي ( ٢٨ / ٣ ) واستغربه . وله شواهد كثيرة ، منها ، عن السائب بن يزيد عن  
رجل قد سماه . أخرجه أبو داود ( ٤٠٤ / ١ ) والبيهقي . وبقيمة الشواهد تراجع في  
« المجموع » ( ١٠٨ / ٦ ) - ( ١٠٩ ) .

(٢) كذا وقع في تاريخ ابن كثير ( ١٥ / ٤ ) معزواً لأحمد ، فنقله المؤلف كذلك  
ولمّا هو عن ثابت عن أنس ، كذلك أخرجه أحمد ( ١٣٣ / ٣ ) ومسلم أيضاً ( ١٥١ / ٧ ) .

خرج حنظلة بن أبى عامر من بيته حين سمع هواتف الحرب ، وكان حديث عهد بعرس ، فأنخلع من أحضان زوجته ، وهرع إلى ساحة الوضى حتى لا يفوته الجهاد .

إن حادى التضحية كان أمملك لنفسه وأملاً لحسه من داعى اللذة . فاستشهد

البطل وهو جنب !!

وسادت روح الإيمان المحض صفوف المجاهدين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان ، تقطعت أمامه السدود .

وقف طلحة بن أبى طلحة العبدري حامل لواء قريش يتحدى ، داعياً إلى البراز ، فوثب إليه الزبير بن العوام حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه !!

وأقبل أبو دجانة معلماً بعصابتة الحمراء لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وكان أحد المشركين قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين فى المعركة ! قال كعب بن مالك : وإذا رجع من المسلمين ينتظره وعليه لأمته . فضيت حتى كنت من ورائه ثم قتت أقدر المسلم والكافو ببصره ، فإذا الكافر أفضلها عدة وهيئة ، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف ، فبلنت وركه ، وتفرق فرقتين !! ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة ..

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتل الليوث المهتاجة . وصمد لجملة اللواء من بنى عبد الدار فالتصن أرواحهم فرداً فرداً .

قال « وحشى » غلام جبير بن مطعم : قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق ، قال : فخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة فلما أخطىء بها شيئاً . فلما التقى الناس فخرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيت كانه الجبل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدا ، ما يقوم له شىء ! فوالله إنى لأنهيأ له أريده وأستر منه بشجرة أو بحجر ليدنومنى . إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما

رآه حمزة قال : لم إلى يابن مقطعة البظور ؟ قال : فضر به ضربة كأما اختطفت رأسه . فهزرت حربتي . حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت في ثلثه - أحشائه - حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فغاب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر فعدت فيه . إذ لم تسكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق .

ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقتل حمزة فإن جيشهم القليل ظل مسيطراً على الموقف كله ، وحمل لواء المسلمين في هذا القتال « مصعب بن عمير » الداهية العظيم فلما استشهد حمل اللواء علي بن أبي طالب « واستبق المهاجرون والأنصار في ميدان الشرف ، وأخذ اللواء الإسلامي يتقدم خطوة خطوة . وشعار المسلمين في هذا الاتحام « أمت أمت » .

وكانت نسوة قريش ذائبات على استنهاض رجالهن ، يضررن بالدفوف ، ويحرضن على القتال ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان .

فكانت تقول - حائمة بنى عبد الدار على إبقاء لواء مكة صرفوعاً :

ويها بنى الدار ويها حماة الأديار

ضرباً بكل بشار !!

وتؤز قومها على القتل منشدة :

إن تقبلوا نعايق ونفرش المارق !!

أو تدبروا نفاق فراق غير وامق !!

وقد بذت قريش أقصى جهدها لتحطم عنقوان المسلمين . لكنها أحست العجز وانكسرت همتها أمام ثبات المسلمين وإقدامهم .

قال ابن إسحاق . ثم انزل الله نصره وصدق وعده ، فحشوم بالسيوف حتى كشفوم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خـدم  
— سوق — هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل  
ولا كثير ...

• • •

قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار ، وتنتشر في أجوائه الأشعة المبصرة  
ثم يقع خلل مفاجيء يقطع التيار ، فإذا المصاييح تعتم ، ثم يسود المكان ظلام  
موحش سقيم ! .

إن هذا مثل التحول المستنكر الذي قلب سير الحوادث في معركة (أحد).

لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند ، فأوقعت  
الارتباك في صفوف الجيش كله ، فضاعت في ساعة نزع كل المكاسب التي أحرزتها  
الشجاعة النادرة ، والتضحية البالغة . . !

لقد علمت كيف شدد الرسول عليه الصلاة والسلام على الرماة أن يلزموا  
أما كنهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوها أبداً ، ولو رأوا الجيش  
تتخطفه الطير ؟ غير أن إثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة في ساعة غفلة ؟  
فما إن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش والنساء يهمن في الجبل ، والرجال يولون  
الأدبار ، والغنائم التي خلفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي ... حتى غادروا  
مواقعهم هابطين إلى الميدان ، يبغون انتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال ؟

وكان فرسان المشركين بقيادة (خالد بن الوليد) محصورين ، لا يجدون تفرقة  
ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت الهزيمة ، فلما رأى خالد أن مؤخره  
المسلمين انكشفت . فلم يبق عليها حارس ، اهتبل الفرصة على عجل ، فاستدار بالجبل

وأحدق بخصومه منهدراً عليهم من حيث لا يحتسبون . ورأى القارون من قريش بوادر هذا التغيير الطارىء ، فترجعوا حتى إن امرأة تدعى عمرة بنت هلقمة الحارثية ، هي التي رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط وصرع حملته ؟ وثاب المشركون إلى رايثهم وخيالهم . فأحيط بالصحابة من الأمام والخلف . ووقعوا بين شقي الرحي ..

على أن الرجال الأحرار لا يصادون بسهولة ، إنهم شدد هوالمأحدث . ولكنهم أخذوا يقاتلون بجرارة ، وإن كان هدفهم هذه المرة أن ينجوا فحسب ! أن يبصروا طريقاً يخلصهم من هذا المأزق العضوض !

واستشهد كثير وهم يحاولون شق طريقهم . واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي . فرماه أحداهم بمجر كسر أنفه ورباعيته وشججه في وجهه فأثقله وقبجر منه الدم<sup>(١)</sup> . وشاع أن محمداً قتل ، فتفرق المسلمون ، ودخل بعضهم للدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل . واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون كيف يفعلون ..

إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل يصيح بالمومنين : إلى عباد الله . إلى عباد الله ! فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلاً ، غير أن للشركين بصروا بهم فهاجروهم ! ووقف طلحة بن عبيد الله ، وسهل بن حنيف ، إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام . فأصيب طلحة بسهم في يده فسلمها .

وأقبل أبي بن خلف الجمحي على النبي عليه الصلاة والسلام وكان قد حلف

(١) رواه ابن جرير في تاريخه عن السدي مرسلًا كما في « البداية » ( ٢٣/٤ ) ؛ وكسر رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج رأسه ثابت في مسلم ( ١٧٩/٥ ) من حديث أنس ؛ ورواه البخاري ( ٢٩٢/٥ ) معلقاً .

أن يقتله . وأيقن أن الفرصة سانحة فجاؤ بقول : يا كذاب ابن نقر 1 وحمل على الرسول بسيفه .

فقال النبي : بل أنا قاتله إن شاء الله . وطأته في جيب درعه طعنة وقع منها بخور خوار الثور ، فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى مات (١) .

ومضى النبي صلى الله عليه وسلم يدعو المسلمين إليه ، واستطاع — بالرجال القلائل الذين معه — أن يصعد فوق الجبل ، فأنحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار .

وفرح النبي عليه الصلاة والسلام أن وجد بقية من رجاله يتمتع بهم ، وعاد هؤلاء صوابهم إذ وجدوا الرسول حياً ، وهم يحسبونه مات .

ويبدو أن إشاعة قتل النبي سرت على أفواه كثيرة ، فقد صر أنس بن النضر يقوم من المسلمين وألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم فقال : ما تنتظرون؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ؟

قوموا فموتوا على ما مات عليه . . . تم استقبال المشركين فما زال يقاتلهم حتى قتل . . .

ولم تتوان قريش من جانبها في مهاجمة الرسول ومن انحاز إليه من أصحابه بغية الإجهاز عليه وعليهم . ومرت ساعة عصبية من أخرج الساعات في تاريخ الدنيا ، وفرسان المشركين ورماتهم يحملون — بعناد وإلحاح — لتحقيق أمنيتهم .

(١) هو من حديث السدي المتقدم . وقال ابن كثير : انه غريب جداً وفيه نكاره . لكن هذا الزندر وهو قصة قتله صلى الله عليه وسلم لأبي بن خلف له شاهد من رواية أبي الأسود عن عروة بن الزبير ؛ ومن رواية الزهري عن سعيد بن المسيب كافي (البيدانية) (٢٢/٤) وكلاهما مرسل .



مقتل بين يدي النبي خلق كثير وهم يناخون دونه ، جالدم طلحة حتى أجهضهم عنه ، ثم سقط بين حى وميت ، وترس عليه أبو دجانة بظهره فكان النبل يقع فيه ولا يتحرك .

روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم « أحد » في وسبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما أرهقه المشركون قال : من يردم عنى وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ! ثم أرهقوه فقال من يردم عنى وله الجنة ؟ فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله : ما أنصفنا أصحابنا — يعنى من فروا وتركوه !

وتركت هذه الاستمانة أثرها ، ففترت حدة قريش في محاولة قتل الرسول وثاب إليه أصحابه من كل ناحية وأخذوا يلون شملهم ويزيلون شعهم .  
وأمر النبي صحبه أن ينزلوا قريشاً من القمة التي احتلوها في الجبل قائلاً : ليس لهم أن يعملونا . فخصبوم بالحجارة حتى أجلوم عنها (١) .

\* \* \*

إن الإفلات من هواقب هذا الانكسار الشنيع عمل لا يقل - في خطره - عن الانتصار الأول وقد اتجه عزم الرسول إلى بذل كل جهد ممكن في سبيل مقاومة قريش حتى لا تظفر بشيء ماخنيمة باردة . بل حتى تنقل بها مغارمها فلا تطمع في مزيد من إبداء المسلمين فكان ينقل السهام من كنانته ويهطئها سعد بن أبي وقاص ويقول لرم فذاك أبى وأمى (٢) . وكان أبو طلحة الأنصارى رامياً ماهراً في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله فكان إذا رمى رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هو من حديث السدى المتقدم .

(٢) رواه البخارى (٢٨٧/٧) من حديث سعد .

شخصه ينظر أين يقع سهمه ويرفع أبوظلحة صدره قائلاً: هكذا بأبي أنت وأمي، لا يصيبك سهم، نحوى دون نحر ك<sup>(١)</sup> ويقول: أرى جلد يارسول الله فوجهى فى حوائجك ومرنى بما شئت!! وقد نجح الرماة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رد المشركين الذين حاولوا صعود الجبل وبذلك أمكن المسلمين الشاردين أن يلحقوا بالنبي ومن معه .

إلا أنهم جاءوا وكانما خرجوا من عمارة ، حتى أن بعضهم — من فرط الغيظ والذهول — قاتل أمامة لا يدري من يقاتل ، قاتل اليمان والد الصحابي المعروف حذيفة وصرح حذيفة: أرى أبى ! دون جدوى .

ولما تجمعت فلول المسلمين بمد هذا الكسر والفر كان الإعياء قد نال منها أى منال لولا أن الله قذف فى قلوبهم السكينة . وأعاد إليهم — بمد هذا الزلزال — الأمل والتقه فسكنوا حول رسول الله يرقبون ما يجد . وداعب الكرى أجفان البعض من طول التعب والسهر ، فإذا أغفى وسقط من يده السيف عاودته اليقظة فتأهب للمراك من جديد! وهذا من نعمة الله على القوم « ثم أنزل عليكم من بعد النعم أمنةً نماماً يعشى طائفةً منكم ... »

ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال ذلك اليوم العصيب .

فقد تعبت جد التعب فى الجولة الأولى فلما أذبل لها وطمعت أن تجعل المعركة حاسمة قاصمة وجدت المسلمين أصلب هوداً . دون إفتانهم صماب لاستطيع احتمالها فاكتفت بما ظفرت بالإياب .

وظن المسلمون — لأول وهلة — أن قريشاً تنسحب لتهاجم المدينة نفسها .

---

(١) رواه البخارى (٧/ ٨٨٩ - ٢٩٠) من حديث أنس . وكذلك أخرجه أحمد  
(١٠٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٦) وعنده فى رواية قول أبى طلحة : « انى جلد ... »

فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب : أخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة . فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم فيها .

قال علي : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل وأنجموا إلى مكة (١) .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هُبل ! فقال رسول الله لعمر : قم يا عمر فأجبه قتل : الله أعلى وأجل . لا سواء . قتلتنا في الجنة وقتلناكم في النار .

فقال له أبو سفيان : هلم إلي يا عمر .

فقال رسول الله لعمر : انتبه فانظر ماشأته . فجاهه .

فقال له أبو سفيان : أشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟

فقال عمر : اللهم لا ، وأنه ليسمع كلامك الآن . قال . أنت عندي أصدق من

ابن قبيصة — وهو الذي زعم أنه قتل النبي .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلاكم مثله ، والله مارضيت ولا مسخات

وما نهيت ولا أمرت (٢) .

(١) رواه ابن هشام ( ١٤٠ / ٢ ) عن ابن إسحاق بدون اسناد .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وإسناده حسن كما تقدم في أول معركة أحد : قوله شاهد من حديث البراء عند البخاري وغيره . وقد سبق نخرجه قريباً . وشاهد آخر من حديث ابن مسعود أخرجه أحمد ( رقم ٤٤١٤ ) وفيه حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب وقد سمع منه في حالة الاختلاط كما سمع منه قبلها ولهذا قال الحافظ ابن كثير ( ٤١ / ٤ ) : ( هذا إسناد فيه ضعف » وهذا هو الصواب خلافاً لقول الشيخ أحمد محمد شاكر : إنه صحيح . ذمهم عماد ذكر من سمعه —

ولما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد (٢) .

## عبر المحنة

موقعة « أحد » فياضة بالمعظات الغوالي والدروس القيمة . وقد نزلت في أدوارها وحوادثها ونتائجها آيات طوال . وكان لها في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته . كانت امتحاناً ثقيلاً الوطأة محض المرأر ومزق النقاب عن محبوبها . فامتاز النفاق عن الإيمان ، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه نعرف الذين ركوا الدنيا بنعالم فلم يرجوا على مطمع من مطامعها والذين مالوا إليها بعض الميل فنشأ عن أطعاهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق سروعة .

بدأت المعركة بانسحاب ابن أبى وهو عمل ينطوى على استهانة يستقبل للإسلام وغدر به في أخرج الظروف . وتلك أبرز خصائص النفاق .

والدعوات - إبان امتدادها وانتصارها - تفرى الكثير بالانضواء تحت لوائها فيختلط المخلص بالمغرض ، والأصيل بالدخيل . وهذا الاختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسائل الكبيرة وإنتاجها .

ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجات عنيفة تعزل الخبث عنها وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التحميم في أحد .

---

== منه في الاختلاط . وقد صحح فضيلة الشيخ كثير أ من الأحاديث في تعليقه على المسند وغيره . كلها من هذا الطريق . فليتب به لهذا .

(١) لم أجده الآن عند غير ابن اسحاق .

« ما كان الله ليذرّ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب  
وما كان الله ليطلعكم على الغيب » .

فالجبن والنكوص هما الاذان كشفاعن طوية المنافقين ، فافتضحوا ، أمام أنفسهم  
وأمام الناس . قبل أن تعلن عن نفقهم السماء ..

فإذا تجاوزت السفوح التي يدبُّ عليها أولئك المنافقون ، وثبت إلى ذرأ شاحخة  
للإيمان البعيد النور . التقى العنصر . يتمثل في مرحلة الهجوم المظفر الذي ابتداء  
به القتال ، ثم مرحلة الدفاع النبيل المائل الذي حمل المسلمون عبئه . عند ما ارتدت  
الكرة للمشركين ، ورجعت كفتهم .

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ويوجهون زمامه بعزائمهم ، هم  
الذين صلوا هذه الحرب ، وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض .

روى أن « خيشمة » قتل ابنه في معركة « بدر » فجاء إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت - والله - هايتها حريصاً . حتى ساهمت  
ابني في الخروج ، فخرج - في القرعة - سهمه . فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة  
ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأثمارها . يقول : إلتحق بنا  
توافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ثم قال . وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرانته ، وقد كبرت سنّي وورق  
عظمي ، وأحببت لقاء ربي . فداع الله بارسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة  
ابني خيشمة في الجنة . فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له . فقتل به « أحد »  
شهيداً . (١)

وكان « عمرو بن الجموح » أعرج شديد العرج . وكان له أربعة أبناء شباب  
يفزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توجه إلى « أحد » أراد أن يخرج

(١) لم أظف عاينه الآن

معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة . فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : إن بنى هؤلاء ينعونى أن أجاهد معك . ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة !! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل يوم أحد شهيداً .. (١)

وقال نعيم (٢) بن مالك : يابى الله لا تحر منا الجنة - وذلك قبل نشوب القتال - فوالذى نفسى بيده لأدخلنها !! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بم ؟ قال : بأبى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . واستشهد يومئذ ...

وقال عبد الله بن جحش فى ذلك اليوم : اللهم أبى أقسم عليك أن أتى العدو غداً فيقتلونى ، يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى وأذنى . ثم تسألنى : فىم ذلك ؟ فأقول : فىمك .. (٣) ؟

---

(١) رواه ابن هشام (٢ / ١٣٩) عن ابن اسحاق قال : وحدثنى أبى اسحاق بن يسار عن أشياخ من بنى سلمة به ، وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة ، والا فهو مرسل . وبعضه فى السند (٥ / ٢٩٩) من حديث أبى قتادة : رضى الله عنه وزاد : « فقتلوا يوم أحد ، هو وابن أخيه وهوولى لهم ، فر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . كئأنى أنظر لإليك تمنى برجلك هذه صحيمه فى الجنة » وسنده صحيح . (٢) الصواب « النعمان بن مالك » وفى ترجمته أورد هذا الحديث الحافظى « الاصابة » من طريق سدى . فهو مرسل .

(٣) أخرج هذا الأثر الحاكم (٣ / ١٩٩ - ٢٠٠) من طريق سعيد بن المسيب : قال : قال عبد الله بن جحش ... وقال « صحيح على شرط الشيخين لولا ارسال

هذه صورٌ للرجولة الفارعة التي اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها .  
فداد أمامها ، واصطربت من تحت أقدامه الأرض ، فمارح شيئاً في بداية  
القتال ، ولا انتفع بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى  
اليوم . وما يقوم للإسلام صرح ، ولا ينكشف عنه طغيان ، إلا بهذه القوى  
المذخورة المضبوطة في أفئدة الصديقين والشهداء ..

من سرُّ هذا الإلهام ؟ من مشرق هذا الضياء ! من مبعث هذا الاقتدار ؟  
إنه محمد ! إنه هو الذي ربي " ذلكم الجليل لأفد ، ومن قلبه الكبير أترعت  
هذه القلوب ، تقانياً في الله ، وإيثاراً لما عنده .

وقد أصيب هذا النبيّ الجليل في « أحد » أصيب في بدنه إذ دخلت حلقات  
المنفر في وجهه . فأكبّ عليه أبو عبادة يعالج انزاعها بقمه ، فما خلصت من لحمه  
حتى سقطت معها ثنيتاه<sup>(١)</sup> . ونزف الدم - بغزارة - من جراحته ، كلما سكب  
عليه الماء ازداد دافقاً ، فما استمسك حتى أحرقت قطعة من حصاره فألصقت به<sup>(٢)</sup> .

---

== فيه « ووافقه الذهبي قلت : لكن له شواهد موصلة وأخرجه البغوي كما في « الإصابة »  
من طريق اسحاق بن سعد بن أبي وقاص حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال : فذكره  
بنحوه وزاد وفي آخره : قال سعد : فلقد رأيتُه آخر النهار وأن أنفه وأذنه لمثلتان  
في خيط » .

(١) ذكره ابن هشام (١٣٥/٢ - ١٣٦) من طريق اسحاق بن يحيى بن طلحة عن  
عيسى بن طلحة عن عائشة عن أبي بكر وقد وصله الطيالسي (٩٩/٢١) فقال : حدثنا ابن  
البارك عن اسحاق به . وكذلك وصله الحاكم (٢٦/٨ - ٢٨) - ووقع في سنده  
نحرف - وقال : « صحيح الإسناد » فتعقبه الذهبي بقوله : « قلت : اسحاق متروك »  
وكذا قال الهيثمي (١١٢/١٦) بدأت عزاء للبرار .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٩٨/٧) ومسلم (١٧٨/٥) وغيرهما من حديث

هسل بن سعد :

وكسرت كذلك ربايعته ، وكسرت البيضة على رأسه . ومع ذلك فقد ظل  
متمسكاً بالذهن ، يوجه أصحابه إلى الخير حتى انتهت المعركة .

ثم أصيب في أهله ، فقتل « حمزة » بحربة انفرزت في أحشائه ، وجاءت  
« هند » امرأة أبي سفيان ، فاستخرجت كبده من بطنه ، ولا كتبها بقمها ثم  
لفظتها لإفجاء المرارة .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزُّ حمزة ، ويحببه أشد الحب ، فلما  
رأى شناعة المثلة في جسمه ، تألم أشد الألم ، وقال : إن أصاب بمثلك أبداً ،  
ما وقعت قط موقفاً أغضبني إلى من هذا<sup>(١)</sup> ، بيد أن التسليم لله لم يلبث أن مسح  
الأحزان العارضة ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمسك أصحابه ويخفف  
ما نزل بهم ، ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما يملؤها عزاء ورضاً عن الله ،  
واستكانة لفضائه<sup>(٢)</sup> .

روى الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> : لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون قال رسول  
الله صلى الله عليه وسلم : استتروا حتى أثنى على ربي عز وجل !

فصاروا خلفه صفوفاً فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت

(١) هو من حديث سهل بن سعد المتقدم آنفاً .

(٢) حديث لا يصح ؛ ذكره ابن هشام ( ٢ / ١٤٩ ) بدون اسناد ؛ ولم أجده عند  
غيره وقد نقله عنه الحافظ ابن كثير ( ٤ / ٤٠ ) وابن حجر في « الفتح » ( ٨ / ١٩٧ )  
ولم يوصله .

(٣) في المستد ( ٣ / ٤١٤ ) والحاكم أيضاً ( ١ / ٥٠٧ ؛ ٣ / ٢٣ - ٢٤ ) وقال :  
الحاكم : « صحيح على الشيعين » قلت : إنما هو فقط صحيح فان فيه عيبين رفاعه  
ولم يخرج له الشيعيات ومن أخطاء الذهبي أنه في أحد الوضعين وافق الحاكم على تصحيحه  
وفي الموضع الآخر قال : « والحديث مع نظافة اسناده منكر » كذا قال ؛ ولم أعرف  
تلقوله وجهاً ؛ والله أعلم :



ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى  
لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت . اللهم  
أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك . ورزقك .

اللهم : إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك  
العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم : إني عائد بك من شر ما أعطيتنا  
وشر ما منعتنا . اللهم : حبيب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر  
والفسوق والاصبيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم : توفنا مسلمين وأحينا مسلمين  
والأحقتنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين اللهم : قاتل الكفرة الذين يكذبون  
رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم : قاتل  
الكفرة الذين أتوا الكتاب . إله الحق ..

• • •

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في « أحد » على عكس  
ما نزل في « بدر » من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من  
حساب المنكسر . في المرة الأولى قال :

« تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب  
من الله سبق لسقم فيما أحزنتم عذاب عظيم » .

أما في « أحد » فقال :

« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة \* ثم صرفكم عنهم  
ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

حسب الخطئين ما لحقهم من أضرار الهزيمة ، وفي القصص العاجل درس يذكر  
الخطيء بسوء ما وقع فيه .

وقد أجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين المؤمنين ، حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يقل قواهم ، حصرة تشل اتناجهم ...

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ \* هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ \* وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ماجهلوا من سنن الدين والحياة . أو يذكركم بما نسوا من ذلك . فبين أن المؤمن - مهما عظمت بالله صلته - فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له ، أو يظن قوانينها الثابتة طوع يديه .

كلا كلا . فالخذر البالغ والعمل الهائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه الرسومية ، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ، وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع .

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ . وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِهَا بَيْنَ النَّاسِ » .

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ » ؟

وأولو الأبواب يستحيون أن يطالبوا السلعة الغالية بالتمنن التافه . وهم يبدون استعدادهم للتضحية بانفسهم لقاء ما ينشدون . بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام الروع .

إن الإنسان — في عاقبته — قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخذاع .

فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ، ثم حادوا عنه لما جاء .

« وَاقْدِرْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ! .

ثم عاتب الله عز وجل من سقط في أيديهم ، وأنكسرت هممتهم ، لما أضيع أن الرسول عليه الصلاة والسلام مات . ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ! إنهم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص .

ولو افترض أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يثبتوا في مستنقع الموت ، وأن يردوا المصير نفسه ، الذي وردة قائدهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ..

إن عمل محمد عليه الصلاة والسلام ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمة من فكر الإنسان وضميره . فإذا أدى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها !

لقد جمع محمد الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله . والذين ارتبطوا به ، عرفوه إماماً لهم في الحق ، وصلته لهم بالله .

فإذا مات عبد الله ، ظلت الصلة الكبرى بالحى الذى لا يموت ، باقية نامية :  
« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَاِنَّ يَضُرَّ اللهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ » .

وقد استطرد النظم الكريم يبصر المؤمنين بمواطن العبرة فيما نالهم ، ويعلمهم كيف يتقون في المستقبل هذه المآزق ، وينتهز هذه السكوبة العارضة فيعزل عن جماعة المسلمين من خاطوهم على دخل ، وعاشروهم على نفاق .

ولئن أفادت وقعة « بدر » في خذل الكافرين ، إن وقعة « أحد » أفادت مثلها في فضح المنافقين ، ورب ضارة نافعة ، وربما صححت الأجسام بالعمل .

ولعل ماترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة ، درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التي لا يحكمها أمر واحد ، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لاتنجح في صدام ، بل لاتشرف نفسها في حرب أو سلام .

والأمم كلها . مؤمنها وكافرها ، تعرف هذه الحقيقة . ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة ، وعندما تشتبك أمة في حرب ، تجعل أحزابها جبهة واحدة وأهواءها رغبة واحدة ، وتخذ كل تمرد أو شذوذ ينجم في صفوفها .

وإحسان الجندية كإحسان القيادة :

فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة ، فإن إتقادها يحتاج إلى كبح وكبت ولاسكن عقبي الطاعة في هذه الشئون ، تعود على الجماعة بالخير الجزيل .

وأمرع الناس إلى الشعب والتمرد ، من أقصوا عن الرئاسة وهم إليها طامحون . وكان عبد الله بن أبي مثلاً لهذه الفئة التي تضحي بمستقبل الأمة في سبيل أطاعها الخاصة . . .

أما الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أما كنهم مهما كانت أطوار القتال فقد مرت بهم فترة ضعف وذهول ، تيقظت - خلالها - بقية في أنفسهم من حب الدنيا ، والإقبال على هرضها الزائل فكان إثر ذلك ما كان :

ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قبلت عليهم الأمور ، بين الله لهم أنهم هم مصدرها : فما أخلفهم موعداً ، ولا ظلمهم حقاً :

(أولاً أصابكم مصيبةٌ قد أصبتم مثلها قلتم : أليس هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قديرٌ) .

إن الإسلام يشترط لكامل لعمل وقبوله . الإيمان والاحتساب ، والتجرد .

### شهداء أحد

أخذت قريش طريقها إلى مكة وقد استخفها النصر الذي أحرزته .

لأنها طارت به على عجل ، كأنها خبر واثقة مما نالت بعد الهزيمة التي حاقت بها

أول القتال !!

وأقبل المسلمون يتحسسون مصابهم في الرجال . ويحجزون القتلى أيضاً جمعهم التي يبرزون منها للقاء الله يوم ينفخ في الصور .

روى ابن إسحاق<sup>(١)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رجل ينظر لي

---

(١) أخرجه من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني مصرحاً بسماعه منه مرفوعاً به ، كما في سيرة ابن هشام (١٤٠/٣ - ١٤١) وهذا إسناد معضل وقد رواه الحاكم (٣٠١/٣) من طريق محمد بن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فذكره . وأنا أخشى أن يكون سقط من السند «محمد» بن عبد الله بن عبد الرحمن ، بن إسحاق ، وعبد الله بن عبد الرحمن فإنهم لم يذكروا ابن إسحاق في الرواة عن عبد الله بن عبد الرحمن ، وعليه يكون الحديث مرسلًا وبه أهله الذهبي لأن عبد الله ، هذا تابعي وأما أيوه عبد الرحمن بن أبي صعصعة فصحابي فلو أن سند الحاكم سلم من السقط لكان الحديث متصلًا ولما أهله الذهبي بالإرسال والله أعلم . والحديث رواه مالك في الموطأ (٢١/٢) عن يحيى بن سعيد له معضلا ، ونقل = (١٩ - فقه السيرة)

ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا. فنظر، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق. فقال له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامي! وقل له: إن «سعد بن الربيع» يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته! وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم: إن «سعد بن الربيع» يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُصص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف...!!

قال: ثم لم أبرح حتى مات، وجئت النبي عليه الصلاة والسلام فأخبرته خبره. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن الشهداء حيث قتلوا. ورفض أن ينقلوا إلى مقابر أسرم.

قال جابر بن عبد الله: لما كان يوم أحد جاءت عمتي بأبي لتدفنه في مقارنا، فننادى منادى رسول الله: ردوا القتلى إلى مضاجعهم<sup>(١)</sup>.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى «أحد» في نوب واحد. ثم يقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإن أشير إلى أحدهما

---

== السيموطي في «تنوير الحوالك» عن ابن عبد البر قال: «هذا الحديث لا أحفظه ولا أعرفه إلا عند أهل السير فهو عندم مشهور معروف» قلت: قد رواه الحاكم أيضاً من حديث زيد بن ثابت قال: بمعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع... وقال الحاكم: صحيح الإسناد «ووافقه الذهبي»، وفي سنده أبو صالح عبد الرحمن بن عبد الله الطويل، ولم أجد الآن ترجمته.

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٦٣/٢) والنسائي (٢٨٤/١) وابن ماجه (٢٦٤/١) وأحمد (٢٩٧/٣؛ ٣٠٧، ٣٩٧، ٣٩٨) بسند صحيح عن جابر.

قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء! وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم، ولم يغسلهم.. (١)

ولما انصرف عنهم قال: أنا شهيد على هؤلاء ما من جريح يخرج في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك (٢).

• • •

إن معركة «أحد» تركت آثاراً غائرة في نفس النبي عليه الصلاة والسلام ظلت تلازمه إلى آخر عهده بالدنيا. في هذا الجبل الهامكن الجاثم حول «يثرب» أودع (محمد) أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه. فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة، وعادت في سبيل الله الأفر بين والأبعدين، واغتربت بمقائدها قبل الهجرة وبمدها، وأنقت وقانت، وصبرت وصارت، هذه الصفوة اختط لها القدر منوها الأخير في هذا الجبل الأشم فتوسدت تراه راضية مرضية. وكان رسول الله يتذكر سير الأبطال الأبطال ومصابرهم فيقول: (أحد) جبل يحبنا ونحبه (٣).

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٦٣/٣ - ١٦٥، ١٦٩؛ ٣٠٠/٧) والنسائي (٢٨٨/١) والترمذي (١٤٨/٢) وصححه، وابن ماجه (٤٦٠/١) وأحمد (٤٣١/٥) من حديث جابر أيضاً.

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٣١/٥، ٤٣٢) وابن هشام (١٤٢/٢) كلاهما من طريق ابن إسحاق: حدثني الزهري عن عبدالله بن ثعلبة بن صعير العنزي سرفوعاً. وهذا مسند صحيح وابن صعير صحابي صغير فهو مرسل صحابي وهو حجة. وكذلك أخرجه البيهقي (١١/٤) من طريق ابن عيينة عن الزهري به وأخرجه أيضاً من طريق أخرى عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه به. وإسناده صحيح أيضاً.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (٣٠٢/٧) ومسلم (١٢٤/٤) وغيرهما من حديث أنس وغيره.

فلمّا حانت وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطولة، أن يزور قتلى «أحد» وأن يدعو الله لهم ، وأن يعظ الناس بهم !!

عن عقبه بن عامر قال . صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى «أحد» بهـ  
ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات . ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط .  
وأنا عليكم شهيد . وإن موعدكم الخوض . وإني لأنظر إليه من مقامى هذا . وإني لست  
أخشى عليكم أن تشركوأ ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها . !!  
قال عقبه : فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله (١).

• • •

على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفئدتهم ، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي  
حل بهم ! وكان تكاثر خصومهم حولهم سببا في أن يقاوموا عوامل الخور  
وأن يبذروا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين . على نحو ما قال الشاعر :

وَجَلْدِي لِلشَامَتِينَ أُرِيهِمْ أَنِي لِرَبِّ الدَّهْرِ لَا أَنْضَعُ

وقد كانت الهزيمة في «أحد» فرصة انتهزها المنافقون واليهود ، وكل ذى غمر  
على محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وأصحابه فقارت المدينة كالرجل المتقد وكشف  
عن عذارته من كان قبلا يواربها . وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان  
السماء لآبى المرسل من عند الله .

فراى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعيد تنظيم رجاله على عجل ، وأن يتحمل

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣/١٦٤، ٧/٢٧٩-٢٨٠؛ ٣٠٢) ومسلم (٧/٧) وأحمد (٤/١٤٩، ١٥٣؛ ١٥٤) والبيهقى (٤/١٤).



الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد ، يخرج في أعقاب قريش ليطاردها  
ويمنع ما قد يجد من تكرار عدوانها ١١

كانت معركة « أحد » في السبت ، خمسة عشر من شوال ، وكان خروج هذا  
الجيش في الأحد لسته عشر منه ...

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حراء الأسد (١)  
واقتربوا من جيش أبي سفيان ، وكان رجال قريش - بعد أن ضمهم الفداء الرحب -  
سعد عادوا إلى التفكير فيما حدث . وأخذوا يتلاومون : يقول بعضهم لبعض : لم  
تصنعوا شيئاً . أصبتم شوكة القوم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، وقد بقيت منهم  
دروس يجتمعون لكم !

لأن هذا التفكير نزل إثر ما عرفت قريش أن المسلمين عبأوا قواهم وخرجوا  
يستأنفون للقتال .

وحار المشركون في أمرهم ، أيعودون للحرب لا يأمنون مغبتها ، وربما أفقدتهم  
ثمار النصر الذي أحرزوه ؟ أم يمضون - لتوم - إلى مكة ؟ وفي هذه الحال يتحسن  
مركز المسلمين ، وتخف مرارة الهزيمة التي لحقتهم .

وقد رأى « أبو سفيان » أن يغتم الأوبة الراجعة ، وأن يبعث إلى المسلمين من  
يقذف بالرهب في قلوبهم ، ويخبرهم أن قريشاً عادت لاستئصال شأفتهم بعد أن  
تبين لها خطؤها في تركهم ١٠٠

وعسكر المسلمين بـ « حراء الأسد » ثم جاءهم دسيس أبي سفيان ،

(١) رواه ابن هبيرة عن أبي الأسود عن غروة بن الزبير مرسل كما في البداية وذكره  
بأين هشام عن ابن إسحاق بدون سند .

يفريهم بالعودة إلى يثرب نجاة بأنفسهم من كرة المشركين عليهم ، وهم لا يقدرُونَ  
على ملاقاتهم !

بيد أن المسلمين قبلوا التحدّي ، وظلّوا في معسكرهم يوقدون النار طيلة ثلاث  
ليالٍ في انتظار قريش التي ترجّح لديها أن النجاة بنفسها أولى فعادت إلى مكة .  
وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى ، أرفع ره وسمًا ، وأعز جانبًا .  
وفي هذه المظاهرة الناجحة ، وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب  
وفي ثباتهم على التثييط واطمئنانهم إلى جانب الله ، نزلت الآيات الكريمة .

( الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ  
وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ  
اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ) .

## آثار واحد

انتفض على الإسلام كثير ممن هادنه أو داهنه .

وبرغم مظهر البأس الذي أبداه المسلمون في مطاردة المشركين حتى « حرام  
الأسد » فإن هزيمة « أحد » كانت أبعاد غيراً مما يظنون .

لقد جرأت عليهم أعراب البادية ، وفتحت لهم أبواب الأمل في الإغارة على  
المدينة وانتهاب خيرها .

كما أن يهود عانوا بسخريتهم ، وتركوا وساوس الغش تلح عليهم ، وتكدر  
سويتهم مع المسلمين ..

ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة وقياد الدعوات بعد

الانكسارات الخطيرة . وإن كان الرجال يستسهلون الصعب ، ويصابرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات .

وقد جاءت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لما يداؤوا جراحاتهم في «أحد» إلا أن الأحداث لا تنتظر ، فقد أخذ البدو يتحركون نحو المدينة ، يحسبون أن ما فيها أصبح غنيمة باردة ، وأول من تهباً لغزو المدينة بنو أسد ، فسارع رسول الله إلى بعث أبي سلمة على رأس مائة وخمسين رجلاً ، ليبعث القوم في ديارهم قبل أن يقوموا بغاراتهم <sup>(١)</sup> .

ولم يلق أبو سلمة عناء في تشتيت أعدائه واستياق نعمهم أمامه ، حتى عاد إلى المدينة مظفراً ، وأبو سلمة يعد من خيرة القادة الذين صحبوا رسول الله وسبقوا إلى الإيمان والجهاد معه وقد عاد من هذه الغزاة مجهوداً ، إذ نقر جرحه الذي أصابه في «أحد» ، فلم يلبث حتى مات .

وحاول «خالد بن سفيان الهذلي» أن يمشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي عبد الله بن أنيس فقتله <sup>(٢)</sup> وهو يجتهد في تأليب القبائل للهجوم على المدينة .

---

(١) ذكر هذه السرية ابن كثير في «البداية» (٤/٦٩-٦٢) من طريق الواقدي بإسناد له معضل ! والواقدي متروك !  
(٢) رواه أبو داود (٢/١٩٦) والبيهقي (٣/٢٥٦) وأحمد (٤/٤٩٦) من طريق ابن عبد الله بن أنيس سماه عن أبيه وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/٢٩٥) «إسناد جيد» وقال الحافظ بن حجر في «الفتح» (٢/٣٥٠) «إسناده حسن» . قلت : وابن عبد الله بن أنيس سماه البيهقي في روايته «عبيد الله» وكانه تحريف من الناسخ أو الطابع ؛ فقد أورده ابن أبي حاتم فيمن اسمه «عبد الله» مكبراً . وقال : «روى عن أبيه ؛ وروى عنه محمد بن إبراهيم التيمي» ولم يذكر فيه جرحاً ولا تدليلاً . وقد روى عنه محمد بن جعفر بن الزبير أيضاً وهو الذي روى عنه هذا الحديث والله أعلم .

وثارت « هذيل » لرجلها بأن أعانت على تسليم أسرى المسلمين إلى أهل مكة  
في غزوة الرجيع .

وأصل قصة « الرجيع » هذه ، أن وفدأ من قبائل عضل والقارة ، قدم على  
رسول الله يذكر أن أنباء الإسلام وصلت إليهم ، وأنهم يحتاجون إلى رجال  
يعلمونهم الدين ويقرئونهم القرآن . فأرسل النبي معهم رهطاً من الدعاة برأسهم  
« عاصم بن ثابت » فانطلق الجميع حتى إذا كانوا بين « عسفان » و « مكة »  
قريباً من مياها « هذيل » شـهر الدعاة بأن أمحاهم غدروا بهم واستصرخوا  
هذيلاً عليهم ...

وفزع الدعاة إلى أسلحتهم يقاتلون الغادرين ومن أعانهم من قبيلة هذيل ، وماذا  
يجدى قتال نفر بدون على الأصابع لنحو مائة من الرماة ، وراهم قومهم يشدون  
أزرهم ؟ لذلك لم يلبث عاصم وصحبه أن قتلوا .

واستسلم للأسر منهم ثلاثة نفر ، « خبيب » و « زيد بن الهدنة » و « عبد الله  
ابن طارق » . فاسترقهم الهذليون وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها . ومعنى بيعهم  
بمكة تسليمهم للقتلة المنزبصين . فإن أولئك النفر ، من الرجال الذين قاتلوا مع رسول  
الله صلى الله عليه وسلم في « بدر » و « أحد » . ولأهل مكة لديهم ترات يودون  
الاشتفاء منها . وقد حاول عبد الله الإفلات من هذا المصير فقتل . وأما « خبيب »  
و « زيد » فأخدهما رجال قريش ليقتلوهما ، أخذاً بنأرهم القديم .

فأما « زيد » فابتاعه صفوان بن أمية ، ليقتله بأبيه ، ولما خرجوا به من  
الحرم ، اجتمع حوله رهط من قريش - فيهم أبو سفيان بن حرب - فقال له  
أبو سفيان - حين قدم ليقتل - : أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمدآ الآن عندنا  
مكانك ، تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمدآ الآن

في مكانه الذي هو فيه تصديه شركة تؤذيه وإنما جالس في أهلى .  
فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .  
ثم قتل زيد .

وأما «خبيب» فقد اشتراه عقبته من الحارث ليقتله بأبيه ، فلما خرجوا به «خبيب»  
من الحرم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا قالوا :  
دونك فاركع . فركع ركعتين أنهما وأحسنهما ، ثم أقبيل على القوم فقال :

أما والله لولا أن نظنوا أنى إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة  
فكان «خبيب» أدل من سن هاتين الركعتين عند القتل ثم رفعوه على خشبة .

فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسلك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم  
قال : - اللهم احصهم عدداً . واقتلهم بدداً ولا تقادر منهم أحداً<sup>(١)</sup> واستقبل الموت  
وهو يندد :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى  
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوى ممزع

\* \* \*

حزن المسلمون لفقدانهم عاصماً وصحبه ، ولصرع أسيرهم على هذا النحو

---

(١) رواه ابن هشام (١٦٧/٢ - ١٦٩) عن ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر  
ابن قتادة مرسلًا . وهذا سند صحيح لولا الإرسال ؛ لكن رواه البخارى فى صحيحه  
(٣٠٣/٧ - ٣٠٨) وأحمد (١٩٤/٢) ؛ ٢١٠ ؛ موصولاً من حديث أبى هريرة نحوه  
وفيه الآيات الآتية .

الفاجع ، فقد خسر فريقاً من الدعاة الأ كفاء الشجعان ، يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترة من تاريخه . ثم إن اصطيد الرجال هذه الطريقة زاد المسلمين توجساً وقلقاً : إذ أن ذلك المسلك دل على مبلغ طاعة العرب في أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم ، دون تخوف أو محاذرة قصاص !

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أى وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل الرابية ، إن أن ضرورة بث الدعوة - مهما فدحت الخسائر - جعلت النبي ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لا بد منه . كالتاجر الذى يتحمل المغارم الثقيلة حيناً من الدهر ، لأن الانسحاب من السوق بغية تجنبها - قضاء عليه . فهو يبقى متحملاً حتى تهب الرياح من جديد ، رُخاء تعوض ما فقد . وذلك سر استجابة الرسول لأبي براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنه حين عرض عليه أن يرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد .

وقد أبدى النبي خشيته من أن يصاب رجاله بسوء ، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذمامها . فقال أبو براء : أقالهم جار<sup>(١)</sup> !!

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا بئر معونة . وكانوا سبعين من خيار المسلمين يعرفون بالقراء ، محتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، ويمحون على هذا النسق الرتيب بين جهاد للحياة ورغبة في الآخرة .

فلما أمرهم الرسول بالسير لإبلاغ رسالات الله ، خرجوا ، وما كانوا يعرفون أنهم - جميعاً - يحشون الخطأ إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجائها ...

---

(١) رواه ابن هشام (١٧٤/٢) عن ابن إسحاق بسند صحيح مرسل . كذلك رواه الطبراني عن ابن إسحاق كما في « المجمع » ( ١٢٨/٦ - ١٢٩ ) ورواه الطبراني أيضاً من حديث كعب بن مالك رضى الله عنه نحوه قال الهيثمي « ورجاله رجال الصحيح » .

وحينما انتهى القراء إلى « بئر معونة » بمنوا أحدهم - حرام بن ملحان - إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع ، فأعطاه كتاب النبي الذي يدعو فيه إلى الإسلام فلم ينظر « عامر » في الكتاب وأمر رجلا من أتباعه أن يقتال حامل الرسالة ، فما شعر حرام إلا وطئته بجلاء فخرق ظهره وتنفذ من صدره ، وكان هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلا يتمناها من قديم فقد صاح حرام على أثر ذلك فرزت ورب الكعبة . !

ومضى « عامر » في غشمه ، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم ، فانضمت إليه قبائل « رِعْل » و « ذكوان » و « القارة » فهجم بهم عامر على القراء الوادعين .

ورأى هؤلاء الموت مقبلا عليهم من كل صوب ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى ، إذ استطاع الأعراب الهمج أن يشوشهم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم .

وكان في سرح القراء إثنان لم يشهدا هذه المأساة . منهم « عمرو بن أمية الضمري » ولم يعرفا النبأ الحزن ، إلا من أفواج الطير المتوحشة ، تطلق نحو المعسكر محومة حول الجيئث الملقاة على الرمل الأعفر ، طاعمة مما تستطيع اختطافه بأظفارها ومناقرها . قالا : والله إن لهذه الطير لثأنا فأقبلا لينظرا فإذا القوم مخرجون في دماهم ، وإذا الخليل التي أصابتهم واقفة ! قال زبيل عمرو له : ماذا ترى ؟ قال عمرو : أرى أن نالحق برسول الله نقص عليه الخبر . لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى المنذر لذلك أجاب عمرو ابن أمية قائلا : ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر ! وما كنت لأبقى حتى أفص خبره على الرجال ! وهجم على الأعراب يقتلهم حتى قتل

وأخذ عمرو وأسيراً . فاعتقه « عامر بن الطفيل » كبير الغادرين عن رغبة زعم أنها على أمه !

o o o

ورجع « عمرو » إلى النبي حاملاً معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة « أحد » إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ، وأولئك ذهبوا في غدر شائن .

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظاً ، وهم لم يضيّعوا بمخسائرهم فحسب بل الذي أخرج مشاعرهم في هذه الحادثة ، أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غل كامن على الاسلام وأهله ، غل عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء ، وأباح لكل قادر أن يلحق الأذى بالؤمنين متى شاء وكيف شاء .

وفي طريق « عمرو » إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من بني عامر فقتلتهما نائراً لأصحابه ، ثم تبين أنهما من كلاب ، وأنهما معاهدين للمسلمين .

ولما قدم « عمرو » على الرسول عليه الصلاة والسلام وأخبره الخبر ، قال النبي للناس (١) : إن أصحابكم أصيبوا ، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا (٢)

ثم قال النبي لعمرو : لقد قتلت قتيلين لأدينتهما (٣) وانشغل بجمع ديانتها من المسلمين وحلقائهم اليهود !

o o o

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧ / ٢١٢) عن طريق هشام بن عروة عن أبيه مرسل . لكن رواه بنحوه موصولاً من حديث انس (٧ / ٣٠٩ ؛ ٣١٠ ؛ ٣١١) ؛ والطبراني من حديث ابن مسعود كما في « المجمع » (٦ / ١٣٠) .  
(٢) رواه الطبراني وابن هشام من طريق ابن إسحاق بسنده مرسل . وقد تقدم قريباً .



إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوباً كثيرة ، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل : وارتقاهم المزيد من الفتح ، زاد ضمن الضاغنين ، وقد كان الناقون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور « إذ يقول المناقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » . هير أن هذه الكراهية اختفت أمداً بعد انتصار « بدر » ، بل لعل هذا النصر أغرى جمهوراً من الضعاف والمترددین بالإنضواء تحت علم الهدى الجديد . فلما تقلبت الايلى بالمسلمين ، ولحقهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت ، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان .

وقد قلنا : إن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك هذه الحال بعد « أحد » فهذل جهده يستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم ، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتباع « أحد » بمثلها أو أشد ، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد .

على أن الخسائر تلاحقت بالمسلمين في « الرجيع » و « بئر معونة » كما مر بك ودخل الإيمان في محنة بعد أخرى ، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الواثقون صلتهم بربهم ، واطمئنانهم إلى غدهم ، وشرعوا يردون الضربة بمثلها ، فلما تحرك اليهود في هذه الآونة العصيبة ليعتالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتوان في إزال العقوبة الرادعة بهم .

### إجلاء بنى النضير

وتفصيل ذلك التندر أن النبي عليه الصلاة والسلام ذهب إلى منازل بنى النضير ليستعين بهم في دية القتيلين اللذين قتلها « عمرو بن أمية » مرجه من بئر معونة ، فلما فاوضهم الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس

إلى جنب جدار من بيوتهم ، ينتظر وفاءهم بما وعدوا . لكن يهود خلا بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا :

إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - خلوا بال واطمئنان - فن رجل يعلو ظهر هذا البيت ، فيأتي عليه صخرة ، ويرجمنا منه ؟

وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم ألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطر المدبر له فنهض - عجبلا - من جوار البيت الذي اضطلع إلى جداره ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

وشعر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بتنبئه ، فقاموا في طلبه فإذا رجل مقبل من المدينة يخبرهم أنه رآه يدخلها ، فأسرعوا يلحقون به ، فلما انتهوا إليه . أخبرهم بما كادت له يهود ، وقد عرف - بعد - أن عمرو بن جحاش هو الذي أراد قتل النبي بالقاء الرمح عليه ، ولم ينج الشقي من عواقب جرمه ، ولا نجا قومه ، فإن رسول الله مالبث أن استدعى محمد بن مسلمة وقال له اذهب إلى بني النضير فمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يسأكنوني بها ، وقد أجلتهم عشرا فن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه (١)

ولم يجد يهود مناصحاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، بيد أن منافق المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ، أرسلوا إليهم : أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه ! فعادت لليهود ثقتهم ، وامتقر رأيهم على اللذواة ، وأرسلوا للنبي

---

(١) رواه نحوه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » في غزوة بني النضير بدون إسناد لكن روى البيهقي - كما في تفسير ابن كثير ( ٣٣٣/٤ ) - بإسناد عن محمد بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام ؛ ورجاله ثقات غير محمود بن مسلمة ترجمة ابن أبي حاتم ( ٢٩٠١/٤ ) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . فهو في عداد المجهولين .

صلى الله عليه وسلم يقولون له : لن نخرج ، فافعل ما بدالك ، ثم احتسبوا  
بخصونهم واستمدوا للقتال ، وزادهم إصراراً على المقاومة ما تراه إليهم من أن  
ابن أبي أعد أنى مقاتل نصرتهم ، ونهض النبي صلى الله عليه وسلم لناجزة  
القوم وتحدي من ينضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى أو من مشركى العرب  
وفرض الحصار على مساكن بنى النضير ، وأمر بتقطيع نخيلهم (١) . ثم جد  
الجدد ورأى اليهود للوت ، ووقع الرعب فى قلوب أعوانهم ، فلم يحاول أحد أن  
يسوق لهم خيراً أو يدفع عنهم شرأ مع أن اشتباك المسلمين بخصومهم فى هذه الفترة  
المرجحة من تاريخهم . لم يكن مأمون العواقب . وقد رأيت كلب العرب عليهم  
وفسكهم الشنيع ببعوثهم ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة ، تجعل  
استسلامهم بعيد الاحتمال وتعمل فرض القتال معهم محفوفاً بالكاره إلا أن الحال  
التي جدت بعد مأساة « بئر معونة » وما قبلها ، زادت حساسية المسلمين بجرائم  
الاغتيال والعدو التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً وضاهقت نعتهم على  
مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير بعد همهم باغتيال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم - مهما تكن النتائج .

وقد جاءت النتيجة فى مصلحتهم بأسرع مما يتصورون ، فاندحر اليهود ، ونزلوا  
على حكم المنتصر الذى أذن لهم بالجلاء عن ديارهم ، ولم ما حملت إبلهم من أموال  
ما عدا السلاح (٢) .

وفى هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأكملها ، فوصفت طرد اليهود فى صدرها

(١) هذا الأمر صحيح أخرجه الشيخان ، غيرهما من حديث ابن عمر .  
(٢) رواه الحاكم ( ٤٨٣ / ٢ ) من حديث عائشة ، وفيه نزول الآية الآتية ، وقال :  
صحيح على شرط الشيخين « ووافقه الذهبي ! وإنما هو صحيح فقط لأن زيد بن المبارك  
الصنعاني وشيخه محمد بن نور ليسا من رجالهما .

« هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتَهُمْ حَصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ . يَخْرَبُونَ مَيْوَتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ . » .

ثم فضح القرآن مسلك منافقي المدينة الذين حاولوا إعاقة يهود ، في غدرها وحر بها ، وحرصوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من إمداد وعتاد فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ؟ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ لَئِن أَخْرَجْتُمُنَا لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ أَوْ اللَّهُ يُشْهِدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* لَئِن أَخْرُجُوا لَيَخْرُجُنَّ مَعَهُمْ \* وَلَئِن قُوتِلُوا لَيَنصُرُنَّهُمْ \* وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدَارَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ . » .

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون دون تضحيات ، توطن سلطانهم في المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجبهة بكيدهم ، وأمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد « أحد » وتواثبوا على بهوث الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران .



وتأديباً لأولئك الغادرين خرج النبي عليه الصلاة والسلام بجوس فيافي نجد ، ويطلب ثار أصحابه الذين قتلوا في « الرجيع » و « بئر معونة » ، ويأتي بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة حتى لا يعاودوا مناكرهم التي ارتكبوها مع المسلمين .

وقام النبي صلى الله عليه وسلم - تحقيقاً لهذا الغرض - بغزوات شتى أرهبت القبائل المقيمة وخطت بمشاعرها الرعب ... فأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في ردوس الجبال بعدما قطعوا الطرق على الدعوة ردحاً من الزمن وفي مقدمة هؤلاء - بنو لحيان وبنو محارب ، وبنو ثعلبة من غطفان .

فما خضد المسلمون شوكتهم ، وكفكفوا شرهم ، أخذوا يتجهزون للملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش .  
وحقُّ لحمد وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أباسفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفرقيين وأجدرهاا بالبقاء .

## بدر الآخرة

لم ينشط أبوسفيان للوفاء بالبيعةا الذي ضربه عند منصرفه من «أحد» بلى خرج من مكة متثاقلاً يفكر في عقبى القتال مع المسلمين ، وهو - بعدُ - لما يتخذ لهذا القتال أهبته التي يودها . إن قومه هزموا في «بدر» على كثرة مددم ووفرة عدتهم ، واستخلصوا النصر في «أحد» بعد جهد فاشل .

ولولا الخطأ الذي وقع فيه جيش التوحيد ، ماظفرت قريش بهذه الفرقة . لذلك ما كاد أبوسفيان يقترب من «الظهران» حتى بداله في الرجوع فصاح بقومه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامك هذا عام جذب ، وإنى راجع فارجبوا ...  
وهكذا انسحبت قريش من المعركة المنتظرة .

أما المسلمون فإنهم نفرروا للملاقاة المشركين على استعداد وحمامة ، حتى وصلوا إلى ماء «بدر» فمسكروا حوله ، يملنون وفاءهم بكلمتهم ، وتأهبهم للحرب الموعودة (٣٠ - فقه السيرة)

وظلوا ثمانية أيام برقبون مقدم أهل مكة ، ويمسحون عن سمعتهم آخر ما نركت هزيمة (أحد) من غبار .. وكان ذلك في شعبان من السنة الرابعة من الهجرة .

## دومة الجندل

وانتقل زمام المفاجأة إلى أيدي المسلمين بعد أن نكصت قريش عن مواجهتهم .  
فالتفتوا إلى الشمال ، بعد أن توطدت مهابتهم في الجنوب .  
وشمال الجزيرة يجاور سلطان الروم القديم ، والعرب الضاريون هناك لا يخشون بأس أحد بعد القيصر .

وقيصر نفسه لا يتوقع أن تنبت في الجزيرة قوة تناوئه أو تنجاهله .  
وجاءت الأخبار إلى المدينة أن القبائل حول دومة الجندل - قريباً من الشام -  
تقطع الطرق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وقد بلغ بها الطيش حدّاً ، فسكرت معه  
أن تهاجم المدينة ، وأن جمعاً كبيراً احتشد بها للاندفاع في هذه الغارة !  
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من المسلمين ، يمكن بهم نهاراً ،  
ويسير ليلاً حتى يفاجيء أعداءه وهم غارون . والمسافة بين يثرب و «دومة الجندل»  
خمس عشرة ليلة ، قطعها المسلمون بمعونة دليل ماهر . فلما بلغوا مضارب خصومهم ،  
اجتاحوها مباغتتين ، فقرت الجموع المتأهبة للسطو ، وأصاب المسلمون سوائهم  
ورعادهم وكانت لبني تميم .

أما أهل الدومة فقرروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ،  
وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام عدة أيام يبعث السرايا ، ويبعث رجاله هنا  
وهناك . فلم يثبت للقائهم هارب .

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وكان توجههم لعرب الشمال في ربيع الأول من  
السنة الخامسة .

هندما كان الإسلام دعوة تعالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق  
الجهرة والتهم دون مبالاة . فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة ،  
حلكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة ، فأمسى الكيد له يقوم  
على المكر . والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعان بها الأقوياء . واثمار  
الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام . بل  
إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجهة .

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو ، وإن كان  
بعضها يستحي من استخدامه الرجل الشريف !

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته بأسلوب  
تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد ، ويفلب عليها الضعف ،  
أسلوب اللمز والتعريض حيناً ، والإفك والافتراء حيناً آخر .

وكما تولدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضعفاً  
عليهم وربصاً بهم . وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنتهم الرسول بالجلد ، فلما لم  
يقف مد الإسلام شيء ، ولم تهدء هزيمة ، وأخذت القبائل العادية تخنق واحدة تلو  
أخرى ، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم للسوء إلا  
على فلتات الألسنة ومزلق الطباع . فكانت عيرتهم تلك ، مثار فتن شداد  
تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئاً غير قليل .

وظهر ذلك جلياً في « غزوة بني المصطلق » . فإن الأنبياء أقت الرسول عليه  
الصلاة والسلام بأن هذه القبيلة تجمع له وتستعد لقتاله وأن سيدها الحارث بن أبي  
خرار قد استكن عدته لهذا المسير فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين  
اليطفيء الفتنة قبل اندلاعها .

وخرج مع الرسول عليه الصلاة والسلام هذه المرة جميع المنافقين الذين لم يعتادوا

الخروج قبلاً . ولعل ثقتهم بانتصار محمد عليه الصلاة والسلام أغرتهم بالذهاب معه ، ابتغاء الدنيا لا انتصار الدين .

وانتهى المسلمون إلى ماء يسمى « المريسيع » اجتمع لديه بنو المصطلق ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن يعرض الإسلام على القوم فنأدى عمر فيهم : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فأبوا وترامى الفريقان بالنبل .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته فحملوا عليهم حملة رجل واحد . فلم يفلت من المشركين أحد . إذ وقعوا جميعاً أسرى بعدما قتل منهم عشرة أشخاص ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قتل خطأ . وسقطت القبيلة — بما تملك — في أيدي المسلمين<sup>(١)</sup> .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعامل المهزومين بالإحسان : فلما جاء الحارث قائد القبيلة المنكسرة يطلب ابنته التي وقعت في الأسر ردها عليه . ثم خطبها منه<sup>(٢)</sup> .

---

(١) رواه بنحوه ابن جرير في تاريخه (٢/٢٦٠ - ٢٦٢) من طريق ابن إسحاق بسنده مرسل . وكذلك رواه ابن هشام في « السيرة » (٢/٢١١ - ٢١٨) وهذا الإسناد مع ضعفه ليس فيه أمر عمر بعرض الإسلام . وقد أشار الزرقاني على اللوالب (٢/٩٧) لضعف هذه الزيادة . وحق له ذلك فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم ما يقتضى ضعفها فقال ابن القيم في « الزاد » (٦/٥٨٦) بعد ذكر نحو ما هنا من القتال .

« هكذا قال عبد الرحمن بن خلف في سيرته وغيره وهو وم فإنه لم يكن بينهم قتال وإنما أغار عليهم على الماء فسي ذرارهم وأمواهم كما في الصحيح : أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون وذكر الحديث » راجع « فتح الباري » (٧/٣٤٦) .

(٢) هذا غير صحيح ، وقد أشار لذلك ابن هشام في سيرته (١/٣٦٧) فإنه ذكر هذه الرواية بدون إسناد وصدرها بقوله : « ويقال » والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم =



وتزوجها فاستحي الناس أن يسترقوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاطلقوا  
 مَنْ بأيديهم من الأمرى ! فكانت جوهرية بنت الحارث من أئمة الناس  
 على أهلها . فقد أعنتي في زواجها مائة أهل بيت من بني المصطلق ...

على أن هذا النهر الميسر شابه من أعمال المنافقين ما عكس صفوه وأنسى للمسلمين  
 حلالته ، فإن خادماً لعمرك كان يسقى له من ماء المرسيع ، ازدحم مع مولى لبني  
 حوف من الخزرج وكذا يقتتلان على الورود - شأن الخدم الطائشين - فصاح  
 الأول : يا لاهاجرين ، وصاح الآخر : يا للأنصار ! واستمع إلى صياح الأتباع  
 عبد الله بن أبي ، وكان في رهط من قومه ، فرأى الفرصة سانحة لإثارة حفائظهم  
 وإحياء ما أماته الإسلام من فترات الجاهلية فقال : أو قد فعلوها ؟ نارونا وكأرونا  
 حتى بلادنا أما والله لنرجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعرس منها الأذل . ثم أقبل على  
 قومه - ولم نزل له فيهم بقية وجاهة - يلومهم ويحرضهم على التنكر للرسول عليه  
 الصلاة والسلام وصحبه فذهب «زيد بن أرقم» إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقص  
 عليه الخبر وأسرع بن أبي إلى رسول الله يبرئ نفسه وينفي ما قاله !!

ورأى الحاضرون أن يقبلوا كلام بن أبي رعاية لمنزله ، وقالوا : الغلام -  
 يعنون : زيد بن أرقم - أوهم ، ولم يحفظ ما قيل .

على أن الحقيقة لم تفت النبي صلى الله عليه وسلم فأحزنه ما وقع ، ووجد خير  
 علاج له شغل الناس عنه حتى يعفى على آثاره ، فأصدر أمره بالارتحال في ساعة  
 ما كان يروح في مثلها ، ومشى بالناس سائر اليوم حتى أمسوا ، وطيلة الليل حتى  
 أصبحوا ، وصدر يومهم الجديد حتى آذتهم الشمس ثم نزل بهم .

==  
 قضى عنها كتابتها وتزوجها دون أن يحظبها من أيها فإنها كانت أجنبية كما رواه ابن  
 إسحاق - عند صحيح عن عائشة رضی الله عنها . ومن طريقه أخرجه أحمد ( ٢٧٧/٦ )  
 وابن هشام ( ٢١٨/٢ - ١١ ، ٢٦٤ ) وفي حديثها قصة إطلاق الأسرى .

فما إن وجدوا مساً الأرض حتى وقعوا نياماً وتتابع الرسول عليه الصلاة والسلام  
رواح، حتى عاد إلى المدينة .

ونزلت سورة المنافقين ، وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم « يقولون :  
لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ » \* والله العزَّة ولرسوله  
والمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون » (١) .

لم يدُرْ بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكتوبة  
دنيئة يحمك أطرافها « عبد الله بن أبي » ثم يرمى بها بين الناس ، فتسير مسير  
الوباء الفاتك .

إن هذا الرجل حلف كاذباً بعد أن أنكر مقالته الثابتة ، ولو أن الجبان  
ذهب يطلب النجاة من عقابها ، لكان ذلك أجدى عليه ، لكنه لم يزد — على  
السمح الذي قوبل به — إلا خسة وخصاما والذنون بعيد بين أصناف الرجال  
الذين عادوا الإسلام ورسوله . لقد كان « أبو جهل » خصماً لدوداً لكل من  
دخل هذا الدين ، وكان طاغية عنيداً لا تنتهي لجأته ، إلا أنه كان كالضجج  
المفترس لا يحسن الاتواء والوقية ، حمل السيف في وضح النهار ، وما زال يقاتل  
به حتى صرع .

أما عبد الله بن أبي ، فقد اختفى كالعقرب الخائنة ، ثم شرع يلسع الغافلين .  
قبح هذا المنافق في جنح الظلام . وبدأ ينفث الإشاعات المريبة .

وتدلى — في غوايته — إلى حضيض بعيد ، فلم يبال أن يتهم على الأعراض  
المصونة ، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات .

في عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق إلى المدينة ، نبت  
حديث الإفك وشاع ، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان

(١) هذا تمام مرسل ابن إسحاق الذي ذكرته آنفاً .

قاسدين - من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام - أن يدسروا على الرسول صلى الله عليه وسلم بيته ، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه ، وأن يدعوا جمهور المسلمين - بعد ذلك - يضطرب في عماية من الأسمى والغم !!

وللوصول إلى هذه الغاية ، استباح ابن أبى لنفسه أن يرمى بالفحشاء سيده لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة ، لاتعرف الشر ، ولا تهم بمنكر ، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالى . وهى التى تربت في حجر صديق ، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة . وتلقف العامة هذا الحديث الغريب ، وهم في غمرة الدهشة لا يدرون مبالغ الخطر السكامن في قبوله ونقله .

إليك سرداً لهذا الحديث المفتعل على لسان السيدة التى تعرضت له وبرئت منه .

### حديث الإفك

قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأتيهن خرج سهمها خرجت معه . فلما كانت « غزوة بنى المصطلق » خرج سهمى عليهن ، فأرتحلت معه ! قالت : وكان النساء إذ ذك يأكلن العلق ، لم يهيجهن اللحم فيقتلن ، وكنت إذا رحل بعيرى جلست في هودجى ، ثم يأتى القوم فيحملونى يأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ، ثم يضعونه على ظهر البعير ويشدون بالحبال وبعدئذ ينطلقون . قالت : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذاك توجه قافلاً ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل . ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل فتهيئوا لذلك وخرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عقد لى ، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، ورجعت إلى الرحل فالتصت عقدى فلم أجده ! وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فعدت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتصته حتى وجدته .

وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير - وقد كانوا فرغوا عن إعداده - فأخذوا المودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكوا لى به ثم أخذوا برأس البعير وانطلقوا !!

ورجعت إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب . لقد انطلق الناس ! قالت : فتلفتت بجلبائى ثم اضطجعت فى مكابى وعرفت أنى لو أفتقدت لرجع الناس إلى فو الله لى لمضجعة ، إذ مر بى « صفوان بن المعطل السلمى » وكان قد تخلف لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على - وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ظعينة رسول الله ؟ وأنا متلفة فى ثيابى !!

ما خلفك برحمتك الله ؟ قالت : فما كآمته ، ثم قرب إلى البعير : اركبى ، واستأخر عنى . قالت : فركبت وأخذ برأس البعير منطاماً يطلب الناس فو الله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزلوا ، فلما اطمأنوا طاع الرجل يقود بى البعير ، فقال أهل الإفك ما قالوا . وارتج العسكر ، وو الله ما أعلم بشىء من ذلك .

ثم قدمنا للمدينة فلم ألث أن اشتكيت شكوى شديدة ، وليس يبلغنى من ذلك شىء ، وقد أنهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبوى ، وهم لا يذكرون لى منه كثيراً ولا قليلاً . إلا لى قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه لى فى شكواى هذه .

فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل على وعندى أمى تمرضى قال : كيف نيكم ؟ لا يزيد على ذلك . قالت : حتى وجدت فى نفسى - غضبت - فقلت يا رسول الله - حين رأيت مارأيت من جهنم لى - : لو أذنت لى فأنتملت إلى أمى ؟ قال : لا عليك قالت : فأنتملت إلى أمى ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نعت من وجهى بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوماً عرباً ، لانتخذ فى بيوتنا هذه الكهف التى

تفخذها الأعاجم ، نعاها ونسكرها ، إنما كنا نخرج في فمبح المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل ليلة في حواشهن . فخرجت ليلة ليهض حاجتي ومعى أم مسطح ، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت في مسطحها فقالت : تعس مسطح ؟ فقلت : بئس — لعمر الله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرأ ! !

قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخبر ! فأخبرتني بالذى كان من أهل الإفك . قلت : أو قد كان هذا ؟ !  
قالت : نعم . والله لقد كان ! .

قالت عائشة : فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى . ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى . وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : أى بنية ، خفنى عنك فوالله أقل ما كانت امرأة حسناء . عند رجل يحبها ، ولها ضرأر ، إلا كثرن وكثر الناس عليها .

قالت : وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبهم — ولا أعلم بذلك — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟

والله ما علمت عليهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى ! قالت : وكان كبر ذلك عند « عهد الله ابن أبى » فى رجال من الخزرج ، مع الذى قل « مسطح » و « حمنة بنت جحش » وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدنيها فلم تقل إلا خيراً . وأما « حمنة » فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى بأختها . فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ،

إن يكونوا من « الأوس » نكفكمهم ، وإن يكونوا من إخواننا « الخزرج »  
فرنا أمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . فقام « سعد بن عبادة » -  
وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لعمر الله ، ماتضرب أعناقهم  
إنك ماقلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك  
ماقلت هذا .

فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ..  
وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شر ، ونزل رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ، فدخل على ودعا « علي بن أبي طالب » و « أسامة بن زيد »  
فاستشارهما . فأما « أسامة » فأتني خيراً ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ، وما نعلم  
منهم إلا خيراً . وهذا الكذب والباطل !  
وأما ( علي ) فقال : يا رسول الله إن النساء لكثير . وإنك لتقدر على أن  
تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ( بريرة ) يسألها ، وقام إليها على فضربها  
ضرباً شديداً وهو يقول : اصدقني رسول الله ! فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً وما  
كنت أعيب على عائشة ، إلا أني كنت أعجن عجيني ، فأصرها أن تحفظه ،  
فتنام عنه ، فتأتي الشاة وتأكله ! !

قلت : ثم دخل على رسول الله وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار  
وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :  
يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقي الله ، وإن كنت قد فارقت  
سوءاً مما يقول الناس ، فتوبى إلى الله يقبل التوبة عن عباده ..

قالت : فوالله ، إن هو إلا أن قال لي ذلك حتى قلص دمي ، فما أحس منه  
شبهتاً ، وانتظرت أبوي أن يجيبا مني فلم يتسكلا !

قالت عائشة: وأيم الله لأننا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأننا من أن ينزل الله في قرآننا، لكنني كنت أرجو أن يرى النبي عليه الصلاة والسلام في نومه شيئاً يكذب الله به عني، لما يعلم من براءتي. أما قرآننا ينزل في، فوالله، لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

قالت: فلما أرى أبوي يتكلمان! قلت لهما: ألا تحببان رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقالا: والله لاندري بما نجيبه، قالت: والله ما أعلم أهل البيت دخل عليهم، ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام. ثم قالت: فلما استعجبا عليّ استعبرت فبكيت ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول للناس - والله يعلم أني بريئة - لأقولن ما لم يكن. ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني قالت: ثم التمس اسم يعقوب فما أذكره. فقلت: أقول ما قال أبو يوسف (فصبر جميل<sup>١</sup> والله المستعان على ما تصفون).

فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بشوبه ووضعت وسادة تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت وما باليت، وقد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي. وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما مرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، ثم سرى عن رسول الله مجلس وإنه لينحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شاتٍ، فجلس يمسح العرق عن وجهه ويقول: أبشري يا عائشة، قد أنزل الله عز وجل براءتك فقلت: الحمد لله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات:

«إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ

هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الآثم والذي تولي كبره<sup>١</sup> منهم له عذاب عظيم» (١).

والغريب أن الحد أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف، وهم (حسان بن ثابت) و(مسطح) و(حننة) أما (عبد الله بن أبي) مدرّ الحملة وجرثومها الخفية، فإنه كان أحذر من أن يقع تحب طائلة العقاب. لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه...

وكتاب السيرة على أن (حديث الإفك) و(غزوة بني المصطلق) كانا بعد الخندق لسكننا تابعا (ابن القيم) في اعتبارها من حوادث السنة الخامسة قبل هجوم الأحزاب على المدينة. والتحقيق يساند (ابن القيم) ومتابعيه. فستعلم أنه (سعد بن معاذ) قتل في معركة الأحزاب. مع أن لسعد في غزوة بني المصطلق شأنًا يذكر. إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام اشتكى إليه (٢) عمل ابن أبي ولا يتفق أن يستشهد سعد بن معاذ في غزوة الخندق ثم يحضر بعد ذلك في بني المصطلق، لو صح أنها وقعت. في السنة السادسة.

## غزوة الأحزاب

أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربت كل طائفة مفردة. وأنها ربما تبلغ أمهاتها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة وكان زعماء

(١) هذه القصة صحيحة رواها بهذا السياق ابن إسحاق بأسانيد صحيحة عن عائشة. ومن طريقه أخرجها ابن هشام في «السيرة» (٢/٢٠٠ - ٢٢٢) وهي عند اليعاقري (٧/ - ٤٤٧ - ٣٥) ومسلم (٨/١١٣ - ١١٧) بنحو ما هنا.  
(٢) لعله وم أو سبق قلم، فإن للشككي إمامه إنما هو أسيد بن حضير كما في سيرة ابن هشام (٢/٢١٧). على أن إسناده مرسل فلاحجة فيه. وفي الباب مما يؤيد ماذهب إليه ابن القيم أشياء صحيحة فيراجع لها «فتح الباري» (٢/٤٤٥).



يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة ، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدهم في جيش كثيف ينزله محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه في معركة حاسمة .

وذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، وكانت قريش قد أخلفت عندها مع النبي عاماً .

وهي لا بد خارجة لقتال المسلمين إنقاذاً لسمعتها وبرأ بكلمتها .

وها هم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبتغون فلا مكان لتوجس أو إخلاف .

والغريب أن أحبار التوراة أكدوا لعبدة الأوثان في مكة أن قتال محمد صلى الله عليه وسلم حق ، واستئصاله أرضى الله ! لأن دين قريش أفضل من دينه . وتقليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن ! ، وسرت قريش بما سمعت ، وزادها إصراراً على التمرد . فواعدت اليهود أن تكون معها في الزحف على المدينة .

رترك زعماء اليهود قريشاً إلى أعراب « غطفان » فمقدوا معهم حلفاً مشابهاً لما تم مع أهل مكة ودخل في هذا الحلف عدد من القبائل الناقة على الدين الجديد

وبذلك نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي صلى الله

عليه وسلم ودعوته ، وعرف المسلمون مبالغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا - على عجل - الخطة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودواتهم ، وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب - قبلاً - بمثلها ، وهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة .

أما هذه المرة فإن المسلمين حفروا خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة من ناحية السهل

ويفصل بين المغيرين والمدافعين .

وأُقبلت الأحزاب في جمع لا قبل للمسلمين برده .

قربش في عشرة آلاف من رجالها ومن تبعهم من « كنانة » و « تهامة »  
و « غطفان » في طليعة قبائل « نجد » .

وبرز المسلمون بعد ما جعلوا نساءهم وذرائعهم فوق الآطام الحصينة من يثرب .  
ثم انتشروا على حدود مدينتهم مسندين ظهورهم إلى جبل سلع ، ومرابطين على  
شاطيء الخندق الذي احتفروه بعد جهود مضنية ، وبلغت عدتهم في هذه المعركة  
نحو ثلاثة آلاف مقاتل .

\* \* \*

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة في  
مساحة ممهدة ليس طريق النصر . فما عسى أن تصنع قلة مؤمنة مكافحة مع هذا  
السيل الدافق ؟

لذلك لجأ إلى هذه المكيدة ، ويروى أن الذي أشار بها « سلمان الفارسي »  
وتقدم النبي رجاله لإحكامها وإنجازها ، فأخذ يحفر بيده ويحمل الأتربة والأحجار  
على عاتقه وتأمى به الرجال الكبار ممن لم يألفوا هذا العمل قط ، فشهدت يثرب  
منظراً عجباً ، وجوهاً ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفتوس وتحمل  
المكاتل ، وتتحرى من لباسها وزينتها لتلبس حلالاً من نسج الغبار المتراكم  
والعرق واللغوب !! .

قال البراء بن عازب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقل التراب يوم  
الخندق حتى اغبر بطنه وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا  
فأنزلن مسكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بَنَوْا علينا إذا أرادوا فتنه أَيْنَا (١)

وهذا الغناء من شعر « عبد الله بن رواحة » كان المشتغلون في الخندق يزيحون التعب عن أعصابهم بالاستماع إلى نغمه وترديد الكلمات الأخيرة من مقاطعة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمد صوته بها معهم فيقول : لاقينا ، أَيْنَا (٢) مما يعيد إلى أذهاننا صور « القعدة » الذين يحفرون الترع بالريف ، أو يبنون القصور بالمدن .

إن الدفاع عن الإسلام ، وخفاة الفتنة لو انتصر المشركون ، جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابه يعالجون هذا العمل الثقيل ، ونفوسهم راضية مقبضة ، مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة .

ولا تحسبن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعميق الخندق وقذف أتربة من قبيل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا . كلا . كلا .

إن الرجولة السكادحة الجادة في أنبل صورها . كانت تقتبس من مسلك الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه للعرّة . يقول البراء : لقد وارى عنى التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر (٣) .

أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه . فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل . . وكان الفصل شتاء ، والجو بارداً وهناك أزمة في الأفوات تعانها المدينة التي توشك أن تتعرض لحصار عنيف ، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان في صحيحهما .

(٢) حديث صحيح وهو رواية للبخاري عن البراء بن عازب .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ( ٣١٩/٧ ) .

فلو تعرّض المحصور لسوراته القابضة ، فزال الاستسلام للذليل أمامه تنجرُّ به إلى الحضيض لذلك اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في تدعيم القوى المعنوية لرجاله ، حتى يوقنوا بأن الضائقة التي تواجههم سبحانه صيف عن قليل تقشع .

ثم يستأنف الإسلام مسيره بعد ، فيدخل الناس فيه أفواجا ، وتندكُّ أمامه معاقل الظلم ، فلا يصدر عنها كيد ، ولا تخشى منها فتنة .

ومن إحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد للمضي .

قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان ، وحذيفة ، والنعمان بن مقرن ، وستة من الأنصار في أربعين ذراعا — من الأرض التي كلفوا بحفرها — فحفرنا حتى وصلنا إلى صخرة بيضاء كسرت حديدنا وشقت علينا ، فذهب سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره عن هذه الصخرة التي اعترضت عملهم وأعجزت معاولهم .

فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ من سلمان للعول ، ثم ضرب الصخرة ضربة صدمتها . وتطير منها شرر أضواء خلل هذا الجو الداكن . وكبر رسول الله عليه الصلاة والسلام تكبير فتح ، وكبر المسلمون . ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك .

تفتتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأيد الجلد ، الموصول بالسماء الراسخ على الأرض ، ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى صحبه وقد أشرق على نفسه الكبيرة شعاع من الثقة الغامرة والأمل الحلو ، فقال — يحدث صحبه عن السنا المنقذ بين حديد العول وحدة الصخر — : لقد أضاء لي في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . وفي الثانية أضاء القصور الحجر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمي

ظاهرة عليها . وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعود صادق (١) ! .

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيقوا عليها الخناق لم تطر نفوس المسلمين شعاعاً بل جاهوا الحاضر المرّ وهم موطدو الأمل في غد كريم « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيماناً وتسلية . »

أما الواهون والمرتابون ومرضى القلوب . فقد تندرأوا بأحاديث الفتح ، وظنوها أمانى المغرورين وقالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنتم تحفرون الخندق لاستطيعون أن تبرزوا .

وفيهم قال الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم سرّاء ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

\* \* \*

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب . فتقلّى الفريقين من المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع . ومع تلك الحقيقة فهي من أحسن المعارك في تاريخ الإسلام إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها

(١) ضعيف جداً بهذا السياق رواه ابن جرير في تاريخه من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده . و « كبير » هذا متروك بـل قال الشافعي وأبو داود ركن من أركان الكذب وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه (٤/١٠٠) « حديث غريب » وقصه الصخرة ثبتت في صحيح البخاري (٧/٣١٧) من حديث البراء مختصراً ، وهي عند أحمد (٤/٣٠٣) من حديثه مطولاً ، وإسناده حسن كما قال الحافظ في « الفتح » (٧/٣١٧) ، فيحسن جملة مكان حديث « كبير » .

أشبهه بمصير رجل يمشى على حافة قمة سامقة ، أو جبل ممدود ، فلو اختل توازنه لحظة وقد السيطرة على موقفه ، لهوى من مرتفعه إلى واد سحيق ، ممزق الأعضاء ، ممزق الأشلاء ، ولقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يهددها بالغرق ليلاً أو نهاراً . وبين الحين والحين يتطلع المدافعون : هل اقتحمت خطر طهم في ناحية ما من منطقة الدفاع ؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غضاباً يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم ، ويقطعوا أوصال هذا الدين النائر .

وعرف المسلمون ما يتربص بهم وراء هذا الحصار ، فقرروا أن يرابطوا في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقترب ، ويتحملون لأواء هذه الحراسة التي تنظم السهل والجبل ، وتتسع ثغورها يوماً بعد يوم وهم كما وصف الله تعالى : ( إذ جاءوكم من فوقكم ومن أمتل منكم . وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ) هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً .

وكره فوارس من قریش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو ، فإن فرض الحصار وترقب نتائجه ليس من شيمهم ، فخرج عمرو بن عبدود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، وأقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على حافة الخندق . فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، وضربوا خيلهم فقتلته . وأحس المسلمون الخطر المقترب ، فأسرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقودهم علي بن أبي طالب .

وقال علي لعمر بن عبدود ، وهو فارس شجاع معلم : يا عمرو إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قریش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال : أجل فقال له علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، قال عمرو :





























## مع قريظة

انقضت حشود الأحزاب حول المدينة ، وعادت المطى إليها من حيث أتت  
مذرع رحاب الصحراء وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة ، وتقى يهود قريظة  
وخدمهم ، أو بقوا وبقيت معهم غدرتهم التي فضحت طراياهم ، فأصبحوا وأمحووا  
أشبهه بالجرم الذي ثبت إدانته ، فهو يرقب - بوجه كالح - قصاص  
العدالة منه .

وكانت مشاعر التغيظ في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها ،  
إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجاً ، واستقدموهم إلى دار الهجرة  
ليجتاحوها من أقطارها ، ويستأصلوا المسلمين فيها ؛ إن جراحات المسلمين لطردهم  
من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم ، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب  
ومغتال ، لما تندمل بعد ، بل لن تندمل أبداً ، فكيف ساغ لأولئك الخونة  
من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطه لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا  
الذبح الذليل ؟

ثم ما الذي يجعل بني قريظة خاصة - وهم لم يروا في جوار محمد إلا البر  
والوفاء - يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في  
قتل المسلمين وسلبهم ؟

وها قد دخل في حصونهم حي بن أخطب رأس العصابة التي طافت بمكة ونجد  
تخرض الأحزاب على الله ورسوله ، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد . .  
لذلك ، ما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة حتى أمر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً يأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا  
يصلين العصر إلا في بني قريظة (١) .

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن هشام (٢ / ١٩٤ - ١٩٥) عن ابن اسحاق  
حدثني الزهري به مرسل ، وقد أخرجه البخاري (٣٢٧ / ٧) ومسلم (١٦٢ / ٥) وغيرهما  
من حديث ابن عمر ، به دون قوله : « من كان سامعاً مطيعاً » .

والأذان للقتال في هذه الضحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين ندياً جلياً، فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم ، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب ؟ إنهم مدينون بحياتهم وكرامتهم للعناية العليا وحدها ..

أما خصومهم ، فإن قوى الكون المسخر بإذن الله هي التي فضت جموعهم وفلت حدودهم . فلاخرو وإذا قال رسول الله للمؤمنين - محدثاً عن الروح الأبن - : « ما وضعت الملائكة السلاح بعد .. إن الله يأمرك بالحمد بالسير إلى بنى قريظة ، فإني عامد إليهم فززل بهم (١) .

وقد صدع الرسول بالأمر وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه روى البيهقي أن رسول الله قال لأصحابه : عزمت عليكم أن لاتصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بنى قريظة ، فغربت للشمس قبل أن يأتوهم . فقالت طائفة من المسلمين : إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا . وقالت طائفة : والله إنا لنرى عزيمته رسول الله ، وما علينا من اثم . فصلت طائفة إيماناً واحتساباً . وتركت طائفة إيماناً واحتساباً ، ولم يعنف رسول الله واحداً من القريظين (٢) .

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر مادامت عن اجتهاد برىء سليم ، والناس غالباً أحد رجلين ، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة

---

(١) هو من حديث الزهري للتقدم . لكن أخر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بالمسير ثابت في صحيح البخارى (٣٢٧/٣) والمسند (٥٦/٦ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ٢٨٠) من حديث عائشة .

(٢) حديث صحيح رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من حديث عميد الله بن كعب ، وحديث عائشة ، وأخرجه عنها الحاكم (٣ / ٣٤ - ٣٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ؟

لا يعدوها ورجل يقين حكمتها ويستكشف غايتها ، ثم يتصرف في نطاق ملوعى من حكمتها وغايتها ، ولو خالف الظاهر القريب .

وكلا الفريقين يشفع له إيمانه ، واحتسابه ، سواء أصاب الحق أو ندَّ عنه ! ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال . وذلك مذهب البخارى وغيره ، وهذا — عندى — أذى إلى الصواب . فإن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم في الحياة ، بل إنه لا يفهم دينه فهماً صحيحاً إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب .

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى . فيها الفرائض وفيها النوافل . ولا بد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . فالرجل الذى يستكثر من أعمال التطوع في الوقت الذى يهمل فيه فرائض لازمة . رجل ضال .

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان . كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم . وكان أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها ، أو الزلالية وحدها ، بل لا بد من استكمال جل مفعوعة من الغذاء ، وإلا تعرض الجسم لعزل قد تنهك أو تقتله .

فكذلك الدين ، إنه لا قيام له في كيان الفرد أو في صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملونة ، تصون حياته وتضمن عافيته ونماءه .

وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة فلا يشغله واجب عن واجب . وبالأخرى لا تشغله نافلة عن واجب ! .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مباحته بنى قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقوموا حصونهم ، هو الواجب الأول في تلك الساعة فلا ينبغي أن يشغل المسلم عنه ولو بالصلاة .

فحرد وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال .

وتستطيع - على ضوء هذا الإرشاد النبوي - أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم إن المدرس الذى ينشغل عن تعليم تلامذته . والتاجر الذى ينشغل عن تمير ثروته ؛ والموظف الذى ينشغل عن أداء عمله لا يقبل الله من أحدهم عذراً أبداً فى تضييع هذه الفرائض ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة . أو قرأ ألف آية ، أو عد أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة . كما يفعل جهال المتصوفة .

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها فى محاربة جهلها وقرها ووضاها .

والجهاد العام فريضة لا يعض من قدرها شئ ، ولا تراحمها عو وقها عبادة كما رأيت .



حمل راية المسلمين إلى حصون قريظة على بن أبى طالب واستبق المسلمون يمتشدون حولها ، حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غرايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ثم سبوا رسول الله ونساءه سباً قبيحاً .

فراى على أن يصرف النبي صلى الله عليه وسلم بميبدأ عن أولئك السفهاء ، فاعترض طريقه وهو مقبل قائلاً . يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث فقال : لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله قال : لو رأونى ، لم يقولوا من ذلك شيئاً .

فلما دنا من حصونهم قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم همته (٢) ؟ قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً :

(١) ضعيف أخرجه ابن اسحاق عن الزهري مرسلًا ؛ وعنه ابن هشام (٢/١٩٤ - ١٩٥) ؛ ورواه الحاكم (٣/٣٤ - ٣٥) من حديث ابن عمر ؛ وإسناده ضعيف .

هذه خلال اليهود، يسفون إذا أمنوا ، ويقتلون إذا قدروا ، ويذكرون  
الناس بالمثل العمليا إذا وجلوا ، ليستفيدوا منها وخدم لاشيء آخر .  
أما العمود ، فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده .  
على أن سفاهتهم لم تفهم . فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم ، وأمسكوا  
بمخافتهم فاستيقن القوم أن الامتسلام لا محيص عنه ، وامتألت قلوبهم بالأس  
والفزع .

قال « كعب » سيد بنى قريظة . يامعشر يهود قد نزل بكم من الأمر ماترون  
وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شتم . قالوا : وما هي ؟  
قال فتابع هذا الرجل ونصده . فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل ، وإنه  
الذي تجدون في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونساءكم  
قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا . ولا نسبدل به غيره .  
قال : فإذا أبيتم على " فإنا لنقتل أبناءنا ونساءنا . ثم نخرج إلى محمد وأصحابه  
رجالا مصليين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه  
فإن هلك ، هلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن ظهر ، فلعمري لنجدن  
النساء والأبناء .

قالوا نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟  
قال : فإن أبيتم على " هذه ، فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد  
وأصحابه قد أمنوا فيها . فأنزلوا علينا نصيب منهم غرة ؟

قالوا : نفسد سبتنا علينا ومحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا ؟  
قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما .  
وحارل بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذي ناله إخوانهم بنو النضير من قبل ،  
بيد أن المسلمين أبو اعليهم إلا أن يسلموا دون قيد أو شرط ، فإن ما أسلف هؤلاء

من جرم بين وغدر شان ، أحفظ عليهم الصدور ، فلم يبق فيها مكان لسماح ،  
وتمحض الموقف للعدل المجرد يقرُّ الأمور في نصابها كيف يشاء .

واستقدم اليهود — وهم محصورون — أبا لبابة بن عبد المنذر يستشيرونه .  
أينزلون على حكم محمد ؟ فقال لهم : نعم ، وأشار إلى حلقه ، كأنه ينبههم إلى أنه  
الذبيح ؟ ثم أدرك — لقوره — أنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضى هاماً  
على وجهه حتى أتى مسجد المدينة . فربط نفسه على سارية فيه . وحلف ألا يفك  
حتمها حتى يتوب الله عليه .

وقد قبل الله منه ندمه ، ونزلت فيه بعد أيام الآية ( وآخرون اعترفوا  
بجذوبهم خاطبوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله  
غفور رحيم ) .

واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة سمح المسلمون في اثنائها لليهود الذين رفضوا  
الغدر بالرسول عليه الصلاة والسلام أيام الأحزاب أن يخرجوا فجزوهم عن وفاتهم  
خيراً . وخالو سبيلهم ، ينطلقون حيث يبنون .

ثم قرروا أن يهجموا على الحصون المغلقة ويقتحموها عنوة .

فصاح على : يا كتيبة الإيمان — ومعه الزبير بن العوام — والله لأذوقن ماذاق  
— حمزة أو لأفتحن حصنهم فقال بنو قريظة : يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ .

فاستنزلوا من حصنهم وسيقوا إلى محبسهم ، حتى جرى بسعد بن معاذ ليقضى  
في حلفائه بما يرى ..

وكان « سعد » سيد الأوس وهم حلفاء قريظة في الهاهلية ، وقد توقع يهود أن  
هذه الصلة تنفعهم ، وتوقع الأوس أيضاً من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم  
الأفدمين ، فلما استقدمه الرسول عليه الصلاة والسلام ليصدر حكمه . جاء من



الخيمة التي برّض فيها إثر إصابته بسهام الأحزاب واكتنفه قومه يقولون 4 :  
يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك . . .

لكن سعداً لم يذس - في ضجيج الرجاء الموجه إليه - أن الإسلام وأبناءه ،  
والمدينة وثمارها وحرثها ونسائها وحرمانها ، لم تنج من وطأة الأحزاب المهاجرين ،  
إلا بأعجوبة خارقة . وأن بنى قريظة هؤلاء ومن آوؤهم ، كانوا المحرضين والشركاء  
المقبوحين في هذه الحرب التي أعلنت لاستئصال للتوحيد الحق واجتياح أهله .

ولم يذس سعد : كيف نقضت قريظة عهدا ، واستقبلته بالألغاز البذيئة عندما  
ذهب يناديها الوفاء ! ألم يقل لهم يومئذ : أخشى عليكم مثل يوم بنى النضير  
وأمر منه ؟ فكان ردهم عليه ، أكلت أيرأيك ! !

لذلك مالبت سعد أن صاح بقومه - وقد أكتروا عليه الرجاء - : قد آن  
لسعد ألا تأخذه في الله لومة لأثم .

• • •

وحكم سعد أن يقتل الرجال ، ونسبى القرية وتقسّم الأموال ، وأفر النبيُّ هذا  
للقضاء الخازم قائلاً لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات (١) .

وحفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم ، وسبق إليها مقاتلة لليهود  
أرسالا - طائفة بعد أخرى - ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم .

قال اليهود لسيدهم كعب وهم يساقون لمصارعهم : ما تراه يصنع بنا ؟ قال .  
أفي كل موطن لاتعلمون ؟ الأ ترون الداعي لاينزع وإنه من ذُهب به منكم  
لا يرجع ؟ هو - والله - القتل .

---

(١) حديث صحيح أخرجه الإسحاق وعنه ابن هشام (١٩٧/٢) عن علقمة بن  
وقاص الليثي مرسلًا ؛ لكن أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري دون  
قوله : « من فوق سبع سموات » فهذا ضعيف .

أجل . هو القتل . وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرض له بسوء صنيعه ،  
وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق ، ولو قد تحققت لكان ألوف  
المسلمين هلكت تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم  
أولئك اليهود .

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سبباً في هذه الكارثة التي حلت  
ببني قريظة ، ولو أن حبي من أخطب وأضراجه مكثوا في جوار الإسلام وعاشوا  
على ما أوتوا من منافع ، ماترضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير .  
لسكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها .

وفي عصرنا هذا ، دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثماناً باهظة ،  
لأثرة السياسة الخدوعين ..

ولذلك ينعي القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قبائحهم :  
( ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .  
جهنم : يصلونها وبئس القرار ! ) ...

لقد جرى بحبي ليلقي جزاءه . وحبي - كما علمت - جرثومة هذه الفتن ؟  
فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أما والله ما لمت نفسي في  
عداوتك ، ولسكن من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ،  
لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة ، كتبها الله على بني إسرائيل ! ثم جلس ،  
فضربت عنقه !

وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه      ولكنه من يخذل الله يخذل  
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها      وقلقل بيني العز كل مقلقل

والحق أن من مشركي قريش ومن رجال يهود أناساً واجهوا الموت بثبات .  
ولن تعدم المبادئ الباطلة والنحل الهائلة أتباعاً يفتقدونها بالأرواح والأموال  
غير أن شيئاً من هذا لا يجعل الباطل حقاً ، ولا الجور عدلاً .

إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس ، هو موقفهم من المسلمين اليوم .  
فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت وهم يمتلون فلسطين .

والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر في أقطار أوروبا ، وجبنوا عن  
مواجهتهم بشرية ! وامتعضفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من اثني عشر قرناً ،  
فكفكواهم على النحو الخزي القاضح ، الذي لا يزال قائماً في فلسطين ... تشهده  
وتؤيده ونسائده ، دول الغرب .



في طرد الأحزاب ودخر قريظة ، نزلت الآيات ( وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا )  
وأنزل الذين ظاهروا وهم من أهل الكتاب من صياصبيهم ، وقذف في قلوبهم  
الرشع فربقاً تقتلون ونأسرون فربقاً ه وأورثكم أرضهم وديارهم  
وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرًا ) .

فقد المسلمون في هذا الصراع ، مع المشركين أولاً ، ومع أهل الكتاب ثانياً ،  
عدداً يسيراً من رجالهم منهم « سعد بن معاذ » . أجاب الله دعوته فمات شهيداً  
من جراحته التي أصابته يوم الأحزاب بعد أن شفى الله غيظه من يهود قريظة وبعد  
أن تبين فشل قريش في هجومها على المدينة ، وانقلابها انغزى في عمر دارها ،  
لانتغزو الآخرين .

ولم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بأهزام قريظة وانكسار شوكتها ، فإن

بعض مؤلبي الأحزاب على الإسلام قرّ إلى خير لا ئذا بمحصولها مستظهِراً  
بإخوائه فيها ، مثل أبي رافع بن أبي الحقيق ، وهو شريكٌ حميٌّ في التطواف  
بالتقبائل يستجلبها إلى يثرب بنية الإتيان على الإسلام وأهله وابس يؤمن لليهود  
شراً بما بقيت لهم قدرة على فعله . وقد صورّ حديث الرسول نقمة اليهود على الإسلام  
بقوله : « ما خلا يهودى بمسلم إلا هم بقتله <sup>(١)</sup> » ولا نعرف لهذه النقمة الدافينة علة ،  
إلا انحراف أصحابها عن الجادة . ومن حق المسلمين أن يحذروها ، وأن لا يدعوا  
لها بقية تنموا على الزمن .

لذلك خرج من المدينة خمسة من الخزرج ذاهبين إلى خير ، بغيثهم القضاء على  
أبي رافع وإلقاء الذعر في قلوب شيعته وقد أمرّ الرسول عليهم عبد الله بن عميتك  
ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة ... <sup>(٢)</sup>

وقدم المغامرون أرض خير . وانهوا إلى دار ابن أبي الحقيق وقد أظلمهم  
الساء . قال عبد الله بن عميتك لصحبه . — عند مادنوا من الحصن — : امكثوا  
أنتم حتى أنطلق أنا فأناظر . قال : فاحتملت لأدخل الحصن ، فإذا الخدم قد دوا  
حماراً لهم فخرجوا بقبس بطلبونه ، فخشيت أن أعرف ، فغطيت رأسي وجلست  
كأنى أفضى حاجة .

فقتل البواب — بعدما استرجعوا حاجتهم — : من أراد أن يدخل فليدخل  
قبل أن أغلقه ، فدخلت واختبأت في مربوط الدواب عند باب الحصن .

وتعشى أبو رافع وصحبه ، وأخذوا يسرون حتى ذهبت ساعة من الليل ثم  
انصرف عنه جاسأؤه قائلين إلى بيوتهم ، وهدأت الأصوات فما أسمع حركة .

(١) حديث ضعيف أخرجه الخطيب في « تاريخ بسنداد » ( ٢١٦ / ٨ ) وقال  
« حديث غريب جداً » .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري عن البراء بن عازب .

وخرجت . وأنا أعرف أين وضع البواب مفاتيح الحصن فأخذتها وفتحت الباب حتى إذا أحس بي القوم انطلقت على مهل . ثم عمدت إلى أبواب غرفهم فغلقتها من ظاهر . ثم صعدت إلى أبي رافع - حيث يبني في العلالى - فإذا البيت مظلم قد أطفئ سراجة . فلم أدرك : أين الرجل ؟ . فقلت : يا أبا رافع ! قال : من هذا ؟ فعمدت نحو الصوت فضربته ، فصاح ولم تكن الضربة شيئاً .

وجئت كأنى أغيبه فقلت : مالك يا أبا رافع ؟ - وغيرت صوتى - قال : لأملك الويل ، دخل على رجل فضربنى بالسيف ! فعمدت إليه فضربته ضربة ثانية . فصاح ، وقام أهله ، فجئت مرة أخرى إليه وهو مستقل على ظهره فأجمرت عليه ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل ، فسقطت منه فأنخلعت رجلى ، فعضبتها وأتيت أصحابى أحجل .

وعاد القوم إلى المدينة يبشرون من وراءهم أنهم أزاخوا من طريق الدعوة عقبه كأداء .

تضمض الكفر بعد هذه الوقعات العظيمة . ورسى أصول الإسلام واطمأن دولته . فما انتهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح المسلمون قوة تفرض نفسها وتذيق المعاندين بأسها . واستيقنت قريش وأحلافها أن رد المسلمين إلى عبادة الأوثان ضرب من المستحيل كما استيقن اليهود أن خصامهم الخبيث الدين الجديد والرسالة الخاتمة لم يزدحم إلا خيالاً .

ولم تقع بعد غزوة الأحزاب هذا العام إلى أخريات السنة السادسة - أى إلى عمرة الحديبية - أحداث ذات بال .

حاولت هذيل أن تجمع للاغارة على المدينة ، فقتل قائدها خالد بن سفيان ، فعمدت وهجم لصوص الأعراب على المدينة يقودهم « عبيدة بن حصن » فى خيل لظفان . واستاقوا إبلها ثم ولواها هارين . غير أن سلمه بن الأكوع صرخ بأهل المدينة

مهندراً . وتبع المغيرين وحده يرميهم بالنبل ويسترد منهم اللقاح المنهوبة حتى أدركه  
فرسان المسلمين ، فلما رأهم المشركون فروا بعد ما قتل بعضهم وتركوا ما معهم .

ويروى البخارى أن ذلك كان بعد الحديبية لا قبلها ، والله أصح .

وفي هذه الفترة تزوج النبي بأُم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت مهاجرة مع  
زوجها بالحبشة . فارتد صاحبها وهلك ، وبقيت وحدها .

فرأى النبي - إعزازاً للسيدة التى تركت أباهما - وهو زعيم مكة - وآثرت  
الهجرة إلى الله على البقاء فى كنفه - أن يتزوجها ، فأرسل إلى النجاشى مهرها  
ووكله عنده فى العقد عليها .

وتزوج كذلك زينب بنت جحش ، وسنتكلم عن تفاصيل ذلك فى الباب  
الذى نفرده بعد ائتمدد الزوجات ، وزوجات الرسول - كذلك . ويقال إن الإسلام  
وقع فى قلب « عمرو بن العاص » فى هذه الأيام .

فقد أناره ما يلقاه محمد من ظفر ، وقال لبعض صحبه :

إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكرأ ، ثم اقترح عليهم أن يلحقوا  
بالحبشة ، ويرقبوا نتائج الصراع بين المسلمين وقومهم !! .

فلما ذهب إلى الحبشة ورأى إكرام نجاشيهما للرسول ومن ينتمى إليه ، مال  
إلى الدخول فى دين الله . .

ولكنه كتم ما بقلبه حتى اقترب ففتح مكة ، والتقى بخالد بن الوليد وكان خالد  
قد أجمع أمره على الإسلام وانتوى الذهاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى مهاجرة  
ليتيهه ، قال له عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم - وضع  
الطريق - وإن الرجل لنبي ! أذهب - والله - فأسلم لختى متى ؟

وسرَّ عمرو أن يجده صاحباً كخالد ، فصارحه بما فى نفسه وانطاق الرجلان إلى  
يثرب مسلمين مهاجرين .

وقصة إسلامهما - كما قلنا - قبيل الفتح فإن خلدأ كان فى عمرة الحديبية قائداً  
لجيش قريش . وهى تصد المسلمين عن زيارة البيت المتيق .

(۷)

طَوْرَجَدِيْدٌ

## عمرة الحديبية

جاء تفكير المسلمين في زيارة المسجد الحرام بداية لمرحلة متميزة في تاريخ دعوتهم . أليسوا يعالنون بعزمهم على دخول مكة وهم الذين طردوا منها بالأسلحة و حوربوا حيث استقرت بهم النوى ؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تسفر عن نتيجة حاسمة ؟ فكيف ينوون العمرة في هذه الظروف ... ؟

والجواب أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم ، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لقبيل يكثر القيام عليه ويمكنه الصده عنه ، فهو ميراث الخليل إبراهيم . والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبي الأنبياء من قرون :

( وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلا تَشْرِكْ بِي شَيْئاً ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ \* وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .

ومن ثمَّ فليس يجوز لأهل مكة أن يجبروا المسلمين عنه ، وأن ينسأوا قديماً إقصاءهم ، إنهم - بعد ما وقع من قتال - لن يصرُّوا على خطئهم القديم . وإحرام النبي وصحبه بالعمرة فحسب - وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم ، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة ، وتأسيس علائق أهدأ وأرق .

ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن استفرغت قريش جهدها في إيذاء المسلمين ، وعندما بدأ فشلها الذريع في ذلك . لقد استمرت بضع سنين تقتل وتبذل من دمها ومالها



لتهمز الإسلام فلم ترجع آخر الأمر إلا بالخسائر الفادحة والأزمات الضوض ،  
على حين رنخت أقدام المسلمين ، وعلت راياتهم ، وانكش عدوهم ، وهام أولاء  
يخرجون إلى مكة عباداً مخبتين لاغزاة منتقمين . أجل إنهم لا يبنون إلا أن ينلوا  
مثل ما فقيرهم من حق الاعتراف والحج ولا يسوغ أن يحرموا من ذلك أبداً ،  
وبذلك القصد السمع المذهب ، استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم جمهور المسلمين  
وأعراب البوادي ، وآذنتهم أنه يريد العمرة ولا يريد قتالاً . وساق أمامه  
المهدي الذي سيذبح يطعم فقراء مكة . الفقراء الذين حشدوا لاستنصاه يوم  
الأحزاب ...

أكان الكفارون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام يفقهون هذه النية ويقدر  
مكان صاحبها ؟

لا ... إنهم بقوا على العهد بهم من فساد الضمير ونية السوء .

فالأعراب المنتشرون حول يثرب ، ومن على شاكلتهم من المنافقين ، عرفوا  
أن أهل مكة سوف يقاتلون محمداً عليه الصلاة والسلام ، أمرت قتل ، وأنه إذا أتى  
إلا زيارة البيت - كما أعلن - فلن ندعه قريش حتى تهلكه أو تهلك  
هي دون إبلاغه بأمره ... فهي عمرة محفوفة بالأخطار في نظرهم ، والفرار منها  
أجدي !!

ولو فرض أن الرسول عليه الصلاة والسلام نجح في مقصده هذا ، فالاعتذار  
بما به بعد عودته سهل .

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلَانَا فَاسْتَفِرُّوا  
لَنَا ۖ يَقُولُونَ بِالَّذِينَ مَا أَيْسَرُ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ  
مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْماً ؟ . بَلْ كَانَ اللَّهُ

بما تعملون تحببكم . بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسولُ والمؤمنونَ  
إلى أهلهم أبداً \* وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ الظَّنَّ السَّوِيَّ ، وَكُنْتُمْ  
قَوْمًا بُورًا )

وخرج المؤمنون الواقفون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهددم  
قريب من ألف وأربعمائة ، وذلك في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .  
وساروا ملبيين يطوون الطريق إلى البيت العتيق فلما بلغوا « عسفان » على  
مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشاً خرجت عن بكرة أبيها ،  
قد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم ، وأن جيشهم استعد للفضل ، يقود خيله خالد  
ابن الوليد .

وبدأ شبح الحرب أمام الأعين يملأ هذه البقاع الحرمه بالدماء والأشلاء ،  
والمسلمون لم يحيثوا لهذا ، وما كان لأهل مكة أن يلجئوهم إليه . فقل رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : يا ويح قريش لقد أكتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوأ بيبي  
وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله  
عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟  
فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة  
- معني إلى الموت - (١)

\* \* \*

(١) حديث صحيح أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح عن مسور بن مخرمة ومروان  
ابن الحاكم ومن طريقه أخرجه أحمد (٤/٣٢٣ - ٣٢٦) وابن هشام (٢/١٢٦) .  
وهو قطعة من حديث طويل في صالح المدينة وقد أخرجه البخاري (٥/٣٥١ - ٣٧١) .  
وأحمد (٤/٣٢٨ - ٣٣١) من طريق أخرى عههما بطوله . لكن عند البخاري  
وكذا أحمد أن هذا القول صدر منه صلى الله عليه وسلم بعد قصة الناقة الآتية عند عجي .  
بديل بن ورقاء وإليه صلى الله عليه وسلم وإخباره إياه أنه لم يأت لحرب . وهذا أصح قطعاً  
من رواية ابن إسحاق .

ومُضياً مع الرغبة عن التقال ، وتخليصاً للنسك المقصود من شائبة تحدُّ<sup>١</sup>  
سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام : من رجلٌ يخرج بنا على طريق غير  
طريقهم التي هم به (١) ؟

فجاء رجل من أسلم فملك بهم طريقاً وعراً أجرد . شق على المسلمين اجتيازها  
ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، اثني المسلمون عندها يمينا  
ليهبوا عند الحديبية أسفل مكة !

ولم تخف هذه الحركة عن فرسان قريش ، فتراكضوا راجعين إلى مكة كي  
يحولوا بين المسلمين ودخولها .

ومضى النبي عليه الصلاة والسلام بأصحابه في وجهتهم المحددة ، فإذا بناقته  
تبرك لا تجاوز مكانها ! ودهش الناس لما عراها فقالوا . خلأت القصواء ! فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت ، وما هو لها بخاق ، ولكن حبسها حابس الفيل  
عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم  
إياها ثم أسر الناس أن يحلوا حيث انتهى بالذقة المسير (٢) .

ونزل المسلمون كما أمروا ينتظرون مع الغد القريب أن تفتح لهم أبواب مكة  
فيطوفوا ويسعوا ، ثم يعودوا وافرین راجعين . إنهم واثقون من إدراك بغيتهم  
ولماذا يشكون وقد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرى كثيرة بأنهم  
سيدخلون المسجد الحرام آمنين ، محققين رؤسهم ومقصرين ؟ .

أما قريش فقد ذعرت لهذا الزحف المباغت ، وفسكرت جادة في إبعاده عن مكة  
مهما كلفها من معارم ، وذلك أنها نظرت إلى الأمر من زاوية ضيقة ، فرأت أن

(١) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في حديث الحديبية المشار إليه انفاً ؛

(٢) حديث صحيح ، من حديث الحديبية عند البخاري وغيره .

مهابتها متبذرة من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلادهم على هذا النحو .  
بعد ما وقع من حروب طاحنة .

غير أن قريشاً تعرف حروجه موقتها إن نشب قتال جديد .  
فجبتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داحضة . وقد ينهى بكارثة تودي  
بكيانها كله ، ولهذا سيرت الوسطاء يفاوضون محمداً عليهم بتهون منه إلى مخلص  
من هذه الورطة !!

وكان أول من جاءه « بديل بن ورقاء » في رجال من خزاعة ؛ فـكلموه  
وسألوه : ما الذي جاء به هنا ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً  
للبيت ومعظماً حرمة .

فرجعوا إلى قريش يقولون : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ،  
إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت . فأنهم وهم وجبهوهم ، وقالوا :  
وإن كان جاء لا يريد قتلاً : ... فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك  
عنا العرب ؟

ثم بعثت قريش « مكرز بن حفص » فعاد بما عاد به بديل الخزاعي .  
ثم بعثوا سيد الأحابيش « الخليل بن عاقمة » لما رآه رسول الله صلى  
الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألمون ، فابعثوا الهدى في وجهه  
حتى يراه (١) .

فأرأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي ، عاد إلى قريش قبل أن يصل  
إلى رسول الله ، إعظماً لما شاهد فقال لهم ذلك ، فأجابوه : إجلس إنما أنت أعرابي  
لا علم لك . فاستشاط الخليل وصاح : يامعشر قريش ، والله ما على هذا حافناكم

(١) حديث صحيح ، رواه ابن اسحاق في حديث المدينة

ولا على هذا عاقدناكم ، أیصد عن بیت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحلیس  
بیده ، لتخلن بین محمد و بین من جاء له ، أو لأنقرن بالأحاییش نفرة رجل  
واحد .. فقالوا : مه ، كفّ عنا یا حلیس حتی نأخذ لأنفسنا ما نرضی به .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « عروة بن مسعود » وكره عروة  
أن يعود من مفارضة للمسلمين فيسمعه رجال قريش ما يسوؤه فقال : يا معشر قريش  
إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد  
عرفتم أنكم والد وإني ولد .

وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي . ثم جئتم حتى آسيتكم  
بنفسي . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بتهمهم .

فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد  
أجمعت أوشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها — ؟ إلى قومك لتجتاحهم —  
إنها قريش خرجت معها العوذ المطافيل — يقصد النساء والأطفال — قد  
لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وأيم الله لكأنني بهؤلاء  
قد انكشفتوا عنك غداً .

وكان أبو بكر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ، فلما وصل في  
حديثه إلى التعريض بالمسلمين قال له هازئاً : أمصص بظر اللات ! أنحن  
ننكشفت عنه ؟

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ا فردّ عروة على أبي  
بكر يقول : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأنتك بها . ولكن  
هذه بيذه .

وعاود عروة حديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يتناول لحيته  
وهو يكلمه — كأنه يذبه إلى خطورة ما سيقع بقومه — إلا أن الغيرة بن شعبة  
( ٢٣ - فقه السيرة )

كان يقرع يده كلما فعل ذلك وهو يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لاتصل إليك ، فقال عروة له . ويحك ما أنظك وأغظك ، ثم سأل النبي : من هذا يا محمد ؟

فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم . هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه . فقال عروة للمغيرة . أى غدر ، هل غسلت سوءتك إلا بالأمس (١) .

وقد ردّ النبي عليه الصلاة والسلام على عروة بما يقطع اللجاجة وينفي الشبهة . إله لا يبغى حرباً ، وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلقي صاداً ولا راداً . ورجع عروة ينوه بإجلال الصحابة لرسول الله ، ويقول : إني والله ما رأيت ملسكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً سفرَ وأرايكم (٢) .

• • •

إن الرجال الذين تسكلموا باسم قريش في هذه المفاوضات لم تنهص لهم حجة ، بل إنهم عادوا إلى أهل مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من أداء نسكهم ، ولم يلحف بعضهم في التصريح بذلك إلا لما لمسه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق بعد ماتيين ، إن النزق استبد بهم وأطاش ألباسهم فقررروا ألا يدخل المسلمون البلد الحرام وليكن ما يكون ..

وبقى المسلمون في أماكنهم يلتمسون للمشكلة حولا أخرى أفضل من اقتحام مكة في هجوم عام ، وحاول فريق من السفهاء أن يشعل المعركة ، لكن المسلمين لزموا الهدوء وملكوا أعصابهم .

(١) كانت المغيرة قبل إسلامه داهية فاتكا ؛ قتل نقرأ فودام عروة لإطفاء للفتنة .

(٢) هذا كله من تمام القصة الحديدية عند ابن إسحاق . وهو عند البخاري بنحوه .

فمن ابن عباس أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمرهم أن يطيقوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا وأتى بهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فمفا عنهم وخلي صليلهم ، وكانوا رموا في العسكر بالحجارة والذبل . . (١)

وفي فظة قريش وسماحه المسلمين نزل قوله عز وجل :

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . »

ومن السكينة التي نزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تغدو على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتروح ، فلا يعترضها أحد ، أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك ، كاد خراش بن أمية الخزاعي يقتل ، لولا أن أنقذه الأحابيش ، فرجع وقد عقر جملة وكان النبي عليه الصلاة والسلام أرسله ليمبلغ أهل مكة حقيقة حجته ، وأنه يريد العبادة لا الحرب . .

والرسل لا تقتل ، بيد أن غليان قريش أفقدها الوعي .

والرجل إذا فقد وعيه لا يبالي أن ينتحر ، وقد انحرف كبراء مسكة عن الصراط السوي ولم يكثرثوا للمصير القاتل الذي ينتظرهم إذا ركبوا رؤوسهم .  
فلو اصطدم المسلمون بهم ما قامت لهم قائمه ولأصبحت حرمة مكة في صميمها .

(١) ضعيف رواه ابن هشام (٢/٢٢٨) عن ابن إسحاق ؛ وفيه رجل لم يسم ورواه نحوه مختصراً أحمد (٤/٨٦-٨٧) من حديث عبد الله بن مغفل بسند صحيح وفيه أن عدد المشركين ثلاثون شاباً ؛ وفيهم نزول قوله تعالى : « وهو الذي كف أيديهم عنكم » الآية .

« وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُجَدُّونَ وَايًّا وَلَا نَصِيرًا •  
سنة الله التي قد دخلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أن تجرى الأمور على هذا النحو ،  
ورأى أن يعيد محاولاته لإقناع أهل مكة ، بتركه بزور ، ويعود لشأبه .

فدعا<sup>(١)</sup> عمر بن الخطاب ليذهب إلى القوم يحدّثهم بما خرج المسلمون فيه .

فقال عمر : يا رسول الله ، ليس بمكة أحد من بنى عدى يفضب لى إن أوذيت  
فأرسل عثمان بن عفان فإن عشرينه لا تزال بمكة وإنه مبالغ عنك ما أردت .

ودخل عثمان مكة في جوار قريبه أبان بن سعيد بن العاص ، وامتناع أن يبلغ  
برسالته كاملة وأن يفهم من لقيه الحقيقة الكريمة التي جاء المسلمون قاطبة بها .  
فكان الرد الذي حظى به عثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت نطف .

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله

ومما يذكر هنا أن مكة لم تخل من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات .

كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة .

لقد انتشر الإسلام سرأ في بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذي تستطيع  
فيه أن تظهر إيمانها ، وتتخلص من سطوة الكفر عليها .

ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك للنفرة المؤمن وبشرهم بقرب الفتح ، فرأت

قريش أن عثمان قد عدا الحدود الممهودة ، وأمرت باحتياسه ، عندها وشاع -

لدى المسلمين - أن عثمان قتل .

\* \* \*

(١) من تمام النصبة عند ابن إسحاق .



وحين بلغت هذه الشائعة مسامع النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا تبرح حتى  
تفاجز القوم (١) .

ودعا الناس إلى مبايعته ، وكان تحت شجرة متشابكة الفصوص . ففرع أصحابه  
إليه يبأيونه على الموت أو على أن لا يفرؤا .

حدث جابر بن عبد الله بعد ما كفَّ بصره قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يوم الحديبية : أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر  
اليوم لأريتكم مكان الشجرة (٢) .

وروى عن جابر أن عبداً لحاطب جاء يشكوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ويقول : ليدخلن حاطب النار . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : كذبت ،  
لا يدخلها ، شهد بديراً والحديبية (٣) ، وتسمى هذه البيعة « بيعة الرضوان » إظهاراً  
إلى قول الله في أصحابها :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبأيونك تحت الشجرة فلم مافي  
قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

وقد قطعت الشجرة ونسى مكانها ، وذلك خير ، ولو بقيت لضربت عليها قبة  
وشدت إليها الرحال ، فإن الرعاع سراع التعلق بالمواد والآثار التي تقطعهم عن الله .

عن طارق بن عبد الرحمن ، انطلقت حاجاً ففررت بقوم يصلون ، فمات ما هذا  
المسجد : قالوا هذه الشجرة حيث بايع النبي عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان .

---

(١) ضعيف أخرجه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (٢٢٩/٢) عن عبد الله بن أبي  
بكر مرسلًا .

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٣٥٧/٧) .

(٣) صحيح أخرجه مسلم (١٦٩/٧) ؛ وتصديره بـ (روى) يشمر بضعفه فليحذف

فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قال فلما كان العام المقبل نسيتها فلم تقدر عليها ثم قال سعيد : إن أصحاب محمد لم يعلموها ! وعلمتموها أنتم ؟ فأنتم أعلم .

وعند أخذ البيعة من المسلمين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه لعثمان (١) .

على أن عثمان لم يطل احتباسه ، فان قریشاً جزعت أن نصيبه بأذى وهو من سراتها بمكان ، وسارعت إلى بعث « سهيل بن عمرو » ليعقد مع محمد صلحاً .

ولم يكن يعنيها في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام ، على أن يعودوا بعد إذ شاءوا ، وذلك إبقاء على مكانة قریش في العرب !!

\* \* \*

واستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاوض قریش وهو أرغب ما يكون في موادة القوم ، وإن كان قادراً على تحكيم السيف وإزالة خصومه على منطقته الذي آثروه منذ صدوره عن البيت ، وتكلم « سهيل » فأطل وعرض الشروط التي يتم في نطاقها الصلح ، ووافق عليها النبي ، ولم يبق إلا أن تسجل في وثيقة يرضيها الفريقان .

وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله مع أوليائه ومع أعدائه .

(١) صحيح أخرجه البخاري (٧/٧٩١) .

فأما مع أعدائه ، فقد ذهب في ملايتهم إلى حدود بعيدة ، وأولى به أن يقسو عليهم .

وأما مع أصحابه — فإنه على غير ما ألفوا منه — لم يستشرهم في هذا الاتفاق المقترح .

مع أنه في شئون الحرب والسلام التي سلفت ، كان يرجع إليهم ، وربما نزل على رأيهم وهو له كاره ، لسكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقر ما يبكرهون ، على غير ضرورة ملجئه ..

وقد شرحنا في غير هذا المكان<sup>(١)</sup> موقف النبي عليه الصلاة والسلام في عمرة الحديبية خاصة ، وأبنا أن تقدير الأمور لم يترك للاظر المعتاد . بل كان الإلهام الأعلى توجيهه الصائب .

إن الله الذي عقل الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتاب أن توالي زحفها وتشرع رماحها ، وقد تحرز نهرأ أقل على الإسلام — في جدواه — من سلم مباركة النتائج .

قال الزهري : فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأنى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال : أليسو بالمشركين ! . قال بلى . قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ! .

قال أبو بكر : يا عمر أزم غرزه — أمره — فإنني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله !

ثم أتى رسول الله فقال أنت رسول الله ! قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين !

(١) في كتابنا : الإسلام والاستبداد السياسي .

قال : بلى .

قال أوليسو بالمشر كين ؟ قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدينية في ديننا ؟

قال : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن بضيعني <sup>(١)</sup> .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من آتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ! .

وأن يدينا عيبة مكفوفة - صدوراً منطوية على ما فيها من خير - وأنه لا إغلال ، لا إغلال - لا سرقة ولا خيانة - - وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله عليه وسلم وهمه دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأنك ترجع عنا هامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا

---

(١) حديث صحيح ، وهو من تمام ؛ قصة الحديدية ؛ والزهرى أحد رجال إسنادها وليس من مرسلاته خلافاً لما يبدو من السياق . وقد رواه موصولاً أحمد من طريق ابن إسحاق . وهو عند البخارى وأحمد من طريق أخرى بنحوه .

عنك فدخلتها بأصحابك . فأقت بها ثلاثاً معك سلاح الرابك السيوف في القرب  
لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب . إذ جاء ابن المفاوض عن  
قريش نفسه ! .. ، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو ويريد الاتحاق بالمسلمين ، فقد  
دخل في دين الله ولقي العذاب من أهله ، وها هو ذا يرسف في الحديد ، وتثقل به  
قيوده ...

ما كان المسلمون يشكون في فتح مكة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قص  
عليهم رؤيا أنه دخلها ، وطوف بالبیت العتيق فيها . فلما أراد مارأوا من شروط  
الهدنة ، وأمر الصلح والعودة ، وتعنت سهيل مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وافتياته  
على شخصه ، دخل عليهم من ذلك كله أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ثم جاءت  
قصة أبي جندل فزادت الطين بلة ...

ورأى سهيل ابنه فقام إليه يضرب وجهه ، وأخذ بتليبيه ثم قال يا محمد : قد لجت  
القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا !! قال : صدقت فجعل سهيل ينتر ابنه بتليبيه  
ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

« يا معشر المسلمين ، أردد إلى المشركين بفتنوني في ديني ! »

فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل  
لك ولين معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً  
وأعطيناهم على ذلك وأعطوا باعده الله ، وإنا لا نعذر بهم .

ونفذت القضية ، وأعلنت خزاعة دخولها في عقد المسلمين ، وأعلنت بنو بكر .  
دخولها إلى عقد قريش ، ومضت شروط الهدنة (١) ... !

• • •

والنظرة الأولى لهذه الشروط تدل على أنها مجحفة بحق المسلمين مرضية  
لكبراء قريش وحيتها الجاهلية ، وقد تساءل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
مستنكرين ! .

فإذا يردون إلى قريش من جاء منهم مسلماً ولا يرد قريش من جاءها من  
المسلمين مرتداً ؟ .

وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشرط بأن من ذهب إليهم كافرين ،  
فلا رده الله ، وقد وُقِّ المسلمون خبثه . أما المستضعفون من المسلمين . فستبي  
قريش بأمرهم ، كما هجرت عن سابقهم ، وستكون العقبي لهم .

ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه مستضعفين ؟ ثم نصرهم الله وخذل  
قريشاً أمامهم ؟ .

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، قد حُدِّثوا أنهم  
داخلون في المسجد الحرام ، وما هم أولاء قد ارتدوا عنه . لكن الرسول صلى الله  
عليه وسلم يبين أنهم عائدون إلى دخوله كما وعدوا ، فهو لم يذكر لهم أنهم سيظفون  
به هذا العام ...

وعرا المسلمين وجوم ثقيل لهذه النهاية السكتية ، وزاغت نظراتهم لما ركبهم  
من المخرج المفاجيء . فلما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب

(١) هذا كله من قصة الهدبية عند ابن إسحاق والسياق له ؛ والبخارى وأحمد

قال لهم : قوموا فانحروا ثم احلقوا - ليتحلوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة - فلم يقم منهم رجل ا حتى قال ذلك ثلاث مرات ! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا رسول الله أنجب ذلك ؟ - أخرج ثم لانكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك - فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زال عنهم الذهول . وأحسوا خطر المعصية لأمره فقاموا - هجلين - ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفراط الغم <sup>(١)</sup> .

o o o

ليت نيات الخير والشر تؤتى ثمارها الحلوة والمرّة بالسرعة التي ظهرت في عهد الحديبية الآنف ، إنه لم تمر أيام طوال على إبراهيم حتى كان تشدد المشركين فيه وبالاعليهم ، فأخذوا يتشكون من النصوص التي فرضوها . أو فرضتها حيتهم الغليظة -

ونظر المسلمون كذلك مهورين إلى عواقب التسامح البعيد الذي أبداه النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجدوا من بركانه ما ألمج أسنتهم بالحد ا

لقد انفرط عقد الكفار في الجزيرة منذ تم هذا العقد . فإن قريشاً كانت تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التمرد والتحدى للدين الجديد . وعند ماشاع نبأ تعاهدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثرت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة وخصوصاً لأن قريشاً جمدت على سهاستها النفعية واهتمت بشئونها التجارية فلم تجتهد في ضم أحلاف لها ، في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري ، ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة وإدخالها في الإسلام .

(١) صحيح : وهو من تمام قصة الحديبية عند البخاري وأحمد .

وكثيرين من المؤرخين بعد صلاح الحديبية فتحاً ، بل إن الزهري يقول فيه : ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وآمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، لم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه واندخل في آينك السنتين - بعد الحديبية - مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج عام فتح مكة - بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

أما المسلمون المذبذبون في مكة ، فقد فرّ منهم أبو بصير عبيد بن أسيد ، وهاجر إلى المدينة يبغى المقام فيها مع المسلمين ، فأرسلت قريش وراءه ، اثنين من رجالها يرجعان به إليها تنفيذاً لنصوص المعاهدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمك ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدرا . وإن الله جاعل لك ولبن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك . وحرزن أبو بصير وقال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين ليفتنوني في ديني ؟ فلم يزد النبي عن تكرار رجائه في الفرج القريب . ثم أرسل أبا بصير مع القرشيين ليعودوا جميعاً إلى مكة<sup>(١)</sup> .

ورفض أبو بصير أن يستسلم لهذا المصير فاحتال في أثناء الطريق على سيف أحد الحارسين وقتله به ففر الآخر مذعوراً وقفل راجعاً إلى المدينة يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما وقع لصاحبه ، وإذا أبو بصير يطلع متوشحاً بالسيف يقول : يا رسول

(١) رواه ابن إسحاق بدون إسناد وعنه ابن هشام (٢/٢٢٢) وقد أخرج البخاري مختصراً على قوله : لجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ؛ فرفعه إلى الرجلين .



الله وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وامتنعت بديني أن أفني فيه أو يعيث بي .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان معه رجال (١) وأدرك أبو بصير أنه لا مقام له في المدينة ، ولا مأمن له في مكة ، فانطلق إلى ساحل البحر في ناحية تدعى العيص ، وشرع يهدد قوافل قريش المارة بطريق الساحل ، وسمع المسلمون بمكة عن مقامه ، وعن كرامة الرسول فيه « مسعر حرب لو كان معه رجال » فتلاحقوا بأبي بصير يشدون أزره حتى اجتمع إليه قريب من سبعين ثائراً فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

وألف أولئك المذبذبون الناقلون جيشاً ، ضيق الخناق على قريش فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها .

وإذا قريش ترسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناشده الرحم أن يؤدى إليه هؤلاء فلا حاجة لها بهم .

وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أمّلته تعنتاً ، وقبله المسلمون كارهين . وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانهما لها دلالة مثيرة ، فهي قصة العقييدة للكافة ، - في لؤم من الأعداء ووحشة من الأصحاب - وهي توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجرداً من كل شيء إلا سلامة جوهره . إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تجميهم من مخالطة الرسول صلى الله عليه وسلم والإصغاء إليه وهو يتلو وينصح ، بيد أنهم عوضوا عنها من الإتصال بكتابه والاقنيس من آدابه ، فكانوا - في اهتدائهم للحق وإبانهم للضميم وإبثارهم للمغامرة - مثلاً حسنى للإسلام المكافح العزيز .

ولم يعد أبو بصير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاء وهو محتضر ، وروى موسى بن عقبة أن رجال أبي بصير صادروا قافلة كان فيها

(١) صحيح . وهو من تمام القصة عند البخارى واحمد .

أبو العاص بن الربيع صهر النبي صلى الله عليه وسلم — وهو لما يدخل الإسلام بعد — وأمروا من فيما ما عدا أبا العاص ، لمكانته فذهب أبو العاص إلى زينب امرأته ، وشكأ لها ما وقع لأصحابه وما ضاع لهم من أموال ، وحدثت زينب رسول الله في ذلك فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلاً إنا صاهرنا أئاماً ، وصاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه . وإنه أقبل من الشام في أصحاب له من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، وأخذوا ما كان معهم ؛ وأن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألتني أن أجيرهم فهل أتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال المسلمون : نعم<sup>(١)</sup> .

وبلغ هذا الحوار أبا جندل فأفرجوا عن الأسرى ، وردوا عليهم كل شيء أخذ منهم حتى العقال .

ثم جاء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بصير ليترك مكانه ويرجع حيث يحب ، وكان أبو بصير يجود بأنفاسه الأخيرة . فأتى والكتاب على صدره ودفنه أبو جندل . أما أبو العاص بن الربيع فارحل ببضائع قريش حتى قدم مكة ، فأدى إلى الناس أموالهم . حتى إذا فرغ قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم ارده عليه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، وقد وجدناك وفيك كريماً .

قال : والله ما منعتني ان اسلم قبل ان اقدم عليكم إلا ان تظنوا اني اسلمت لأذهب بأموالكم ، فإني أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله .

---

(١) لا يصح . لابن عتبة رواه عن الزهري مرسل . كما في « الفتح » (٣٦٩/٥) والاستيعاب لابن عبد البر في ترجمة أبي بصير . غير أن ابن إسحاق أخرج القصة بسياق آخر ، ومن طريقه أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٨٢/٢ — ٨٣) مرسل ، وقد وصله الحاكم في « المستدرک » (٢٣٦/٣ — ٢٣٧) من حديث عائشة وإسناده جيد فالأولى الاعتماد على هذا السياق دون ما في الكتاب : وله شاهد من حديث أم سلمة عند البيهقي في سننه (٩٥/٩) .

وعاد إلى المدينة فرد عليه رسول الله امرأته زينب<sup>(١)</sup> ، وكان اختلاف الدين قد فرق بينهما ، ولم ينشئ في ذلك عقداً جديداً .

• • •

وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن ، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب ، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة ، وهن لا يستطعن . اضطربا في الأرض ورداً للكيد ، كإفعل أبو جندل وأبوصير وأضرابهما .

وأيا كان الأمر . فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن ، وكلف المسلمون أن يدفعوا الأزواج من الشركهن عوضاً يستعينون به على زواج آخر إذا لم يشاءوا الدخول في الإسلام والعودة به إلى أزواجهم الأوليات .

قال الله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ فَمُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَأَمِّنَ حَلَّ لِهَمِّمْ ، وَلَا هُمْ يُحِيلُونَ لَهُنَّ ) .

والآية تشير — بجانب ما فيها من أحكام — إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم .

ولو حدث ذلك اليوم لتساءل فريق كبير من المسلمين : من الذي يتمتع ؟ أهو

---

رجل أم امرأة ، وإن رجلاً ، فهل يكون شاباً أو شيخاً ؟ وهل تتمتع المرأة مباشرة

أو من وراء حجاب ؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود ( ٢٥٠/١ ) والترمذي ( ١٩٦ ) والحاكم ( ٢٣٧/٢ ) وأحمد ( رقم ١٨٧٦ ، ٢٣٦٦ ؛ وابن هشام في السيرة ( ٨٢/٢ ) من حديث ( ابن عباس ) . وإسناده جيد وقال الترمذي : « ليس به بأس » وصححه أحمد .

## مع اليهود مرة أخرى

بقى أمام المسلمين فر يقان من الخصوم الألداء :

أعراب البادية الذين يسيحون في عرض الصحراء كالإبل السائمة لا يفعلون شيئاً ، فإذا لاح منغم طاروا وراءه ، وقلما يلفتهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر وبنو إسرائيل الذين ظنوا النبوة حكراً عليهم ، فهم لا يفتأون يجهلون المسلمين ويكذبون محمداً ويحجدون رسالته ، وقد أغرقتهم القشور التي ورثوها من التوراة فجادلوا المسلمين جدالاً طويلاً ، وحرصوا أشد الحرص ألا يعترفوا بهم ثم ذهبوا إلى حد التأليب عليهم كما رأيت ، فكانت سيرتهم مزيجاً غريباً من الخقد والكبر والدس ، ومع ما ألب جلودهم من مياط كإوية في صراعهم مع المسلمين ، فإنهم لم يتحولوا عن خطتهم المريبة قيد أنملة .

وجمت عداوة الإسلام بين الأعراب البله ، وأهل السكتاب اليهود ، وعندما فشلت الأحزاب في اقتحام يثرب ، وجنت قريظة عقب غدرها ، لم يهدأ يهود خيبر ، أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين ، كلا إنهم شرعوا يصلون حبالم بنطقان والأعراب الضاربين حولهم ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى ، تأكيد من جديد لمحمد وصحبه ، لكن المسلمين كانوا أيقاظاً لهذه المؤامرات ، فما إن عادوا من عمرة الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر لكسر شوكة بني إسرائيل بها .

ولم يفت المسلمين ، قبل مسيرهم ، أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطقان فأوهوا غطقان أن الهجوم متجه إليهم ، وأن قوة المسلمين توشك أن تلتفت بهم ، قال ابن اسحاق : بلغني أن غطقان لما سمعت بمزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر جمعت له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا صاروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم

فرجعوا على أعقابهم ، وأقاموا في أهلهم وأموالهم ، وخلوا بين رسول الله  
وبين خيبر . . .

وهكذا نجحت الخطة في عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين . .  
فلما أشرف رسول الله على القرية المحصنة ، ونهباً لمنازلة أهلها ، قال لأصحابه :  
قفوا . ثم تضرع إلى الله بهذا الدعاء :

« اللهم ربّ السموات وما أظللن ، وربّ الأرضين وما أقلن ، وربّ  
الشياطين وما أضللن ، وربّ الرياح وما أذرين . فإننا نسألك خير هذه القرية وخير  
أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » (١) .  
ثم قال . أقدموا باسم الله ... (٢) .

ويظهر أن اليهود ظنوا - أول وهلة - أن زحف المسلمين صوب غطفان ،  
فلم يعيروا الأمر التفاتاً بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيمهم ومسكاتهم حتى  
فوجئوا بالمسلمين يسرون نحوهم ، فارتدوا إلى حصونهم فزعين ، وهم يقولون :  
محمد والخبيث !

(١) حديث حسن ؛ أخرجه ابن هشام ( ٢ / ٢٣٦ ) عن ابن إسحاق عن أبي معتب  
ابن عمرو . وفيه رجل لم يسم ؛ وسماه البيهقي في روايته « صالح بن كيسان » كما في  
« البداية » ( ٤ / ١٨٣ ) لكن الراوى عنه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع ضعيف . ولذلك  
صرح البيهقي في السنن ( ٥ / ٢٥٢ ) بتضعيف هذا الطريق لكن يشهد له ما أخرجه  
هر والخام ( ١ / ٤٤٦ ؛ ٢ / ١٠١ ) وابن السنن ( رقم ٥١٨ ) من حديث صهيب رضى  
الله تعالى عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين  
براها فذكره . وقال الخاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي . وفيه نظر لكن له  
شاهداً آخر من حديث أبي لبابة بن المنذر رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن كما قال  
الهيتمي في « الجمع » ( ١٠ / ١٣٤ ) .

(٢) ضعيف ؛ وهو تمام حديث أبي معتب المخرج آنفاً ، وقد عرفت علته ؛ ولم أجده  
لهذا المصدر منه شاهداً ؛ فبقى على ضعفه .

إن اليهود - على ما ألف المسلمون من حروبهم - لا يعتمدون على تسيير الجيوش في القضاء الحرب ، تصيب ويصاب منها ... إنهم يكرهون اللقاء في تلك الميادين المكشوفة . وديدنهم الذي لا ينفكون عنه ، هو الكفاح من وراء الجدران .

أذلك بقية من حرصهم على الحياة وتوحيهم الموت ؟

قلما رآهم النبي عليه الصلاة والسلام ، يهرعون إلى حصونهم ، أراد أن يقذف في قلوبهم الرعب فصاح : الله أكبر ، هلكت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (١) .

والقرى الفاجرة تجر على نفسها الملاك إن عاجلا وإن آجلا ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا شاع الزنا والزنا في قرية فقد أحلت بنفسها غضب الله » (٢) .

واليهود يشع فيهم هذا الفساد المزروع ، فهم إلى اليوم دهاقين الربا في العالم وهم قادة التبرج والمهر ونسوتهم لا يرددن يد لاس ، ولا ينفي هذا أن تفهيم فئة تعرف الخلق والعفة ، ولكنهم قليل . « وَرَيْنَ قَوْمٍ مَوْسَى أُمَّةٌ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » والأكثرة - لا القلة - هي التي تحدد مصائر الشعوب .

. . .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٣٧٦/٧ - ٢٧٧) عن أنس .  
(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم (٢/٣٧) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح لإسناده » ووافقه الذهبي . وهو كما قال ، ورواه أبو يعلى عن ابن مسعود وإسناده جيد « كما في الترغيب » (٣/٥١) .

وشن المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة ، فبدأت تتدهى تحت وطأتهم  
حصنها بعد حصن ، ودافع اليهود عنها دفاع المصميت ، فإن خير أخصب أرضهم  
وأمنع بقاعهم .

ولما بدأ الحصار يمتد ، وبنو إسرائيل إذا سقطت لهم قلعة تمسكوا بأخرى .  
قال رسول الله : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله  
ورسوله فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها ؟

فلما أصبحوا غدوا إليه متطلعين إلى أخذها ، فنادى النبي صلى الله عليه وسلم  
على بن أبي طالب فأعطاها إياه ، فقال على : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا  
مثلنا ؟ قال أنفذ ، على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام  
وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير  
من أن يكون لك حمر النعم<sup>(١)</sup> .

وإنما ساق رسول الله هذا النصيح الرشيد حتى يقطع تطلع النفوس إلى المغنم  
المجلاة ، فإن ثروة يهود — إذا هزموا — ضئيلة ، ولكن ثواب مقاتلتهم  
— إذا هتدوا — أضخم .

ولو نزل القوم على أحكام الله ، وتركوا الخلال الدينية التي عاشوا بها وعاملوها  
الناس بسوءها لأراحوا واستراحوا ، غير أنهم أبوا إلا الحرب : فهاجمهم على  
وشدد النكير ، حتى سقط الحصن واحتله المسلمون .  
وكان الشمار يوم خير : يا منصور أمت أمت .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٣٨٤/٧ - ٣٨٥) ومسلم (١٢١/٧ - ١٢٢)

عن سهل بن سعد .

وخرج من حصون اليهود فارس يدعى مرحبا فنادى في المسلمين من يبارز ؟  
وهو ينشد :

قد عامت خبير أنى مرحب      شاكى السلاح بطل مجرب  
أطعن أحيانا ، وحينما أضرب      إذا الليوث أقبلت محرب

فقيل : فتك به على بن أبي طالب ، وقيل : بل قتله محمد بن مسامة<sup>(١)</sup> وكان  
محمد بن مسامة أخوه قد أقيمت عليه في أثناء الحصار رحي نصرته فنأر محمد له  
بقتل مرحب ، وبرز بعد قتل مرحب أخوه ياسر ، فتصدى له الزبير ، وكانت  
صفيه أم الزبير بين النسوة اللأئى خرجن مع الجيش معاونات في قتال بني إسرائيل  
فخشيت على ابنها أن يقتل ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم . بل ابنك يقتله  
إن شاء الله ، فصرع الزبير ياسر<sup>(٢)</sup> . . . وتشبت اليهود بما بقي من حصونهم  
يتدودون عنها ذباد اليأس ، وشدد المسلمون عليهم الحصار ، يريدون الانتهاء من  
هذا القتال مسرعين ، فقد أجهدهم الجوع وضاق بهم المقام ، وأصيب كثير منهم  
بجمل شتى لرداءة الجو وخامة المستنقعات ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من  
أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فإن لهم مشارب خفية ، يخرجون إليها  
اليلاء فيستقون ويعودون ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع مشاربهم<sup>(٣)</sup> ليكرههم  
على القتال أو التسليم ، فخرجوا واشتبكوا مع المسلمين في صراع شديد استشهد فيه

(١) قلت : والصحيح الأول لأنه ثابت في « صحيح مسلم » ( ٩٥/٥ ) والمستدرك  
( ٣٩/٤ ) من حديث سلة بن الأكويع وقد قال الحاكم ( ٤٣٧٦/٣ ) : إن الأخبار  
كثيرة متواترة أن قاتل مرحب هو على .

(٢) ضعيف أخرجه ابن هشام ( ٢٣٩/٢ ) من طريق ابن اسحاق عن هشام بن  
عروة مضافا .

(٣) لا يصح ، رواه الواقدي مضافا كما في « البداية » ( ١٩٨/٤ ) ، ولو أقدى متروك



عدد من المسلمين بعد أن مهدوا الطريق لسقوط الحصن ، ويسمى حصن الزبير ، وهو نهاية سلسلة من القلاع تسمى النظاة . استولى المسلمون عليها جميعاً بعد ما دخلوا حصون ناعم ، والصعب ، والوطيح ، والسلام .

وبقيت هناك سلسلة أخرى تهايم المسلمون لمهاجتها ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على قلعة يقال لها : سموان ، فقاتل عليها أشد القتال ، وخرج منها رجل يسمى عزولا ، يبغى المبارزة ، فهجم عليه « الحباب بن المنذر » فضربه بالسيف ضربة أطاحت يده اليمنى بنصف ذراعه ، ثم وقع السيف من يده وفر اليهودي راجعاً فأدركه الحباب فقطع عرقوبه وورز آخر ، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودي ، فلاحق به « أبو دجانة » فقتله وثار لصاحبه ثم كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن وأمامهم « أبو دجانة » فاقتحموه بعد لآي ، ووجدوا به أثاناً وطعاماً وغنماً ومتاعاً .

وأقلت بعض المحصورين فانضموا إلى إخوانهم بحصن البزاة وزحف المسلمون إليهم . وتراشق الفريقان بالنبل فأصيب بنان النبي صلى الله عليه وسلم في المعركة ، ولكن المسلمين استبسوا في الكر على العدو ، حتى افتتحو هذا الحصن الآخر ، وأخذوا من فيه باليد . ثم هم المسلمون بنصب المنجنيقات لهدموا الحصن الباقية على من اعتصم فيها ، فأيقن اليهود بالهلكة ولم يروا محيصاً من الاستسلام ، فنزل ابن أبي الحقيق . وعرض الصلح على أن يجلوا من أرض خيبر . ولهم ما حملت ركابهم ، وللمسلمين سائر ما بقي . فقبل الصلح واشترط عليهم رسول الله ألا يكتموا ولا يضيئوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد<sup>(١)</sup> . . . فلما ثبت على بعضهم العذر بما تمت عليه شرط الصلح قتل .

(١) حديث صحيح أخرجه البيهقي في سننه ( ١٢٧ / ٩ ) عن ابن عمر بسند صحيح وكذلك رواه أبو داود ( ٢ / ٣٨ ) .

وخضعت سائر يهود، ثم جاءت تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض . فقبل، ولم يجعل ذلك على الأبد، مخافة عبثهم ، بل قال لهم : إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم (١) .

. . .

وحدث في إبان المعركة أن عبداً حبشياً أسود كان يرعى لسيدة اليهودى غنمه فلما رأى أهل خيبر يملأون السلاح ويتأهبون للحرب سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبي . فوقع في نفس الرجل ذكر النبوة وصاحبها ، فأقبل بغمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله . ماذا تقول ؟ وإلام تدعو الناس ؟ فأجابه ؛ أَدْعُو إِلَى الْإِسْلَام ، وَأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْى رَسُولُهُ . وَأَنْ لَا تَعْبُدَ غَيْرَهُ . قَالَ الْعَبْدُ ؛ فَمَا لِي إِنْ شَهِدْتُ وَأَمَنْتُ ؟ قَالَ لَكَ الْجَنَّةُ إِنْ مَتَّ عَلَى ذَلِكَ ؟ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنْ هَذِهِ النَّمِ عِنْدِي أَمَانَةٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَخْرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ وَارْمِهَا بِالْحَصْبَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي عَنْكَ أَمَانَتَكَ ، ففعل ، فرجعت النَّمِ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَعَلِمَ الْيَهُودِيُّ أَنَّ غَلَامَهُ أَسْلَمَ ، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدَّ تَهَيَّأَ النَّاسُ لِلِقَاتِلِ فَوْعِظَهُمْ وَحَضَّوهُمْ عَلَى الْجِهَادِ . وَالتَّحَمُّمِ الْفَرِيقَانِ ، فَقَتَلَ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ بَيْنَ مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَلَتْ جَنَّتُهُ إِلَى الْمَعْسَكِ . فَرَوَّأَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْلَعَ فِي الْفَسْطَاطِ الَّذِي ضَمَّ جِثْمَانَ الشَّهِيدِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ يَقُولُ : لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ هَذَا الْعَبْدَ وَسَاقَهُ إِلَى خَيْرٍ ، رَأَيْتَ عِنْدَ رَأْسِهِ ثَلَاثِينَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَلَمْ يَصِلْ لَهُ سَجْدَةٌ قَطُّ ! (٢) .

o o o

---

(١) حديث صحيح . أخرجه للبخارى ( ١٧ / ٥ ) ومسلم ( ٢٧ / ٥ ) وأبو داود ( ٢٩ / ٢ ) وغيرهم من حديث ابن عمر بمعناه .  
(٢) ضعيف . ذكره ابن كثير ( ٤ / ١٩٠ - ١٩١ ) عن عروة مرسلًا وروى =

وفي هذه الغزاة أذن النبي صلى الله عليه وسلم لمن تطوعن من النساء أن يخرجن معه .

قال ابن اسحاق : شهد خبير مع رسول الله نساء من نساء المسلمين ، فرضخ لمن رسول الله من النوء — أعطاهن يسيراً — ولم يضرب لمن بسهم (١) .

وروى الإمام أحمد عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت : خرجنا مع رسول الله في غزاة خبير ، وأنا سادسة ست نسوة . قالت فبلغ النبي أن معه نساء فأرسل إلينا فدعانا . قالت : فرأينا في وجهه الغضب قال : ما أخرجكن وبأمر من خرجتن ؟ قلنا : نناول السهام ونسقى السويق ، ومعنا دواء للجرحى ، وننزل الشعر فنعين به في سبيل الله . قال فانصرفن .

قالت : فلما فتح الله عليه خبير أخرج لنا سهاماً كسهم الرجال . فقلت لها يا جدة ما الذي أخرج لكن ؟ قالت : تمر (٢) .

ويرى ابن كثير أن الرسول أعطاهن من ثمرات الأرض كالرجال فأما أنه أسهمهن في الأرض نفسها كالرجال فلا . وهذا حق .

وفي حديث أبي داود . أن نسوة من بني غفار قلن : يا رسول الله ، قد أردنا أن

---

== البيهقي عن شرحبيل بن سعد عن جابر نحو هذه اللمعة . وشرحبيل كان اخلط . ومن طريقه أخرجه الحاكم ( ٢ / ١٣٦ ) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله : « بل كان شرحبيل متهماً » .

(١) ذكره ابن إسحاق بدون إسناد كما ذكره ابن هشام ( ٢ / ٢٤٢ ) عنه ؛ غير أنه استدل على ذلك بمحدث النسوة من بني غفار الآتي ، وهو ضعيف كما ستبينه .

(٢) ضعيف وهو في للسند ( ٦ / ٣٧٩ ) وكذا أبو داود ( ١ - ٤٢٩ ) ؛ وعلته حشرج هذا فإنه لا يعرف كما قال الذهبي وأشار لذلك الحافظ في التقریب . وسكت على الحديث في « الفتح » ( ٦٠ / ٥٩ - ٦٠ ) .

يخرج معك في وجهك هذا — وهو يسير إلى خير — نداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله (١) .

\* \* \*

وكانت صفة بنت حبي بن أخطب زعيم اليهود بين من أسرن من نساء خير وقعت في يد أحد الصحابة . فاستردها منه الرسول . ثم أعتقها وبني بها ، وجعل مهرها عتقها (٢) .

فلما اطمأن به المقام أهدت له امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة وأكثرت من السم في ذراع الشاة لما عرفت أن الرسول يؤثرها .

وقد تنال النبي مضغة منها ، فلا کہا ثم لفظها ، وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، وكان معه « بشر بن البراء » فأذاع اللحم وازدردده .

وجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت ، وقالت للنبي : بلغت من قومي ما لم يخف عليك . فقلت : إن كان ماسكا استرحمت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها النبي ، ثم مات « بشر » بعدما سرى السم في جسمه (٣) ، فقيل : اقتص له منها ، وقيل : بل أسلمت وعفا عنها .

---

(١) ضعيف أخرجه أبو داود (٥١/١) وأحمد (٢٨٠/٦) وابن هشام (٢٤٢/٢) كلهم من طريق ابن إسحاق بإسناده عن امرأة من بني غفار ، وفيه أمية بنت أبي الصلت لا يعرف حالها كما قال الحافظ .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ومسلم عن أنس .

(٣) حديث صحيح ، رواه هكذا ابن هشام (٢٤١ - ٢٤/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد . وقد رواه البخاري (١٧٦/٥) ومسلم (١٤/٧ - ١٥) من حديث أنس أن يهودية أتت النبي بشاة مسمومة فأكل منها ، فجيء بها فقيل : ألا تقتلها ؟ قال : لا . والبخاري (٢٨/٧ ، ٢٠٠/١٩ ، ٢٠١ - ٢٠٠) وغيره من حديث أبي هريرة نحوه وفيه إقرار اليهود بوضع السم في الشاة وقولهم : أردنا إن كنت كاذباً تسترح منك —

ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من نتاجها ، إلا أن  
بغضائهم للمسلمين حملتهم على اقتراف بعض الجرائم . فقد اغتيل رجل من الأنصار  
وفدعت يدا عبد الله بن عمر أيام خلافة أبيه ، فخطب عمر الناس قائلاً : إن رسول  
الله كان عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله  
ابن عمر ، ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله لانشك أنهم  
أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم . . فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فإني  
مخرج يهود . فاخرجهم (١) .

ولا ريب أن الهزيمة التي أصابت بني إسرائيل في خيبر قضت على كياناتهم  
العسكرية في الجزيرة قضاء تاماً . فجاء يهود « فذك » يطلبون الأمان .  
وقاتل يهود وادي القرى بعد مادعوا إلى الإسلام ، وأخبرهم رسول الله  
أنهم إن أسلوا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماهم . وحسابهم على الله (٢) . فلما  
أبوا نشبت بين الفريقين معركة محدودة ، انتهت مع الصباح بسقوط الوادي  
اليهودي عنوة .  
واستسلم يهود تباه .

ومد الإسلام رواقه على هذه الأرض بعد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي  
اليهود ، يعيشون عليها كما يشتهون .

— وإن كنت نبياً لم يضرك » . ومثله عند أحمد (رقم ٢٧٨٥) من حديث ابن عباس  
وسنده حسن كما قال ابن كثير (١٠٩/٤) وعزاه الحافظ (١٠١/١٠) لابن سعد  
بسند صحيح . ومثله عند أبي داود (١٤٦/١) والدارمي (٢٣/١) عن جابر وهو  
منقطع لكن يقويه مراسلي أبي سلمة عندهما . وفي حديثهما إخبار الذراع بأب  
الشاء مسمومة وفي الثاني منهما موت بشر مسموماً . وقد وصله الحاكم وصححه عن أبي  
هريرة . وسنده حسن ؛ وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قتلها .

(١) حديث صحيح . أخرجه الشيخان عن ابن عمر . وقد تقدم قريباً :

(٢) رواه « الواقدي » بدوت سند كما في « البداية » (٢١٨/٤) .

والعظة التي نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء ، أن الأرض لله يورثها من يشاء . وهو لا ينزعها من قوم ، ويعطيها آخرين بحبابة . كلا . ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تسلبها . ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها ! والأمة التي تتكبر مع الحربة وتنبطر ، تفقد امتلاكها لنفسها ، وحقها ، وأمرها ، لتقع في إسار الآخرين فيصرفون شئونها كما يشتهون .

وقد طبق هذا القانون على بني إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة وتبعوا الهوى ! وطبق بعد ذلك على المسلمين يوم سدروا في الغواية وجحدوا مآلدهم من هداية « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهاليم شديد » .

إن الحياة كره وقره ، وإقبال وإدبار . والنظرة العجلى إلى تاريخ البشر توحى بأن مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ريثما تنهيا أمة أخرى لإنتزاعه .

والدول التي مدات ، أشبه بلجج البحر التي ترتفع حينئذ لا تلبث أن تضمحل وويدأ رويداً حتى تنداح على الشاطئ ، ضميعة متطامنة ، ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد ، لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتبهط مستكينه من جديد . وقد ملك بنو إسرائيل وعزوا بقدر حكيم ، ثم سلبوا الملك والعزة بقدر كذلك لترسيما دولة الإسلام الفتي الفاهض ، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة .

لماذا تظاهر اليهودية الوثنية ضد الإسلام ؟ ولمصلحة من يقع هذا ؟ إن بني إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة ، وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بمنف . أما الفدر الأعلى ، فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تغيير شامل لما شاع في العالم أجمع من مفاسد ، ولما عرا حضارته من تعفن وركرد . فإذا وقعت حفنة من الأعراب أو حفنة من اليهود ليعترض هذا

التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو المطامع الدنيا ، فهي التي جنت على نفسها إذا غرقت في الطوفان .

لو ظل اليهود أنف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساماً ، وما اكتسبت أقطار الأرض من بقائهم شيئاً ، ربما نالت مزيداً من الحبوب والفواكه التي يتقنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كفل من الفساد الذي يصدره بنو إسرائيل إلى العالم مع معاملات الربا وأخلاق العهر والتحلل . أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة يوم خرج ، رسالة إيمان وإصلاح .

ومما يحمله في طواياه من حق ونفع استحق الانتصار والانتشار .

فلما جرى على أمته من أسباب البلى والتحول ماجرى على اليهود الأوابين تعرضت للطردهن من أوطانها ، والتشرد هنا وهناك ، كما تعرض غيرهم ، حذوك النعل بالنعل .

### ✓ عودة مهاجري الحبشة

ووافق فتح « خيبر » قدوم « جعفر بن أبي طالب » ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة . وقد سر رسول الله أيما سرور ، لحيء هؤلاء الصحابة الكرام .

إنهم خرجوا من مكة فارين بدينهم من الفتنان ، ولليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو ، وسلطانه يمتد شمالي الجزيرة وجنوبيها ، فلا خوف من غشم أو ظلم .

وعندما حلوا بالمدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مبتهجاً « والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر (١) ؟ » وجعفر وإخوانه مكثوا في الحبشة

---

(١) حديث حسن ، أخرجه الحاكم ( ٢١١ / ٤ ) والطبراني في الكبير عن الشعبي مرسلًا وسنده صحيح وقد وصله الحاكم من طريق أخرى عن الشعبي عن جابر .

بعضة عشر عاماً ، نزل خلالها قرآن كثير ، ودارت معارك شتى مع الكفار ، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة ، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة - وقد فاتهم هذا كله - أنزل قدرأ من غيرهم . فعن أبي موسى الأشعري . . . كان أناس يقول لنا سبقناكم بالهجرة ، ودخات أسماء بنت عميس - على حفصة بزواج النبي زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها . فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء ابنة عميس . قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء نعم ! قال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ! فغضبت وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم . وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة ! وذلك في الله وفي رسول الله وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيع ولا أزيد عليه . فلما جاءت النبي قالت : يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا ، قال : فما قلت له ! قالت : كذا وكذا .

قال : ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة . ولكم أنتم - أهل «السفينة» هجرتان<sup>(١)</sup> . . . ولم يمض كبير وقت على أولئك العائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم القرآن والسنة . وانتظموا في مواكب الجهاد مع من سبقوهم بإحسان .

— وفي سنده ضعف ، ولذلك قال الذهبي في «التلخيص» . «الصواب مرسل» وله طريق آخر رواه البيهقي كما في «البداية» (٤/٢٠٦) من طريق أبي الزبير عن جابر وفي سنده من لا يعرف . وله شاهد من حديث أبي جعفر . أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (ص ٨) وسنده ضعيف ، لكن أخرجه في الكبير من طريق آخر كما يستفاد من «المجمع» (١٦/٢٧٧) . وبالجملة فالحديث قوى سواء الطرق ، وقد صححه الحاكم . (١) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان في صحيحهما .



وقد أشركهم النبي في مقام خيبر<sup>(١)</sup> مع أهل الحديبية<sup>(٢)</sup> ولم يقسم لأحد غيرهم معهم . فان الله جعل خيبر مكافأة سخية لمن ساروا إلى مكة ، وباعوا على الموت تحت شجرة الرضوان .

## تأديب الأعراب

أما عبدة الأصنام من البدو فان المسلمين شرعوا يتعقبونهم مذخلصوا من مشكلات اليهود . وأقد أشرنا إلى أن شمل هؤلاء الأعراب انتكث بعدل وادعة التي تمت في الحديبية بين قريش والمسلمين . كانوا أمس محاصرون دار الإسلام أحزاباً متحدة ، لكن الحال تبدلت اليوم . تمزق بنو إسرائيل وانسحب أهل مكة ، وأمكن للمسلمين أن ينفردوا بأولئك القوم قبيلة إثر قبيلة . وان يعجز المسلمون عن حسم شرورهم ووقف فوضاهم . إن البدو جنس جاف غليظ ، وان ننسى أنهم حتى القرن الأخير كانوا يستمرئون الفتك بقوافل الحجاج ، وقد يذبحون الحاج لذرام معدودة .

وعلمهم بشئون الدنيا وحقوق الآخرة يعنى المدرسين ، وقد بذل الإسلام جهوداً جبارة في رفع مستواهم المادى والأدبى . إلا أن اغتيال الدعاة من القراء المرين جعل الإسلام يظاهر رجاله هؤلاء بالقوة التي تمنع الشعب وتقطع دابر الفساد .

---

(١) حديث حسن ، أخرجه البخارى (٣٠٢/٨) من حديث أبي موسى .  
(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود في سننه (٤٠/٢) والحاكم (١٣١/٢) والبيهقى (٢٢٥/٦) وأحمد (٤٢٠/٣) من حديث يجمع بن جارية أن خيبر قسمت على أهل الحديبية لم يدخل مهمم فيها أحد . . . وقال الحاكم «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي . وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الطيالسى (١٠٥/٢) والبيهقى (٣٣٤/٦) وسنده حسن في الشواهد ؛ وقد قال ابن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (٣٤٦/٢) «وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنها ، ولم يقب عنها ، إلا جابر بن عبد الله . . .»

وكان بث السرايا في فيافي «نجد» من أهم ما شغل المسلمين بعد ما رجعوا من خيبر في صفر من السنة السابعة حتى شدوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء ، كإنص على موعدها في عهد الحديبية .

ولا يعنيننا كثيراً أن نتبع هذه السرايا في مسيرها فهي — وإن وطدت هيبية المسلمين العسكرية — أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المعبأة .

والهدف الأكبر من بعثها توطيد الأمن ، ومنع الغارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة .

إن أحوال هذه القبائل قريبة الشبه بأحوال قرانا في عهد الاقطاع القريب ، كان العمدة يملك ألف صوت ناخب في قريته . فالحديت عن الحرية السياسية في هذا الجو ، حديث خرافة . كذلك كان رؤساء القبائل الأولون ، تلتف حولهم عشائريهم وبطونهم ليتناصروا في الحرب والسلام على ما يهوى السادة .

فإذا كثر في أولئك الحاكمين من يوصف بالأحق المطاع ، وإذا اشتغل أولئك الحق بالسكر والقر على نحو ما قال دريد بن الصمة :

ينار علينا وآثرين فيشتقى بنا إن أصبنا ، أو نُنير على وترا

قسمنا بذلك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطرا

أفترى أن الدعاة يسرون عزلا في هذه البيئة التي تخطف الأموال والعقائد ؟ إن العمل على توطيد الأمن شيء ، غير إكراه الناس على الإيمان ، هدف الأول إقصاء الضنط والفتنة على المجتمع حتى إذا آمن فرد في قبيل ، لم يجد من يصب عليه سوط عذاب . أما الآخر فيريد بالسوط أن يحمل الناس على عقيدة معينة . والسرايا التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يسيرها إلى كل فج كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ منه .

« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا

الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ • وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ) فالسعى لمعاجزة الآيات أمر خطير . ولو كانت معاجزة باللسان ، ما اكثر لها أحد ، فهميات أن تغلب الخرافة الحق في معرض جدل حر ، إنها معاجزة بالسوط والقهر .

( وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّمُوكَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَسَوَّنَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا .. ) .

وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل ومنذ أمضوا عهد الحديبية ، وهم دائبون على البلاغ والتبصرة ، ولذلك نجحوا نجاحا ملحوظا في هذا المضمار ، فدخلت قبائل كثيرة في عهدهم على حين انصرفت جموع الاعراب عن قريش فلم يدخل في عهدهم أحد ، وسير الأمور في هذا الاتجاه كان التمهيد الفعال لقلبة الإسلام ، ثم افتتح مكة نفسها فيما بعد .

والدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة لم تشغل النبي عن حق آخر من حقوق الله عليه ، وهو إعلام الناس كافة ، بما آتاه الله من بينات .

فليرفع السراج إلى أعلى لتصل أشعته الهادية إلى مواطن أبعد ، مواطن فرقت في الظلام دهرأ .

( وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ • أَلَا إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ؟ قُلْ : لَا أَشْهَدُ أَقْلُ : إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ • وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ) .

فليتجه إلى المجوس ، وإلى النصارى ، بدعوهم إلى توحيد الله والإسلام له والخضوع لأحكامه ...

## مكاتبة الملوك والأمراء

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة ، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها . وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم ومن العبث إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة ، وعلى أية حال فإن الجوسية سادت الأقاليم التابعة لفرانس ، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان ، وكان أمراء هذه الأقاليم يعيّنون من قبل الدول الحاكمة وينصاعون لأوامرها .

وقد رأى النبي أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام .  
روى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي — وهو غير الذي صلى عليه — وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل .

. . .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « دحية بن خليفة » بكتابه إلى قيصر الرومان ، وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامحة أمراً سهلاً ، فكيف وهي — في نظر الرومان — من أعرابي ساذج ينتمى إلى قوم تحت سلطانهم .

وتقديرًا لهذه الأوضاع ، اختار النبي لتلك المهمة من يقوم بها إيمانًا واحتسابًا غير مبال بعواقبها عليه ولا نتائجها عند من يدعوهم .  
فمن ابن حبان أن رسول الله قال : من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة ؟ فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : وإن لم يقبل ! فأخذ دحية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب انتصاره على الفرس ، قربى إلى الله .

وتناول قيصر الكتاب فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين - الفلاحين - و ( يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون (١) ) .

وقد هاجت حاشية هرقل لإكتراث القيصر بهذه الرسالة ، وازدادوا واهياجاً عند ما عرض عليهم - لا تدرى جاداً أم هازلاً - أن يعتقدوا هذا الدين ! وهرقل - في نظرنا - رجل سياسى . وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم ملسكه ويدمى قوته ، وقد تولى شئون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية - حول طبيعة المسيح تغلى غليان المرجل ، وتثير في الأمة انقسامات مخيفة وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة ، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد - فعجز . وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم في مصر والشام .

فالكلام في الإلهيات ليس غريباً عليه ، والتقريب بين وجهات النظر - لمصلحة الدولة - ديدنه ، ولعله في أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعاً . وربما تألفت في نفسه ، لوقت محدود ، فكرة الخروج من عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد ، ثم انطفت لما مستجره على الدولة من خلاف أشق في وهمه ، وأسر المملكة - عنده - أهم من أى شأن آخر .

وشاءت لباقية قيصر السياسى أن يستدعى دحية ، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم !  
نم أعطاه قدراً من الدنانير .. وصرفه !

(١) حديث صحيح من قوله « وتناول قيصر » إلى هنا أخرجه البخارى (٢١/١٣٤) .  
ومسل ( ١٦٥/٥ - ١٦٦ ) عن ابن عباس .

وعاد دحيه إلى رسول الله بالنبا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كذب عدو الله ، ليس بمسلم ، وأمر بالدنانير ، فقسمت على المحتاجين (١) .

o v o

أما الولايات العربية التابعة الرومان فإن النبي أرسل إلى أمرائها يعرض عليهم الإسلام فكانت إجابتهم أخشن وأقسى من رد القيصر نفسه !

قرأ أمير دمشق خطاب الرسول له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإني أدهوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى ملكك » (٢) .

فلما قرأه رمى به الأرض . وقال : من ينزع ملكي مني ؟ وأخذ يعد الهدية لرجال المسلمين .

والحارث ليس بالملك الأصيل حتى يشمخ بملكه على هذا النحو إنه ولي من قبل الرومان الغالبين ليخدم أهواءهم ، وعمشى في وكابهم فهو ككفر من ملوك الشرق في عصرنا هذا . صدمهم المستعمرون ليسكونوا حبالا تنجرها الأمم المستضعفة  
هواء غاصبيها .

والهدية التي ردها ، هي الأمل الوحيد لجملة حاكما شريفا ، لو أنه قبلها وأشاعها . وبعث النبي إلى أمير بصرى - من ولايات الروم - مثل ما بعث به إلى أمير دمشق ، وحمل الكتاب الحارث بن عمير الأزدي فاعترضه في الطريق شرحبيل بن عمرو الفسائي ومأله : أنت من رسل محمد ؟ قال : نعم فأمر به شرحبيل فقتل

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال ؛ (ص ٢٥٥) عن بكر بن عبد الله المزني وإسناده صحيح . لكنه سرسل ؛ بيد أن الزرقاني نقل في « نرح المواهب » (٣/٢٤٠) عن « الفتح » أنه في مسند أحد أيضاً . فليُنظر فإنه لم يذكر صحابييه .  
(٢) ذكره الواقدي بدون إسناد كما في « البداية » (٤/١٦٨) .

وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين في المدينة فجرحت كرامتهم ، وأبانت لهم أن علاقتهم بالرومان إن تندفع في طريق العدل والاحترام إلا بعد جهود شاقة .

ورد « المقوقس » على النبي رداً حسناً فلم يؤمن به ولم يتهجم عليه ولما سلم كتابه من حاطب بن أبى بلتعنة قال له : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى - وقد أخذه قوما ليقتلوه - أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت . أنت حكيم جاء من عند حكيم .

وكتب إلى رسول الله يقول : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط اسلام عليكم ، أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولاك وبعثت لك بحاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بئنة تركبها » وماذا يفعل محمد بهذا ؟ لقد قبل الهدية تقديراً للعاطفة التي أملت بها ، وإن كان يرى أن الإيمان بالله وحده ، أفضل ما يهدى إليه ، وخير ما ينتظره ويهش له .

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس . حتى يعرف القارىء أن هذه البعوث بلغت حداً من الفقه والخصاصة يستحق الإعجاب البالغ .

قال حاطب : إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأهداهم له اليهود . وأقربهم . إنه النصراني ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد . وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل .

وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته . فخق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه همة النبي ، ولستنا نهاك عن دين المسيح ولستنا نأمرك به .

وكان أثر هذه الدعوة ، الحارة الخطاب الذي سقناه آتفا .

تلك مثل رسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها . وقد ساق النبي كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله . ويحدثونهم عن الهدى الذى لو تبعوه نقلهم من الغى إلى الرشاد .

وقد تفاوتت ردودهم ، بين العنف والالطف ، والإيمان والكفر . كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « كسرى أبرويزه » ملك فارس يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أذعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن آبيت فعليك إثم الجوس (١) .

ومزق كسرى الكتاب وهو محقق .

وأمله حسب الجرأة على مكاتبه السامية بعض ما رماه به القدر من مصائب فقد هزمه الروم هزيمة منكرة ، وها قد جاء العرب يعلونه ما لم يكن يعلم . وأصدر كسرى أمره إلى والى اليمن - وكانت لما نزل في حكمة - يأمره أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء ، ليأتيا إليه بالرجل الذى تجرأ على مكاتبته . و « أبرويزه » هذا رجل أحق ، ومنصبه يضافى عليه ملك الملوك ، والوثنية السياسية إذا ظاهرتها وثنية دينية . أمست ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد غلب على الرجل السفه فى تصرفه شئون الدولة وحكمه على الأشخاص والأشياء ، حتى ضاق قومه أنفسهم به . بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو ابنه « شيرويه » فوثب عليه فقتله .

(١) حديث حسن ، رواه ابن جرير فى تاريخه (٢ / ١٩٥ - ٢٩٦) عن يزيد ابن أبى حبيب مرسلًا ؛ وأبو عبيد فى « الأملال » (ص ٢٣) عن سعيد بن المسيب مرسلًا محوه .



ويروي ان النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ما صنع كسرى أبرويزه بكتابه قال  
مزق الله ملكه<sup>(١)</sup> ..

والطريف أن والى اليمن لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه .

فأرسل اثنين من لدنه من المدينة ، يعرضان على النبي عليه الصلاة والسلام أن  
ينطلق معهما ليسأل عما فعل .. !!

ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرجلين فوجدهما من ذلك النوع الذي تربيته  
الملوك في القصور كما تربي النسوة في بلادنا الديكة الرومية . . . مناظر فارهة ،  
وبواطن تافهة .

فلما رأى شوار بهما مفتولة ، وخذردهما معلوثة ، أشاح عنهما وقال<sup>(٢)</sup> : ويحك  
من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا ربنا !! يعنيان كسرى ..

إن تأليه الملوك ضلال قديم ، وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه ،

---

ثم عادت الآن آثاره وخصائصه ، فالملك يلقب صاحب جلالة ، ولا يسأل عما يفعل  
ويبطل شرائع الله ليقيم شرائع الهوى ، ويمتد هو وبطانته ، لتتكش أممهما أمته ..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه (١٠٥/٩) وأبو عبيد عن سعيد بن  
السيب مرسلًا ومرفوعاً . وروى من وجوه آخر مرسلًا ، فيراجع لها من شاء « البداية  
والنهاية » (٢٦٨/٤) .

(٢) حديث حسن ؛ أخرجه ابن جرير (٢٦٦/٣ - ٢٦٧) عن يزيد بن أبي حبيب  
مرسلًا ، وابن سعد في « الطبقات » (ج ١ ق ٢ ص ١٤٧) عن عبيد الله بن عبد الله  
مرسلًا أيضاً وسنده صحيح ، ووصله ابن بشران في الأمانى من حديث أبي هريرة بسند واه .  
وفيه من الطرق الثلاث زيادة كان يحسن لإيرادها وهي « لكنى أمرني ربي عز وجل أن  
أعني لحيتي ؛ وأن أحنى شاربي »

ولما سمع النبي عليه الصلاة والسلام كلام الرجلين أمرهما أن يعودا من حيث أتيا إلى وإلى اليمن ، وقال : أخبروه أن ربى قد قتل ربه اليلة . وكان رسول الله قد علم قبلهما بمصرع كسرى . .

وقد وقع الإسلام في قلب وإلى اليمن ورجله بعد هذه القصة . وانتشر انتشاراً عظيماً في الجنوب بين الطائفتين جميعاً من نصارى ومجوس .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمير البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ونبذ الجوسية، حمله إليه العلاء بن الحضرمي<sup>(١)</sup> وكان «المنذر بن ساوى» أمير البحرين ، رشيداً موقفاً ، فرحب بالدعوة وانشرح صدره لقبولها . وقد أبلغ العلاء في ترغيبه وإبراز محاسن الإسلام له .

فما قاله : « .. يا منذر إني عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه الجوسية شر دين .. ليس فيها تكرم العرب ، ولا علم الكتاب ، ينكحون ما يستحي من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله . ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة . . واست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر : هل يذبح لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ؟ ولئن لا يحون ألا تأمنه ؟ ، ولئن لا يخلف ألا تتق به ؟ هذا هو النبي الأمي الذي - والله - لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ! أوليته زاد في عقوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمانة أهل العقل ، وفكر أهل النظر .. » .

وقد أسلم «المنذر» وعرض على قومه الإسلام . فمنهم من أعجبه فدخل فيه ،

---

(١) رواه الواقدي في آخر كتاب « الردة » بسنده عن أبي حنيفة كما في « نصب الرابة » للزيلعي ( ٤ / ٤١٩ - ٤٢٠ ) .

ومنهم من كرهه وبقى على مجرسيته ، أو على يهوديته . فلما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل بإزائهم كتب له : « . . من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » (١) .

o o o

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل . لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه ججوداً وكنوداً !

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلهًا هُزُؤًا : أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رُسُلًا ؟ »  
فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة إلا يكفونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟

بيد أن أصحاب الرسائل لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور فإن تفهم العميقة في سيادة فكرهم وامتداد نطاقها ، تصغر العقبات المفروضة في الطريق . ونجعلها - ولو كانت الشم الرواسي - هباءً منثوراً .

ولو انحصر « كارل ماركس » في حدود مذهبه - وهو فكرة مطاردة تصل بذوبها إلى السجون - لأصابه الشلل وقضى عليه وعلى أفكاره ، لكنه مضى في سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى . فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار الضالة فلا جرم أن المرسلين للتأيدين بالوحي يكاتبون الملوك والأمراء وهم موقنون بأن مآلهم من حق سيعلو مآعده ، وذلك ما كان يجول في نفس الرسول الكريم وهو يعالج حداية الأعراب الشاردين في الصحراء طوراً بالين وطوراً بالشدة . ثم هو - في الوقت نفسه - ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا في هذا الدين الجديد وأن يبتننوه وافرين .

(١) ضيف آخره الوافدي بإستاده عن عكرمة قال : وجدت في كتب ابن عباس . . فذكره .

إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوى تُتَرَّب إهابه وثيابه رياح « نجد » هي  
بعينها الخرافة التي تفسد فكر كسرى ، أهل الفرس العظيم .

ما الفارق بين الحمى تصيب ملسكا أو تصيب صعلوكا ؟ إن الطبيب يصف لها  
— على الحالين — دواء واحداً ، ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة !

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفي الكبار والصغار من أمراض نفوسهم  
وأن يناولهم جميعاً الدواء الذي يصحون به .

« وَنَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ  
إِلَّا خَسَاراً » .

فلا غرو إذا جمع في مصحِّه بين الأحمر والأسود ، والسادة والعبيد . أجل ،  
قد يكون أولئك الملوك مُحجَّبين وراء أسوار مشيدة ، وحولهم من الأتباع والجند  
والأهبة والرياش ما يبهر العين ، لكن أي عين تنبهر لهذه المظاهر ؟ إن الطبيب المعالج  
لا يعنيه من مريضه إلا جسده الشاحب المائل والأنبياء لا يرون في القوم إلا أنهم  
جهال يجب أن يتعلموا . سفهاء يجب أن يسترشدوا ، وأن ماحولهم من الدنيا يجعل  
تبعثهم أخطر ، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم .

على أن هذه القوى المسخرة في حماية الباطل لن يطول أمدها ، إلا كما يطول  
الليل على المورق ، ثم تطلع الشمس ، ويمحو الله بالآية المبصرة سدول الظلام .  
ولذلك قال النبي لرسول والى اليمن حين جاءوه : « أخبراه أن ديني وسلطاني  
سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي إلى الخلف والحافر وقولا له : إن أسلمت أعطيتك  
ماتحت يديك وملكتك على قومك (١) » .

إنه - وهو في المدينة - يولى ويعزل ، عن حق لاعن غرور ، ليس موصولاً  
بمالك الملك ، مبعوثاً من رب السموات والأرض ؟

(١) ضعيف ، أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢٩٧/٢) عن يزيد بن أبي خبيب مرسلًا

ومن الطبيعي أن يعرف مشركوا العرب أنباء هذه البعوث النبوية، وأن يرقبوا قنابجها عن كعب ، وقد استبشروا أول الأمر حين بلغهم صنع كسرى بن هرمز وقال بعضهم لبعض : كفيتم الرجل ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ! وشاعت هذه القالة في مكة والطائف .

ثم مرت الأيام ، وطاح كسرى ، وبقي الإسلام يغزو الأفتدة والبلاد . . . وجاءت الأنباء أن بعوث محمد صلى الله عليه وسلم في بعض الأرجاء أمكنها نشر الإسلام وتثبيت هدايته ، حتى دخلت فيه اليمن وعمان والبحرين ، فارتد استبشار المشركين خذلانا ، وفكرت قبائل شتى في الإتياد لحكمه ، خصوصاً ورقة الكفر تنكش يوماً بعد يوم أمام موجات الوحي الجارف ، وإن بقيت أخرى مصرة على جاهليتها .

« بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر . أفلا يرون أنا نأتي الأرض فنقصها من أطرافها أفهم الغالبون ؟ . قل : إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون » .

### عمرة القضاء

أرشكت السنة السابعة أن تنقضى ، وحق للمسلمين أن يعودوا إلى مكة ليؤدوا مناسك العمرة التي حرموا من أدائها قبلاً ، لقد تأخروا عاماً وهم كارهون ، لكن مكاسبهم للدعوة في هذه الفترة أربت على الأمانى ، وهام أولاء يسوقون الهدى إلى الحرم مرة أخرى ، ويمجرون وراءهم أذيال نصر عريض .

وأحب أهل مكة أن يمزوا أنفسهم وهم يجلون عنها - وفق الاتفاق المبرم - فدخلها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابه معتبرين ، فأشاعوا أن المسلمين يعانون عسرة وجهداً !

قال ابن عباس : صفوا له عند « دار الندوة » لينظر وإليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد ؛ اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليماني ، ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة<sup>(١)</sup> ، ثم استلم الركن وأخذ يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتى وراه البيت عنهم .

والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين ، وتكذيب لإشاعات الضعف ، وقد مضت السنة به بعد ذلك .

وروي<sup>(٢)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته وهو ينشد :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله  
بارب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله

(١) ضعيف . رواه ابن هشام ( ٢٥٤/٢ ) عن ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن ابن عباس مرفوعاً . ورواه ابن جرير ( ٣٠٩/٢ ) عن ابن إسحاق فقال عن الحسن بن عمار عن الحكم بن عيينة عن مقسم عن ابن عباس ؛ فإن صحت هذه الرواية فهي نقل عن الطريق الأولى لأن الحسن بن عمار متهم بالوضع ، وإن لم يصح في الطريق الأولى عن لم يسم .

ويخفى عنه ما في المسند ( رقم ٣٥٣٦ ) عن ابن عباس أن قريناً قالت : إن محمداً وأصحابه وقد وهنتهم حتى يثرب ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمام الذي اعتمر فيه قال لأصحابه : أرملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم ؛ فلما رملوا قالت قرين ما وهنتهم وسنده صحيح ، علقه البخاري ( ٤١١/٨ ) .

(٢) عند ابن هشام ( ٢٥٥/٢ ) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر مرسلًا لكن رواه عبد الرازي من وجهين عن أنس ، والأول صحيح على شرط الشيخين ، والآخر على شرط مسلم كما قال الحافظ في الفتح ( ٤٠٣/٧ - ٤٠٤ ) ومن الوجه الثاني أخرجه الترمذي وحسنه ، والنسائي ( ٣٠/٢ ) .

وأقام المسلمون ثلاثة أيام ، جاء في نهايتها نفر من قريش يذكرونه بأقضاء الأجل المضروب ويقولون له : اخرج عنا ، فقال لهم الرسول : لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما ، فحضرتموه ؟ (١)

قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فأخرج عنا .

وكان العباس عم رسول الله قد زوجه من ميمونة بنت الحارث ، خالة عبد الله بن عباس ، فعقد عليها في مكة ، وبني سها في يرف ، وفي هذه الممرة نزل قوله تعالى :

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسِهِمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا » .

### غزوة مؤتة

عزَّ على المسلمين مصرع رسولهم إلى أمير بصري ، والطريقة الشائنة التي عومل بها ، فقد أوثق شر حبييل بن عمرو ورباطه ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل أحد غيره . من بعوث الرسول الكشيرة إلى الآفاق ، والرسل لا يقتلون ، لذلك كان وقع هذه الإهانة شديداً على المسلمين ، فمزموا على الاقتصاص لرجلهم ، وعلى زلزلة الوالى الأثيم الذي صنع ما صنع لحساب الرومان .

وتجهز المسلمون في جيش يعتبر بالنسبة لهم كبيراً ، إذا بلغت عدته ثلاثة آلاف ،

---

(١) ضعيف ، رواه ابن هشام (٢/٢٥٥) عن ابن اسحاق بغير إسناد ، والقصة في البخارى (٧/٤٣ - ٤٥٧) من حديث البراء ، و (٧/٤١٠) عن ابن عمر ، وليس في روايتهما : « لو تركتموني . . . » وإنما فيها : فلما أن أقام بها ثلاثاً أمروه أن يخرجوا .

وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الزاحف وهم يقولون : صَبِّحَكُمُ اللهُ بِالسَّلَامَةِ  
وَدَفَعَكُمُ اللهُ ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَرُدُّ عَلَى هَذَا الْوِدَاعِ :

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةَ ذَاتِ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا !

أَوْ طَعْنَةَ يَدَيْ حِرَّانٍ مَجْهُوزَةً بِحَرْبَةِ تَفْذِ الْأَحْشَاءِ وَالْكَبَدَا !

حَتَّى يَقَالَ - إِذَا مَرَّوَعَالِي جَدْنِي - يَا أَرشِدَ اللهُ مِنْ غَازِرٍ وَقَدْ رَشَدَا !

وَرَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَادَةَ الْجَيْشِ ، فَجَمَلَ الْأَمِيرُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَقَالَ : إِنْ أُصِيبَ جَعْفَرُ  
ابْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَإِنَّ أُصِيبَ جَعْفَرُ فَعَبِدَ اللهُ بْنُ رَوَاحَةَ <sup>(١)</sup> .

وَإِذَا طَلَّقَ الْجَيْشُ إِلَى مَشَارِفِ الشَّامِ .

إِلَّا أَنْ أَخْبَرَهُ سَبِقَتُهُ إِلَى الرُّومِ ، وَلَا بَدَأَ أَنْ تَهَاوِيلَ كَثِيرَةً أَحَاطَتْ بِسَمْعَةِ  
الْمُسْلِمِينَ وَطَاقَتِهِمُ الْحَرْبِيَّةَ مِمَّا جَعَلَ الْقَوْمَ يَسْتَعِدِّرْنَ لِلْقِتَالِ بِجَيْشٍ كَثِيفٍ .

فَلَمَّا وَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى «مَعَانَ» عَرَفُوا أَنَّ فِي أَنْظَارِهِمْ مِائَةَ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ ،  
وَمِائَةَ أَلْفٍ أُخْرَى مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ .

وَالْمُهْجُومُ عَلَى جَيْشِ تِلْكَ عِدَّتِهِ مَجَازِفَةٌ مَخْرُوفَةٌ ، فَأَقَامَ الْمُسْلِمُونَ لَيْلَتَيْنِ بِ: «مَعَانَ»  
يَقْدِرُونَ أَمْرَهُمْ ، وَقَالَ نَفَرٌ مِنْهُمْ : فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ نَحْبَهُ بِمَدَدِ عِدُونَا ، فَمَا  
أَنْ يَمْدِنَا بِالرِّجَالِ ، وَإِنَّمَا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ فَنَمْضِي لَهُ ، وَلَمْ يَرُوقْ ذَلِكَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ  
رَوَاحَةَ فَشَجَّعَ النَّاسَ قَائِلًا : يَا قَوْمَ ، وَاللهُ إِنْ تَسَكَّرْهُونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ .  
- الشَّهَادَةَ ! - وَمَا نَقَاتِ النَّاسَ بِمَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثْرَةٍ ، مَا نَقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ  
أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ ، فَانْطَلِقُوا ، فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنِيَّاتِ : إِذَا ظَهَرَ وَإِنَّمَا شَهَادَةٌ .

(١) حديث صحيح أخرجه ، البخاري (٤١٢/٧) وغيره عن ابن عمر . وأحمد  
(٣٠٠ ، ٢٩٩/٥ ، ٣٠١) عن أبي قتادة ، وسنده صحيح .



وكان لهذه الكلمة المتهمة أثرها ، فاخفتت من صفوف المسلمين مشاعر التردد وقرروا القتال ، مهما كانت النتائج .

وإن راحة شاعر حاد العاطفة ، وقد أحس منذ خروجه أن الامتشهاد مقبل عليه ، فهو ينهأ له بقلبه ولسانه ، وقد تكون الحكمة العسكرية في تصرف غير ما أوحى به ، غير أن المسلمين ما إن سمعوا حديث الغداء والموت في سبيل الله حتى جاشت بأنفسهم محبة الآخرة ، ثم ذكروا أنهم نصرُوا في معارك سابقة باستعداد أقل من عدوهم ، فأقدموا مطمئنين .

عن أبي هريرة قال : شهدت مؤتة ، فلما دنا المشركون رأينا ما لا قبل لأحديه

من العدة والسلاح والكرع والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصرى !! فقال

لى ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعا كثيرة؟ قلت : نعم - وأبو هريرة

من أسلموا بعد الحديبية - فقال له ثابت . إنك لم تشهد بدرأ معنا ، إنا لم ننصر

ما لكثرة . .

\* \* \*

والتقى الجمعان ، وعبث أن ننظر من ثلاثة آلاف يطل أن يصالوا في ميدان

مكشوف فيأق تربو عليهم سبعين ضعفا .

قاتل زيد بن حارثة براءة رسول الله حتى شاط في رماح القوم .

وتلقف الراية جعفر بن أبي طالب فقبل على الروم بجالدم بعنف .

روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لكانى أنظر إلى جعفر حين

اقتحم على فرس له شقراء ثم مقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو ينشد :

يا حبيذا الجفنة واقترابها | طيبة ، وباردا شرابها |

والروم روم قد دنا عذابها | كافرة بعيده أنسابها |

على " إن لاقيتها ضرابها |

قيل أن رجلاً من الروم ضرب به ضربة قطعته نصفين ...

وقيل : أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بمضدبه حتى

قتل ، وقد رزق جعفر هذه الشهادة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فلما قُتِلَ حمل عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فلما أحس دقة الموقف وشدة الضغط عراه بعض التردد ، ثم أقنع نفسه بورود المصير الذي ذاق أصحابه على الساحة المصطربة وهو يقول :

يا نفس إن لا تقتلي تموتى ! هذا حمام الموت قد صليت !

وما تمنيتِ فقد أعطيت ! إن تفعلِي فعلمها هديت !

ثم أقدم وجاءه ابن عم له بقطعة لحم فناولها إياه وهو يقول : شدّ بها صابك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأكاد يقطع منها مضغة حتى سمع الخطمة في ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب ، فقال لنفسه : وأنت في الدنيا ؟ ورمى بالطعام من يده .. ثم انتضى سيفه وتقدم حتى قتل ...

وأخذ الراية التي تداولتها أيدي الأمراء الثلاثة ثابت بن أقرد ، وصاح بامعشر المسلمين اصطلمعوا على رجل منكم ! قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ! فاصطلمح الناس على « خالد بن الوليد » ، وثابت أي القيادة . لا نكوصاعن الموت بل شعوراً

بوجود الأكفأ منه في الجماعة ، وحملاؤه الراية خشية أن تسقط ، من آيات الجرأة

في هذا الموقف العصيب . وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم

التي يستحقونها ، فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته ..

وأخذ الراية « خالد » فشرع يقاتل ويمتال للخلوص بالجيش من هذا للأزق المتضايق .

وقتل الانسحاب شاق مرهق ، خصوصاً وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطمة . روى البخاري عن خالد : اندقت في يدي يوم « مائة » تسعة أسياف ،

وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية ، ودخل الليل على المتحاربين ، فكان هدنة مؤقتة ، فلما طلع الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة ، فجعل المقدمة ساقية واليمينه ميسرة .

وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يلتحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش للإلتحام عام ، وقد أفلحت هذه الخطة في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه ، وإيقاد سممة المسلمين في أول معركة لهم مع الدولة الكبرى .

والعجيب أن الرومان أعيام هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة ؛ بل إن بعض فرقم انكشف ، وولى مهزوماً . . . واكتفى خالد بهذه النتيجة ، وآثر الإنصراف بمن معه .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيداً فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وميناه تذرفان - قال . ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم (١) .

وروى ابن إسحاق (٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد رفعوا إلى الجنة - فيما يرى النائم - على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريري صاحبيه فقلت : هم هذا ؟ فقيل لي : مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد . ثم مضى .



والدلالة التي تلو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالهم بالحقا

(١) حديث صحيح أخرجه البيهقي ( ٤١٣/٧ ) وغيره .  
(٢) رواه بلاغاً كما في سيرة ابن هشام ( ٢٥٨/١ - ٢٥٩ ) وغيرها فهو ضعيف الإسناد .

حدًا لم تعرفه أمة معاصرة ، وقد أكرمهم هذا الروح العالى إقداماً حقر أمامهم  
كبرياء الأمم التى عاشت مع التاريخ دهرًا ، تصول وتجول لا يفقهما شئ .

إن الاستهتار بالخطار والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال  
المقاتلون وحدهم ، بل هى قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت  
الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز . وحسبك أن جيش « مؤتة » لما عاد إلى المدينة  
قابه الصبية بصيحات الاستنكار يقولون : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ؟ إن  
أولئك الصغار الأحرار يرون إنسحاب خالد ومن معه فراراً يُقابل بمخو التراب .

---

أى جبل قوى نابه هذا الجليل الذى صنمه الإيمان بالحق !؟ أى نجاح بلغته رسالة  
الإسلام فى صياغة أولئك الأطفال العظام ؟ من آباؤهم ؟ من أمهاتهم ؟ كيف  
كان الآباء يربون ؟ وكيف كانت الأمهات يدلان ؟

---

إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس . .



نحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن قادة الجيش الذين قتلوا ، فقال لأصحابه :  
« ما يسرهم أنهم عندنا (١) » أجل ، إن الجوار الذى صاروا إليه أحب لنفوسهم  
وأقرُّ لعيونهم من الدنيا وما فيها . أما أسرهم ففى كفالة الله ، وهو نعم المولى  
ونعم النصير .

عن عبد الله بن جعفر - ابن الشهيد - جاءنا النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد  
ثلاث من موت جعفر - فقال : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم وادهوا إلى  
بنى أخى » . .

---

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه البخارى (١٢٥/٦) من حديث أنس المتقدم فى روايته  
له ؛ لسكن بلفظ : « ما يسرنى ؛ أو قال : ما يسرم .. » على الشك .

قال عبد الله: نجىء بنا كأننا افراخ . فقال : ادعوا إلى الخلاق . نجىء بالخلاق فخلق رءوسنا ، ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام - مداعباً : أما محمد فشيء عننا أبى طالب . وأما عبد الله فشبيه خلقى وخلقى . ثم أخذ يدي فأشالها وقال : اللهم اخلف جعفرأ فى أهله . وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه - قلها ثلاث مرات .

قال عبد الله : وجاءت أمنا فذكرت له يتمنا وجملت نحره . فقال لها النبي « العيلة تخافين عايهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة »؟؟ (١) .

ولم ير المسلمون فى نتائج « مؤنة » ما يسكن ثأرتهم ، فإن القبائل المنتصرة بالشمال استظهرت بارومان على مقاتلتهم ، واستطاعت بذلك النجاة من عدوانها على الحارث ابن عمير ، ولا بد من قذف الرعب فى قلوبهم ، وإشعارها بأن بعوث الإسلام لا تاتى هذا الهوان . وهكذا أجم نشاط المسلمين العسكرى إلى ميدان جديد بعيد .

## ذات السلاسل

كانت « مؤنة » فى جمادى الأولى من السنة الثامنة ، ولم يلبث المسلمون طويلاً بعدها حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون خصومهم قبل أن يستريحوا ، فخرج « عمرو ابن العاص » ليؤدب القبائل الصاربة هناك إلا أنه خشى من كثرة عدوه ، فأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب مدداً ، وانحاز إلى ماء يسمى السلاسل حتى يجيئه العون .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً من المهاجرين الأولين - فيهم

---

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه أحمد (رقم ١٧٥٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم وبوضه عند أبى داود والنسائى والحاكم وصححه ؛ ووافقه الذهبي .  
(٢٦ - فقه السيرة)

أبو بكر وعمر - يقوده أبو عبيدة بن الجراح . ووصاه رسول الله حين وجهه  
للمجدة «عمر» فقال : لا تختلفا<sup>(١)</sup> .

فلما وصل أبو عبيدة قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي فقال له أبو عبيدة :  
لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ! فقال عمرو : أنت مدد لي - !  
وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً ، هيئته أمر الدنيا - فقال : يا عمرو ، إن رسول  
صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا . وذاك إن عصيتني أطعتك ! قال عمرو : فأني  
أأمير عليك ، وإنما أنت مدد لي . قال : فدونك ! . فصلى عمرو بالناس وتولى قيادهم  
جميعاً . . .

وأخذ عمرو يطارد القبائل الموالية للروم . فتوغل في بلاد بلي وعذرة وبلقين  
سوطى . . وكما انتهى إلى موضع قيل له . كان هناك جمع فلما سمعوا بك تفرقوا !  
وظفر مرة بواحد من هذه الجموع فاقتتلوا ، وحمل عليهم المسلمون فهزموا ، وأعجزهم  
هرباً في البلاد .

ومع أن عمراً دوخ أولئك الأعراب وشتت شملهم إلا أنه لم يلقهم في معركة  
حاسمة وعلى أية حال فإن سمعة المسلمين انزاح عنها غبار كثير بهذه الغزوة .

وحدث أن عمرو بن العاص احتلم في ليلة باردة . وخشى على نفسه إن اغتسل  
أن يعتل فتيمم وصلى بالناس وكان بعض الصحابة شك في هذا الصنيع من عمرو ،  
فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : إن عمراً صلى بنا وهو جنب فقال  
الرسول : يا عمرو . صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبره بالذي منعه من

(١) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين  
التيمي مرسل .

الاجتسال . لقد خاف على نفسه قسوة البرد ، والله يقول : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .  
فضحك الرسول ولم يقل شيئاً<sup>(١)</sup> . .  
وقفه عمرو في هـ — هذه المسألة صحيح ، فان التيمم يجوز إذا كان استعمال الماء  
مظنة الضرر .

## الفتح الأعظم

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل  
ذى عقل . وكان وفاؤهم لقربش أمراً مقررأ فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس  
من ذلك الآيات البينات ..

لكن قريشاً ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها ، غير واعية بالأحداث  
الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره في  
العالم كله .

وقد جرها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغواً .  
وذلك أنها - مع حلفائها من بني بكر - هاجموا خزاعة - وهي مع المسلمين في حلف -  
واحد - وقتلواهم فأصابوا منهم رجالاً . وانحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تسكن  
مقابلة الحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تمدّهم بالسلاح وتمينهم على البغي .  
وأحس نفر من بني بكر أنهم دخلوا الحرم - حيث لا يجوز قتال - فقالوا :

(١) صحيح ، أخرجه أبو داود والدارقطني والحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن  
عمر بن العاص ، وقد تكلمت على الحديث في « صحيح سنن أبي داود » ( رقم  
٣٦٠ ، ٣٦١ ) .

رئيسهم نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله  
إلا الله يا بني بكر . . أصيبوا بأثركم ١١٠٠

وفزعت خزاعة لما حلَّ بها ، فبعثت إلى رسول الله « عمرو بن سالم » يقص  
عليه نياها . فلما قدم المدينة ، وقف على النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في  
المسجد بين ظهراني الناس يقول :

يارب إني ناشد محمداً	حلف أئبنا وأيبسه الأئبدا
تقد كنتم ولداً وكنا والداً	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرأ أعددا	وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	أبيض مثل البدر يسمو صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا	في فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قريشأ أخلفوك الموعدا	وتقضوا ميثاقك المؤكدا
بوجعلوا لي في كداء رصداً	وزعموا أن لست أدهوا أحدا
يوم أذل وأقل عدداً	هم يبتقونا بالوتير هجدا

وتقولونا ركعاً ومجداً

فقال له رسول الله . نصرت يا عمرو بن سالم . . (١)

\* \* \*

وأحست قريش — بعد فوات الأوان — خطأها ، فخرج أبو صفيان إلى  
المدينة يصلح ما أفسده قومه ، ويحاول أن يعيد للعقد المهدر حرمة

(١) ضعيف . رواه ابن هشام ( ٢ / ٢٦٥ ) وابن جرير ( ٢ / ٢٢٤ - ٢٢٥ )  
عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ووصله الطبراني في « المعجم الصغير » ( ص ٢٠٧ ) وكذا  
الكبير من حديث ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها بإسناد ضعيف .



وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش ، فطوته  
دونه . فقال : يا بنية ما أدري ، أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ .  
فقلت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس !  
قال : والله لقد أصابك بعدى شر اثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه ، فلم يرد  
عليه شيئاً (١) .

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليحدث النبي في هذا الشأن فرفض . فتركه  
إلى عمر ، فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ! والله لو لم أجد إلا الذر  
لجاهدكم به .

فتركهما إلى عليٍّ فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر  
ما نستطيع أن نكلمه فيه ثم نصحه أن يعود من حيث جاء . . فقفل أبو سفيان  
إلى قومه يخبرهم بما اتى من صدود .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى  
مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش  
حتى نبغتها في بلادها ! (٢) .

واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعمثون قواهم للقاء المنتظر ، وهم  
مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .

\*\*\*

(١) ضعيف . رواه ابن إسحاق بدون إسناد . كما في سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)  
وابن جرير (٢/٢٢٥ - ٢٢٦) .

(٢) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق بدون إسناد ؛ ومعناه في حديث يمامة المخرج آتقاً .

ووقع في هذه الفترة الدقيقة حادث مستغرب . فإن رجلا من أهل السابقة في  
جهاد المشركين تطوع بارسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً صائر إليهم  
بجيشه ... !!

وقد رأيت أن المسلمين حراس على إخفاء خطة الغزو . أليس مما يقرب مجاحهم  
ويخفف خسائرهم ؟ ولعله يدفع قريشاً إلى التسليم دون أن تسفك الدماء عبثاً  
وما معنى الكتابة إليهم إلا التحريض على حرب الله ورسوله ، والامتسكثار  
من أسباب المقاومة ؟

عن علي بن أبي طالب : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد  
فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة « خاخ » فإن بها ظمينة معها كتاب ، فخذوه منها  
فانطلقنا تحادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظمينة . فقلنا : أخرجني  
الكتاب . فقالت : ما معي ! فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب !  
فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاذا فيه « من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض  
أسرار رسول الله » فقال : يا حاطب ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله لا تعجل علي .  
إني كنت امرأ مخلصاً في قريش - كنت حليفاً لها ولم أكن من صميمها - وكان  
من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أوليهم وأموالهم . فأحببت ، إذ  
فأنتي ذلك من النسب فيهم - أن آخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله  
ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه قد صدقكم ! فقال عمر : يا رسول الله  
دعني أضرب عنق هذا المنافق ! فقال : إنه قد شهد بدرأ . وما يدريك ! .. لعل  
الله قد اطلع على من شهد بدرأ فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .. ؟

ونزل قول الله تبارك وتعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّي  
وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق .  
يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً  
في سبيلي وابتغاء مرضاتي ه تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم  
وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فلن يصالحه الله سواه السبيل ) (١) .

إن حاطباً خرج عن جادة الصواب بهذا العمل .

وما كان له أن يواد المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على  
العدوان وصنعوا بالمسلمين ما « حاطب » أعلم به من غيره .

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها ، والله أبره بعباده من أن  
يؤاخذهم بسورات الضعف التي تمر ونورهم فيخبو ، وسبهم فيكهو .

وقد استكشف النبي صلى الله عليه وسلم خبيثة حاطب ، فعرف أنه لم يكذب به  
في اعتذاره ، إنهم مقبلون على معركة كبيرة قد ينهزمون فيها ، فتقوم العصبيات  
التقدمية بحماية الأقارب الشاردين ، ويبقى حاطب لا حى له فليتخذ تلك الليد عند  
قريش ، حيلة للمستقبل .

ذلك ما فكر فيه حاطب ، وهو خطأ ، فإن المشركين لم يذكروا في عداوة  
الإسلام رحماً ولا أهلاً ، وما ينبغي - ولو دارت علينا الدوائر - أن نبقى لهم ودأ .  
وقد خاصصناهم في ذات الله ، وأخذ علينا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا ..  
ولو جاز اتخاذ يد عندهم فكيف يتوسلُ بعمل يمدُّ خيانه كبيرة فادحة  
الإضرار بالإسلام ، وأهله ؟ .

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه الشيخان وغيرهما .

على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم ، فحبرت عثرته ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه ، وبهذا التقدير السمع علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حينما بعد أن أصابوا طويلاً .

○ ○ ○

سرى القلق في ربوع مكة عقب أوبه أبي سفيان ، ورأى العباس بن عبد المطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة إلى المدينة ، فقابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطريق مقبلاً بجيشه على مكة ، وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية ، فلقي النبي صلى الله عليه وسلم بالأبواء - وهما ابن عمه وابن عمته - وكانا من أشد الناس إيذاءً له بمكة ، فأعرض عنهما لما ذكر من مساوئهما .

لكن علي بن أبي طالب أشار على ابن عمه أبي سفيان بوسيلة يرضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال له : ائته من قبل وجهه ، وقل ما قال إخوة يوصف « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً . فعقل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وأنشده أبو سفيان أبياتاً جاء فيها :

لعمرك إني حين أحمل راية      تغلب خيل اللات خيل محمد  
لكالمدلج الخيران أظلم ليله      فهذا أوانى حين أهدي فأهتدى  
هدانى هاد خير نفسى ودلتنى      على الله من طردته كل مطرد

فضرب الرسول على صدره وهو يقول له أنت طردتني كل مطرد (١) .

---

(١) حديث حسن ، أخرجه ابن جرير (٢/٢٢٩) والحاكم (٣/٤٣-٤٤) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وإنما هو حسن فقط .

وسار الجيش يطوى الوهاد والنجد ممرعاً إلى مكة ، حتى بلغ «صر الظهران»  
قريباً منها في العشاء ، فنزل الجيش ، ونصبت الخيام وأوقدت النيران في معسكر يضم  
عشرة آلاف حتى أضاء منها الوادي ، وأهل مكة في عماية من أسرهم لا يدرون عن  
القضاء النازل شيئاً ... وعز على العباس أن تُجتاح مكة في أعقاب قتال تنفاني فيه  
ولا يفتنيها فتيلاً .

فخرج يبحث عن وسيلة تفنع قريشاً بمسألة للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخلها  
في أمانه .

وصادف ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة خرجوا يتعرفون الأخبار ، ويتسمعون  
ما يقال ، فلما اقتربوا من الوادي راعهم ما به .

قال أبو سفيان زعيم مكة . مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً !!  
فقال بديل بن ورقاء : هذه - والله - خزاعة حمشتها الحرب .

فرد أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .  
وكان المسلمون على خطتهم المرسومة يبتون العيون حولهم حتى يأخذوا قريشاً  
على غرة فلا ترى من التسليم بدءاً ، ففثرت خيالهم على رجال قريش أولئك ، ومعهم  
حكيم بن حزام فأخذتهم ، وعادت بهم مسرعة إلى رسول الله ، ولحق العباس بالأمرى  
وهو يعلن أنهم في جواره ، فلما دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم حادتهم  
عامة الليل ، فانشرت صدورهم بالإسلام ، وإن كان أبو سفيان قد تأخر حتى  
طلع الصبح ...

ثم سأله الأمان لقريش ، فقال رسول الله : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن  
ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن (١) .

(١) حديث صحيح أخرجه ابن هشام (٢/٢٦٨) عن ابن إسحاق معضلاً ، لكن  
وصله عنه ابن جرير (٢/٣٢٠ - ٣٣٢) عن حسين بن عبد الله بن عبد الله بن =

وإنما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لعاطفة الفخر في نفسه ، وقد أرضاه بما لا يضر أحداً ولا يكلف جهداً ، ولا عليه أن يتعجب إلى نفس بمثل هذا الثمن الميسور . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب والضرب ، فضم إلى ذلك المسلك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق الوادي حتى يستعرض القوي الزاحفة كلها . فلابقى في نفسه أثارة لمقاومة ، وهو سيد مكة المتبوع قال العباس : فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : حلیم . فيقول مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ا فيقول : مالي ولزينة حتى نفذت القبائل ، ماتم به قبيلة إلسألني عنها ، فإذا أخبرته قال : مالي واجبي فلان ؟ .

حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ .

قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار .

---

== عباس عن مكرمة عن ابن عباس . وحسين هذا ضعيف ، لكن قال الهيثمي في « المجمع » ١٦٥/٦ - ١٦٧ ) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح « فالظاهر أنه عنده من غير هذا الطريق الضعيف ، ورواه أبو داود ( ٢ / ٤١ ) عن ابن إسحاق بإسناد آخر له عن ابن عباس . وفيه رجل لم يسم ، وله عنده إسناد ثالث ورجاله ثقات . لكن لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع ثم أخرجه هو ومسلم ( ١٧٣ - ١٧٢/٥ ) من حديث أبي هريرة إلا أنه قال : « ومن أتق السلاح فهو آمن » بدل : « ومن دخل للمسجد فهو آمن » .

قال : ما لأحد جهؤلاء من قبل ولا طاعة إلا والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً . . .

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعلم إذن (٢) .

. . .

ودخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً إذا انطلق اجتاح ما أمامه . فما يقف دونه شيء ، ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من بعيد رويداً رويداً فاجتمعوا على ساداتهم ينتظرون الأوامر بالقتال ، فإذا صوت أبي سفيان ينطلق عالياً واضحاً : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وشُدِّهت امرأته هند بنت عتبة وهي تسمع من زوجها هذا الكلام ، فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحيت الدم الأحمس - أي هذا الزق المنتفخ - قبحت من طليعة قوم ..

ولم يكثر أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : ويلكم لا تفرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ..

قالوا : فأنك الله ؟ وما تعنى عنا دارز ؟ قال . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

---

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام ( ٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد . لكن رواه ابن جرير والطبراني موصولاً عن ابن عباس كما تقدم آنفاً .  
وبعضه في صحيح البخاري ( ٤ / ٦ - ٦ ) وابن جرير ( ١ / ٣٣٢ - ٣٣٣ ) عن عروة برسلا . فهو شاهد قوي .

وأصبحت « أم القرى » وقد قيد الرعب حرركاتها ، واسترخت تجاه القدر  
المذساق إليها . فاختنى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام  
يرقبون وهم واجمون ...

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته  
عمامة دسما ، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله ، لقد انحنى على رحله وبدأ عليه  
التواضع الجمّ حتى كاد عنثونه يمس واسطة الرحل (١) إن الموكب الفخم للمهيب  
الذى ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والقياق الدارع الذى يحف به ينتظر إشارة  
منه فلا يبقى بمسكة شيء آمن ، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول  
كيف خرج مطارداً ؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً . . ! وأى كرامة عظيمة  
حفظه الله به فى هذا الصباح الميمون ! وكلما استشعر هذه النماء ازداد الله على راحلته  
خشوعاً وانحناءً ويبدو أن هناك هواطف أخرى كانت تجيش فى بعض الصدور .

فإن « سعد بن عبادة » زعيم الأوس ، ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا  
فى جنب الله ، ثم شعر بزمام القوة فى يده فصاح . اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل  
الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشاً .

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : بل اليوم يوم

---

(١) ضعيف ، رواه ابن هشام (٢/٢٦٩) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي  
بكر مرسل . ووصله الحاكم (٤٧/٣) وكذا أبو يعلى من حديث أنس بن مالك . وقال  
الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » وأقره الذهبي ! وهو من أوهاههما ، فإن فى سننه  
عبد الله بن بكر المقدي وهو ضعيف كما قال ابن عدى ثم ساق له هذا الحديث كما فى الميزان  
وهذا المقدي غير عبد الله بن أبي بكر شيخ ابن إسحاق ؛ فإن هذا متأخر من طيبة  
الإمام أحمد ، وذاك تابعي صغير يروى عن أنس رضى الله عنه وهو ثقة .



تعظم فيه الكعبة<sup>(١)</sup> . اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس .

ومار رسول الله فدخل مكة من أعلاها<sup>(٢)</sup> . وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم<sup>(٣)</sup> فدخلت صائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل «خالد بن الوليد» من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش ، غاظهم هذا التسليم ، فاجتمعوا عند «الخدمه» يقودهم «عكرمة» بن أبي جهل و«سهيل» ابن عمرو ، و«صفوان» بن أمية ، إلا أن الحقيقة الكبيرة صدمت فرورهم فبددته ، فإن خالداً حصدهم حصداً حتى لاذ القوم بالقرار . ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بنى بكر ، كان قد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين . وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتمهد تسأله : لماذا تعد ما أرى ؟ فيقول : لمحمد وأصحابه ، وقالت امرأته له يوماً : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء ، فقال إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ... ثم قال :

إن يقبلو اليوم فما لي علة هذا سلاح كامل وألّة (٤)

وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة . ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته أغلقتي على الباب ١٠٠

(١) ضعيف ، أخرجه البخاري وغيره في حديث عروة مرسل ، وقد سبق تخرجه قريباً ، وأما باقي الحديث فرواه يحيى بن سعيد الأموي كما في شرح اللواهب للزرقاني (٣٠٦/٣) ولم يتكلم على سنده ولا ساقه لينظر فيه ؛ وقد أشار ابن كثير في البداية (٢٩٥/٤) لضعفه .

(٢) صحيح ، أخرجه البخاري (١٤/٨ ، ١٥) عن ابن عمر وعائشة .

(٣) ذكره ابن هشام (٢٨٣/٣) عن ابن إسحاق بدون إسناد .

(٤) ألّة : حربة .

فقلت المرأة لغارصها المعلم . فأين ما كنت تقول ؟ فقال - يعتذر - لها :  
إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة  
وأبو يزيد قائم كالؤتمة (١) واستقبلتهم بالسيوف السالمة  
يقطن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا تُسمع إلا غفمة  
لهم نهيت خلفنا وهممة لم تنطفي باليوم أدنى كلمة ! !

وسكنت مكة واستسلم سادتها وأتباعها . وعلت كلمة الله في جنباتها ، ثم نهض  
رسول الله إلى البيت العتيق فطوّف به وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله .  
ويضربها بقوسه ظهراً لبطن ، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة .

كانت هذه الحجارة - قبل ساعة - آلهة مقدسة . وهي - الآن - جص  
وتراب وأفقاض ، يهدمها نبيّ التوحيد وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل  
إن الباطل كان زهوقاً . . . » (٢) .

ثم أمر بالكعبة ففتحت . فرأى الصورَ تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم  
وإسماعيل يستقيمان بالأزلام ! فقال - ساخطاً على المشركين - قاتاهم الله ، والله  
ما استقسما بهذا قط (٣) ، ومحا ذلك كله (٤) . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان  
أقبل على قریش وهم صفوف صفوف ، يرقبون قضاءه فيهم ، فأمسك بمضادتي

(١) الاسطوانة ، وأبو يزيد : سهيل بن عمرو .

(٢) حديث صحيح ؛ أخرجه الشيخان في صحيحهما عن ابن مسعود . ومسلم من حديث  
أبي هريرة .

(٣) حديث صحيح ؛ أخرجه البخاري عن ابن عباس .

(٤) حديث صحيح ؛ أخرجه أحمد (٣/٣٣٥ ؛ ٣٣٦ ؛ ٢٨٣ ؛ ٣٩٦) من حديث

جابر بسند صحيح ؛ والطيالسي (١/٣٥٩) من حديث أسامة بن زيد وسنده جيد  
كما قال الحافظ في «الفتح» (٣/٢٦٨) .

الباب - باب الكعبة - وهم تحته ، فقال . لا إله إلا الله وحده صدق وعده ،  
ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم قال يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم  
وإبن أخ كريم قال : فإنى أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم  
اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء (١) .

وعندما كان رسول الله بالمسجد يُجسّمزُ على الوثنية في عاصمتها الكبرى ،  
اقرب منه (فضالة بن عير) يريد أن يجد له فرصة ليقنله .

فنظر إليه النبي نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غرة النصر الذي أكرمه  
الله به ، لم يجد في نفسه على الرجل . بل استدعاه ثم سأله . ماذا كنت تحدث  
به نفسك ؟

قال : لا شئ ، اكننت أذكر الله ! فضحك النبي ثم قال : أستغفر الله .  
وتلطّف معه الرسول ، فوضع يده على صدره ، فانصرف الرجل وهو يقول :  
مارفع يده عن صدرى حتى مآين خلق الله شئ . أحب إلى منه (٢) .  
وكانت لفضالة في جاهليته هنات ، فر - وهو راجع إلى أهله - بامرأة لها  
معه شأن . فلما رأته قالت : هلم إلى الحديث ! فانبعث يقول :  
قالت : هلم إلى الحديث ، فقلت لا بأبى عليك الله والإسلام

(١) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق معضلاً كما في « ابن هشام » (٢٧٤/٢) ؛ وقد  
ذكره النزالى في « الإحياء » (١٥٨/٣) من حديث أبي هريرة دون قوله : « اذهبوا »  
وقال الحافظ المراقى في « تخريج » رواه ابن الجوزى في « الوفاء » من طريق ابن أبي  
الدنيا وفيه ضعف . ثم ذكره النزالى من حديث سهل بن عمرو . فقال المراقى : « لم أجده »  
(٢) ضعيف ؛ رواه ابن هشام (٢٧٦/٢) بإسناد معضل .

لو رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسّر الأصنام  
رأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشى وجهه الإظلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد  
على آذانهم كأنهم في حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجوّ فتقذف بالرعب في أفئدة  
الشياطين فلا يمكن أمام دويبها إلا أن يولوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين .  
الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر .

هذه الصيحات المؤكدة تذكّر الناس بالغاية الأولى من محيّم ، وبالرجوع الحق  
بعد مماتهم ، فكم ضلت البشر غايات صغيرة أرخصتهم على ظهر الأرض ركض  
الوحوش في البرارى ، واجتذبت انبهاهم كله فاستفرقوا في السمي وراء الحطام !  
وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم للحرمان ، والفرح يقتلهم بالامتلاء ،  
ولم يسفه المرء ، نفسه بالغيوبة في هذه التوافه ؟

إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة ، ليلقى في روعه  
ما كان ينسأه ، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين ، سيده ومولاه ...  
أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله .

لقد سقط الشركاء جميعاً ، طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالهباء ، وأمّلوا  
الخبر فيمن لا يملك لنفسه نفعا ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذبابة -  
ولم الخبط في هذه التناهاة ؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض خلائقه ، أو  
يؤلّفونها دونه ؟ فالمسلمون لا يعرفون إلا الله ربّاً ، ولا يرون غيره مؤثلاً .

وانتوحيد المحض ، هو المنهج العنيد للغاية التي استهدفوها .  
ولسكن من الأسوة ؟ من الإمام في هذه السبيل ؟ من الطليعة الهادية المؤنسة ؟  
إن المؤذن يستتلي ليذكر الجواب .

أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لسكل إنسان يعني الحياة الصحيحة، إن محمداً إنسان، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له . وهو يهيبُ بكل ذى عقل أن يُقبل على الخير ، وأن ينشط إلى مرضاةِ ربي أمره ، وولي نعمته ، فيحث الناس أولاً على أداء عبادة ميسورة رقيقة .  
حي على الصلاة ، حي على الصلاة .

هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي لحظات المساب كلما انحرف الإنسان عن الجادة . هي لحظات الخضوع لله كلما هاج بالمرء النزق ، وطافت على فكره الأثرة فنظر إلى ما حوله ، وكأنه إله صغير . هي لحظات الاستمداد والإلهام .

وما أفقر الإنسان - برغم غروره - إلى من يلممه الرشد فلا يستحق ، ويمده بالقوة فلا يعجز ويستكين . ثم يحث الناس - أخيراً - على تجنب الخيبة في شئونهم كلها . والخبية إنما تكون في الجهد المضاع سدى . في العمل الباطل لأنه خطأ ، سواء كان الخطأ في الأداء ، أو المقصد . . . . وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو :  
حي على الفلاح ، حي على الفلاح .

وبوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح في صورته ونيته ، فقد أفاح ، ولو كان من أعمال الدنيا البهجة ، ألم يعلم الله نبيه أن يجعل شئون جهاته ، بعد نسكه وصلاته خالصة لله ؟ ( قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ) .

ولاسبيل إلى ذلك إلا بإصغار ما عدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبداً ، ومن ثم يعود إلى تقرير الغاية والمنهج ، مرة أخرى .

الله أكبر الله أكبر . . .

لا إله إلا الله . . .

إن كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة في الإصلاح ، ولذلك جاء في السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول :

« اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد <sup>(١)</sup> . »

• • •

وفي يوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ، ولم يسمعوا صوت بلال يرنّ فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا الأصنام مكسوبة على وجوهها مسواة بالرغام ، ولم يروا عبادها الأقدمين وقد ألقوا بالسلم واتجهوا إلى الإسلام ..

لهم قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة ، التي نشبت بين الإيمان والكفر .

ولكن النصر الذي يجنى الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير ، وحزائم عليه مكفول عند من لا يظلم منقال ذرة .

إذ إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل ، فقد يخترمه الأجل في الراحل الأولى منه ، وقد يصرع في هزيمة عارضة . كما وقع لسيد الشهداء « حمزة » ومن معه .

والقرآن الكريم بنبه أصحاب الحق إلى أن العول في الحساب الكامل على الدار الآخرة ، لاعلى الدار الدنيا ، فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً ، ( فاصبر إن وعد الله حق ، فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ) .

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه البخارى في « صحيحه » وفي « أعمال العباد » وأصحاب السنن الأربعة والطبرانى في « الصغير » وابن السنن في « عمل اليوم والليلة » وأحمد والبيهقي من حديث جابر مرفوعاً به ؛ دون قوله : « إنك لا تخلف الميعاد » فتفرد بها البيهقي وهي شاذة لا تصح .

ودخل رسول الله مكة في رمضان ، وظل بها سائر الشهر بقصر ، ويفطر أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكان قد خرج من المدينة صائماً ثم أفطر هو وصحبه في الطريق (١) .

فلما استقر الأمر ، شرع يبايع الناس على الإسلام (٢) فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء ، فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا (٣) .  
وسنة رسول الله في مبايعة النساء أن يأخذ عليهم الميثاق كلاماً لا مصالحة .  
فمن عائشة : « لا والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط (٤) » .

○ ○ ○

وهكذا دخل أهل مكة في الاسلام ، وإن كان بعضهم بقي على ريبته وجاهليته . يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام ، وأولئك تركوا الأيام تشفى جهلهم ، ونجى مامات من فلوهم وألباهم .

وما دامت الدولة التي تحمى الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت ، فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين في تهمية الأخبار على قريش حتى بوغتوا في عقر دارهم ، فلم يجدوا مناصحاً من الاستسلام ،

---

(١) أما قصره صلى الله عليه وسلم في مكة فثابت في « البخاري » ( ١٧/٨ ) عن ابن عباس قال : أقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين .  
وأما إفطاره فهو في « الصحيحين » من حديث ابن عباس أيضاً .  
(٢) حديث حسن رواه أحمد ( ٤١٥/٣ ، ١٦٨/٤ ) من حديث الأسود بن خلف وسنده حسن .

(٣) ضعيف ؛ رواه ابن جرير ( ٣٢٧/٢ ) بدون إسناده ، أو من حديث قتادة مرسله والطريق إليه ضعيف .

(٤) صحيح ، أخرجه الشيخان وغيرهما .

فما استطاعوا الجلاذ ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعاً أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع ، حتى خُيِّل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فأبانتك عنها!

### معركة حنين

بيد أن هذا الغاب كله كان له رد فعل مما كس لدى القبائل الكبيرة القريبة من مكة ، وفي مقدمتها «هوزان» و «ثقيف» وتعتبر «الطائف» قصبتها وهي أكبر المدن في الجزيرة بعد مكة ويثرب

اجتمع رؤساء هذه القبائل على «مالك بن عوف» سيد «هوزان» ، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين ، قبل أن تتوطلد دعائم الفتح ، وقبل أن يتحرر كوا لا استئصال ما بقي من معالم الوثنية المدبرة .

وكان «مالك بن عوف» شجاعاً مقداماً ، إلا أنه صقيم الرأي سيء المشورة .

فأصر قومه — وهم خارجون لغزو — أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذراريهم ، ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمة وراثة فلا يفر عنها...

وقد اعترضه «دريد بن الصمة» ، وهو فارس مجرب محنك ، وقال له : هل يرد للهنوزم شيء ؟ إن كانت الدائرة لك ، لم ينفك إلا رجل رحيموسيفه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

فصه مالك رأيه ، وأصر على خطته .

وعلم المسلمون بمخرج أعدائهم ، فأرسلوا عيونهم يتعرفون عدتهم وهيتهم . روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله فقال له : إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا «يهوزان» عن بكرة أبيهم بظعنهم ، وبنعمهم



وشأنهم ، اجتمعوا إلى «حنين» ... فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله (١) .

إن السهولة التي تم بها فتح مكة ، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ أقدامها الأخيرة فلن تبدى مقاومة تذكر . وظنّ حدثاء العهد بالإسلام أن شيئاً ما لن يقف في طريقه ، كل ذلك جعل الجيش يزحف للقضاء المشركين وهو غير مكترث لما سوف يواجهه ، ولم يكترث ؟

إنهم — وهم قلة — كانوا يكسبون المارك الطاحنة ، فكيف وهم اليوم يخرجون في عدد لم يجمعوا مثله قبلاً ؟ قيل : إن أبا بكر الصديق لما نظر إلى الجيش قال : لن تغلب اليوم من قلة .. !

ذلك أن المسلمين بلغوا اثني عشر ألفاً ، بمن انضم إليهم من أهل مكة .

### هزيمة

ومار الجيش الواصل حتى وصل إلى وادي «حنين» . وكان «مالك بن عوف» ورجاله قد سبقوا إلى احتلال مضايقه ، وانبتوا في الشجيرات والأجناد المنبوعة ، ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين .

وأقبلت الطلائع الصغيرة تتدافع نحو الوادي — وهي غافلة عما يمكن فيه — وكان وادياً أجوف منحدراً ، ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسرون إلى هاوية .

فلما تكاثرت في دروبه الفرق الزاحفة ، لم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المساكن العالية ، وكان غيبش الفجر لا يزال يترك بقاياها في الجوف الغائم

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١ / ٢٩١ — ٢٩٢) عن سهل بن الحنظلية

فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة ، فهي في عماية من الليل ، وعماية من أمرها ، لا تعرف إلا أن تستدير ثم تولى الأدبار ..

وانتشرت موجة الفرع ، فكسرت الصفوف المرصوفة وبعثتها .  
واستغل رجال مالك بن عوف ، هذا الارتباك ، فهاجمت كتائبهم ، وحملت الخيل على ما أمامها ، فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوى أحد على أحد ..  
ونظر زعماء مكة إلى الجيش المولى نظرة تشفٍّ وفرح .

وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله فقال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! ولا عجب فإن الأزمات التي يستقسم بها في جاهليته لا تزال في كنفاته ..  
وقال « كلدبة بن الجنيد » : ألا بطل السحر اليوم .

فأجابه « صفوان بن أمية » — ولما يزل مشركا — : أصكت فض الله فاك ، فوالله لأن ير بنى رجل من « قريش » أحب إلى من أن ير بنى رجل من « هوازن » .



وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، وقد أغضبه هذا القرار ، فقال : أين أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله .. فلا يردّ عليه شيء ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي مولية بأصحابها<sup>(١)</sup> .

ولمح النبي ورائها رجلا من « هوازن » على جبل له أحر ، بيده رايه سوداء في رأس رمح طويل ، « هوازن » خلفه ، إذا أدرك الفارين طعن برمح ، وإذا فاتوه رفع رمحه لمن وراه فاتبعوه .

إن الذي تولى كبر هذه المهزلة الشائنة هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو .

(١) صحيح أخرجه ابن هشام ( ٢ / ٢٨٩ ) وابن جرير ( ٣ / ٢٤٧ ) كلاهما عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

ووقف النبي صلى الله عليه وسلم ما كن الجأش ، يدبر الرأى فى خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله ، وقد أحاط به لفيق من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته .  
فأمر العباس بن عبد المطلب - وكان جهر الصوت - أن ينادى : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية (١) ..

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ، ورجال الفداء عند الصدام فهم - وحدهم - الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب .  
أما هذا الغناء من العوام الحراص على الدنيا ، السعاة إلى المغام ، فما يقوم بهم أمر ، أو تثبت بهم قدم .

## الثبات والنصر

وفى ضجة الفزع الذى ساد المعركة أولاً ، علمت صيحات العباس ، ووصلت إلى آذان الرجال المشدوهين لما وقع ، فأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت .  
إذا أراد أحدهم أن يمطف بعيره ليعود به ، لا يقدر من ضغط الفارين ، فما يجد بدأ من أن يقذف درعه من عنقه ، ويحمل سيفه وترسه ثم يؤم الصوت .

واجتمع حول رسول الله عدد من الرجال الذين دعاهم ، وهم يصيحون : لبيك ، حتى قارب القوم مائة ، فاستقبل النبي بهم المشركين ، وقد ملك زمام الموقف وأعاد الكرة عليهم ، فاجتلد الفريقان اجتلاداً شديداً .

وقصد «على» وأحد الأنصار إلى حامل العلم فى طليعة هوازن ، فضرب «على» عرقوبى جملة فوقه على عجزه ، ثم استمكن منه الأنصارى فهوى به عن رحله .  
وكان النبي على بغلته يقول :

(١) رواه ابن صحيح إسحاق بسند صحيح عن العباس وقد ساقه ابن جرير وابن هشام عنه ؛ وهو فى مسلم (١٦٦/٥ - ١٦٧) نحوه .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب (١)

ويدعو : اللهم نزل نصرك (٢) .

والمهاجرون والأنصار قد التحموا مع رجال هوازن وثقيف .

قال « العباس » : ونظر رسول الله - وهو على بغلته كالتطاول عليها إلى قتالهم فقال : الآن حى الوطيس ، ثم أخذ حصيات ، فرمى بهن في وجوه الكفار ، ثم قال . انهزموا ورب محمد .

قال « العباس » : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فاهو إلا أن رماهم فمازلت أجد حدهم قليلا . وأسرهم مدبراً (٣) .

ولم يطل وقت ، حتى كان رجال (ثقيف) ومن معهم يسوغون مولئين الأدبار فإذا هم يرون الأسرى مكتفين !

وفي هذه للعركة نزل قول الله عز وجل ( لَسَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِيبَتًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ) .

• • •

واعتصم بعض المنهزمين بقافية يقال لها : (أوطاس) .

(١) صحيح ؛ أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب .

(٢) صحيح ، ترد به مسلم ( ١٦٨ / ٥ ) عنه .

(٣) رواه مسلم عن العباس .

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في أعقابهم (أبا عامر الأشعري) فقاتلهم حتى قتل فأخذ الراية منه ابن عمه (أبو موسى الأشعري) فما زال يناوش القوم حتى بدأ شملهم ، وهزموا شر هزيمة<sup>(١)</sup> .

واضطر (مالك بن عوف) ومن معه من رجالات قومه أن يعضوا في الفرو حتى يصلوا إلى (الطائف) فيمتنعوا بحصنها تاركين في - هذا الفرار - معانم هائلة .

فإن مالكا - كما عدت - خرج يفزو ، ومعه نساء القبيلة وما تملك .  
فخلف في الميدان أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأكثر من أربعين ألفاً من الغنم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة هذا إلى جانب ستة آلاف من السبي .

## الغنم

وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم على الناس هذه الغنائم ، وتأني .  
يبتغي أن يرجع القوم إليه تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا .  
ومكث ينتظرم بضع عشرة ليلة فلم يجئه أحد<sup>(٢)</sup> .

فشرع يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشرف مكة ، وبدأ بقسمة المال فسكان المؤلفه قلوبهم أول من أعطى ، بل أول من حظى بالأنصبة الجزلة .  
أخذوا (أبو سفيان) مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة فقال : وابن معاوية ؟ ففتح مثلها لابنه معاوية . فقال وابن يزيد ؟ ففتح مثلها لابنه يزيد<sup>(٣)</sup> .

(١) صحيح ، ذكره ابن إسحاق بدون إسناد ، ومعناه في البخاري (٢٣/٨) - ٤٢٥ وابن جرير (٣٥١/٢) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٢٦/٨ - ٢٧) .

(٣) ذكره ابن هشام (٣٠٨/٢) نحوه عن ابن إسحاق بدون إسناد رواه ابن جرير (٢٥٨/٢) عنه عن عبد الله بن أبي بكر مرسلًا . وإعطاؤه صلى الله عليه وسلم هذه الفزوة للمؤلفة قزحهم ومنهم أبو سفيان ثابت في مسلم (١٠٨/٣) .

وأقبل رؤساء القبائل وأولو الهمة ، يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه .  
وشاع في الناس أن محمداً يمطى عطاء من لا يخشى الفقر .  
فازدحموا عليه يبيعون الزيد من المال ، وأكبّ عليه الأعراب يقولون :  
يا رسول الله ، اقسام علينا فيئتنا ، حتى اضطرره إلى شجرة فانزعت  
رداءه ا فقال :

« أيها الناس ، رُدوا عليّ ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لكم مندى عدد  
شجر نهامة نهماً لتسمة عليكم ، ثم ما أفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » .  
ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرّة ، فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها فقال  
« أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخس ، والخس  
مردود عليكم »<sup>(١)</sup> .

إن أعين القوم تكاد تخرج من المهاجر تطلماً إلى الدنيا .  
وهؤلاء الأعراب والطلاقاء والرؤساء ، ما أغنوا عن الإسلام شيئاً في مآزق  
الأولى بل كانوا هم العقاب الصلدة التي اعترضت مسيله حتى تحطمت تحت معاول  
المؤمنين الراغبين في ثواب الآخرة . المؤثرين ما عند الله .  
ولكنهم اليوم — بعد ما أعلنوا إسلامهم — يبيعون من الرسول أن يفتح  
عليهم خزائن الدنيا ؛ فحالف لهم أنه ما يستبقى منها شيئاً لشخصه ، ولو أمتلك ملء  
سنة الأودية مالا لوزّعه عليهم .

والحق أن الرسول وضع بحلمه وكرمه مسالك بينة للطيش والجشع في سبيل  
تألف هؤلاء الناس وتحييمهم في الإسلام .  
ولو عافهم على جبنهم في « حنين » لثالّ منهم أي منال .

(١) صحيح ؛ رواه أحمد ( رقم ٦٧٧٩ ) والبيهقي ( ٣٣٦/٦ - ٣٣٧ ) بسند حسن  
عن عبد الله بن عمرو ؛ والبخاري ( ١٩٣/٦ - ١٩٤ ) عن جبير بن مطعم إلى قوله  
« كذاباً » والباقي عند الحاكم ( ٤٩/٣ ) من حديث عبادة بن الصامت ؛ وعند البيهقي  
( ٣٣٩/٦ ) من حديث عمرو بن عبسة .

روى الإمام أحمد<sup>(١)</sup> أن «أبا طلحة» — وهو من فرسان المسلمين المعدودين —  
لحق «أم سليم» ومعها خنجر، فقال لها: ما هذا؟ قالت: إن دنا مني بعض  
المشركين أبعج بطنه — وذلك في معركة حنين — فقال أبو طلحة لرسول الله:  
أما تسمع ما تقول أم سليم؟ فضحك النبي. فقالت أم سليم: يا رسول الله، أقتل  
من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك! فقال: إن الله قد كفى وأحسن يأأم سليم.  
والمعجب أن هؤلاء الذين فرُّوا عند الفزع، هم الذين كثروا عند الطعم:  
وشاء النبي أن يلطف معهم، وينسى ماضيهم تكرماً وتأليفاً.

وماذا يصنع؟ إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم،  
لا من عقولهم فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فيها  
حتى ندخل حظيرتها آمنة! فكذلك هذه الأصناف من البشر، تحتاج إلى فنون  
من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتمسك له.

عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،  
وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت  
إلى صفحة عاتق رسول الله أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته قال: مر لي  
من مال الله الذي عندك! فالتفت إليه، فضحك: ثم أمر له بعباءة<sup>(٢)</sup>... إن  
هذا الأعرابي لا يعجبه المنطق الدقيق، ولا الطابع الرقيق، قدر ما يعجبه عطاء  
بملاً جيوبه، ويسكن مطامعه.

ومن هنا قال صفوان بن أمية: ما زال رسول الله يعطيني من غنائم «حنين»  
وهو أبغض الخلق إليّ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه<sup>(٣)</sup>.

(١) في المسند (١٩٠/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم (١٠٣/٣) وكذا البخاري.

(٣) رواه مسلم (٧٥/٧) والترمذي (٢٤/٢) وأحمد (٤٠١/٣) عن سعيد —

## حكمة هذا التقسيم

وهذه السياسة البعيدة لم تفهم أول الأمر ، بل أطلقت السنة شتى بالاعتراض ، هناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم والإهمال لأسرهم . روى البخارى عن ( عمرو بن تغلب ) قال : أعطى رسول الله قوماً ومنع الآخرين ، فكأنهم هتبوا عليه فقال : إني أعطى قوماً ، أخاف هنعهم وجزعهم وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى ، منهم ( عمرو بن تغلب ) قال عمرو : فما أحب أن لى بكلمة رسول الله حمر النعم . . .

فمكانت هذه التزكية تطيبها لخاطر الرجل . أرجع لديه من أئمن الأموال . وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة .

لقد حرموا جميعاً أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تبدل القرار انتصاراً ، وهام أولاء ، يرون أيدي الغارين تعود ملأى .

أما هم . . . فلم يمنحوا شيئاً قط ؟

عن أبي سعيد الخدرى : لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين ، وقسم للفتالين من قريش وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار شيء منها ، قليل ولا كثير ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه . فشئى ( سعد بن عبادة ) إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم ؟ قال : فيم ؟ قال فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شيء . قال رسول الله : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي .

== ابن المصعب أن صفوان بن أمية قال : كذا هو عند مسلم وظاهره الانتطاع بين سعد و صفوان ؛ وعند أحمد والترمذى عن صفوان « وظاهره الاتصال . ولكن الترمذى رجح الأول وأيده ابن العربي في الممارسة فقال : « لأن سعيداً لم يسمع من صفوان شيئاً » .



فقال رسول الله : اجتمع لى قومك فى هذه الحظيرة ، فإن اجتمعوا فأعلمنى !  
فخرج « سعد » فصرخ فىهم لجمعهم فى تلك الحظيرة . . .  
حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه ، فقال : يا رسول الله اجتمع  
لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم .  
فخرج رسول الله ، فقام فىهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال  
يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله وعلالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله  
بين قلوبكم ؟؟؟ قالوا : بلى ! قال رسول الله : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟  
قالوا : وما نقول يا رسول الله وماذا نجيبك ؟ المن لله ورسوله .  
قال : والله لو شئتم لقاتم فصدقتم وصدقتم : جئناكم طريداً فأريناكم ، وعائلاً فأسبناكم  
وخائفاً فأمناكم ، ونخذولاً فنصرناك ...

فقالوا : المن لله ورسوله .

فقال : أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً  
أسلموا وولكلتم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام !! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن  
يذهب الناس إلى رحالمم بالاشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟  
فوالذى نفسى بيده ، لو أن الناس سلكوا شعباً وصلكت الأنصار شعباً ،  
لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امراً من الأنصار .  
اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .  
فبكى القوم حتى أخضلوا لحامهم . وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله رسلاً . :  
ثم انصرف ... وتفرقوا ... (١) .

(١) حديث صحيح ؛ رواه أحمد (٧٦/٣ — ٧٧) وابن هشام (٣١٠/٢) —  
(٣١١) وابن جرير (٣٦٠/٢) — ٣٦١ كلهم عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن  
أبى سعيد الخدرى . وذكره ابن كثير فى «البداية» (٣٥٨/٤ — ٣٥٩) من رواية  
يونس بن بكير عن ابن إسحاق والسياق له ثم قاله ابن كثير : « وهو صحيح . والقصة  
فى البخارى (٢٨/٨ — ٤٣) بنحوها مختصراً .

والأنصار - في تاريخ الدعوات - مثل فريدة الرجال الذين تقوم بهم الرسائل العظمى حتى إذا امتوت على سوقها ، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها ، وتدلّت ثمارها وحلا جناها ، جاءت أيد غير أيديهم فقطعت ما تشهى ، ولم تكف بذلك ! بل لعامت أيدي الفارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة قليلا ولا كثير ! !

ولا نقول ذلك تعليقا على توزيع الغنائم في هذا المقام ، فقد اتضح وجه الرشد في هذه القسمة الحصينة ...

ولكننا نذكر في مناقب الأنصار ، وافترض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين وتأليف الناس عليه ، أن شئون الحكم ابتعدت عنهم ، واحتازها غيرهم وهم لها أكفاء . فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت في أيدي الطلقاء .

ولا ريب في أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى ، وأن شأن

---

الدنيا أنزل قدرا من أن يأسى عليه رجل العقيدة :

---

غير أننا نتساءل : أكان من مصلحة الرسائل نفسها أن تقع هذه الأثرة ؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكم ، فيقصي أصحاب السبق وأولو النصر ، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصرأ به ؟ !

### عودة وفد هوازن

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما ، وسألو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردهم سيبهم وثورهم ! فقال لهم : إن معي من ترون ، وإن أحب الخديث إلى أصدقه . فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا .

فقام رسول الله في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سيبهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليعمل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول

مال بقره الله عايننا فليقبل ، فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال لهم إنا  
لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم .  
فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ، ثم عادوا إلى رسول الله يخبرونه أنهم قد طيبوا  
وأذنا (١) .

## حصار الطائف

أما تقيف فإنها — بعد أن تراجعت منهزمة في «حنين» و «أوطاس» —  
دخلت حصونها وتبثأت فيها لحصار طويل . وعرف المسلمون أن القوم لا يزالون  
على إصرارهم والبقاء على جاهليتهم ، وأن الحسائر التي لحقت بهم لم تنكسر شوكتهم  
ولم ترهق عزيمتهم ، فقرروا السير إليهم ومناجزتهم ، وللمسلمين خبرة قديمة بهذا  
الأسلوب من القتال ، فقد حاصروا وحوصروا ، وعرفوا أنجح طرائق الهجوم والدفاع  
ونفض رسول الله بحيشه حتى اقترب من الطائف فسكر حونها وأخذت تقيف من  
حصونها تقذف بالنبال فأصيب نفر من المسلمين ، واضطر الجيش أن يؤخر مواعده  
حتى لا يستهدف لقدانهم .

ويظهر أن النبي لم يحرض على اقتحام الحصون واستنزال أهلها قسراً كما فعل بنو  
إسرائيل . لقد أمل فيهم خيراً . وأدار المعركة حولهم من حدود ضيقة وبضحايا يسيرة  
وظل يحاصرهم خمس عشرة ليلة . ثم بدأله أن يدعهم وشأنهم ، وأشار على المسلمين  
بذلك . فرغبوا أولاً في إطالة حصارها حتى تفتح عليهم ثم نزلوا أخيراً على رأيه .  
وروى : أن رسول الله استشار نوفل بن معاوية فقال : يا نوفل . ما ترى في المقام  
عليهم ؟ فقال . يا رسول الله . ثعاب في حجر ، إن أقت عليه أخذته ، وإن تركته

(١) صحيح أخرجه البخاري (٢٦/٨ — ٢٨) عن مروان والسور بن محرمة معا

لم يضرك<sup>(١)</sup> ! فأمر النبي عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل<sup>(٢)</sup> .  
فلما قفلت بهم المطايا ، قالوا : يا رسول الله ، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم  
فقال : اللهم اهد ثقيفاً<sup>(٣)</sup> ! ..

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها . فاهى الأشهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم  
إلى المدينة يخبر النبي برغبتهم في الإسلام وانفساح قلوبهم له .

### إلى دار الهجرة

عاد المسلمون من الطائف إلى مكة ، لايماودوا المقام فيها بعد أن فتحها الله عليهم  
بل لينظموا أمورها ثم يرحلوا إلى مهاجرهم الخالد ...

إن صلحتهم بالمدينة أنحت من العمق والقوة ، بحيث لا يرجحها وطن قديم  
ولا ذكريات عزيزة

روى أن النبي لما فتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو ، وقد أحذقت به  
الأنصار فتهامسوا فيما بينهم : أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم  
بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ! فلم يزل بهم  
حتى أخبروه فقال . معاذ الله ، الحيا محياكم ، والمات مماتكم<sup>(٤)</sup> !

---

(١) ضعيف جداً ، رواه الواقدي كما في « البداية » ( ٤ / ٣٥٠ ) وهو منهم بالكذب .  
(٢) ضعيف ذكره ابن هشام ( ٢ / ٣٠٣ ) عن ابن إسحاق بلاغاً ، ورواه ابن لهيعة  
عن أنى الأسود عروة . وهو مع إرساله ضعيف .  
(٣) ضعيف ، أخرجه الترمذي ( ٣ / ٣٧٩ ) عن أبي الزبير عن جابر وقال : « حديث  
حسن صحيح » قلت أبو الزبير مدلس وقد عنفنه ، وقد تابعه عبد الرحمن بن سابط عند  
أحمد ( ٣ / ٣٤٣ ) ولكنه لم يسمع من جابر ، كما قال ابن معين .  
(٤) حديث صحيح رواه هذا السياق ابن هشام بلاغاً ، ووصله مسلم ( ٥ / ١٧٠ ) —  
( ١٧١ ) وغيره من حديث أبي هريرة نزيه . فتصديره بلفظ . « روى » غير جائز .

ولما كان أهل مكة حدثاء عهد بالإسلام وفقههم في أحكامه ومراميه قليل ،  
فإن النبي خلف فيهم ( معاذ بن جبل ) يعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم (١) .  
وجعل ( عتاب بن أسيد ) أميراً على مكة (٢) وهره يومئذ عشرون سنة .

وكان ( عتاب ) شاب زكياً ، فنوعاً شجاعاً ، وقد تقرر له من مال المسلمين  
درهم كل يوم ، هو مرتب الإمارة ، فقرت بذلك عينه ، بل إنه خطب الناس فقال :  
أيها الناس ، أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقتني رسول الله درهماً كل  
يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد . . .

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة  
لله ما أفسح للمدى بين هذه الأوبة للظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين وبين  
مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام !

لقد جاءه مطارداً ، يبغي الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الأيلاف والايانس  
فأكرم أهله مثواه ، وآووه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، واستخفوا

---

(١) ضعيف ، ذكره ابن هشام ( ٢ / ٣١١ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد ؛ ورواه  
الحاكم ( ٣ / ٢٧٠ ) عن عروة مرسل ؛ وإسناده — على إرساله — ضعيف . وقد روى  
ابن عبد البر في ترجمة معاذ من « الاستيعاب » بإسناد صحيح عن عبد الله ابن كعب بن  
مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معاذاً إلى اليمن عام فتح مكة . وهذا مرسل أيضاً  
فإذا صح فيكون إرساله بمد استخلافه في مكة والله أعلم .

(٢) إلى هنا حديث حسن ذكره ابن هشام وابن جرير ( ٢ / ٣٦١ — ٣٦٢ ) عن  
ابن إسحاق بدون سند ؛ ورواه الحاكم ( ٣ / ٥٩٤ — ٥٩٥ ) عن مصعب بن عبد الله  
الزبيري معضلاً . وعمر بن شبة في كتب مكة عن عمر مولى عفرة معضلاً أيضاً والمحاملي  
في الجزء الخامس من « الأمل » عن أنس بن مالك بسند ضعيف ، ولكنه يتقوى بما قبله  
إن شاء الله ، وأما باقي الحديث ، فلم أجده مستنداً وإن كان مشهوراً .

بعداوة الناس جميعاً من أجله ، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجراً خائفاً لتستقبله مرة أخرى . وقد دانت له مكة ، وأقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها ، فأهزها أبعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئتها الأولى .  
( إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ) ..

### موقف المنافقين

وكان حقيقاً بالذين خالفهم الربة في رسالة محمد أن يتوسموا في هذه الآيات البيئات ما يفرهم من دينه . ويفرهم بالتصديق ونبذ الجفوة والعدا .  
إلا أن النفوس الخسيسة تزداد شراً وجحوداً كلما ازداد خصومها نجاحاً ووصوداً .

فا تظنه سبب إقبالها ، قد يكون سبب انتكاسها .

لذلك لا يستغرب أن يرجع رسول الله إلى المدينة ، فيجد قلوب المنافقين لا تزال مطوية على دخلها تهتم للفتاح العائد ، وهي تود لو لم ترشبهه . يستوى في ذلك رؤساء العشائر الذين وهمى سلطانهم أمام انتشار الإسلام ، وسواد الأعراب الذين يمرحون في البادية كالسوائم النفل ، لا يكادون يفقهون حديثاً .  
وتم أمر آخر زاد في غواية المنافقين وتربصهم الشر بالإسلام ونبي الإسلام ، ذلك هو عرفانهم بالخصومة التي نشبت بين المسلمين والرومان ، وإدراكهم لما تحمله في أطوائها من خطورة وعنف .

فالعرب ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل أفريقيا اليوم إلى أوروبا وأمر يكافئ ، لأنها قوة لا تنال ولا تناوش .

ولئن كان الرومان بهذه المثابة المرهوبة إن محمداً - كما عرف القوم من سيرته - لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، وقد مضى برسالاته يذيب ما اعترضه من عوائق ، فحيا الوثنية ، وأجلى اليهودية ، وقاوم بطش الروم مقاومة الواثق المعتد .

والمناقون مسرورون بهذه الخصومة الجديدة ، يحسبون أن مقبرة الإسلام ،  
ستحفر فيها . . .

لذلك لما أعلن النبي في المدينة أنه منطلق إلى « تبوك » تجمع رهط من المناقنين  
فقال بعضهم لبعض - مشيرين إلى المسلمين - أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال  
العرب بعضهم بعضاً ؟

والله لكأننا بكم غداً مقرئين في الجبال . . . إرجافاً وترهيباً للمؤمنين !!

## تبوك

عزم النبي أن يرسي العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة .  
وهو لا يقبل مساومة في ترك دعائه أحراراً يعرضون دينهم على الناس ، فإنه  
راقهم دخوله وإن ساءم تركوه .

يجب أن تتاح الفرص المعقولة لإفهام الجماهير ما تدعى إليه .  
أما أن تقطع أعناق الدعاة وتقام الأسوار السكتيفة في وجوههم ، فهذا  
ما يقاومه الإسلام بالقوة .

ثم إن الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة  
لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا صلوات القهر المادى والأدى .

فالقذى يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك : لم  
سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب ؟ وعن الطريقة التي يباشرون بها حكم  
هذه الأقطار المغلوبة على أمرها ؟

والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبي شيئاً لا غبار عليه .

دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها ، وتجذب الشعوب إليها ، أو تصرفهم  
عنها .. لكن هذا الطلب قوبل بالرد المسلح .

فلادولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن الفرائس التي تضطرب داخل جدرانها .

ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد .

قلنا في كتابنا : « التمسب والتسامح بين المسيحية والإسلام » في صدد غزوة تبوك :

« ... والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف في الفروع التافهة ، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر ساطة رجالها ؟ لأنه - لا يرى بين العباد نور بهم ومسايط - وينكر عقيدة الفداء التي ترتكز عليها - لأنه يبنى الجزاء على عمل الإنسان وحده - .

فليس الإنسان إلا ما سمى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ثم هو ينكر مبدأ الشركة في الألوهية ، فليس للعالم إلا رب واحد ، يخضع له عيسى وأمه . . .

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء ، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها . وتضمن الكنيسة بعدئذ انفرادها بالضمير البشري ، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .

وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الساكر ، وتاريخ الصراية - منذ تولت الحكم - تؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت . . .

فلم ير النبي بدأ من استنفار المسلمين ، لملاقاة هذا العدوان المبيت .

والتهيبؤ لملاقاة الروم ، جاء في أيام قيظ وقحط .

والسير إليهم يتطلب جهداً مضنياً ونفقة كبيرة .

وقتل الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة ، بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط ساطانها على جملة قارات ، وتملك موارد ثرة من الرجال والأموال .

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب ، والسكوت على إحدى النصرارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة في القضاء عليه يعتبران انتحاراً وبواراً فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذا وليوا جهاوا مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وتضحيات .



والظروف العصيبة التي اكتنفت إعداد هذا الجيش سعى جيش العسرة .  
والآيات التي أنزلها الله في كتابه — متعلقة بغزوة العسرة — هي أطول ما نزل  
في قتال بين المسلمين وخصومهم .

وقد بدأت باستنهاض المهتم لرد هجوم المسيحية على الإسلام ، وإفهام المسلمين  
مغية تقصيرهم في أداء هذه الفريضة ، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفریط  
في حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصنونات الخائلة — دون قتال  
الروم — يعتبر مزلة إلى الردة والنفاق .

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
انْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ، إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا  
غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .

ومضت الآيات تتحدث في صرامة وعنف ، ففضحت المنافقين ، وكشفت  
عن المترددين . وأهانت طلاب الدعة والراحة ، الذين آثروا ظل القعود في  
بيوتهم وحقولهم ، على حر الصحراء ، ووعناء السفر ، ومتاعب الجلالد .

( فَرِحَ الْخَلْفَاءُ أَلْفًا بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا  
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالُوا : لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ : نَارُ  
جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ) .

وأبناء جيش العسرة تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة .  
ولعل من الذين في أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد ، أنه لم تأخذ هواده  
في التنويه بمن اشتركوا فيه ، والتنديد بمن تخلفوا عنه ، ولا عجب ، فتجدد موقف  
الإسلام من النصرانية ، هو بت في مستقبل الدين كله إلى الأبد .

فإنما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة ، وإما أحرقتهم نارها ، فلم يبق  
لدينهم أثر .

وكان لهذا الحزيم أطيّب التثج ، فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها ، وانطلقوا صوب الشمال ، حيث تربض جيوش الروم .

\* \* \*

وتجملت - في هذا الإعداد - طوايا النفوس ، ومقدار ما استودعت من قبل إخلاص وسماحة ونشاط ، فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته ، من الرواحل والسلاح والخيل ، منهم « عثمان بن عفان » الذي سبق في بذله سبقا بعيداً ، حتى أن الرسول عجب من كثرة ما أنفق ، وقال : « اللهم ارض عن عثمان فأبى عنه راض »<sup>(١)</sup> .

ومنهم الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم في سبيل الله ثم أعجزتهم الوسائل التي تبلعهم الميدان فسحت أعينهم الدمع لهذا الحرمان .

روى عن علي بن يزيد أنه قام من الليل يصلي ، فتهجد ما شاء الله ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ... وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلة أصابني فيها في مال ، أو جسد ، أو عرض ...

وأصبح الرجل - على عادته - مع الناس فقال رسول الله : أين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يرقم أحد ، ثم قال : أين المتصدق ؟ فليقم ، فقام إليه فأخبره .

---

(١) ضعيف بهذا اللفظ ؛ رواه ابن هشام ( ٢ / ٣١٦ ) ، بإسناد معضل ، وقد رواه ابن شاهين في كتابه « شرح مذاهب أهل السنة » ( ج ١٨ رقم ٢٣ من نسختي ) من حديث عائشة لكن فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بهذا في مناسبة أخرى . وسنده ضعيف جدا ، بل موضوع وإنما قال صلى الله عليه وسلم بمناسبة جيش المسرة : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » رواه ابن شاهين رقم ٣ والخامس ( ٣ / ١٠٢ ) وغيرها من حديث عبد الرحمن بن سمرة ، وصححه الحاكم . ووافقه الذهبي ! وله شواهد ذكرها الحافظ ابن كثير في تاريخه ( ٥ / ٦ ) ، وآخر عند ابن شاهين ( رقم ٦١ ) .

فقال رسول الله : «أبشر ، فواللهي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة (١)» .  
وهناك أهل الريبة الذين يلتمسون للفرار الأعذار ، وتقعدهم بهم وكرامتهم  
الإسلام عن إسداء أى عون له ، فمبهات أن يُعدوا للخروج عدة ، أو يمتنوا  
للخارجين عوداً .

ومن أسخف الأعذار التي تحملها أولئك القاعدون المنافقون ما قال الجد بن  
قيس للنبي — وقد عرض عليه الجهاد — : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تقتني ؟  
فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء مني ، وإنى أخشى إن  
رأيت نساء بني الأصفر « الروم » ألا أصبر .  
فأعرض عنه رسول الله (٢) وفيه نزلت الآية .

( وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَقْتْنِي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنْ  
جَهَنَّمَ لَحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ ) .

وهناك الذين فترت — أول الأمر — همهم ، فلما جدّ الرحيل وانطلق  
الجيش ، أحسوا خطر التخلف على إيمانهم ، فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم  
منهم « أبو خيثة » عاد يوماً إلى أهله — بعد مسير النبي وصحبه — وكان اليوم  
قائظاً ، فوجد امرأته كاتمتها ، قد أعدت له الطعام الشهى والماء البارد الروي ،  
ووجد مسكنه مبللاً رطباً ، وسط بستانه الذي أخذ بسرّه الأحمر ينضج ويسودّ .  
فاستيقظ ضمير الرجل ، وقال : رسول الله في الشمس والريح والحرق ،  
وأبو خيثة في ظل بارد ؟ وطعام مهياً ؟ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ والله ما هذا  
بالنصف . !

(١) صحيح ، ذكره ابن إسحاق في «المغازي» بدون إسناد . وقد ورد مسنداً موصولاً  
من حديث مجمع ابن حارثة وعمرو بن عوف وأبي عيسى . وعلية بن زيد نفسه وقتيبة كما  
بينه الحافظ في «الإصابة» فليراجعها من شاء .

(٢) ضعيف رواه ابن هشام (٣١٦/٢) عن ابن إسحاق بسنده مرسل . وكذلك  
رواه عنه ابن جرير (٣٦٦/٢ - ٣٦٧) .

ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكبا حتى ألحق برسول الله ، فهبطا لي  
زادا فقلنا ، ثم قدم ناضحه فارتحله .  
وأسرع الرجل المؤمن ، يطلب رسول الله ، حتى أدركه حين نزل تبوك .

\* \* \*

وعانى الجيش الذهاب إلى تبوك مصعب ثقيلة ، روى الإمام أحمد في تفسير  
قول الله عز وجل ( لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في  
ساعة العسرة ) . قال خرجوا في غزوة « تبوك » الرجلان والثلاثة على بعير  
واحد ، وخرجوا في حر شديد ، وأصابهم عطش ، حتى جعلوا ينحرون إبلهم  
لينفضوا أكراشها ، ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرة في الماء ، وعسرة في  
النفقة ، وعسرة في الظهر .

وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة العسرة  
فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا  
أن رقابنا ستقطع . حتى إن الرجل لينحز بعيره فيعتمر فرثه فيشربه . ثم يجعل  
ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله عودك في الدعاء  
خيرا فادع الله لنا فقال : أو تحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع رسول الله يديه إلى  
السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أي آذنت تمطر - فأطلت ، ثم سكبت فلأوا  
ما معهم ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجد لها جاوزت العسكر (١) .

---

(١) ذكره ابن كثير في التاريخ (٩/٥) من رواية عبد الله بن وهب بسنده عن  
ابن عباس ، ثم قال : « إسناده جيد » وهو عذري غير جيد لأنه من رواية عتبة بن  
أبي عتبة . وقد ذكره الحافظ في « اللسان » (١٢٩/٤) وذكر أن القتيبي أوردته  
في « الضعفاء » ثم ساق له حديثين ثم قال : « ولا يتابع على الحديثين جميعاً » . ثم قد  
أورد الحديث المهيمن في « المجمع » (٦/١٩٤ - ١٩٥) ثم قال : رواه البزار  
والطبراني في الأوسط : و « رجال البزار ثقات » إذا صح هذا - فالحديث حسن إن  
شاه الله أو صحيح .

قال ابن اسحاق : وكان في الجيش رجل منافق فقالوا : ومحك هل بعد هذا من شيء ؟ فقال : صحابة مارة ! .

وفي الطريق مر المسلمون بالديار التي كانت ثمود تسكنها وهي أطلسال هامة وآثار بقيت تذكر بغضب الله على من كذبوا رسله وتعجلوا عقابه فقال رسول الله : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تسكنوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم » .

والظاهر أن النبي يريد ألا يغفل المسلمون عن مواطن العظة ، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلات فإن المرء لو قبيض الله له أن يزور السجون ، ويشهد مثلاً غرفة الإعدام — فليس يليق أن ينظر إلى جبل المشنقة وهو شارد أو ضاحك لا أبل من بعض الأسمى لأحوال المجرمين ومصارعهم !

وروى أحمد عن جابر لما مر النبي بالحجر قال : لا تسألوا الآيات — خوارق العادات — فقد صالها قوم صالح ، فبعث الله لهم ناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فمقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فمقروها ، فأخذتهم صبيحة أهد الله بها من تحت أديم السماء منهم . . . » (٢)

(١) صحيح أخرجه أحمد ( رقم ٥٢٢٥ ، ٥٣٤٣ ، ٥٤٠٤ ، ٥٤٤١ ، ٥٦٤٥ ) .  
٤٧٠٥ ، ٥٩٣١ ، ٤٥٦١ ) من حديث ابن عمر وهذا أحد الألفاظ ! وأخرجه البخاري ( ١٠٢/٧ ) ومسلم ( ٢٢١/٨ ) نحوه .

(٢) في المسند ( ٢٩٦/٤ ) من طريق عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر . وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه ( ١١/٥ ) : « إسناده صحيح » وكذلك صححه الحاكم من هذا الوجه ( ٢/٣٤٠ — ٣٤١ ) ووافقه الذهبي . واقتصر الحافظ في « الفتح » ( ٢٩٤/٦ ) على تحسينه وهذا أقرب . وفي كل ذلك عندي نظر ! فقد تملنا منهم أن أما الزبير مدلس وأنه لا تقبل روايته المعتبرة إلا إذا كانت من رواية الليث بن سعد عنه وهذه ليست منها ! وقد قال الذهبي : « وفي صحيح مسلم عدة أحاديث لم يوضح فيها أبو الزبير السماع عن جابر ولا هي من طريق الليث منه . ففي القاب منها شيء » قلت : فكيف يصح إذن ما ليس منها في صحيح مسلم كهذا ؟ !

والنهي عن سؤال الآيات عود بالناس إلى الأحوال المألوفة ، إذ لا جدوى  
من الخروج عليها وخير للسائلين أن يبذلوا طاقتهم في أداء وما يكلفون به ، وأن  
يرققوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله .  
فإن من قبلهم شهد العجائب ، ثم أغرتهم فسوة القلب بازدرائها ، فحقت بهم  
العنة .

ووبخ المسلمون «تبوك» فلم يجدوا بها كيداً . أو يواجهوا عدواً  
ولا بد أن الروم آثروا الاختفاء داخل حدودهم عن ملاقاته هذه القوة الفتية  
ووصالح النبي متنصرة العرب الضاربين في هذه الأرجاء .  
تدخل في عهده أهل «أيله» و «أزرع» و «تباء» و «دومة الجندل» وأيقنت  
القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على ماداتها الأقدمين قدفأت أوانه .  
وغزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب ، فإن بلاء المسلمين أولها كان شديداً . ثم  
جاء ختامها طمأنينة وعزة ومكث الرسول هنالك بضعة عشر يوماً ، يمد بصره  
وراء الصحراء حيث اختفى الرومان ، يرقب منهم أي حركة ، فلما رأى القوم قابعين  
مستكينين ، قرر أن يقفل عائداً إلى المدينة ، موفوراً منصوراً .  
وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ولاحت له معالمها من بعيد . فقال :  
هذه طابة وهذا «أحد» جبل يحبنا ونحبه<sup>(١)</sup> ! وتسامع الناس بتقديمه فخرج  
النساء والبصيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع  
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

لقد قوبل جيش العسرة في مرجعه هذا بمحاوثة بالغة . إنه أكبر جيش خرج مع  
رسول الله ، إذ وصل تعداده نحو الثلاثين ألفاً ولم ينس النبي في ذهابه وإيابه أصحاب  
القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغبين والعبوات تملأ

(١) صحيح . أخرجه الشيخان وغيرهما .

عيونهم عن أنس بن مالك : أن رسول الله رجع من غزوة تبوك ، فدنا من المدينة فقال : إن في المدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، فقالوا يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ . قال : وهم بالمدينة ، حسبهم العذر <sup>(١)</sup> .  
بهذه المواساة الرقيقة كرم النبي الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم فأصلح بالهم وأزاح همّاً ثقيلاً عن أفئدتهم .

أما المنافقون من مؤملي الشر ودعاة الهزيمة ، والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلت بهم ، فهم يتربصون الدوائر بأهله ! أما هؤلاء وأولئك فأمامهم عناء طويل .

### المخلفون <sup>(٢)</sup>

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فجاء المخلفون ، فظنقوا يمتدرون إليه ويخلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم . ووكل سراً بهم إلى الله .

وجاءه « كعب بن مالك » فلما سلم عليه ، تبسّم تبسّم الغضب ؛ ثم قال له : تعال . قال : فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابعت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله ، إن لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أخطيت جدلاً . واسكنني والله ، لقد علمت إن حدثتكم اليوم حديث كذب ترضى به علي ، ليوشكن الله أن يسخطك علي . وأن حدثتكم حديث صدق مجد علي ، فإني لأرجو فيه عفو الله عني .

(١) صحيح أخرجه البخاري (١٠٣/٨)

(٢) هذه الرواية من خلاصة زاد الماد .

والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله  
فيك . فقامت .

وثار رجال من بني سلمة ، فانبعوني يؤنبونني ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت  
أذنبت ذنباً قبل هذا . وناقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك ، استغفار رسول الله صلى الله  
عليه وسلم لك قال : فوالله ما زالوا يؤنبونني ، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .  
ثم قلت لهم : هل لقي هذا معنى أحد ؟ قالوا . نعم رجلان ، فالأمثل ما قلت فقيل  
لها مثل الذي قيل لك ، فقلت . من هما ؟ قالوا « مرارة بن الربيع العامري » و« هلال  
بن أمية الواقفي » فذكروا رجلين صالحين شهدا بدرأ ، فيهما أسوة !! .

فمضيت حين ذكر وهما لي .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا - نحن الثلاثة - من بين  
من تخلف عنه .

فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي الأرض ، فما هي باتي أعرف ا  
فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان .  
وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين  
وأطوف في الأرواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم  
عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة . فأقول في نفسي . هل حرك شفيعه برد السلام أم لا ؟  
ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلى ، وإذا التفت  
نحوه ، أعرض عني .

حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط



أبي قتادة - وهو ابن عمی وأحب الناس إلى - فسلمت عليه ، فوالله ما رد عليّ السلام !!  
فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت .  
فعدت له ، فنشدته فسكت فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم !

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينما أنا أمشى بسوق المدينة . وإذا نبطى من أنباط الشام من قدم بالطعام يبيعه  
بالمدينة يقول : من يدل على « كعب بن مالك » ؟ فطلق الناس يشيرون له حتى  
إذا جاءنى دفع إلى كتاباً من ملك غسان ، فإذا فيه : أما بعد فإنه بلغنى أن  
صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيفة ، فالحق بنا نواسك .  
فقلت لما قرأتها - : وهذا أيضاً من البلاء ، فتميمت بها التنور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يأتينى فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تهزل امرأتك ، فقلت :  
أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، ولكن اعزلها ولا تقر بها .

وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك . فقلت لامرأى : الحق بأهلك . فكونى  
عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية ، فقالت يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ  
ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك قالت :  
إنه - والله - مابه حركة إلى شيء . والله ، ما زال يبكى ، منذ كان من أمره  
ما كان ، إلى يومه هذا .

قال « كعب » : قال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت : والله لا استأذنت فيها  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدرينى ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا  
استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ ولبثت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون  
ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا .

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، على سطح بيت من بيوتنا ، وبيننا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى ، قد ضاقت على نفسي وضافت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر !

فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج من الله .

وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون . وأركض إلى رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على ذروة الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبى فكسوته إياهما يبشراه ، والله ما أملك غيرها ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فأنطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فتلقاني للناس فوجافوا ، يهشونى بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، وحواله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافخنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولست أنساها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : — وهو يبرق وجهه من السرور — : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أهو من عندك يا رسول الله ، أم من عندك الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قر ، وكنا نعرف ذلك منه .

قال جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أتخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قلت : فإني أمسك سهى الذى بخير .

قلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق . وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فو الله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ما أبلاني ، والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومى هذا كذبا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت ، فأنزل الله تعالى على رسوله ( لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ) . إلى قوله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ) فو الله ما أنعم الله علىّ نعمة قط — بعد أن هداني للإسلام — أعظم في نفسى من صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، قال : ( سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ) إلى قوله ( فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ) .

قال كعب : وكان تخلفنا — أيها الثلاثة — عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله ( وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ) . وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الفزوة ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه . (١)

### مسجد الضرار

صلى النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء ، يقبل منهم أعذارهم — وهى مختلفة — ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلقون من قيود السمع والطاعة . فإذا تلبس أحدهم بخيانه تهدر دمه ، رغب

(١) صحيح أخرجه البخارى (٩٢/٨ - ١٠٠) بطوله وكذا مسلم (١٠٦/٨ - ١١٢)

في للتجاوز عنه حتى لا يقال : إن محمداً يقتل أصحابه وما هم في صحبته من شيء .  
ولكن هكذا سيقول الناس .

ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير ، لأسرم هذا الحلم وانحلوا  
من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين بيد أن هذا الأسلوب  
العالي في معاملتهم لم يزد على الله ورسوله إلا جرأة فزاد أفتياتهم وربت  
شروهم ، ولم يبق بد من كشف خبثهم ، وإشهار جمهور الأمة بما تنطوى عليه  
نفوسهم وأعمالهم .

وقد نزلت الآيات أخيراً تندد بما فعل أولئك المنافقون ، وتمزق الأستار  
التي يقوارون خلفها ، وكانت الأعيهم قبل « تبوك » وبعدها هي النهاية  
الحاسمة للسماحة التي مرحوا في معناها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها . فأمر النبي  
صلى الله عليه وسلم أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم وكسّف الأيقبل  
منهم والأيصلي عليهم ، بل عرف أن استغفاره لهم أن يجاب ، ثم طواب المسلمون  
كأنه أن يقطعهم .

ومن أعجب ما تقعنت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجداً ياتقون فيه وحدهم ،  
ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة ، وقد ذهبوا للرسول قبل  
رحيله إلى تبوك يقولون له بنيينا مسجداً لدى العلة والحاجة والليلة المطيرة ومحب أن  
تأتينا فتصلي لنا فيه ؟ فاعتذر لهم بأنه على جناح سفر وحال شغل . وقال لو قدمنا  
- إن شاء الله - أتيناكم ؛ فصلينا لكم فيه (٢)

فلما أب النبي صلى الله عليه وسلم مجيشه ، وتخرج موقف المنافقين وانكشفت  
خبايهم ، أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد وأسرمهم أن يحرقوه ويهدموه ،

---

(١) ضعيف رواه ابن هشام ( ٣٣٢/٢ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد . لا كبر ذكره  
ابن كثير في التفسير ( ٣٨٨/٢ ) عن ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبدالله  
ابن أبي بكر وعاصم بن عمرو وابن قتادة وغيرهم مرسل . والله أعلم .

وجاء الأصحابان إلى المسجد يحملان الشعل الحارقة وأخذا يأتیان عليه ، وفيه أهله الذين فروا مذعورين لمرأى اللهب ، يدمر آخر ماشاد النفاق من حيل .  
ونزل قوله تعالى : ( والذين اتخذوا مسجداً ضراباً وكفراً وتفرقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، ويخلفن إن أردنا إلا الحسنى . والله يشهد إمامهم لا كاذبون . لا تقم فيه أبداً \* لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ... )

### طلیعة الوفود

استغرق المسير إلى تبوك والمآب منها أياماً طويلاً ، فقد خرج المسلمون إليها في رجب ، وعادوا في رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام ، ولم يلبثوا طويلاً حتى جاءت البشريات بأن وفد ثقيف قدم إلى المدينة ليفتوا رسول الله على الدخول في الإسلام ، لقد استجاب الله دعوة نبيه لأهل الطائف أن يسلس قيادهم للحق فيأتوا طائعين ، وكان أهل الطائف — بعد أن انفض الحصار المضروب عليهم — قد أخذوا يتروؤن في شأنهم ومصيرهم ، إلا أن جمهورهم لما يزل على ولائه للأصنام وصدوده عن الاسلام .

وحاول رئيسهم « عروة بن مسعود » أن يتحدث إليهم في نبذ هذه الجاهلية ، وعروة فيهم سيد مطاع محبوب ، غير أن نحوه الامتناع استبدت بهم ، فلما أظهر الرجل دخوله في الإسلام ودعاهم إلى ذلك ، رموه بالنبل فقتلوه ..  
ولم ييأس العقلاء من رشد قومهم ، ولم تستطع ثقيف كذلك تجاهل ماحولها ، فإن دولة الأصنام تدبر في كل مكان . وأمر الإسلام يعلو يوماً بعد يوم .

فاجتمع عمرو بن أمية بـ « عبد ياليل بن عمر » وقال له : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا في أمركم .

ورأت ثقيف أن تبعث وفدًا إلى رسول الله ليصل إلى وضع تقرُّ به ،  
وتألف الوفد من ممثلين لعشائر ثقيف كلها ، حتى يلتزموا ما يصل إليه من شروط .  
وجادل الوفد رسول الله جدالًا طويلًا يبغى أن يظفر منه بإقرار لبعض ما أثر  
الجاهلية ، ورسول الله يأبى أشد الإباء . وطلبوا منه أن يدع « اللات » ثلاث سنين  
ثم يهدمها ، ثم ساوموه على سنتين ، ثم سنة ، ثم شهر واحد بعد مقدمهم ، والنبي  
يأبى إلا هدمها دون توقيت أمد معين .  
فلما يتسوا سألوه ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، أجابهم إلى ذلك بإرسال من  
يكسرها لهم ! .

وسألوه أن يضع عنهم الصلاة ! فقال رسول الله : لا خير في دين  
بلا صلاة<sup>(١)</sup>

• • •

وعاد الوفد إلى الطائف ، ومعه المنيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب ليهدما  
« اللات » وكان هدم « اللات » يومًا مشهودًا ، فانسوة ثقيف خرجن حاسرات  
الردوس يبيكين ويصرخن وهن يرين الفئوس تهدم المهن ، وطالما خشعن له وذبحن  
حوله وسقن له الذبور ، وبروى أن المنيرة كلما هوى بالقأس على بنيان الصنم قال  
أبو سفيان واهالك ! آهالك ! تأسفاً ولعله كان يسخر أو يواسى نساء ثقيف . .  
ولامراء في أن استسلام ثقيف ثم دخولها الإسلام يُعدُّ كسبًا كبيراً ،  
وفتحاً جديداً فلم يبق قبيل عزيز الجانب في الجزيرة إلا وقد دان لله ورسوله .  
أما القبائل التي لمسا نزل على جاهليتها . فهي أوزاع توشك أن تستبين الحق  
وتستريح له . إن الليل المضروب عليها لن يطول سواده بل تبشير الفجر قدخالته  
هنا وهناك حتى لم يبق ظلمته مكان تتشبث به .

(١) ضعيف ، ذكره ابن هشام ( ٢٢٥/٢ - ٣٢٦ ) عن ابن إسحاق معضلاً ، والجملة  
الأخيرة وصلها أبو داود ( ٤٢/٢ ) وأحمد ( ٢١٨/٥ ) عن الحسن بن عثمان بن أبي العاص  
مرذوعاً نحوها . ورجاله ثقات لكن الحسن وهو البصري مدلس وقد عتمته .

قال ابن إسحاق : لما انتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف  
وبياض ، ضريت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وذلك أن  
قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل -  
وقادة العرب لا ينكرون ذلك - وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول  
الله وخلافه .

فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنها  
لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجا يضر بون إليه  
من كل وجه .

يقول سبحانه وتعالى لنبية ( إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ه وَرَأَيْتَ  
النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ه فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ  
كَانَ تَوَّابًا ) .

بعدكم من السنين بلغ النبي هذه المرحلة ؟ بعد اثنين وعشرين سنة من الدعاية  
الحثيثة ، والتذكير الدائم ، وتحمل الأذى ، وكفاج العدوان ...  
فإن كانت هناك بقايا من العاقلين لا تزال تضرع الأصنام وتحيا على الفوضى ،  
فإن فطامها عن هذه الرذائل لا ينكره ذواب أمرءة ، ومن ثم اتجه الإسلام  
إلى ضرورة تطهير الجزيرة كلها من عبادة الأوثان ، وإشعار المشركين بأن أمامهم  
مهلة محدودة للتخلص من أدرانها .. ثم تعرف بهم كذلك بأن الأصنام التي كانوا  
يقدمونها حول الكعبة قد أزيلت فأصبحت الكعبة قبلة مسجد يؤمه الموحدون ،  
وليست مطاف جهال يتبركون بالحجارة ، وأن تقاليد العمري التي شاعت في  
الجاهلية وجعلت المطاف يزدحم بالسوءات المكشوفة قد نبذها الإسلام ، فإن  
يسمح في عهده بالتبذل القديم .

وأقبل موسم الحج في السنة التاسعة ، والمشركون على ما أفوا ، إنهم يؤمنون  
بالبيت العتيق ، ولا يتعظون من مصير الأصنام التي تكسرت ! أين الآلهة التي

قضوا أعمارهم ينحنون لها ويتوسلون بها ؟ لقد هُشمت ودبست ! ومع ذلك فإن عبادها لبثوا مشركين . . . وقد تكون في نفوسهم حسرات لخلو الكعبة منها . إن من حق المسلمين أن يضعوا حداً لهذه الممازك ، وأن يزيحوا عن كرامة البشر هذا الموان .

### حج أبي بكر

بعث رسول الله أبا بكر أميراً على الحج ليقم بالمسلمين المناسك ، فخرج من المدينة يسوق البُدن أمامه ، موياً وجهه شطر المسجد الحرام ، ونزل الوحي بسورة براءة بعد انصراف أبي بكر ووفد الحجيج ، فأشير على رسول الله أن يبعث بالآيات إليه ليقراها على أهل الموسم كافة . . .

ورأى رسول الله أن يرسل بها على بن أبي طالب قائلاً : لا يؤدي عنى إلا رجل من أهل بيتي <sup>(١)</sup> ، وذلك من رسول الله تمسُّ مع عادة العرب في هجود الدماء والأموال .

الأتري أنه قبل هجرته وكل إلى على ردّ الأمانات إلى أهل مكة ؟ إن أوامر القربي تقتضى التكافل التام في هذه الشؤون ، فكان الرسول أدبى بيده ما أداه على عنه ، وكأنه ، قال بلسانه في الموسم ماسيقروؤه على بين الناس .

ورعاية هذا الإلهام ليست فريضة بل هي من التي زيادة حيطة وإعذار .

قال ابن إسحاق : ثم دعا على بن أبي طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأدِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بـ « منى » : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يهجم بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

فخرج على يتطلى العضاء - ذقة رسول الله - حتى أدرك أبا بكر بالطريق .

(١) حديث حسن رواه ابن هشام (٣٢٨/٢) عن ابن إسحاق عن أبي جعفر محمد بن علي مرسل ، لكن له شواهد يتقوى بها ذكرها ابن كثير في تاريخه (٣٧/٥-٣٨).



فلما رآه أبو بكر عدله : أمير أم مأمور؟ قال : بل مأمور ، ثم مضى (١) .  
أبو بكر - كما كلفه رسول الله - يقيم للناس المناسك ، وعلى يؤذن في الناس  
بما أمر به ، ويقرأ على العرب صدر الصورة التي فصلت في أمرهم وأجهزت على  
الوثنية في بلادهم .

وكان هناك مؤذنون آخرون بهم أبو بكر في الجامع الكبيرة يعينون علياً على  
إبلاغ رسالته ويصيحون هنا وهناك . لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت  
عريان ، وعن زيد بن يعيق سألتنا علياً . بأى شيء بعثت في الحج؟ قال : بعثت  
بأربع ؟ لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع  
مسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا ، ومن كان بينه وبين النبي عهد فعده  
إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر (٢) .



وقد تكلمنا في موضع آخر عن مكانة المعاهدات (٣) في الإسلام ، وشرحنا  
ما تضمنه صدر سورة التوبة من أحكام .

وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية ، عمل  
إنساني نبيل . وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويقدم لها  
الاسمو والكرامة !

وبحسب الإسلام أنه ظل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية  
كما أتاحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصص والقتل كما وقف  
في طريقه الجهل والضلال يبطلون سعيه أو يصدون عنه .

(١) حديث حسن ، وهو تمام حديث أبي جعفر المتقدم .

(٢) صحيح . أخرجه أحمد ( رقم ٥٩٤ ) والترمذي ( ١١٦ / ٤ ) وصححه .

(٣) كتابنا « تأملات في الدين والحياة » .

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء ، ولم يفعل ذلك إعزازاً لها ، إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضميره . . . .

فقل من يسهون أنفسهم ، ويتركون الله العظيم ، إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام .

فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء ، وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل ... لم يبق لتركهم من حكمة .

إن الكلاب العمور لا يترك طليقاً ، فإذا أنلت من قيده فأهدر دمه ، فمن السفه اعتبار ما حدث جريمة قتل .

والذين يظنون ، أو يحلو لهم الظن بأن الاملام عندما طارد الوثنية ، خنق حرية الرأي . هم أشخاص واهمون أو مُفترضون .

وعلى هدى التجارب والمصائب التي عاناها المسلمون طوال اثنين وعشرين عاماً تعرف سر الغضب الذي اشتعل آخر الأمر ، ولم نزل الوحي يعالني المشركين بالقطيعة ، ويرفض منهم كل اعتذار ؟ ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم ، ولم ينفكوا عنها يوماً ، ولا ينفكوا عنها أبداً .

ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المملة المضروبة لهم ( براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين \* فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين \* وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله يرى من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم ) ...

ومن قبل هذا النذير الخوف ومن بعده كانت أفواج الوافدين تنطلق صوب المدينة تباع رسول الله على أن تخلع رداء الجاهلية ، وتدخل في الدين الحق .

وهذه الوفود للقبلة ، عرفت - خلال السنين السابقة - طرفاً يسيراً عن الإسلام . . .

فقد شاع في أرجاء الجزيرة كلها نبأ الرسالة الجديدة ، وما تضمنته من عقائد ، وما تفرضه على أتباعهم من تعاليم .

وتتبع المحبون والمبغضون كفاحها للوصول في طلب الحياة ، ومبلغ ما بذت وبذل أعداؤها حتى انتهت الأمور بهذا الختام المبين .

ونحن نعلم أن الحزب الذي يبدأ نشاطه بأنصار قلائل يتضاعف الإقبال عليه عندما تلمع له وقفات مشرقة ، ويتاح له نصر كبير .

فكيف إذا اختفى خصومه ، وتألقت بحومه ؟

فلا جرم أن المدينة تتدفق عليهم اسدبول الراغبين في اعتناق هذا الدين ، وألتر اغبين في مسألته ، ورسوم سياسة تقوم على التعاون معه .

ولسنا بسبيل إحصاء هذه الوفود القادمة من المشرق والمغرب .

لكنتنا نسوق مثلين لوفدين : أحدهما وثني<sup>١</sup> ، أقبل يبغى الإسلام ، والآخر نصراني<sup>٢</sup> ، جاء يستطلع النبأ ويفاوض ويعاهد بعد جدال ولحاجة .

### وفد للأمة ووفد لأهل الكتاب

أرسلت قبيلة سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وفداً إلى رسول الله .

فامطى « ضمام » بعيره ، حتى دخل المدينة فأناخه على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه .

وكان « ضمام » رجلاً جليلاً . أشعر ، ذا خديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله في أصحابه . فقال : أيكم عبد المطلب ؟

فقال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب ! قال : أحمد ؟ قال : نعم !

قال : يا ابن عبد المطلب ! إنى سائلك ومغاظ عليك المسألة ، فلا تجدن في نفسك .

قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدالك .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كأنت بعدك  
يا الله بعنك إلبنا رسولا ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كأنت بعدك  
آله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه  
الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه . ؟

قال : اللهم نعم .

وفي رواية أنه قال : يا محمد أانا رسولك ، فزعم لنا أنك زعم أن الله أرسلك ؟  
قال . صدق ! قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله ! قال : فمن خلق الأرض ؟  
قال : الله ! قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله  
قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آله أرسلك ؟  
قال : نعم . . .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليتنا قال :  
صدق ! قال : فبالذي أرسلك : آله أمرك بهذا ؟ قال ، نعم !

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال :  
فأني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض  
وأجتنب ما نهيتني عنه . ثم لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة (١) .

فأتى ضمام بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه .  
فكان أول ما تكلم به أن قال : بنست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام !

(١) قال الحافظ ابن كثير (٦١/٥) : « هذا يدل على أنه (بمى ضماما) رجع إلى  
قومه قبل الفتح لأن « العزى » خربها خالد بن الوليد أيام الفتح :

أتقى البرص ، أتقى الجذام ، أتقى الجنون .. قال : ويلكم ، إنهما - والله - لا يضران ولا ينفعان .

إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتمكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ...

قال : فوالله ما أمسى في الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلماً<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ذاك وقد يمثل بساطة الأميين في منطقتهم ، وسلامة طويتهم في جدهم وتساؤلهم وخلو أذهانهم من العقد التي تعترض الحق في مسيله السمع .  
ولا نكران في أن جهاد الدهوة القديم ، له أثره في الوصول إلى هذه النتائج السريعة .

وهذا طبيعي فإن تغيير دين ليس كتجديد زى ، و « ضام بن ثعلبة » كان يستحضر في ذهنه وهو يسأل النبي<sup>ص</sup> ثم وهو يخطب قومه أن هذه الرسالة الجديدة مرت بأطوار شتى من الحن والفتن ، كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس إيمانه وإيمان قومه ، وليد ساعية من كلام .

ذاك وقد الأهيين ، وهو مثل لوفود أخرى كبرت أو صغرت ، أمت المدينة ، لترى هذا النبي<sup>ص</sup> وتبايعه ، ثم تؤوب إلى قومها ، حاملة الهدى والخير .

\* \* \*

أما أهل الكتاب فإن قلة منهم شرحت صدرأ بالحق ، وسارعت إلى اعتناقه ومؤازرته ، والسكرترة الباقية ، اختلفت عداوتها له ، شدة وفتورا .

---

(١) حديث حسن . بهذا التمام ، رواه أبو داود (٧٩/١) والحاكم (٣/ ٥٤ - ٥٥) وأحمد (رقم ٢٣٨٠) من حديث ابن عباس ، وقال الحاكم : « صحيح » ووافقه الذهبي ورواه (مسلم ٣٧/١) وغيره مختصراً ، والرواية الأخرى له .

أبى اليهود إلا إبادة الإسلام ، فوقعوا في شرور نيتهم ، وباد سلطانهم العسكري والسياسي ، قبل أن يدركوا هذه الغاية .

وقبلهم الإسلام في دولته القائمة أفراداً يبقون على ديانتهم ما أحبوا ، ولا يمكنون من تجمع على عدوان ودس .

وذلك حقه لا ريب !!

ولم تصادر الحقوق الشخصية ليهودي تحت سلطان الإسلام ، وحسبك أن النبي<sup>ص</sup> نفسه — لكي يفترض من يهودي — ارتهنه درعه<sup>(١)</sup> . . . . وما فكر قط في إخراج ما يملك من سلطان بعيد . . .

وكان النصراني أخف خصومة ، حيث ابتعدوا عن سلطان الكنيسة . . . . فأسلم بعضهم عن طواعية وإعجاب بما في الإسلام من سهولة واستقامة . . . . وبقي الآخرون على ما ورثوا . . . .

وسارت العلاقة بين الدينين في مجراها الذي أبتنا عنه آنفاً ، حتى تحولت إلى حرب طاحنة بين المسلمين والرومان . . . .

وكانت النصرانية — مع تفوق الرومان السياسي والعسكري — تسود شمال الجزيرة وجنوبها . . . .

فرأى المسلمون — وهم في حرب مع دولة الروم — أن يحددوا موقفهم مع نصارى الجنوب ، خصوصاً وأن الروم كانوا يفتقون العطايا على مبشرهم هناك ، ويبنون لهم الكنائس ، ويبسطون عليهم الكرامات ، ويشجعونهم على المضي في تنصير القبائل المتوطنة بهذه الأرجاء .

فارسل النبي<sup>ص</sup> صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران كتاباً جاء فيه «باسم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد . . .

(١) صحيح أخرجه البخاري وغيره .

وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ...

فإن أبيتُم فالجزية ، فإن أبيتُم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام<sup>(١)</sup> :

فأرسلت نجران — وهي كعبة النصرانية جنوبا — وفدَّها إلى المدينة ليقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتفاهم معه ، ووافى الوفد المدينة بعد العصر ، ودخل المسجد :

فكان أول ما صنع أن أتجه إلى بيت المقدس يصلي لله على ما تقضى به طقوس المسيحية ، وأراد الناس منهم ، فقل رسول الله . دعوهم<sup>(٢)</sup> ... حتى انتهوا من عبادتهم ...

ورآهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم قد لبسوا المملقاته أردية الكهنوت الفاخرة ، وتحلوا بنحواتم الذهب ، وجاءوا ينجبون في الحرير ، وتبدو لهم — بين القلائس والطيلاس — سياء التكلف الشديد .

فأبى أن يتحدث معهم ، حتى يرجعوا إلى ملابس سفرهم ، ويدعوا هذه الزينة<sup>(٣)</sup> ...

والغريب أن بعضهم سأل النبيَّ ، أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما يعبد عيسى ابن مريم ؟ وإلى ذلك تدعوننا ؟

---

(١) ضعيف ، رواه البيهقي عن يونس بن بكير عن مسلمة بن يسوع عن أبيه عن جده . وهذا سند مجبول . سلة هذا ، ومن فوقه ، لم أجد من ترجمهم ، وأبو يسوع لم يورده الحافظ في « الكنى » من الصحابة . فإله أعلم . ثم رأيت ابن كثير قد ذكره في التفسير (٣٦٩/١) ووقع فيه : « سلة بن عبد يسوع » ولعله الصواب .

(٢) ضعيف ، أخرجه ابن هشام (٤٦/٢) عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر ابن الزبير قال : فذكره . وهذا مرسل أو مفضل .

(٣) هذا من حديث عبد يسوع السابق !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثني ولا أمرني <sup>(١)</sup> .

وأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ : ( مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ نَحْمَ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخَذِلُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ ) (١٤) .

وعرض النبي صلى الله عليه وسلم على أحبار « نجران » وسائر الوفود أن يسلموا فقالوا له . أسلمنا قبلك ، قال : كذبتُم ، يمنعكم من الإسلام ادعواؤكم لله ولداً ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير .

فجادلوه في عيسى ، وقالوا ، مَنْ أبوه ؟ <sup>(٢)</sup> فروى أن النبي ردَّ عليهم قائلاً : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَأَنَّ عِيسَى يَأْتِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قِيمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَكْلُوهُ وَيَحْفَظُهُ وَبِرِزْقِهِ ؟ قَالُوا : بَلَى . قَالَ : فَهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : لَا .

قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ؟ قَالُوا بَلَى قَالَ : فَهَلْ يَعْلَمُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا مَا عُلِّمَ ؟ قَالُوا : لَا .. !

---

(١) ضعيف ، رواه محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس كما في تفسير ابن كثير ، وفيه محمد بن أبي محمد وهر الأنصاري ؛ قال الذهبي : « لا يرف » وأما ابن حبان فوثقه !  
(٢) إلى هنا رواه ابن إسحاق في مرسل محمد بن جعفر بن الزبير السابق . وأما الرواية الأخرى فلم أجدها الآن مسندة بهذا التمام وإنما جاء بعضها في حديث عبد يسوع المتقدم .



قال : ألستم تعلمون أن ربنا صورّ عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى !

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع ولدها . ثم غذى كما يغذى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

قالوا : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

فقالوا : ألسنت تقول في عيسى : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى .

فلمأ رأى النبي أن الجدل يتماذى بانقوم . وأنهم مصرون على اعتبار عيسى إلهاً أو نداً للاله قال لهم : أقيموا غداً حتى أخبركم .

فنزلت آيات المباهلة ( إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمَقْتُلِينَ هُوَ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ) .

فأصبح رسول الله من الغد ، وقد أقبل بنفسه ، وحفيديه : الحسن ، والحسين ، وابنته فاطمة .

واستعد أن يشترك مع وفد نجران في صلاة جامعة تستنزل فيها لعنة الله على المقتولين .

واستمع وفد نجران إلى هذا الاقتراح ، فأرجسوا خيفة من قبوله ! من يدري ؟ قد يكون محمد صادقاً في أن عيسى بشر مثله ويكونون - هم - واهمين في التحال الألوهية له .

فلماذا يبتلون إلى الله أن يحقهم ؟

ونظروا إلى محمد وطفليه وابنته ، فشعروا أن الكاذب منهما لن يهلك وحده بل ستهلك معه أسرته ، فخشوا على أولادهم وأهليهم البوار ، إن هم قبلوا هذه المباهلة ثم خلصوا نجياً .

قال بعضهم للآخر : إن كان هذا الرجل مسلماً ، فلن نأمن طعننا عليه وخصامنا له . فإن دولته مقبلة ، وربما أصابنا قومه بجائحة .

وإن كان نبياً مرسلًا فلا عناء ، فلن يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك . فما الرأي ؟

فجاءه متحدث القوم شرحبيل بن وداعة ، وقال له : رأيت خيراً من ملاءمتك فقال للنبي : ما هو ؟ قال : أدعُك الحكم فينا فهما قضيت فهو جاز !

فقال رسول الله : لعل وراءك أحداً يترّب عليك ؟ فقال شرحبيل : سل عنى فلما سأل الرسول عنه خبر أن أهل الوادي لا يصدرون ولا يردون إلا عن رأيه ، فقال : جاهد موفق .

ورجع رسول الله ولم يلاغهم ، وعقد معهم صلحاً أصبحوا - بمقتضاه - من رعايا الدولة الإسلامية .

وجاء في شروط هذا الصلح « أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي ، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم . وأن لا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانيتها ، ولا ماتحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم ربيعة ولادم جاهلية ولا يحشرون - يكلفون بجهاد - ولا يشرون - يكلفون بزكاة - ولا يبطأ أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف خير ظلمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا فذمى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى باتى الله بأمره  
ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم » .

وشهد على هذه المعاهدة أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن  
عوف ، والأفرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة .

فإذا كاف به نصارى نجران بإزاء هذه الحقوق ؟ أن يدفعوا للدولة ألى حلة  
فى السنة ! وهى بدل تافه عن الزكاة التى يدفعها المسلمون وخدمهم ، والجهاد الذى  
يحملونه وخدمهم .

وتلك هى الجزية التى ضربت على نجران ، بعد المفاوضات التى رأيت .  
وبذلك قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب التنصرين وبين دولة الروم التى  
يشتبك معها فى الحرب ، بعد ما ضمن الحرية الدينية لمن سألوه وكفوا عنه .  
ونحن نسأل — على وجه التحدى — هل عاملت الطوائف المسيحية بعضها  
بعضاً بهذه السماحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مساساً أضاء به الإسلام وحده ظلمات  
القرون الأردى ؟

ثم نسأل مرة أخرى : هل احترام أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل  
أنصفوا الدين الذى رعى ذمامهم ؟

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية  
المتقلصة فإذا بعض القبائل فى الجنوب تثور ضده تحسب أن رجلاً من قريش ملك  
العرب بادعاء النبوة ، فليس يعجزها أن تقدم من مغاليسكها من يزعم النبوة  
كذلك ! ! اعلمه يلك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى فى جنوب الجزيرة ساعدوا فى إشعال هذه الثورات ،  
وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فسار إليهم — وهو أحد المتنبئين —  
ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فملكها حتى قتلته امرأته هناك وأزاحت الأرض منه .

أكانت هذه الفتن معاونة لنصارى الشمال في حربهم ضد الإسلام، أم كانت  
شغباً يمليه الكرمه ألجرد فحسب؟

وما فعله نصارى نجران في تأييد الأسود العنسى، فعل مثله نصارى تغلب في  
تأييد مسيلمة الكذاب حين ادعى — هو الآخر — أنه نبي<sup>(١)</sup>!

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول في الإسلام، وأن  
يؤثروا البقاء على ما اقتنعوا به من ديانتهم الموروثة، لكننا لم نفهم بته أن يكذب  
رجل بصحف الوحي العالى وأن يؤمن — مثلاً — بالبعكوكه<sup>(١)</sup>.

ذاك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلمة ..

أما إذا كان الأمر لا يعدوا الإعانة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى  
حليف، فهذه مسألة<sup>(٢)</sup> أخرى يختار في علاجها أطباء القلوب.

---

(١) صحيفة هزاية .

(٢) راجع كتابنا «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» .

( ٨ )

أَعْرَافُ الْمُؤْمِنِينَ

أثار بعض السكاكين غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات، وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه، محتجين - تارة - بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة، وتارة أخرى، بأن تطور الحياة وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بإسرة واحدة لا يهدوها. وحسبه أن يوفق في رعايتها وكفالة أولاده منها...!

ولاشك أن هذه الأفكار تولدت في بيئتنا نتيجة عوامل شتى تحتاج إلى حسن النظر وقوة الرد، ومنذ سنين حاول خصوم التعدد أن يستصدروا قانوناً بذلك، ثم توقفت محاولاتهم أمام غضب العلماء، وهياج الجماعات المشتغلة بالشئون الإسلامية. وقد كتبت آنذاك في طبيعة التعدد أرى إثباتها هنا بين يدي الموضوع الذي نتحدث فيه، لما لها من صلة ظاهرة به.

« للحياة قوانين عمرانية واقتصادية ثابتة، تقرر نفسها على الناس حتماً، عرفها فاستعدوا لمواجهتها، أم جهلوا فظهرت بينهم آثارها.

وصلة الرجل القر دبعدهم من النساء، من الأمور التي تبت فيها الأحوال الاجتماعية. ويعتبر تجاهلها مقاومة ثابتة للأمر الواقع.

وذلك أن النسبة بين عدد الرجال والنساء، إما أن تكون متساوية، وإما أن تكون راجعة في إحدى الناحيتين.

فإذا كانت متساوية، أو كان عدد النساء أقل، فإن تعدد الزوجات لا بد أن يمتنق من تلقاء نفسه، ويستقرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً.

ويكتفى كل أمرى - طوعاً أو كرهاً - بما عنده.

أما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال، فنحن بين واحد من ثلاثة:

١ - إما أن نقضى على بعضهم بالحرمان حتى الموت.

٢ - وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات، ونقر جريمة الزنا.

٣ — وإما أن نسمح بتعدد الزوجات .

ونظن أن المرأة - قبل الرجل - تأتي حياة الحرمان ، وتأتي فراش الجريمة والعصيان . فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها وينتسب إليه أولادها . ولما مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذي صرح به الإسلام .

ثم إن هناك اختلافاً كبيراً بين أنصبة الرجال من الحساسية الجنسية ، فهناك رجال أتوا حظاً من كمال الصحة وبقظة النريزة وعمومة العيش . لم يؤثرتهم غيرهم . والمسواة بين رجل بارد للشاعر من نشأته ، وآخر قريب الاستثارة ، واسع الطاقة ، أمر بعيد عن العدالة ، أسننا نبيح لذوى الشهية المتطلمة مقادير من الطعام ، لا يبيحها للمعوقين والضعفاء ؟

فهذه بتلك .

وتمَّ حكمة أخرى . قد تكون الزوجة على حال من الضعف أو المرض أو العقم أو تأخر السن ، فلماذا تُترك لهذه الأعذار ؟

إن من حق العشرة القديمة أن تبقى في كنف الرجل ، وأن تأتي إلى جانبها امرأة أخرى تؤدي وظيفة الزوجة أداء كاملاً .

\* \* \*

ومع المبررات الكثيرة للتعدد ، فإن الإسلام الذي أباحه ، رفض رفضاً باتاً أن يجعله امتداداً لشهوات بعض الرجال وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط .

فالفرم على قدر الفسّم ، والمتع الميسرة تبهم حقوق ثقيلة .

ومن ثم فلا بد - عند التعدد - من تيقن العدالة التي تحرسه .

أما إذا ظلم الرجل نفسه أو أولاده أو زوجاته ، فلا تمدد هناك .

الذي يعدّ يجب أن يكون قادراً على النفقة اللازمة .

وإذا كان الشارع يعتبر المعجز عن النفقة هذراً عن الافتتان بواحدة ، فهو -  
من باب أولى - مانع من الزواج بما فوقها .

إن الشارع يوصى الشباب الأعزب بالصيام ، مادام لا يستطيع الزواج ، ويأمر  
العاجز عن الواحدة بالاستعفاف .

( وَ لَيْسَتْ عَفْوَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يَغْنِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ )  
فكيف الحل بمن عنده واحدة ؟ إنه بالصبر أحق ، وبالاستعفاف أولى .. وكثرة  
الأولاد تدبغ - عادة - كثرة الزوجات ، والإسلام يوجب رعاية العدل مع الأولاد  
في التربية ، والتكريم ، ووسائل المعيشة ، مهما اختلفت أمهاتهم ، وفي الأثر « لعن  
الله من استعق أولاده » (١) فعلى الأب المكثّر أن يحذر عتقى الميل مع الهوى . .  
وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات .

ولئن كان للميل القلبي أعصى من أن يتحكم فيه إنسان ، إن هناك من الأعمال  
والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرعى الحدود للمشروعة ، وأن يزن تصرفه  
بالتسبط . وأن يحشى الله فيما استرعه من أهل ومال .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سائل كل امرئ عما استرعا .  
حفظ ذلك أم ضيعه » (٢) .

---

(١) لأعرفه . ومحوه مارواه الطبراني عن أبي هريرة مرفوعاً : « أعيثوا أولادكم  
على البر ، من شاء استخرج العقوق من ولده » لكن في سننه من لا يرفون .  
(٢) عزاه في الجامع الصغير للنسائي وابن حبان في صحيحه عن أنس . وقد فتشت عنه  
في سنن النسائي الصغرى في مظانه فلم أجده ، فلمعه في سننه الكبرى التي لم تطبع وقد  
وقفت في انوقوف على إسناده فأخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٣٥/٩) عن  
النسائي بسنده عن قتادة عن أنس . وكذلك رواه أبو نعيم أيضاً (٢٨١/٦) من غير  
طريق النسائي . والسند صحيح إن كان قتادة سيمه من أنس فإنه موصوف بشيء من التدايس .



وقال : « بحسب امرىء من الإنثم أن يضع من يعول » (١) .  
تلك حدود العدل الذى قرنه الله بالتعدد ، فمن استطاع النهوض بأعبائها فليتزوج  
مشتى وثلاث ورباع ، وإلا فليكتف بقرينته الفذة (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) .  
وقرأت لبعض الصحافيين يعترض على مبدأ التعدد ، لماذا يعدد الرجال الزوجات  
ولا تعدد النساء الأزواج ؟ ولقد نظرت إلى هؤلاء المتسائلين فوجدت جمهورهم بين  
«داعر أو دبوث أو قواد ، وعجبت لأنهم يعيشون فى عالم من الزنا ويكرهون أشد  
الكفر إقامة أمر الأسرة على العفاف . .

والجواب على هذا التساؤل المريض أن الهدف الأعلى من التواصل الجنسى هو إنشاء  
الأسرة وتربية الأولاد فى جوٍّ من الحضانة النظيفة وهذا لن يكون فى بيت امرأة  
يطرقها نفر من الناس ... يجتهدون للاستحواذ عليها ولا يعرف ، لأيم ولد منها . .  
ثم إن دور المرأة فى هذه الناحية دور القابل من الفاعل ، والمقود المحمول من  
القائد الحامل . وإنك لتتصور قاطرة تجر أربع عربات ، ولا تتصور عربة تشد أربع  
قاطرات ، ومن الكفر بطبائع الأشياء المماراة فى أن الرجال قواموف على النساء .

o o o

على أنه من المؤسف حقاً ، أن يهدر العوام هذه الحدود ، وأن يتجهوا إلى التعدد  
دون وعى لمعنى العدل المفروض ، بل تلبية لنداء الشهوة ، ولو أدى إلى الافتيات  
والجور الصارخ .

فالرجل قد يعجز عن نفقة نفسه ، ثم هو يسعى إلى الزواج .  
وقد يعجز عن رعاية واحدة ، ثم هو يبحث عن غيرها ! !

(١) « كفى بالمرء إثماً أن يضع من يعول » أخرجه أبو داود (٢٦٨/١) وغيره  
حديث ابن عمر وصححه الحاكم (٤١٥/١) ووافقه الذهبي ورواه مسلم (٧٨/٣) من  
طريق أخرى عنه زهير .

وقد يهيف على بعض أولاده في التعليم ، وفي توزيع الثروة تمشياً مع هواه وقد يتزوج الأخرى ليهجر الأولى ويذرهما كالمعلقة .

وربما ترى الرجل يستطيع البناء بأربع . والإنفاق على ماينجب من بنين وبنات . ومع ذلك الاقتدار ، فهو يحمي على التوسل الجنسي والتقلب في أحضان الساقطات فما دواء هذه الفوضى ؟

هل منع التعدد يشفي الأمة من هذه الأدوا . ؟

كلا . إن تقييد مباح ليس مما يعي سياسة التشريع في الإسلام . إلا أن مبدأ التعدد لو صكت الدين عن إبداء الرأي فيه ، لوجب أن نبدي — نحن — الرأي فيه ونقول بإباحته ، صيانة للمصلحة العامة التي أوضحناها في صدر هذا الكلام .

واسكن إقرار القاعدة شيء ، وسوء تطبيقها شيء آخر . . .

وعندما يحىء دور التشريع في إصلاح مجتمعا وإقامة عوجه — من هذه الناحية — فلتتجه همة الباحثين إلى ضبط وسائل العدل ومظاهره إن أرادوا . أما الخبط في مبدأ التعدد نفسه ، ومحاولة النيل منه فهو عبث . وأستطيع القول بأنه أثر من آثار الفزو الصليبي الحديث لبلاد الإسلام .

فان النصرانية — دون سائر الأديان من عهد نوح — انقردت بتحريم<sup>(١)</sup> التعدد ، وحبس الرجل — مهما كان شأنه — على امرأة واحدة ، وترك المجتمع بعد ذلك ، يعالج كثرة النساء ، وهياج الفرائز بوسائله الأخرى .

وفي طبقات كثيرة الآن ، ينظر إلى التعدد على أنه منكر ؛ وإلى الزنا على أنه مسلاة تافهة ؛ أى المشكلة الآن ، مشكلة الدين كله ، والأخلاق كلها . . .

---

(١) نحن نعتقد أن التعدد هو حكم الله في الأديان كلها — ومن بينها النصرانية — ولا نقيم وزنا لما عداه من قوانين وضعية .

وتقييد التمدد - والحالة هذه - محاولة سمجة ، لتلوين المجتمع على حساب الإسلام  
وباسم القاتون .

إن جمهوراً كبيراً من النبين والصلحين تزوج بواحدة وبأكثر من واحدة ،  
ولم يندش ذلك تقواه ، وفي صحف العهد القديم الموجودة الآن ما يؤيد ذلك .  
والإسلام لا يرى التبتل عن النساء عبادة - كما يفعل الرهبان - ولا الزواج إلى  
أربع معصية ، كما يُنسب إلى النصرانية .

إنما المعصية في ترك الغريزة الجنسية تنزهه كيف تشاء ، أو في كبتها لتتسرب  
وراء وراء ، كما تتسرب المياه الجوفية تحت أديم الغبراء .

o o o

والمحموظ من سيرة نبي الإسلام أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة  
والعشرين من عمره وكانت - هي - في سن الأربعين ، وظل معها وحدها ، لا يضم  
إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين .

وماتت ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - فوق الخمسين .  
ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لئداً ، أن ينسب إليه دنسا ، أو يتهمه بريبة .  
في هذه الفترة المخصية الرحبة من عمر الإنسان كان رونق العفاف والشرف  
يقالقي في جبينه حيث سار .

ولو أنه أحب التزوج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة .  
فإن التمدد كان مألوفاً بين العرب ، معروفاً في ديانة أبي الأنبياء إبراهيم ،  
إلا أنه ظل مكتفياً بمن استراح إليها واطمأن بصحبتها ، ولو أنها طعنت في السن  
وبقي هو في كمال قوته وتعام رجولته . ولهذا المسلك دلالاته القاطمة .

فلما انتقلت خديجة ، وأحب النبي أن يتزوج ، لم يكن البحث عن الجمال في  
مظانه هو الباعث له على تخيير شريكته في حياته ، أو شريكاته ، ولو قد فعل ذلك  
ما تعرض للوم .

بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزروه في دعوته وعاونوه في رسالته .

فاختار « عائشة » بنت أبي بكر - على صغر سنها - واختار حفصة بنت عمر على قلة وسامتها ...

ثم اختار أم « سلمة » أرملة قائده الذي استشهد في سبيل الله، وعانت معه امرأته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة ، وفي الهجرة إلى المدينة .

ومن قبل هؤلاء كانت معه « سودة » وهي امرأة نزلت عن حظها من الرجال لكبرها وعزوفها .

والعيشة مع أولئك الأربع لا تقوم على متاع ملحوظ ودنيا سارة .

ولو قد قامت على ذلك ما كان على رسول الله من حرج ، فلاى مؤمن أن يستمتع بأربع نسوة ، وتحقيق العدل متيقن في سيرة رسول الله .

قد تقول : لكن الرسول مات عن تسع نسوة فكيف وقع هذا ، ولم نال

مال ينال غيره ؟؟

أليس هذا فتحاً لباب التشهى ، وإجابة لدواعى الملمذة ؟

ونقول : أين مكان المتعة في حياة رجل لم يسترح يوماً من عناء الكفاح

للموصول والجهاد المضنى ؟

إن حملة الرسائل الإنسانية المحدودة تعيهم هموم العيش ومشكلات الشعوب

فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجموا قليلاً .. ثم ينهضوا لاستئناف القوب !

فكيف بضاحب الرسالة العظمى ؟ ولقد لقي من العرب ما رأيت !

ونسأل أيضاً : ما مكان المتعة في حياة رجل عزف عنها وهو شاب ، فكيف

يفرق فيها وهو شيخ ؟

إن الظروف التي أحاطت بالزوجات الخمس الأخرى ، تجعل البناء بهن بعض

ما كلف الرسول بتجشمه من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير ومحو الضرر .

خذ مثلاً زواجه بزینب بنت جحش ، كان هذا الزواج امتحاناً قاسياً لرسول الله ، أمره الله به لإبطال تقليد شائع عند العرب ، وأقدم عليه الرسول وهو شديد التحرج والحياء والأذى .

و « زینب » هذه من قریبات الرسول ، فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها ، وقد رغب في أن يزوجه من زید بن حارثة ، فكرهت ذلك ورفض أخوها ، اهتزأزأ بما لأمرة زینب من مكانة ، فهي من ذؤابة قریش ، وما زید؟ إنه كان عبداً ، ولو أن الرسول أكرمه فيما بعد وألحقه بنسبه فصار يدعى زید بن محمد !!

إلا أن زینب لم تجد بداً من الإنصياع لأمر النبي ، فقد أراد أن يحطم الاعتزاز بالأنساب وأن ينكح زیداً زینباً فرضيت وفي نفسها غضاضة ، وقبل أخوها وهو يؤدي حق السمع والطاعة فحسب ، بعد ما نزل قوله تعالى :

( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونُوا لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا )

ودخل زید بزینب . فوجد امرأة مصروفة الفؤاد عنه ، تسلمه جسدها ، وتحرمه العطف والتقدير ، ثارت رجواته وقرر الأبقى معها ، وتدخّل النبي بين الحين والحين لإصلاح ذات اللبين دون حدوى .

في هذه الحال أوحى الله لنبیه أن يدع زیداً يطلق زوجته ، وأن يتزوجها هو بعد إنتهاها منه ..

فاعترى الرسول ثم مقاق لهذا الأمر الغريب ، وساوره التوجس من الإقدام عليه بل أخفاه في نفسه خوفاً من مقبته ، فسيقول الناس : تزوج امرأة ابنه . . .

ولكن هذا الذي سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه ، ويجب على النبي أن ينفذه دون تهيب .

وقد تريت النبي في إنفاذ أمر الله ، وامله ارتقب من الله — لفرط تخرجه — أن يعفيه منه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فعندما جاء زيد يشكو امرأته ويعرض نيته في تطليقها ، قال له النبي : أمسك عليك زوجك واتق الله .

عند ذلك نزل الوحي يلوم الرسول على توقفه ، ويعتب عليه تصرفه ، ويحضه على إضفاء رغبة زيد في فراق امرأته ويكلفه بتزوجها ، ولو قال الناس : تزوج امرأة ابنه ، فإن إدعاء البنوة لون من التزوير ، تواضع عليه العرب مرأمة للحق ، وينبغي أن يقلعوا عنه ، وأن يهدروا نتائجه ، وليكن عمل الرسول بنفسه ، وبمن التصق به أول ما يهدم مآثر الجاهلية في العرف الشائع . .

هذه هي القصة كما بدأ القرآن الكريم يرويها .

( وَإِذْ تَقُولُ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَخُشِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذْ آخَضُوا مِنْهُمْ وَطَرًا ) .

على أن الغريب في هذه القصة ما أدخله المغفلون عليها من دسائس الشهوة ومظاهر الحب الرخيص ، فقد زعموا أن الرسول أحب زينب ، ثم كتم هذا الحب ، ثم ظهر ، فتزوجها بعد ما طلقت !

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتاباً له على هذه العاطفة المكبوتة . ونحن نتعجب أشد العجب لهذا الخبط الهائل ، ومحاوله تليدس الحق بالباطل . من كان يمنع محمداً من الزواج بزينب وهي من أسرته — بنت عمته — وهو الذي ساقها إلى رجل لم تسكن فيه رغبة ، وطيب خاطرها لترضى به .

أبعد أن يقدمها لغيره بطمع فيها ؟

ثم لننظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عتاب .

إنهم يقولون : الذي كان يخفيه النبي في نفسه ، ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب ، أى أن الله — بزعمهم — يعتب عليه عدم التصريح بهذا الميل !  
ونقول : هل الأصل الخلق أن الرجل إذا أحب امرأة لفظ بين الناس مشهراً بنفسه وبمن أحب ؟ وخصوصاً إذا كان ذا عاطفة منحرفة ، جعلته يحب امرأة رجل آخر ؟

هل يلوم الله رجلاً ، لأنه أحب امرأة آخر ، فكأن هذا الحب في نفسه أكان يرفع درجته ، لو أنه صاغ فيها قصائد غزل ؟  
هذا والله هو السفه .

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن !!  
إن الله لا يعاتب أحداً على كتمان حب طائش ، وإمام سباق الواقعة هو كما تصبنا عليك .  
فالذى أخفاه النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه تأذيه من هذا الزواج المفروض ، وتراخيه في إنقاذ أمر الله به ، وخوفه من لفظ الناس عند ما يجدون نظام التنبى .  
— كما أنفوه — قد أنهار .

وقد أفهم الله نبيه ، أن أمره لا يجوز أن يقفه توهم شيء ما . وأنه — بإزاء التكليف الأعلى — لا مفر له من السمع والطاعة ، شأن من سبقه من المرسلين .

وإذا عدت إلى الآية التي تتضمن القصة ، وجدتها ختمت بقوله تعالى :

( وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ) أى من حقه أن يقع حتماً .

ثم أعقها ما يؤكد هذا المعنى :

( مَا كَانَ عَلَى الْبِئْسَى مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، وَسُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ

خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ) .

إناك عندما تثبتت في قلب رجل تقول له : لا تحش إلا الله .  
إنك لا تقول ذلك له وهو بصدد ارتكاب معصية ، إنما تقول ذلك له ، وهو  
يبدأ القيام بعمل فاضل كبير يخالف التقاليد المتوارثة .

وظاهر في هذه الآيات كلها إن الله لا يجرىء نبيه على التدهن بحب امرأة « إنما  
يجرئنه على إبطال عادة سيئة يتمسك الناس بها ، ويراد منه كذلك ، أن ينزل على  
حكما ، ولذلك يقول الله — بعد ذلك بمسرة — وهو يهدم نظام التبنى .

( مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ابْنًا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ  
النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَاطِمًا ) .

أما السيدات الأخريات التي بنى بهن الرسول . فهن نساء تنميهن أصول عريضة  
حتى ليعتبرن بنات ملوك !

وقد أطاحت بهن — عند دخول الإسلام — ملابس ، لا يليق أن يجملها  
قائد دعوة .

فأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قریش وقائدها عشرين سنة في حرب  
الإسلام أو يزيد ، أئذا أسلمت وراغمت أباه و قومها في ذات الله ، ثم هاجرت  
إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته ؟

أترى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها تترك لمن يخدم مكانها ؟  
لقد ضمها النبي إلى زوجته ، إعزازاً لشأنها ، وتقديراً لصنيعها .

و « صفية » بنت حبي ، كان أبوها ملك اليهود .

وفي الصراع بين بني إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها ،  
ووقعت في سهم جندي ، لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب ، من حقه ، بملك اليمين ،  
أن يسلك . مما كيف يشاء .

فإذا رقت النبي لحالها ، ووهما حريتها ، ثم جبر كسرهما وقدر ماضيها ، فتزوجها  
ليستطيع — بإحسانه وإكرامه — تطيب خاطرهما ، فهل ذلك مما يلام عليه ؟



و «جويرية» بنت الحارث ، إن أباهازعيم بنى المصطلق ، وقد انتهت حربهم مع المسلمين هزيمة نكراء ، وكادت قبيلته تهون وتذلعقب هذه الهزيمة ، فوامى النبي صلى الله عليه وسلم القائد المهزوم ، ثم أصهر إاليه حتى يشعر المسلمين بما ينبغي لأنبأه من كرامة ومعونة ، رقد وقع ما أحبه النبي ، فعادت الحربة إلى القبيلة رجالاتا ونساء ، إذ تخرج المسلمون أن يسيثوا إلى قوم تزوج النبي ابنتهم .

\* \* \*

وقد يسبق إلى أذهان البعداء عن السيرة ، أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاصة ، قامت على التوسع فى المطاعم والمشارب .. والمتع الأخرى .  
والصورة التى قد ترسم بادية الأمر لرجل عنده عدة نساء ، أنه مغرور بالسعادة المادية يقوم بيته على الموائد الحافلة باللحوم والفواكه ، ويرتوى من الأشربة التى تسرى فى أوصاله بالنشوة . ثم يتقلب بين أحضان البيضاوات والشقراوات ويصبح يستقبل الدنيا بعد ذلك خالى البلى . !!

وقد تكون هذه الصورة مساوية أو مقاربة لما يدور فى قصور الملوك .  
اسكن حذار أن تسفه نفسك فتحسب شية من هذا العيش الرخى فى بيوت محمد بن عبد الله .

إنقل على عجل إلى لون آخر من الحياة الخشنة لترى فيه رجلا تعلقت همته بالحق وحده ، فهو ينتعش بمعرفته . ويجتهد لجمع الناس عليه ، وقرة عينه فى خطوة تقربه من غاية شبرا ، أما أهواء الدنيا فهى تحت قدميه ودر أذنيه .

إذا استطاعت قذائف المدافع على ظهر الأرض أن تبلغ النجوم البعيدة ، استطاعت مغربات الحياة أن تقرب من قلب محمد الزكى النقى .

ذاك إنسان اصطفته العناية ، فهو يخلق في مدى آخر ، يقول فيه : « مالى  
والدنيا إنما أنا كرجل قال تحت ظل شجرة ثم راح وتركها » (١) .  
يربط همم البشر بالمثل العليا ، وما تصير إليه عند الله فيقول : « موضع سوط  
في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولقد وُتِّئ في سبيل الله أرواحه خير من  
الدنيا وما فيها » (٢) .

وحياته مع زوجاته نهج من الشظف لا يطيقه أحد .  
روى البخارى عن أنس بن مالك قال ما أعلم النبي رأى رغيفاً مرققاً حتى  
لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط !

وعن عائشة قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت  
في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار !  
فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يُعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء .  
وقالت عائشة أيضاً : لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في رقى شيء  
يا كله ذو كبد إلا شطر شعير في رقى لى . .

أما الفراش الذى يأوى إليه هذا النبي فهو آدم - جلد - حشوه ليف (٣)  
يثوى فيه قليلا ، فما إن يستدفئ به حتى يسمع الصارخ - الديك - فينهض  
متأهباً لصلاة الفجر ..

ولانعى بهذا الوصف أن الإسلام يعاف الطبيبات أو أن نبيه يسُنُّ للناس تركها .

---

(١) صحيح ، أخرجه الترمذى ( ٣ / ٢٧٨ ) وصححه وابن ماجه ( ٢ / ٥٢٥ -  
٢٥٦ ) والحاكم ( ٤ / ٣١٠ ) وأحمد ( رقم ٩ / ٣٧ ، ٤٢٠٨ ) عن ابن مسعود ، وله  
شاهد عن ابن عباس رواه أحمد ( ٢٨٤٤ ) وإسناده حسن وصححه الحاكم على شرط  
البخارى ومسلم ! ووافقه الذهبي :

(٢) صحيح أخرجه البخارى ( ١١ / ١٩٤ ) بتمامه ومسلم ( ٦ / ٣٥ ) بالشرط الثانى  
عن سهل بن سعد .

(٣) صحيح أخرجه البخارى ( ١١ / ٢٤٥ ) عن عائشة أيضاً .

كلا ، فشرية الإسلام في هذا بينه نيّرة ، وإنما نسرّد الواقع من حياة رجل حدّدت نفسه عما يقتل الناس عليه ، إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة يفرحون بها ويختصمون عليها ، لأن طبيعة رجوانته في شغل عن عبث الصبية .  
إن بعض الخنزعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهيباً لهم ، لا ازدراء له ، ولكن استغراقاً فيما ملك عليهم مشاعرهم .

وكأنى أنجيل هذا النبي . وهو يرى سواد الناس يتفانون على الخطام الذاهب فيهبز رأسه أصفاء ، ويقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قبلي ولا لبعيتم كثيراً (١) . ثم يضرع إلى الله : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (٢) .

إن من الزرابة بالعتل والجور الفاحش على التاريخ أن يجيء رجل من معرض الطريق ، فيرى أو يقال له : إن محمداً كان لديه نسوة عديدات . فيظن المسكين أن ذلك دلالة استكثار من الشهوات وتشبّع من الدنيا .

\* \* \*

ولا يحسبن أحد هذا الاخشيان فعل من لا يجد ! وأنه لو فتحت إلى بيوت هذا النبي صلى الله عليه وسلم نافذة تطل على مجبوحة ألحياة الرغدة ، لاستمتعوا كتنز ، واستمتع نسوته وابتهجن .

لا ، كان قادراً أن يحجز من المال الذي يمر به ويحكم فيه ما يشاء ، لو يشاء ، لكن هذا النبي السمع كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة ، لأن عينيه ترمقان هدفاً أسمى ولو سيقت إليه خزائن الأرض لفكر - قبل كل شيء - في إشباع همة الناس منها .

(١) صحيح ، أخرجه البخاري ( ٧٦٨ / ١١ ) من حديث أبي هريرة وأنس .  
(٢) صحيح ، أخرجه البخاري ( ٢٤٦ / ١١ ) ومسلم ( ٢١٧ / ٨ ) واللفظ له من حديث أبي هريرة ، وليس هو تمام الحديث الذي قبله كما قد يتبادر من عبارة المؤلف ، بل كل من الحديثين مستقل عن الآخر ، ولا يدري المتقدم منهما من المتأخر .

عن أبي ذر : كنت أمسى مع النبي في حرّة المدينة ، فاستقبلنا أحدٌ ، فقال :  
يا أبا ذر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : ما يسرني أن عندى مثل أحد هذا  
ذهباً ، تمضى على ثلاثة وعندى منه دينارٌ — إلا شيئاً أرصده لدينٍ — إلا أن  
أقول به في عباد الله هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

ثم مشى فقال : إن الأَكْثَرِينَ هم الأفلون يوم القيامة ، إلا من قال ، هكذا  
وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل مأمم<sup>(١)</sup> .

إن أشهى الطعام في فم الرجل الشبعان الممتلئ لا مذاق له ، وقد كان هذا النبي  
شبعان القلب ، فما يخفُّ إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو  
إذا يمشى ما يصل إليه على المحتاجين والمترقبين ، أما هو فغناه في قلبه .

ذاك أدبٌ أخذه الله به من قديم ، منذ قال له :

( ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا  
لنفتنهم فيه وِرْزُقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا  
لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْمَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ) .

غاية ما يبغيه هذا النبي أن ينجو من مآسى الدنيا ومظالم البشر ، فلا يستذله ، أو

تستذل أهله فاقه !

إنه يعيش على قاعده « مائلٌ وكفى خيراً مما كثر وألمى »<sup>(٢)</sup> ، وفي حدود هذا

القليل الكافي ، يود أن يخلص من عقابيل الخلق ، لاله ولا عليه ، ولذلك كان

يدعو الله :

(١) صحيح أخرجه البخارى ( ٢٢٠/١١ — ٢٢٢ ) ومسلم ( ٧٥/٣ ) عن أبي ذر

(٢) ١٢٠ هـ حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسند صحيح ، فكان ينبغي  
التصريح بذلك أخرجه أحمد ( ٢٩٧ / ٥ ) وكذا الطيالسى ( رقم ٩٧٩ ) في حديث لأبي  
الدرداء . وسنده صحيح على شرط مسلم وعزاه المنذرى ( ٣٩/٢ ) لأبن حبان في صحيحه  
والحاکم ؛ ورواه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى وكذا الضياء المقدسى في « الأحاديث  
المختارة » والطبرانى من حديث أبي أمامة .

« اللهم إني أعوذ بك من الفقر والفاقة والذلة ، وأن أظلم أو أظلم ، أو أجهل -  
أو يجهل عليّ » (١) .

ويقول : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعافية والغنى (٢) - الاستغناء -

\* \* \*

وهذا المنهج الصارم في المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدة ماكن يعرفنها  
من قبل ، لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة .

وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة ، إمام مع  
آبائهن ، وإمام مع رجالهن السابقين .

فلا عجب إذا تاملن من هذه الحياة الجديدة ، وطلبن الرغد والنعومة ،  
واجتمعن - على ما بينهن من خلاف - ليسألن الرسول مزيداً من النفقة !

إنهن في بيت أعظم رجل في العرب ، فيجب أن تتكافأ معيشتهم مع مكانتهن  
وقد تزعم هذه المطالب عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وتبهن الباقيات !!

---

(١) صحيح وهو مركب من حديثين ، والأول عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم كان يقول : فذكره دون قوله . « الفاقة » وقوله في آخره « أو أجهل . . . »  
أخرجه هكذا أبو داود ( ٢٤١/١ ) والنسائي ( ٣١٥/٢ ) والحاكم ( ٥٤١/١ ) وأحمد  
( ٣٠٥/٢ ، ٣٢٥ ، ٣٥٤ ) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قال .  
والثاني من أم سلمة قالت : ما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيتي قط إلا رفع طرفه  
إلى السماء فقال : اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو اضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم  
أو أجهل أو يجهل عليّ » رواه أبو داود ( ٣٢٨/٢ - ٣٢٩ ) والنسائي ( ٣١٧/٢ ) ،  
٣٢٢ ) وغيرهما ، وقال الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي وهو كما قال  
وصححه الترمذي .

(٢) صحيح بلفظ : « والعفاف » بدل « والعافية » كذلك أخرجه مسلم ( ٨١/٨ )  
والترمذي ( ٢٥٦/٤ ) وصححه وابن ماجه ( ٤٣٠/٢ ) وأحمد ( ٣٦٩٢ ، ٣٩٠٤ ) عن  
ابن مسعود .

وحزن رسول الله لهذه المظاهرة ، إنه المسلم الأول على ظهر الأرض ، وأبصار  
للمؤمنين والمؤمنات ترنو إليه من كل ناحية ، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها  
وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين .

إذا لم يعش بيته عيشة المجاهد المحصور ، فكيف يواصل الكفاح ويكلف  
الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شيء إلا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟  
لذلك رفض النبي الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة . وكره منهن هذا  
التطلع فقرر مقاطعتهم ، حتى شاع بين الناس أن النبي طاق نساءه جملة !!  
وفزع أبو بكر وعمر لهذه الإشاعة فابنة كليهما عند رسول الله . فذهبا يستأذنان  
ليدخلا عليه ، وابتعروا جلية الخبر . فلما دخلا وجدا النبي صامتا ، وحوله نساؤه  
واجبات !! وسأله عمر : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا .

إلا أن جو الحزن كان يخيم على المكان . فقال عمر : لأكلمن رسول الله  
لعله يضحك !

فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد — يعني زوجته — سألتني النفقة آفقا  
فوجأت عنقها ، فضحك النبي حتى بدا نأجه . وقال : هن حولي يسألنني النفقة  
فقام أبو بكر إلى عائشة يؤدبها ، وقام عمر إلى حفصة .

كلاهما يقول : نسألن النبي ما ليس عنده ؟

فهى النبي الأبوين أن يصنعا بينتيمها شيئا . وكانت نساؤه — ناديات —  
يقلن والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

وهجرهن النبي شهراً لا يتصل بهن حتى يشعرن بما فعلن ونزلت آيات التخيير  
من عند الله تطلب إليهن جميعاً إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته  
في حياته ! وإما اللحاق بأهلن حيث الملابس الحسنة والمساكن الدسمة .

وكان هذا الدرس كافياً ليجو آخر ما في أنفسهن من رغبة لم تتجاوز المباحات  
للشهوة ! فاخترن — جميعاً — البقاء مع النبي على قاعدته المتيدة « ما قل وكفى

خير مما كثر وألمى» (١) وعش معاً للجهاد والتهجد ، والبذل والمواساة ، والتواضع  
والخدمة .

(يا أيها النبي ﷺ قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها  
فتسألين أمتفكن وأمره حكن سراً جلاًه وإن كنتن تردن الله  
ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً .) (٢)  
فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة ... وعش مع النبي ، معينات على الحق ،  
راغبات في الثواب .

\* \* \*

وبهذا التغامى في خدمة الرسالة ، والإهمال لمطالب النفس ، رفع الله درجاتهن  
فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن في ظله المتاع . بل صرن شريكات في حياة فاضلة  
غاية ، واستحققن قول الله عز وجل : « النبي ﷺ أولى بالؤمنين من أنفسهم  
وأزواجه أمهاتهم ... »

وتوكيداً لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق على أمهات المؤمنين  
فلا يجوز لأحد من الأجانب أن يلتقى بهن ولو مع محرم .  
وسؤالهن في شئون الدين والدنيا ، إنما يكون من وراء الحجاب . كما لا يجوز  
الأحد — بعد وفاة الرسول — أن يتزوج بإحداهن .

وبهذا التشريع الصارم ، قطع دابر الفضوليين والنقلاء الذين يكثرون التردد  
على بيوت الزعماء ، كما قطع دابر المتربصين منهم الذين ينشدون الرفعة من وراء  
الافتران بأولئك النساء ، ولا نستغرب مثل هذا التشريع ! فقد تأدت الجرأة  
ببعض الناس أن يقول أحدهم : لو قبض النبي تزوجت عائشة . ومن حق النبي  
أن يصاب شعوره ، وأن يصد عنه وعن أهله أولئك الأعراب السفهاء .

(١) سبق تخريجه ص ٤٨٠ .

(٢) رواه مسلم ( ١٨٧/٤ ) من حديث جابر ، وهو في البخارى ( ٤٢٢/٨ ) عن  
عائشة مختصراً .

ولم يعقب الرسول من زوجاته أولئك ولدا .  
أما بناته الثلاثي أعقبن من خديجة فقد متن وهو حى ، عدا فاطمة ، فإنها  
بقيت بعده شهوراً ثم كانت أول أهله لحوقاً به ..

o o o

ودخل رسول الله بريم التي بعث بها المقوقس إليه بعد أن أسلمت ، وحملت  
منه ، ثم وضعت له ابناً أسماه إبراهيم ، باسم جده أبي الأنبياء ، ولم يعمر طويلاً بل  
مات وهو رضيع .

قال أنس : لقد رأيتُه وهو يوجد بنفسه بين يدي رسول الله ..  
فدمعت عليه عيننا النبي ثم قال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا  
ما يرضى ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون . (١)

واتفق أن الشمس كسفت في ذلك اليوم ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت  
لموت ابن النبي ، فقام النبي مصلياً بالناس ثم قال : يا أيها الناس إن الشمس والقمر  
آيتان من آيات الله عز وجل ، لا ينسكفان لموت بشر ، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك  
فصلوا حتى تنجلي .. (٢)

## استقران

زالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما نزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق  
وصحت العقول العميلة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهوراً تعبد أصناماً  
جامدة ، وسمع الأذان للصلوات بشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحيها

(١) صحيح أخرجه البخاري (١٣٥/٣) عن أنس .

(٢) صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث للغيرة بن شعبة وصح عن جماعة من  
الصحابة ذكرت ألفاظهم والطرق إليهم في كتابي «صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم»  
لصلاة الكسوف وما رأى فيها من الآيات .



الإيمان الجديد . ولنطلق القراء شمالاً وجنوباً يتلون آيات الكتاب ، وقيمون الأحكام الله ، ويعلمون العرب ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم .

إن هذه الجزيرة - منذ نشأ فوقها عمران - لم تهتز بمثل هذه النهضة المباركة ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

وكان النبي ﷺ في المدينة يستقبل الوفود ويشعها بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير ويزودها بمحكمة الباهرة فتعود من حيث أنت لتنشئ في مواطنها القصية معاقل للإسلام ، وصحائف بيضاء في تاريخ أمة .

ولم يكتف النبي ﷺ بترقب الوفود المقبلة . بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رقعة الإسلام هناك انسلطاً .

فإن في اليمن وما حولها قبائل كثيفة العدد ولأهل الكتاب السابقين نشاط قديم وقد نشأ الإسلام هناك حقاً ، وتقلص ظل الفرس لغير عودة .

إلا أن هذه البقاع الثائية تحتاج مزيداً من رعاية وتقدير .

ومن ثمّ بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد . ثم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري . ثم علياً بن أبي طالب (١) .

وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله يشعره أن مقامه في الدنيا يوشك على النهاية فإنه بعد أن علم معاذ بن جبل كيف يدعو من يلقاهم . وكيف يعرفهم حينهم خرج معه إلى ظاهر المدينة يوصيه . - معاذ راكب ، ورسول الله يمشي تحت راحلته ! .

فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري ! فبكي معاذ خشعاً لفرار رسول الله .

ثم التفت النبي ﷺ بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي الممتنون ، من كانوا وحيث كانوا . (٢)

(١) بعث هؤلاء الأربعة في صحيفه البخاري (٤٩/٨ - ٥٧) .

(٢) صحيح أخرجه أحمد (٢٣٥/٥) بسند صحيح عن معاذ .

وقد وقع ما أوماً إليه الرسول ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع  
ثم كانت وفاة النبي بعد الحج الأكبر بأحد وثمانين يوماً ، ومعاذ باليمن ...  
وقد كان للعناية باليمن ما يبررها ، فقد ظهر فيها وفي بني حنيفة دجالان  
يزعمان النبوة .

ولم يكن لسكلا الدجالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليه حفة  
من الرجال .

ولسكن داء العصبية العمياء ، جعل قبيلة كبيراً من الرعاع يقول :  
نحن نعلم أن مسيلة كذاب ، ولسكن كذاب ربيعة ، خير من صادق مضر !!  
وقد اشتملت فنن المتنبئين حيناً ، ثم داستها أقدام المجاهدين بعد ، فأخذت  
جذونها ، وذهبت نبوة مسيلة وغيره . كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى ..

### حجة الوداع

أعلن رسول الله نيته بالحج ، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء .  
فترك المدينة أواخر ذى القعدة ، بعد أن أمر عليها في غيابه « بأباجاة » (١)  
والحج هذه المرة ، جاء مغايراً لما أرفسته العرب أيام جاهليتها .  
انتهت العهود المعطاة للمشركين ، وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .  
فأصبح أهل الموسم — قاطبة — من الموحدين الذين لا يعبدون مع الله شيئاً  
وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق ، وهي تعلم أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو في هذا العام أمير حجهم ومعالمهم مناسكهم !!  
ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الألوف المؤلفة وهي تلبي وتهرع إلى  
طاعة الله . فشرح صدره انقيادها للحق ، واهتداؤها إلى الإسلام وعزم أن يرس  
في قلوبهم لباب الدين ، وأن ينتمز هـذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد

(١) لم أجد من أسند هذا ؛ وإنما ذكره ابن هشام (٢/٢٥٠) معضلاً ولم يجرم به  
فإنه قال : « فاستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي ويقال : سباع بن عرفة النفاري » .

آخر ما أبتت الجاهلية من مخالقات في النفوس وتؤكد ما يحرص الإسلام على  
إشاعته من آداب وعلائق وأحكام .

فألقى هذه الخطبة الجامعة<sup>(١)</sup> :

«أيها الناس اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري ، لعلي لا ألتاكم بمدعى هذا ، بهذا  
الموقف أبداً . . .»

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم هايمكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة  
يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ،  
وقد بانقت . . .»

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ،  
ولكن لكم ردوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون .

قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دماءكم أضع دم ريبة  
ابن المظارت بن عبد المطلب — وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل — فهو  
أول ما أبداً به من دماء الجاهلية . . .»

أما بعد — أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً ،  
ولكنه إن يطع فيأسوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه  
على دينكم !!

أيها الناس : (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ،

---

(١) رواها ابن هشام عن إسحاق بدون إسناد وقد جاء سندها في أحاديث متفرقة  
يطول الكلام في بيانها . وتفصيل ذلك في كتابي الكبير «حجة الوداع» أرجو الله أن  
يوفقني لإتمامه . وقسم كبير منها في حديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه وقد جمت  
طرقه وألفاظه في رسالة لطيفة طبعت في للطبعة السلفية بمصر .

يُحِلُّونَهُ عَامًا، وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا، لِيُؤَاظِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ) ويحرموا ما أحل الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله، اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب —  
الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس : فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً .  
لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين  
بفاحشة مبينة .

فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن  
ضرباً غير مبرح، فإن انتهين، فهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .  
واستوصوا بالنساء خيراً، فهن عندكم عوان<sup>(١)</sup>، لا يملكن لأنفسهن شيئاً .  
وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها  
الناس قولي فإني قد بلغت ..

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به . فلن تضلوا أبداً، أسراً بيننا، كتاب الله  
وسنة نبيه ..

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن<sup>٢</sup> أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين  
إخوة، فلا يحل لا مريء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن<sup>٣</sup>  
أنفسكم، اللهم هل بلغت ؟

قالوا : اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد .

قال ابن اسحاق : كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله صلى الله  
عليه وسلم — وهو بعرفة — ربيعة بن أمية بن خلف .

يقول لرسول الله : قل : يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أي شهر

(١) عوان : أسيرات .

هذا؟ فيقول لهم .. فيقولون : الشهر الحرام ..!! فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلتقوا بكم كحرمة شهركم هذا ... ثم يقول : قل يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل تدرّون أى بلد هذا؟ فيصرخ به ! فيقولون : البلد الحرام ، فيقول : قل : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلتقوا بكم كحرمه بلدكم هذا !

ثم يقول : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرّون أى يوم هذا؟ فيقول لهم .. فيقولون : يوم الحج الأكبر ! فيقول قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلتقوا بكم كحرمة يومكم هذا ...

o o o

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد - بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة - أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح . كان يُحسُّ أن هذا الركب سينطلق في بيداء الحياة وحده ، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذى انطلق به القطار ، يوصيه بالرشد ، ويذكّره بما ينفعه أبداً . وكان هذا النبيُّ الطيب ، كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس ، عاود صيحات الإنذار ، واستثار أقصى ما في الأعماق من انتباه ، ثم شاق الهدى والعالم ... وقطع المعاذير المنتحلة ، وانزعج - بعد ذلك - شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا ، وأنه قد بلغ ...

لقد ظل ثلاثاً وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ويتلو على القاصى والدانى آتى الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلبه ، ويفسل أدران الجاهلية التى التاث بها كل شىء ، ويربى من هؤلاء العرب ، الجيل الذى يفقه الحقائق ويفقه العالم فيها ..

وها هو ذا يقود الحجاج في أول موسم يخلص فيه من الشرك ، ويتمحض فيه لله الواحد القهار ..

وها هو ذا ، على ناقته العضباء ، يستنصت الجماهير المائجة ، ليؤكد المعاني التي بعث بها . والتي عرفهم عليها ، ويحلى ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه .

• • •

لقد أجيبت دعوة أبي الأنبياء إبراهيم ، حين هتف وهو بيني البيت العتيق :  
( رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) .

إن العزيز الحكيم تجلى باسميه الجليلين على هذه الديار ، فوهب العزة والحكمة  
أو قل : القوة والسياسة ، لمحمد بن عبد الله ، فعالج بها الآثام الجاثمة على صدر  
الأرض ، فما استعصى على الأناة والحلم ، استكان للتأديب والحكم .

وبهذا المنهج الجامع ، بين العدل والرحمة ، أخذت رقعة الباطل ، تنكش  
رويداً رويداً حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها ، وثبت الإسلام . ثم أصاخ العرب  
بعد ما لان قيادهم - إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع .

• • •

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل :  
( الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ  
الْإِسْلَامَ دِينًا .. ) .

وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال  
إلا النقصان . وكأنه استشعر وفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه .

والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تمنضح بها بعض العبارات التي  
ترد على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، منها ما سبق ذكره في خطبته باليوم .  
ومنها ما يقع في أثناء تعليمه الوفود المحتشدة حوله ، كقوله عند جرة العقبة : خذوا  
عني مناسككم ، فلعلني لا أحج بعد عامي هذا<sup>(١)</sup> .

(١) صحيح رواه مسلم وغيره من حديث جابر للشار إليه آنفاً .

## إلى المدينة

فلما قضى الرسول صلى الله عليه وسلم مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة  
لا ليأخذ حظاً من الراحة ، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله .

إن المبطلين لا يدعون لأهل الحق مهلة يستجمعون فيها .

وأصحاب الرسالات أنفسهم ، لا يستعبدون نشاطهم في القعود عن العمل ، بل  
يستمدون الطاقة على للعمل من الشعور بالواجب .

وراحتهم الكاملة ، يوم يرون بواكير نجاحه دائية القطف !

فقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليعبء جيشاً آخر يقا تل به الروم .  
فإن كهرياء هذه الدولة على الإسلام ، جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن  
تقتل من أتباعها من يدخل فيه .

كان « فروة بن عمر الجذامى » والياً من قبل الروم على « معان » وما حولها  
من أرض الشام « فاعتنق الإسلام » وبعث إلى النبي يخبره بذلك .

وغضب الرومان فجردوا على « فروة » حملة جاءت به وأتت في السجن حتى  
صدر الحكم بقتله ، فضرب عنقه على ماء لهم يقال له : « عفراء » بفلسطين وترك

مصلوباً ، ليرهب غيره أن يسلك مسلكه ! وقيل : إنه لما قدم للقتل قال :

بلغ سراًة المسلمين بأنى سلم لربى ، أعظمى ودمائى

فأعد رسول الله جيشاً كبيراً وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة .

وأمره أن يوطئ الخليل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبنى بذلك  
إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود . حتى لا يحسبن

أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول فى الإسلام يمر على أصحابه  
الحتوف فحسب .

ولما كان « أسامة » شاباً لا يتجاوز الثمانية عشر . فإن بعض الجهال ساءتهم هذه الإمارة ، واعترضوا أن يقود الرجال الكهبار شاباً حدث .

ولا شك أن الذي لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة .

فمن استحق منصباً بكفايته ، قدمه له ، غير مكترث بحداثة سنه .

فإن كبر السن لا يهب للأغبياء عقلاً ، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً .

فما الحداثة عن حلم بمازمة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - رداً على انتقاد الفاقدين - « لئن

طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل ، وأيم الله إن كان خليقاً بالإمارة ، وإن ابنه من بعده خليقاً بها ، وإن كان لمن أحب الناس إلى »<sup>(١)</sup> .

وانتدب الناس يلتفون حول « أسامة » وينتظمون في جيشه .

إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرهتهم على

التريث حتى يعرفوا ما يقضى به الله ...

(١) صحيح أخرجه البيهقي (١٢٤/٨) عن عبد الله بن عمر وصححه الترمذي



(٩)

الرفيق الأعلى

شعر رسول الله بوعكة المرض الذي نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة . وبدأت آلامه مُصدّاعاً حاداً ، عاناه في سكون ، حتى ثقل عليه الوجع ، وهو في بيت زوجته ميمونة . . فلم يستطع الخروج .  
وأذن له نساؤه أن يُمرّض في بيت عائشة ، لما رأين من ارتياحه إلى خدمته .  
فخرج من عند ميمونة بين الفضل بن العباس ، وعلى بن أبي طالب .  
وكان الألم قد أوهى قواه . فلم يستطع مسيراً .  
فانتقل بينهما معصوب الرأس ، تخطّط قدماه على الأرض . . . حتى انتهى إلى بيتها (١) .

وأشدت وطأة المرض على رسول الله ، واتّقدت حرارة العلة في بدنه .  
فطلب أن يأتوه بماء يقبرد به . . . ماء كثير !! أهريقوا على سبع قرب من  
آبار شقي . .

قالت عائشة : فأقعدها في مخضب لحفصة ، ثم صببنا عليه الماء . حتى طفق  
يقول . حسبكم ، حسبكم (٢) . .

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر تخلصت عن بدنه ، استدعى الفضل  
ابن عمه العباس . فقال : خذ يدي يا فضل — وهو موعوك معصوب الرأس —  
قال الفضل : فأخذت يده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . ثم قال :  
نادِ في الناس . فاجتمعوا إليه .

وكانت ظهيرة تظللها السكّابة وتقمرها الرقّة . اشرأبت فيها الأعناق إلى  
الرجل الذي أحيى موات القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم ، من الظلمات  
إلى النور تطلعت إليه الأهلين الحائرة ، فرأته متعباً .

(١) صحيح : رواه ابن هشام (٢/٣٦٦ ، ٣٦٨) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح  
عن عائشة ، ورواه الحاكم (٣/٥٦) من طريق أخرى عنها وصحهما .  
(٢) صحيح ؛ أخرجه ابن إسحاق عن عائشة بسنده السابق . وهو في البخاري  
(٨/١١٥ — ١١٦) ومسلم (٢/٢١ — ٢٢) نحوه .

انهزمت العافية في بدنه الجلد ، أمام سطوة المرض العاتى .  
إلا أنه أخذ يحدسهم ويربهم ، على عهدهم به دائماً . وأنصتوا ، فإذا هم يسمعون  
منه عجباً .. إنه لما أحس بدنواً أجله ، أحب أن يلقى الله و ليس هناك بشر يطلبه بتبعة .  
إنه تحرر العدالة في شئونه كلها لكن من يدري ؟ ربما عرض له سهو مما  
يعرض لبني آدم ، أو خطأ ، فجار ، وهو الذى يبرأ من الجور وذويه ! !

إذن يخُطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. قال :  
« أما بعد أيها الناس : فإني أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو  
فمن كنت جللت له ظهراً ، فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتمت  
له عرضاً ، فهذا عرضي فليستقد منه ! .

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إلى من  
أخذ مني حقاً ! إن كان له ، أحلى منه فلقيت الله وأنا طيب النفس .  
وقد أرى أن هذا غير معن عنى حتى أقوم فيكم مراراً .

قال الفضل : ثم نزل فصلى الظهر . ثم وجع فجلس على المنبر . فعاد لمقاتته الأولى  
في الشحناء وغيرها .

فقام رجل فقال : يا رسول الله : إن لي عندك ثلاثة دراهم ؟ فقال : أعطه يا فضل .  
ثم قال النبي : أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده . ولا يقل : فضوح الدنيا .  
ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة !

فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غلّتها في سبيل الله .  
قال : ولم غلّتها ؟ قال : كنت إليها محتاجاً .. قال : خذها منه يا فضل !  
ثم قال : أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئاً فليقيم أدع له .

فقام رجل فقال : يا رسول الله . إنى الكذاب . إنى لفاحش ، إنى لنؤوم !  
فقال النبي : اللهم ارزقه صدقاً ، وإيماناً ، وأذهب عنه النوم .

ثم قام رجل آخر فقال : والله يا رسول الله إنى لكذاب ، وإنى لمناقق ، وما من شيء إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك . فقال النبي : يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقاً . وإيماناً ، وصبيراً أمره إنى خير (١) .

○ ○ ○

وعاد النبي ﷺ إلى بيته اللاصق بالمسجد لينام في فراش السقام وهو الذى لم يتعود أن يركن إليه أو يهدأ فيه .

كانت هناك مهام كثيرة ، ترتقب صحوه ليبيت فيها ولكن أعباء الأمة حبسته في قيودها ، فلم يستطع منها فكاكا .

وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة تخفف فيها حدة المرض . فإلى المسجد ليلقى نظرات أخيرة على الأمة التى صنعها ، والرجال الذين أحبهم :

هن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً على المنبر فقال :

إن عبداً خيره الله بين أن يؤتية من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله ..

فبكى أبو بكر ثم قال : فدينك بأبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ..

---

(١) ضعيف جداً أخرجه المعقلى في « الضعفاء » والبيهقى في الدلائل من طريق القاسم ابن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس عن أخيه الفضل قال ابن الدبى : عطاء هذا هو عدى عطاء بن يسار ، وليس له أصل من حديث عطاء ابن أبى رباح ، ولا عطاء بن يسار ، وأخاف أن يكون عطاء الخراسانى لأنه يرسل عن ابن عباس . قال الذمى : قلت : « أخاف أن يكون كذباً مختلقاً » وقال الحافظ ابن كثير في التاريخ ( ٢٣١/٥ ) « وفى إسناده ومثنه غرابة شديدة » .

قال أبو سعيد : فتمجبناه ، وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد يخبر ويقول : فدينناك بأبائنا وأمهاتنا !

قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الخبير ، وكان أبو بكر أعلمنا به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أمنَّ الناس على في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام .

وفي رواية : ولكن صحبة ، وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده .. (١)

وحدث في أثناء المرض أن صرت أوقات هادئة ، خيلت لمحيي الرسول صلى الله عليه وسلم أن أمانهم في عافيته نجحت ، وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه في سبيل الله ، وليظل محبوبم بعطفه وحرصه وإيناسه ورحمته .

فمن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن ابن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه الذي توفي فيه .

فقال الناس : يا أبا حسن ، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً .

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى ؟ إنك بعد ثلاث عبد العصا وإني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى في وجهه هذا ، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ..

---

(١) صحيح ، أخرجه البخاري ( ٧ / ٩ — ١٠ / ١٨٢ ) والسياق له ، ومسلم ( ١٠٨ / ٧ ) عن أبي سعيد ؛ والرواية الأخرى عند ابن هشام ( ٢ / ٣٦٩ ) عن ابن إسحاق بسنده عن بعض آل أبي سعيد بن المعلی . وهو ضعيف لجهالة هذا البعض وقد رواه أحمد ( ٤ / ٢١١ — ٢١٢ ) من طريق ابن أبي المعلی عن أبيه . ورجله ثقات غير الابن المذكور فلم أعرفه وقد قال ابن كثير ( ٥ / ٢٣٠ ) . وقالوا ؛ صوابه . « أبو سعيد بن المعلی » .

فأذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيراً ، قال علي : والله لئن سألتها رسول الله ففنعناها لا يعطيناها الناس أبداً ، والله لا أسأله رسول الله أبداً<sup>(١)</sup> .

وظاهر أن العباس يعني الخلافة ! فقد شعر الرجل بأن النبي في مرض الموت ، وخبرته بأقرب حين يحتضرون جعلته صادق الحدس في تبين مصايرهم .

ولما كان عميد بني هاشم ، فقد أمله أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد اتجه إلى علي بيته مسكون نفسه لأن عاياً - بسابقتها وكفايته ومنزله في الناس ، وموضعه من الرسول - يعد أول بني هاشم ترشيحاً لهذا الأمر .

بيد أن علياً كره أن يكلم النبي في ذلك ، وآثر ترك الأمر للجمهور المسلمين . وكان النبي نفسه قد هم بكتابة عهد يمنع شغب الطامعين في الحكم ، ثم بداه فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم ، ينتخبون لقيادتهم من يحبون<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

وزادت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعانى من برحائه ألماً مضاعفاً ، حتى تأذت فاطمة ابنته من شدة ما يلقي ، فقالت : وا كرب أبتاه ! فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ..<sup>(٣)</sup>

وترامت الأخبار إلى جيش أسامة ، فشاع الحزن والاضطراب في صفوفه عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل رسول الله ، هبطت وهبط

(١) صحيح ، أخرجه البخاري (١١٦/٨ - ١١٧) .  
(٢) يشير إلى حديث ابن عباس مرفوعاً : هلموا أكتب لكم كتاباً ... أخرج

البخاري (١١٠/٨) .

(٣) صحيح ، رواه البخاري (١٢١/٨) وغيره عن أنس .

الناس معي إلى المدينة ، فدخلنا على رسول الله وقد أصبحت لا يتكلم ، فحُبل برفع يده إلى السماء ثم يضعها على ، ففرقت أنه يدعولي (١) .

وأغنى عليه مرة فله أهله ، فلما أفاق كره ذلك منهم (٢) .

وكان إلى جواره قد ج فيه ماء ، يعمس فيه يده ثم يمسح وجهه بالماء ويقول اللهم أغني على سكرة الموت (٣) .

وحين عجز النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بالناس ، استقدم أبا بكر ليؤمهم .

فحشيت عائشة أن يكره الناس أباها ويتشاءمون من طلعه .

فقلت : إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقيم مقامك لا يطيق !

فقال : مرو أبا بكر فليصل بالناس .

فكررت عائشة اعتراضها . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

إنكن صواحب يوسف . مرو أبا بكر فليصل بالناس (٤) .

وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة .

وهذه الأيام التي تخلف فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يؤم المسلمين ،

كانت من أشد الأيام ثقلا عليه . وصح عنه أنه قال : إني أوعك كما يوعك  
الرجلان منكم (٥) .

(١) صحيح : رواه الترمذى (٣٥٠/٤) وحسنه وابن هشام (٣٧٠/٢) .

(٢) صحيح رواه البخارى (١٠٢/٨) عن عائشة .

(٣) ضعيف أخرجه الترمذى (١٢٨/٢) وغيره من طريق موسى بن سرجس عن القاسم بن محمد عن عائشة . وقال : «حدث غريب» يعنى ضعيف لأن موسى هذا لم يوثقه أحد فهو مجهول .

(٤) صحيح أخرجه البخارى (١٢٠/٢) ومسلم (٢٠/٢ - ٢٤) عن عائشة .

(٥) أخرجه الشيبان وغيرهما عن ابن مسعود .

ومع فيح الحلي وحدة مسما لبدنه ، فقد ظل يقظ الذهن ، مهموماً بتعاليم  
الرسالة ، حريصاً على تذكير الناس بها .

وكان يخشى أن ترتكس أمته ، فتتعلق بالأشخاص و «الأضرحة» كما  
ارتكس أهل الكتاب الأولون .

وشدته في إخلاص التوحيد لله هي التي جعلته ، وهو يعالج سكرات الموت ،  
برهـب المسلمين من هذا المزلق .

عن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح  
خميصة له على وجهه فإذا اغتم ، كشفها عن وجهه فقال - وهو كذلك - «لعنة الله  
على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا (١) - » .

وكان يخشى أن تعطب شهوات النفي والكبر على أمته .

فإن الذين يتبعون شهوات النفي ، ينسون الصلاة ، والذين يتبعون شهوات  
الكبر ، يظنون على ما تحت أيديهم من خدم ومرءوسين ورقيق .

والأمة التي تستبد بها هذه الشهوات ، لا تصلح للحياة ، ولا تصلح بها حياة .  
ومن اليسير أن يتركها الله تلتقي جزاء ما تصنع ، وهو خزي الدنيا ، وعذاب  
الآخرة .

هذه الخشية ، حملت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن  
ينبه المسلمين إلى معاهد الخير ليمسكوا بها .

عن أنس بن مالك قول : كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين



حضره الموت - الصلاة وما ملكت أيمانكم . حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرغرها صدره ، وما يكاد يفيض بها لسانه (١) .

• • •

وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب في أيامه الأخيرة فتحامل على جسمه المنهوك ، وانسل إلى المسجد من حجرة عائشة ، فصلى بالناس وهو قاعد .

قال ابن عباس : لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ثم وجد خفة فخرج .

فلما أحس به أبو بكر ، أراد أن ينكص ، فأوماً إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر فكان أبو بكر يأتهم بالنبي ، والناس يأتون بأبي بكر (٢) .

على أن أبا بكر ظل يصلى بالناس هذه الأوقات التي مرض فيها رسول الله صلى

---

(١) صحيح ؛ أخرجه ابن ماجه (١٥٥/٢) . واحمد (١١٧/٣) وغيرهما عن قتادة عن انس ، وفيه خلاف على قتادة بينه الحافظ ابن كثير في « البداية » ( ٢٣٨/٥ ) — ( ٢٣٩ ) وذكر عن البيهقي انه قال : « والصحيح ما رواه عقاب عن ممام عن قتادة عن أبي الخليل عن سفينة عن أم سلمة به » قلت : وهذا سند متصل صحيح . وله شاهد من حديث علي نحوه رواه ابن ماجه واحمد ( رقم ٥٨٥ ) وإسناده صحيح .

(٢) صحيح ؛ أخرجه احمد ( ٢٠٥٥ ؛ ٢٣٣٠ ؛ ٣٣٥٥ ) وابن ماجه ( ٤٨٣/١ ) من طريق أبي إسحاق عن الأرقم بن شرحبيل عن ابن عباس ، ورجاله ثقات لكن أعله البوصيري بأن أبا إسحاق — وهو السبيعي — اختلط بآخره عمره وكان مدلساً وقد رواه بالعمنة ، قلت . لم يكن تابعه عبد الله بن أبي الشر — إلا انه قال ؛ عن ابن عباس عن العباس ؛ حله من سند العباس وهذا اختلاف يسير لا يضر في صحة الحديث لإن شاء الله ؛ وقد رواه عن هذا الوجه احمد أيضاً ( ١٧٨٤ ؛ ١٧٨٥ ) .

صلى الله عليه وسلم حتى صبيحة اليوم الذي قبض فيه وكان الرسول معلق القلب بشئون أمته .

وكان الله أراد أن يطمئنه على كمال انتيادها وحسن اتباعها ، فأشهدته آخر وقت حضره وهو في الدنيا ، إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الاثنين الذي قبض فيه ، واصطفوا لصلاتهم خشعاً محببتين ، وراء إمام رقيق التلاوة فياض الإخلاص ، ورفع النبي صلى الله عليه وسلم الستر المضروب على منزل عائشة ، وفتح الباب وبرز للناس .

فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم ابتهاجاً برويته ، وتفرجوا يفسحون له مكاناً فأشار بيده : أن اثبتوا على صلواتكم ، وتبسم فرحاً من هيئتهم في صلاتهم . قال أنس بن مالك : ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة (١) .

ثم رجع وانصرف الناس ، وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجهه . واطمان أبو بكر لهذا الظن ، فرجع إلى أهله بالسنح - في ضواحي المدينة (٢) . قالت عائشة : وعاد رسول الله من المسجد ، فاضطجع في حجرى .

ودخل علينا رجل من آل أبي بكر في يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله إلى يده نظراً عرفت منه أنه بريده . فأخذته فألنته له ثم أعطيته إياه . فاستن به كأشد ما رأيت به يستن بسواك قبله ، ثم وضعه . ووجدت رسول الله يثقل في حجرى .

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (١٠/٢ - ١٣١ - ٨ / ١١٧) ومسلم (٢ / ٢٤ - ٢٥) وغيرهما عن أنس بنعوه ؛ ورواه ابن هشام (٣ / ٣٧٠ - ٣٧١) عن ابن إسحاق عن الزهري عن أنس بلفظ الكتاب . وفيه انتطاع .  
(٢) هو من تمام حديث أنس عن ابن إسحاق .

فذهبت أنظر في وجهه .

فإذا نظره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

قلت : خيرتَ فاخترت ، والذي بعثك بالحق ..

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

\* \* \*

وتسرب النبا الفادح من البيت المحزون ، وله طنين في الأذان . وثقل ترزح  
تحته النفوس ، وتدور به البصائر والأبصار .

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت ، فتركتهم لوعة الشكل حيارى ،  
لا يدرون ما يفعلون .

ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وهبه - يقول : إن رجالا  
من المناققين بزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، وإن رسول الله مامات  
ولسكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فتاب عن قومه أربعين ليلة .  
ثم رجع بعد أن قيل قد مات ..

والله ليرجمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم  
يزعمون أنه مات !

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس .  
فلم يلتفت إلى شيء . حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة  
وهو مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة .

---

(١) صحيح ؛ رواه ابن هشام ( ٢/٢٧١ ) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح - عنها  
وهو في البخاري ( ٨/١٠٧ ، ١١١ - ١١٢ ؛ ١١٣ ؛ ١١٧ ؛ ١١٨ ) نحوه مفرداً ..  
وهذا آخر حديث في الكتاب . وبه ينهى التخريج والحمد لله على توفيقه وسبعاذك اللهم  
وبحمدك أشهد ان لا إله إلا انت ؛ استغفرك وانتوب إليك .

فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي  
أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن بصيبيك بعدها موت أبداً .  
ورد الثوب على وجهه ، ثم خرج وعمر يسلم الناس ، فقال : على رسلك  
يا عمر فأصت .

لكن عمر ظل مهتاجاً مندفعاً في كلامه .

فلما رآه أبو بكر كذلك ، أقبل على الناس وشرع يتكلم ، فلما سمعه الناس  
انصرفوا عن عمر وأقبلوا عليه .

وحد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً ، فإن  
محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ • أَفَأَنْ مَاتَ  
أَوْ قُتِلَ أُنْقِلْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فإِنَّ بَصُرًا لِّلَّهِ  
شِينًا • وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

## خاتمة

لم تمض أيام معدودات على وفاة الرسول حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيب مع الوثنية التي عاودتها الحياة فجأة ، والصليبية الرابضة في شمال الجزيرة تمنع الدخول في الإسلام وتحبط دعايته بالقوة .

ولم تشهد الصحراء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مثيلاً له — هذه للمعارك الطاحنة .

فقد اتسعت ميادينها ، وتتابعت أممادها ، وفدحت مغارمها ، وكثرت ضحاياها . إلا أن الرجال القدين رباهم محمد صلى الله عليه وسلم على معرفة الحق والقضاء فيه ، صدقوا الله في عملهم ، ونمضوا كأعتى الأبطال بالأتقال الباهظة التي رُموا بها . ضربوا الوثنية في الجزيرة ضربة كسرت فقارها ، واعتصرت روحها ، فهمدت إلى الأبد .

وطردوا الرومان عن الحدود التي تمردوا بها ، وتجرؤوا فيها . ثم عادوا إلى المدينة لا ليستجمشوا ، بل لينتشروا خلال المعمور من أرض الله يؤمئذ ، في نظام رتيب ، وبوحى شريعة محكمة . وما هي إلا سنوات قلائل ، حتى كان الاسلام ملء البر والبحر ، ملء السمع والبصر .

والآن وقد مرت قرون أربعة عشر على هذه الحقبة الزاهرة . إن الإسلام — بعد مجد كبير — لا يحكم أمتة فضلاً عن أن يوجه العالم إلى برٍّ يذكر أو خير يشكر .

والأديان الأخرى تعيش على هامش الحياة .  
فالحضارات القائمة أو المتربصة ، لا تمكن الدين من زمامها .  
والوثنية في الهند وفي الشرق الأقصى وفي بقاع أخرى لا تزال تظلل الجوانب  
الداكنة من حياة العامة ومسالك الجماهير .

واليهودية تنحاز بأبنائها جانبا ، تنغرس في قلوبهم الحقد على البشر ، والنفاذ  
من خلل الصفوف المتناحرة بأكبر غنم لإسرائيل .  
أما الصايبية ، فهي كالنبات المتسلق في خط الإستواء .

تعتمد في بقائها على الالتحاق بالفلسفات السائدة والنظم النالبة ، كي تضمن  
حياة أى حياة ، لدعائمها الأولى من تراث وثقافة قرايين .

والمسلمون سرت لإيهم لوثات الاحتراف والتعلق بالقشور والمراسم .  
وردتهم رذائل الضعف والجهالة ، إلى أحوال أشبه بما كان يسود اليهود  
والنصارى على عصر النبوة والخلافة الراشدة .

وقلة يسيرة منهم ، هي التي بقيت إلى يوم الناس هذا ، تغالب الجاهلية  
وتتشبث بالحق .

وإذا كان مما يعين على الأمل أن الإسلام ظل من الناحية العلمية محفوظا في  
مصدره الخطيرين : الكتاب والسنة ، فإن هذا العلم المصون لا يفتى أبدا عن العمل .  
على أن الذين يعملون للإسلام عملا صحيحا ، يلقون مقاومة عنيفة من شتى  
الجبهات الأخرى ، أعنى الجبهات التي قاومت امتداده من أربعة عشر قرنا ، ولم  
تبرد عداوتها له يوما !!

\* \* \*

قد يسأل سائل : هل العالم اليوم بحاجة إلى هذا الإسلام ؟  
ونقول : إذا كان العالم بحاجة إلى أن يعرف الله ويستمد لثقافته ويقدم حسابا  
على ما أدى في هذه الدنيا فلا بد له من الإسلام .

إن الارتقاء المادى ، لا يقنى فتيلاً عن التقيد بهذه الحقائق الكبيرة .

قد يقال : لسكن من الناس من لا يؤمن بإله قائم أو يوم آخر .

ومهم من يؤمن بذلك على نحو غير ما جاء به الإسلام .

فدعوا الناس وما يرون . .

ونقول : لير الناس ما يشاءون ، ولسكن ليس من حق العميان أن يخلعوا عيني

المبصر ، أو يضيئوا عليه الخناق ، لأنه يرى ما لا يرون !

فليدعوه يمشى بهدى بصره ، وليدعوه كذلك ، يصف ما يرى في طريقه

وما يتوقع .

فمن تبعه من غير استكراه ، فلينطلق معه ، وإلا فليدعه ، وليرفع من أمامه

العوائق ، وذلك ما يفيه الإسلام فحسب . .

إن المبطلين يكرهون الإسلام لأنه حق ناطق ، يجادل عن نفسه ، ويستعلن

بما فيه ، ويرفض أن يتوارى أو يصمت .

هذه الخاصة في الإسلام ، خاصة إحقاق الحق وإبطال الباطل ، أزججت أعداءه

وجعلتهم يمتشقون له التهم .

فإذا رفض المهادنة ، فهو مهاجم ، وإذا أبى أن يموت أمام كيد الخصوم ، فهو

ينتشر بالإكراه !

وذاك سر الخرافة التي راجت ، أن الإسلام ساد بالسيف .

والإسلام إنما امتشق الحسام لينجو به من غوائل الرعاع والقطاع .

ولو ترك من غير ترويع ، ما أثقل عاتقه برمح ، ولا كتفى من اللسان باللسان

نعم ، إنه كان في هذه السبيل صارماً . .

وهل ينتظر منه إلا ذلك في ملاقاته خصوم يجرون ورائهم كبرياء القرون

الطوال وتمصّبها ؟ وضلالات تحتوى وراء غابات متشابكة من الرجال والسلاح ؟

إياه لولا هذه الصرامة ، ما بقيت أصوله العلمية والنفسيه سليمة إلى اليوم .  
فإن الديانات التي ضعفت قبله ، أفلح أعداؤها في جرها عن أصولها جراً شنيعاً  
فلم تعد إلى قواعدها سالمة .. ؟

أما الإسلام ، فإنك واجده اليوم ، ولو في كتابه ، إن لم يكن في أصحابه .

\* \* \*

قد تظن أنك درست حياة محمد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من  
المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأ بالغ ، إنك لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن  
بالحكيم والسنة المطهرة .

وبقدر ما تنال من ذلك ، تكون صلتك بنبي الإسلام ...



# فهرس

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١٠٧	عمار بن ياسر	٣	مقدمة
١٠٨	بلال	٩	حول احاديث هذا الكتاب
١٠٩	خبيب	١٥	رسالة وإمام
١١١	مفاوضات	١٦	الوثنية تسود الحضارات القديمة
١١٥	الهجرة إلى الحبشة	٢٠	طبيعته الرسالة الخاتمة
١٢١	إسلام حمزه وعمر	٢٤	العرب حين البعثة
١٢٣	المقاطعة العامة	٢٧	رسول معام
١٢٨	عام الحزن	٤٦	النبي وخوارق العادات
١٣٠	في الطائف	٥٧	من الميلاد إلى البعث
١٣٤	الإصرام والمعراج	٦٣	شق الصدر
١٣٩	حكمة الإصرام	٦٨	بجيرا الراهب
١٤٠	لإكمال البناء	٦٩	حياة الكدح
١٤٢	سلامة الفطرة	٧٤	حرب الفجار
١٤٣	فرض الصلاة	٧٤	حلف الفضول
١٤٤	قريش والإصرام	٧٦	قوة ونشاط
١٤٦	الهجرة العامة: مقدماتها ونتائجها	٧٨	خديجة
١٥١	فروق بين البلدين	٨١	السكبة
١٥٣	صنع اليهود	٨٥	باحثون عن الحق
١٥٤	بيعة العقبة الأولى	٨٨	في غار حراء
١٥٦	بيعة العقبة الكبرى	٩٠	ورقة بن نوفل
١٦٣	طلائع الهجرة	٩٣	جهاد الدعوة
١٦٧	في دار الندوة	٩٦	إلام يدعو الناس؟
١٦٨	هجرة الرسول	٩٨	الرعيلى الاول
١٧١	درس في سياسة الامور	١٠٠	إظهار الدعوة
١٧٢	في الغار	١٠٣	أبو طالب
١٧٤	في الطريق إلى المدينة	١٠٦	الاضطهاد
١٧٦	دعاء		

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣٦٨	مع اليهود مرة أخرى	١٧٩	الوصول إلى المدينة
٣٧٩	عودة مهاجري الحبشة	١٨١	الاستقرار بالمدينة
٣٨١	تأديب الأعراب	١٨٧	أسس البناء للتجمع الجديد
٣٨٤	مكانة الموك والامراء	١٨٩	المسجد
٣٩٣	عمرة القضاء	١٠١	الأخوة
٣٩٥	غزوة مؤتة	١٩٥	غير المسلمين
٤٠١	ذات السلاسل	٢٠٠	المصطفون الاخير
٤٠٥	الفتح الاعظم	٢٠٥	معنى العبادة
٤٢٠	معركة حنين	٢١٢	قيادة تهوى إليها الأفتدة
٤٢١	هزيمة	٢٢١	الكفاح الدامى
٤٢٣	الثبات والنصر	٢٢٧	سرايا
٤٢٥	الغنائم	٢٢٩	عمره عبد الله بن جحش
٤٢٨	حكمة هذا التقسيم	٢٣٢	معركة بدر
٤٣٠	عودة وفد هوازن	٢٥٠	محاسبة وعتاب
٤٣١	حصار الطائف	٢٥٥	في أعقاب بدر
٤٣٢	إلى دار الهجرة	٢٥٧	بدء الصراع بين اليهود والمسلمين
٤٣٤	موقف المتأفقين	٢٦٤	مناوشات مع قریش
٤٣٥	تيوك ز رجب	٢٦٨	معركة أحد
٤٤٣	المخلفون	٢٨٠	عبر المحنة
٤٤٧	مسجد الضرار	٢٨٩	شهداء أحد
٤٤٩	طليعة الوفود	٢٩٤	آثار أحد
٤٥٢	حج أبى بكر	٣٠١	إجلاء بنى النضير
٤٥٥	وقد للاميين ووفد لأهل الكتاب	٣٠٥	بدر الآخرة
٤٦٤	امهات المؤمنین	٣٠٦	دومة الجندل
٤٨٤	استقرار	٣١١	حديث الإفك
٤٨٦	حجة الوداع	٣١٦	غزوة الأحزاب
٤٩١	إلى المدينة	٣٣٥	مع قريظة
٤٩٣	الرفیق الأعلى	٣٤٧	طور جديد
٥٠٥	خاتمة	٣٤٨	عمرة الحديبية